ف

نبذة تاريخية

في

أصل الطائفة المارونية

واستقلالها بجبل لبنان من قديم الدهر

حتى الآن

للمطران يوسف دريان

رئيس أساقفة طرسوس شرفاً

والنائب البطريركي الماروني في القطر المصري وظيفةً

عُني عنه

طبعة ثالثة منقحة

في المطبعة العلمية ليوسف ابرهيم صادر • بيروت • ١٩١٩

توطئة

للطبعة الثالثة من هذا الكتاب

انا قد نشرنا هذا الكتاب بالطبع مرتين في مصر اثناء الحرب العامة التي غبرت الآن باذن الله ولم تعبر ارزاؤها وويلاتها بعد . وقد اصلحنا في الطبعة الثانية منه ما عنّ لنا اصلاحه مع زيادة بعض الفوائد التي رأينا ان لا بد منها لمزيد الاستفادة والالمام بكل الموضوع الذي توخيناه في تأليفه .

وقد نفدت من مدة كل نسخه في القطر المصري وفي سائر جهات المهجر حيث تسنى لنا ايصاله في خلال تلك الايام السوداء (لا اعادها الله على البشرية) قصد تعميم الفائدة المطلوبة وتعريف الطائفة المارونية باصلها وتاريخها المدني المجيد ووطنها لبنان المنيع مذ الدهر وهو مرجعها وموئلها الحقيقي واليه نسبتها كيفما تقلبت الاحوال والظروف .

ولم نستطع ان نذيعه هاتيك الايام في هذا الوطن العزيز لما لا يغرب عن اللبيب من الاسباب القاهرة ، بيد ان انا ارسلنا منه بعض النسخ من الطبعة الثانية الى بعض الاخوان بعد وقوع الهدنة والفرج الشامل بحسن توفيقه تعالى فشاع ذكره دون ان يراه غير القليلين .

ومن ثم فقد الحّ علينا غير واحد من الادباء في اعادة طبعه هنا في بيروت لئلا تفوت ابناء الوطن فوائده . وقد اعدنا الآن طبعه تلبية لرغبتهم بعد اعمال الفكر في تنقيحه ثانية بقدر الامكان رغم ما نحن عليه من التعب والاعتلال على امل ارضاء الجميع . والله في كل حال حسبنا واليه ننيب .

مقدمة الكتاب

لقد نُشر بالطبع في باريس هذه الايام العصيبة كتاب غير صغير الحجم بلغة الفرنسيين الفصحى تحت عنوان « سورية الغد » منسوب الى كاتب سوري غير مجهول المقام في عالم السياسة (١): وقد طرق به موضوعاً دقيقاً من المواضيع الرائجة في هذه الظروف الحرجة: مما نبهت الخواطر اليه هذه الحرب الضروس لانه سيكون من بعض مواضيعها المبتغاة .

وقد وقع لنا نسخة منه طالعناها بامعان فوجدناه والحق يقال لا يخلو من الفائدة . بيدَ اننا قد اسفنا كما اسف غيرنا من العقلاء اشد الاسف على ما دس فيه من الترهات والاغراض الخصوصية التي من شأنها ان تشوّه محيا الحقيقة وتقلل من قيمة الكتاب وتزيد في التفريق بين العناصر السورية في وقت نحن احوج فيه الى الانضمام والوئام منا الى التنافر المشئوم والتباين المذموم والتراحم الغير المعقول الذي كان في كل زمان ومكان آفة الرقي والعمران: كما لا يغرب عن ذي بصيرة .

ذلك فضلاً عما توخاه من التحامل البليغ على بعض السلف الطاهر من كرام اللبنانيين كالامير بشير الشهابي المعروف بالكبير: والحميد الذكر والآثار البطريرك يوسف حبيش وهو من خيرة بطاركة الطائفة المارونية: ويوسف بك كرم البطل اللبناني الشهير: وغيرهم ممن طبق ذكرهم الافاق بالحمد والثناء ولا يزال اللبنانيون يفاخرون بهم وباعمالهم العظيمة وهم اولى الناس بمعرفتهم وتعريفهم .

(١) هو المرحوم ندره بك مطران الشهير

وليس من غرضنا في هذه العجالة انتقاد كلامه الذي من هذا القبيل ولا رد سهامه التي سددها الى مثل هؤلاء الاقطاب: فان التواريخ الحقيقية الراهنة تتكفل بذلك . ومن ثم فاننا نكل الى اهل الذوق السليم فالى اهل النقد والقياس ممن ينقرون وينقبون عن الحقائق التاريخية في مظانها ليحكموا حكمهم العادل بينه وبينهم .

الا ان هذا الكاتب قد فتح لنا مجالاً واسعاً للدخول في موضوع تاريخي مهم بقدر ما هو مجهول عند من نريد ان يكونوا على معرفة تامة منه . الا وهو اصل اللبنانيين الحقيقي واستقلالهم في جبل لبنان من قديم الدهر حتى الان: وهو ما انكره عليهم صاحب هذا الكتاب كل الانكار خاصة في مستهل الباب الثاني عشر منه .

وهذا ما حدا بنا على ضيق اوقاتنا وقصر يدنا في هذه الظروف عن الوصول الى كل المستندات التاريخية الراهنة الى وضع هذه العجالة . وقد قصرنا بها كلامنا على الطائفة المارونية واصلها واستقلالها الذاتي او النوعي في مواطنها من جبل لبنان تاركين الكلام في امر كل طائفة من الطوائف المستوطنة في هذا الجبل المبارك لاربابها لان صاحب البيت (على ما جاء في المثل السائر) ادرى بالذي فيه: وهم اولى بالبحث والتنقيب عن اصل طوائفهم وتواريخها من كل وجه باخلاص نية .

فاذا احسنا ونحن كما يعلم الله لم نقصد غير الاحسان فحسبنا: والا فلنا من كرم اهل الذوق السليم عذر لاننا اول من طرق هذه القضية تعمداً ودخل في هذا السبيل الوعر المسالك على قلة ما بين ايدينا من المراجع التي عليها المعوَّل وكم ترك الاول للاخر:

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها * كفى المرء نبلاً ان تعد معائبه

ومن ثم نقول وبالله المستعان:

تمهيد

في معاني الاستقلال

الاستقلال في الاصل انما هو مصدر لفعل « استقلّ » الثلاثي المزيد فيه من وزن استفعل . وله في اللغة « كما جاء في محيط المحيط » معانٍ متباينة : منها — استقل الشيء حمله ورفعه : وهو من القلة اي اعلى كل شيء — واستقله عده ورآه قليلاً — واستقل الطائر في طيرانه ارتفع — والنباتُ اناف — والقومُ ذهبوا وارتحلوا — والرجلُ غضب — واستقلت الرعدة فلاناً ارعدته — واستقل الرجل برأيه استبدّ به — والوالي بولايته تفرد بها ولم يشركه فيها غيره .

وعن اقرب الموارد — واستقل الرمح بالظل اي بلغ ظل الرمح المغروس في الارض ادنى غاية القلة والنقص : وذلك عند انتصاف النهار . وفي ذيله — استقل بالامر اطاقه : يقال هو لا يستقل بهذا اي لا يطيقه — واستقلت السماء ارتفعت — واستقل فلان غضباً شخص من مكانه لفرط غضبه — وهو مستقل بنفسه « بكسر القاف » اي ضابط امره .

وهذا كل ما ورد من معانيه في كتب اللغة التي بينّ ايدينا : وانت ترى انه لا يوافقنا منها في بحثنا هذا ولو بعض الموافقة الا قوله — استقل فلان برأيه : والوالي بالولاية : وهو مستقل بنفسه — وهذا على ما نرى ليس باصل وانما قرره العرف الدارج من وجه الاستعارة بين الذين يتكلمون عادة بهذه اللغة .

ولفظة « الاستقلال » في بحثنا هذا انما تشير الى غير ذلك في عرف السياسيين اليوم ولو أُخذت من المعاني الثلاثة الاخيرة التي لها . ومن المعلوم ان معاني الكلمات تقرر غالباً بحسب المواضيع الرائجة بين الناس وتحوّل في تعريفها الى ما تحتاج اليه هذه المواضيع في بيانها وتحديدها

ولم يكن حتى العصر الذي وضعت فيه معجمات اللغة من كلام في الشرق عن استقلال امة برمتها او فريق من الناس في ارض بلاده وحدودها ليحكم نفسه بنفسه على شرائط مقررة او دون شرط . وجل ما كان هناك ان ملكاً او اميرًا او عاهلاً يتولى امر الامة او القبيلة او الشعب بالاستبداد فيسن لهم الشرائع على ايثاره : ويضرب عليهم الضرائب على هواه : ويقودهم الى الغزو او الحرب صاغرين دون ان يعرفوا السبب او الغاية منها : ويعقد الصلح متى شاء وكيفما شاء دون معارض والموت والحياة بين شفتيه مستبداً في رعيته استبداد المولى بعبيده : حتى توصل بعضهم الى تأليه ملوكهم وعبادتهم دون اقل التفات الى صفاتهم السافلة ورذائلهم واعمالهم المقوتة .

اجل ان مثل هذه الممالك او القبائل كانت تعد مستقلة على نوع ما بحدود ارضها ومرافقها . ولكن لم يكن ليصح عليها معنى الاستقلال اليوم لان ملكها او اميرها او عاهلها او بالجملة من يتولى امرها انما هو الذي كان في الحقيقة ونفس الامر مستقلاً بها بمعنى الاستبداد . وكانت تعد المملكة بما فيها كلها له يتصرف بها تصرف المالك بملكه دون منازع : ولو كان له وزراء ومستشارون وولاة وقضاة الخ فان هؤلاء كان يسميهم هو وينصبهم ويعزلهم ويكرمهم وينكل بهم متى شاء وكيفما شاء . ولهذا لم يكن لهم الحرية ان يتصرفوا بوظائفهم الا على هواه . وربما تزلف بعضهم اليه من باب المالقة فزين له اموراً على

ميله ما نزل بها من سلطان.

ولهذا كانت لفظة « الاستقلال » في تلك العصور تدل على غير ما تدل عليه هذه الايام عند ما يطلب قوم او شعب الاستقلال البديع الذي اضحى كل الناس يحلمون به خاصة بعد هذه الحرب الضروس التي كادت تشمل العالم اجمع بويلاتها واثقالها ومصائبها: ثم بالامال في النتائج الباهرة التي ستأتي عنها واخصها تحرير الشعوب والامم الضعيفة من استبداد المستبدين على اشكالهم:

فالاستقلال اليوم اذن قد اتخذ معنىً آخر جديداً لم يكن له في ما بين ايدينا من معاجم اللغة على ما رايت . وهو اما ان يتفق قوم يقطنون ارضاً واحدة على حكم ذاتهم بذاتهم في داخليتهم دون مرجع اعلى يرجعون اليه في الخارج : وهذا ما يقال له الاستقلال التام او المطلق. او بحيث يكون لهم مرجع يرجعون اليه عند المشاكلة في امورهم الداخلية والمحافظة على حقوقهم ومرافقهم في امورهم الخارجية: وهذا ما يقال له الاستقلال النوعي او الذاتي او الداخلي او الخاص القيد بشروط مقررة بين الشعب المستقل على هذا الشكل وبين مرجعه الايجابي او جسم المملكة التي يعد جزءاً منها.

هذا من الوجهة النظرية : اما من الوجهة العملية فسبيلنا ان ننظر الى ما قرره معجم السياسة الاوربية الذي وضعه قادة الشعوب في الغرب لمعنى هذا الاستقلال على اشكاله ومحصته ثورات الامم والعناصر حتى تقررت حدوده وشروطه في ضمن قواعد وقوانين ومعاهدات مشهورة عند الساسة العظام . وانما نحن في الشرق قد شرعنا نأخذ ذلك عنهم على سبيل الاقتداء . ولهذا يلزمنا ان نتقيد بما وضعوه له فقد قالوا :

ان الامة او المملكة تكون مستقلة استقلالاً تاماً او مطلقاً متى وجدت فيها هذه العلامات الثلاث المميزة والجوهرية وهي :

اولاً ان تكون معروفة لدى الممالك او الدول الاخرى مستقلة في امورها الداخلية والخارجية.

ثانياً ان يكون لها الحق ان تشهر حرباً او تعقد صلحاً مع الدول الاخرى.

ثالثاً ان يكون لها علاقات سياسية مع غيرها من الدول او الممالك الاخرى

وهذا ما يقال له في لغتهم.

Indépendance absolue ou Parfaite.

اما الاستقلال النوعي وهو ما يقال له عندهم : « autonomie » بمعناها الاصطلاحي (لان معناها الاصلي انما هو ما يوافق عندنا الاستقلال بالنفس او ادارة المرء اموره على هواه) فهو على ضروب شتى: وبالجملة فهو يطلق على جماعات من كل جنس تضمها ارض واحدة بحدودها المقررة متصلة بجسم المملكة الكبرى في الامور العمومية ولو اتصالاً معنوياً . الا ان لها نظامات خصوصية داخلية اقل او اكثر اتساعاً بحسب ما تخولها من الحقوق والامتيازات الخاصة المملكة او الدوله التي ترجع اليها وتكون جزءاً منها : بحيث لا تكون مستقلة استقلالاً تاماً او مطلقاً حتى ولا في نظامها الداخلي الذي للمملكة او الدولة المسيطرة حق الاشراف عليه ايضاً.

على ان هذا الاستقلال النوعي قد يكون بالغاً اقصى حد من السعة بحسب النظامات الداخلية التي توضع له . فالمستعمرات الانكليزية مثلاً لها استقلال داخلي او نوعي لا يقف الا عند حد حرمانها من حق شهر

الحرب واجراء المخابرات السياسية مع الدول الاخرى رأساً وضرب النقود. وكذلك الممالك والامارات الصغرى التي تتألف منها الامبراطورية الالمانية : والولايات المتحدة التي تتألف منها الجمهورية الاميركية الشمالية الكبرى . فلكلٍ من هذه الممالك والامارات الصغرى والولايات المذكورة استقلال نوعي (autonomie) مخصوص اقل او اكثر اتساعاً على ما هو مشهور ويصح لكل احد ان يعرفه بالرجوع الى مظانه .

هذا وقد تكون حدود هذا الاستقلال اضيق كثيراً من ذلك بحيث يقتصر فيه على تدبير الشؤون المحلية وامور البلديات وهذا ما يقال له اذ ذاك الاستقلال الاداري : وفي لغتهم autonomie administrative وقد يخول للمدن وبعض البلدان التي يصلح لها وتصلح له .

فاذا تقرر ذلك كان استقلال لبنان الذي توخينا اثباته في هذا الكتاب على وجهين : فالوجه الاول وهو الاستقلال التام او المطلق على حسب معناه في العصور الحالية يتناول تاريخه من اول الامر الى دولة الاسكندر الكبير او السلوقيين : اذ كانت فيه الممالك الصغرى المعروفة بالفينيقية مستقلة احداها عن الاخرى استقلالاً تاماً في كل شيء : كمملكة جبيل ومملكة بيروت ومملكة صيدا ومملكة صور الخ . وقد تسلط على هذه الممالك المصريون اولاً ثم الاشوريون اذ غلبوهم على امرهم في حروب طاحنة وفرضوا عليهم الجزية وتركوهم وشأنهم دون ان يعارضوهم في ممالكهم واستقلالها بحيث بقيت غالباً على ما كانت عليه قبل انغلابها للغزاة .

والوجه الثاني وهو الاستقلال النوعي على اشكاله فقد كان للبنان

منذ عهد السلوقيين الى الرومانيين فالعرب تارة واسعاً واخرى ضيقاً بحسب الظروف كما سترى .

وعلى مثل ذلك كان لبنان على عهد الصليبيين ثم الذين اتوا بعدهم من سلاطين مصر وسورية : وفي عهد الدولة العثمانية ايضاً التي مدت يدها القاهرة الى كل البلاد التي افتتحتها كسيدة مطلقة واخذت تولي عليها من تشاء وتستوفي الضرائب من اهلها كما تشاء . الا انها في لبنان قد راعت بعض الحقوق والامتيازات في اهم الاحوال الخاصة باهله في داخليته فلم تتعرض لهم الا في امر تحصيل الضرائب التي فرضتها على كل قسم منه .

ولا يعارض ذلك ما كان يحصل فيه من الحروب الداخلية بين حكامه للمزاحمة على الحكم والولاية وحق ضرب الضرائب وتقاضيها بالرفق او بالقوة : ولا من الحروب الخارجية بين هؤلاء الحكام وحكام جوارهم من كل ناحية وتذليل العصاة منهم ومد سيطرتهم وحكمهم وولايتهم اليهم : فان ذلك انما كان برضى الدولة وللدولة العثمانية نفسها (١) التي كان جل همها تحصيل مال الخزينة السلطانية المضروب على هذه المقاطعات التي كانت تعدها ملكها وتحت سيطرتها وحكمها المطلق . اجل ان الموارنة وسائر الطوائف المسيحية وغير المسيحية في جبل لبنان كانت

---

(١) لما مثل الامير فخر الدين المعني بين يدي السلطان مراد الرابع سنة ١٦٣٣ م (١٠٤١ هـ) اعتذر لديه عن نفسه انه انما جمع الرجال لامور مختصة بالوزراء او النواب : ولم يقاتل غير العصاة على السلطنة العلية : وانه انما استخلص القلع من العصاة وسلمها للسلطنة الخ . فعفا عنهُ السلطان (طالع كتاب الغرر الحسان في تاريخ هذه السنة وكتاب تاريخ الاعيان بجبل لبنان ص ٣٣٦ من طبعة بيروت سنة ١٨٥٩)

كلها متمتعة بتمام الحرية في ادارتها المدنية والدينية خاصة : بحيث لم يكن يتعرض لهم احد ايًا كان في مثل هذه الامور الجوهرية · بيدَ ان هذا الاستقلال لا يعد مطلقاً وتاماً كما يرى المتأمل الا من هذا الوجه وبهذا النوع : ولهذا فهو بالاحرى من قبيل الاستقلال النوعي ليس غيره ·

هذا وقد زادت يد الدولة امتدادًا الى لبنان من سنة ١٨٤١ اي بعد ان طردت الدولة المصرية منه ونفت الامير بشير الشهابي المعروف بالكبير الى مالطه ثم الى الاستانة : وقسمت حكم البلاد بين النصارى والدروز : ووضعت له نظاماً مخصوصاً برضى الدول الاوربية الكبرى وهو المعروف بنظام شكيب افندي · وبقي حكم الجبل على هذه الحال الى ان حصلت فتنة سنة ستين المشهورة : التي كان من نتائجها وضع النظام الخصوصي المعروف تقريرًا لاستقلال الجبل النوعي على مقتضاه تحت رعاية الدول الست العظمى وحمايتها وسيطرتها : بحيث لم يكن يُمسّ في اقل مادة من مواده الا بمعرفتها ورضاها ومصادقتها على ما هو مشهور ·

فمثل هذا الاستقلال الذي كان يتمتع به جبل لبنان وكل اللبنانيين من قديم الزمان يجب ان لا يستهان به مهما يكن من شكله والظروف التي كانت تطرأ عليه : لانه كان في كل حال من قبيل الاستقلال النوعي في عرفنا الان : ولم يكن لاهل جواره مثله في كل بلادِ سورية بحيث كان كل نصارى الولايات العثمانية يحسدون نصارى جبل لبنان على ما هم فيه من الحرية الدينية التامة : وكانوا عند اشتداد الضيق عليهم يفزعون اليه ليكونوا في مأمن من ذلك ·

فهذا هو الاستقلال الذي نفاخر به ونتوخى اثباته في هذا الكتاب

باجلى البراهين المسندة الى الآثار التاريخية الراهنة · وقد رأينا ان نوضح قصدنا من ذلك هنا لئلا نُتهم بالتطرف الغير المعقول ويُحمل كلامنا على غير محمله · كما جرى لبعض اصحاب الغايات عند ما طالعوا الطبعة الاولى منه :

مما دعانا الى وضع هذا التمهيد
وبه غنى لأولي الالباب ان
شاء الله تعالى وهو
حسبنا ونعم
الوكيل

الباب الاول

في بيان استقلال جبل لبنان

من قبل دخول النصرانية عليهم

اي منذ اول امرهم حتى الفتح العربي

لا نريد ان نرمي الكلام في هذا الباب على عواهنه : ملتجئين الى اساليب الفصاحة في اثبات قضيتنا : او الى الاوهام الفارغة التي توافق غرضنا ولو لم توافق الحقيقة : حذراً من ان نقع في ما ينبه اليه الشاعر الحكيم بقوله:

لا تنهَ عن خلقٍ وتأتي مثله * عارٌ عليك اذا فعلت عظيمُ

ولكننا ندع للتاريخ الحقيقي الراهن والاثار الباقية على كرور الدهر ان تنصفنا في بيان ذلك وتسمح لنا بالاستنتاج المعقول فقط عنها.

فهذه فينيقية الساحلية او اللبنانية (١) حتى اعالي جبالها قد

(١) ان هذا الاسم انما اطلقه الرومانيون على سائر الارض التي يشرف عليها جبل لبنان وهو يتناول جميع الارض الممتدة من الساحل

كانت منذ عهد عهيد قبل المسيح منقسمة الى ممالك صغرى

الى انتيلبنان . وكان اسم فينيقية بالاجمال عند الاقدمين يطلق عادة وخصوصاً على كل ساحل لبنان الذي بين نهر النعمان والنهر الكبير اي بين عكا وارواد. وهو على ما يقال يوناني الاصل ورد ذكره في كلام هومير الشاعر اليوناني الشهير وفي تاريخ هيرودوت. وقد ارجع اسطفان البيزنطي اصله الى حكاية من اساطيرهم عن « قدم او قدموس » الذي على ما روى هيرودوت واوريبيد قد هاجر من فينيقية الى بلاد اليونان بجماعة عديدة . فقال اسطفان المذكور ان « قدم » هذا كان يقال له « فينقس » وهو ابو هؤلاء الفينيقيين الذين نسبوا اليه .

وقد جاء في كتاب منسوب الى ارسطو الفيلسوف الشهير : ان الفينيقيين قد اطلق اليونان هذا الاسم عليهم كمرادف للقتلة : لان تجارهم الاولين ما كانوا يجتازون الشطوط الا للقتل والنهب . وفي ذلك اشارة ظاهرة الى مهاجرة اجدادهم بكثرة الى نواحي بلاد اليونان في ايام جاهليتهم : فكانوا يسومونهم كل حيف ليخضعوهم لهم او ليجلوهم عن الارض التي كانوا يستعمرونها . وذلك على نحو ما جرى في عهد الصليبيين مع جماعة شيخ الجبل الذين كانوا يعرفون بالحشاشين بسبب استعمالهم الحشيش المخدر وكانوا يسرفون في النهب والقتل حتى اشتهروا به : فاطلق الافرنج هذا الاسم على كل قاتل غدار ممن يصيبون الطرق فيسمونه الى يومنا هذا في لغتهم assassin من الحشاشين المذكورين .

وقد جاء في هذا الكتاب نفسه ان اسم النخل في اللغة اليونانية مشتق من لفظ فينيقية لان الفينيقيين هم اول من حملوا النخل او ثمره الى بلاد اليونان وعرفوهم به . وهذا يعارض مذهب بعض العلماء الذين

مستقلة بعضها عن بعض تمام الاستقلال ومتحالفة على نوع ما

زعموا ان اليونان انما اعطوا هذا الاسم لهذه الناحية لكثرة النخيل فيها واشتهارها عندهم به : ولو اسندوا هذا المذهب الى ما وجد من المسكوكات المتأخرة عليها رسم النخل رمزاً الى فينيقية . لان هذا الاسم كان يطلق على هذه الجهة والقوم الذين منها قبل تاريخ هذه المسكوكات بمدات بعيدة : وربما اتخذ هذا الرمز من بعد ما اشتهر هذا الاسم بمعنى النخل وضاع اصل اشتقاقه .

وكنا ذهبنا في الحاشية التي علقناها على هذا المحل في الطبعة الاولى من كتابنا هذا : ان لفظة الفينيقيين انما هي مشتقة من فعل « فنق » بتخفيف الوسط او تشديده : ومعناه في اللغات العبرانية والسريانية والعربية اخوات الفينيقية « ترفَّه وتنعم وتدلل » وان هذا المعنى ملازم عادة لعيشة اهل الحضارة والتجارة كالفينيقيين : وقد وُصفوا به شهرةً حتى قامت الصفة مقام الموصوف الخ .

ثم رأينا في بعض مطالعاتنا ان بعض علماء الالمان قد سبقونا الى هذا المذهب ولم يقبل لهم اهل النقد هذا الاشتقاق : فلزم التنبيه الى ذلك

وقد عثرنا على رأي آخر ربما كان اقرب الى الصواب وهو ان لفظة « فينكس » لها في اللغة اليونانية معنى آخر اصلي واكيد اي « الاحمر او القرمزي او الارجواني » وقد فسره هاسيخ ايضاً باللون الناري او المحمرّ : ومنهم اقتبسه اللاتين فاستعملوا كلمة Punix بمعنى الاحمر والارجواني والوردي : وهم ايضاً يسمون سكان مدينة قرطاجنة (قرت حدست) بالپونيين Pœni او Punici وهو مأخوذ بلا ريب

عند الحاجة لاجل الذود عن حياضها . وقد اشتهرت جميعها

من لفظة الفينيقيين او الفونيقيين : مع ان الفلاحين من اهل هذه الديار قد بقوا يسمون انفسهم Chanani اي كنعانيين الى زمان القديس اغوسطين كما روى هو نفسه في شرح رسالة القديس بولس الرسول الى اهل رومية عدد ١٣ : لانهم انما كانوا باجماع الرأي نحلة من مدينة صور وعليسا « ديده وقدم » في عهد يشوع بن نون كما دل عليه اثر قديم اكتشف حديثاً هناك .

ومن ثم قد تضاربت الاراء في تخريج معنى هذا الاسم فذهب بعضهم الى ان اليونان انما سموا هؤلاء التجار الذين كانوا يأتونهم من سواحل لبنان « فونيقيين » اي الحمر بالنظر الى حمرة بشرتهم . وذهب آخرون وربما كان مذهبهم اقرب الى الصواب : انهم انما اطلقوا عليهم هذا الاسم في لغتهم بالنظر الى ما كانوا يتبرجون به من ملابس الارجوان الذي تفردوا في هاتيك العصور الخالية بصناعته : فشده اليونان الاولون به ودعوا لابسيه وتجاره به تعريفاً لهم حتى لازمهم بمنزلة العلم . وعلى تراخي الزمان بقيت هذه التسمية : كما يحصل عادة في الاسماء القديمة : بعد ان شاع هذا الاسم وذاع وملأ الاصقاع : حتى لم يستنكف اصحابه انفسهم من اتخاذه كعلم لهم ولبلادهم .

ومن ثم فهذا العلم كما يرى المتأمل يشمل كل سكان سواحل لبنان : وهم على ما اثبت المحققون صنفان او جنسان الجنس الكنعاني وهو المنسوب الى كنعان بن حام بن نوح والجنس الارامي وهو المنسوب الى آرام بن سام بن نوح عليه السلام .

فالكنعانيون هم المعروفون منذ الدهر بسكان ارض كنعان وهي

بمدنيتها وتجارتها وصنائعها وعلومها . وذكر اسماء هـذه الممالك
يغنينا عن الاسهاب في تواريخها المشهورة كمملكة صيدا (١)

التي حددها موسى النبي في سفر التكوين (١٠ : ١٩) « من صيدون وانت آتٍ نحو جرار الى غزة وانت آتٍ نحو صدوم وعمورة وادمة وصبوئيم الى لاشع » فصيدون او صيدا اذن انما هي حد ارض الكنعانيين من الشمال الشرقي وكانت اول واهمّ مدينة لهم على ما هو مشهور يحدها من الشمال ايضاً نهر الدامور على تخوم مملكة الجبليين في بيروت او (كما قال يوسف بن كريون المؤرخ اليهودي المشهور) عند « بلاتانية » وهي مدينة صغيرة قائمة على جنوبي النهر المذكور . ومن نهر الدامور الى الشمال حيث كانت مملكة « جبل » او جبيل كما تدعى الان انما كان للاراميين وهم والكنعانيون اول من سكنوا هـذه الديار واقاموا المدن والممالك الشهيرة هاتيك الايام فيها . ولمزيد الاستثبات من ذلك على الراغب ان يطالع خاصة كتاب تاريخ لبنان للعلامة المحقق الاب مرتين اليسوعي المطبوع باللغة العربية في بيروت سنة ١٨٨٩ وقد قال في الجزء الثاني منه (عدد ١٣ ص ٣٦٨ و٣٦٩) مستنتجاً ما مؤداه « وبناء على ذلك فان سكان مملكة جبيل الذين دانوا فيما بعد بالدين النصراني وهم الموارنة المتمسكون شديد التمسك بالايمان الكاثوليكي يكونون من نسل سام لا من نسل حام الملعون » . والكتاب غزير المادة كثير الفوائد في هـذا الموضوع وسواه مما يتعلق بتاريخ لبنان القديم وتاريخ الفينيقيين .

(١) من المعلوم ان مدينة صيدا او صيدون هي اقدم مدينة بناها الكنعانيون الذين هم على الرأي الارجح اول من سكنوا هذه الارض التي نسبت اليهم ودعيت فيما بعد بارض الميعاد . ومما يقال ان صيدون بكر

ومملكة صور (١) ومملكة جبيل وبيروت (٢) : وكلها واقعة في

كنعان بن حام هو الذي اسسها ودعاها باسمه وبسبب ما كان له من حقوق البكارة جعلت هذه المدينة قاعدة لمملكة الكنعانيين الاولى . ومع ما وقع على تراخي الزمان من الانفصال المتتابع بين جميع القبائل الكنعانية التي بنت المدن والممالك الصغيرة في اراضيها على مـا هو مشهور استمرت اول قاعدة في ارض كنعان وملاذاً لعامة القبائل المنسوبة الى هذا النسل واحدى القواعد الكبيرة الفينيقية ومركز الاعمال العظيمة والتجارة الواسعة والمدنية الراقية هاتيك الايام . ولهذا قد دعيت « ربة صيدون » اي صيدا العظمى : ومعنى صيدون الصيد مطلقاً في البر والبحر . ومكانها معروف الى الان وهي واقعة في الدرجة ٣٣ والدقيقة ٣٤ والثانية ٥ من من العرض الشمالي (راجع كتاب تاريخ لبنان للعلامة الاب مرتين المذكور آنفاً فتجد هناك كلاماً ضافي الذيول في هذا الموضوع) .

(١) من المقرر ان صور انما هي بنت صيدا . وقد قال استرابون انها اكبر واقدم مدن الفينيقيين من بعد صيدون . وقد زاحمت صيدا في ذلك العهد العهيد في كل امر (على ما تثبت الآثار الباقية) بعلومها وصنائعها وتجارتها ومستعمراتها حتى نالت اعظم السناء والابهة وكانت بالجملة مجد فينيقية على ما قيل بكل صواب . ومعنى صور « الصخر » وموقع هذه المدينة على شاطىء البحر جنوبي صيدا في الدرجة ٣٣ والدقيقة ١٧ من العرض الشمالي : ومكانها مشهور الى الان (راجع الكتاب نفسه) .

(٢) قال الاب مرتين اليسوعي في كتابه المذكور آنفاً (ص ٣٦٤) « ويوجد مملكتان معروفتان ومشهورتان خصوصاً في الاخبار الوثنية الفينيقية ينبغي ذكرهما لاسباب موجبة بين الممالك الآرامية التي سلف الكلام

هذه البقعة من الارض التي ذلل اهلها البحار واستبدوا بها على خشبة وحملوا تجاراتهم الى اقاصي المعمور ومنها بالتبادل ونفعوا البشرية خاصة باختراع الحروف الهجائية التي لا تزال

عنها (وهي مملكة دمشق وبعلبك وحمص وحماة الخ) لا مع ذرية كنعان التي تجاورها وهما مملكتا الجبيليين والبيروتيين . فلا شك ان القبائل الارامية المتوطنة في سهل حماة والبقاع امكنها بكل سهولة في تلك الايام ايام التنقل والانتشار ان تدخل بالتدريج الى وهاد لبنان الشمالي القريبة منها وتنزل من هناك مسرعة نحو شواطىء البحر لتستوطن في السواحل المعتدلة الهواء والخصيبة التربة . وهذه المنافع بل الفوائد التي تنجم عن السكنى بقرب البحر الكبير انما هي التي حملتهم على الرحيل والاقامة بالسواحل المذكورة » .

واقدم هاتين المملكتين انما هي مملكة « جبل » بكسر فسكون او بضم فكسر كما يسميها العبرانيون او « ببل » بكسر فسكون كما حرفها اليونان . او « جبيل » كما تدعى اليوم : وقاعدتها انما هي المدينة المعروفة اليوم بهذا الاسم . وقد قال اسطفان البيزنطي واوستاك وكثير غيرهما من الكتبة متابعة لسنخونيتن القصصي القديم العهد البيروتي الاصل (فقرة ٢ : ٢٢ حسب رواية اوساب عن تريفون الجبيلي) انها اقدم مدينة قامت في لبنان بل في العالم باسره : لان « ايل » اله الاراميين انما هو الذي بناها في عهد الاساطير . ومهما يكن من الغلو في هذه الرواية فمن الثابت ان هذه المدينة من اقدم مدن العالم وان مؤسسيها نحلة من الاراميين اولاد سام . وقد عظم شأن هذه المملكة حتى نازعت مملكتي صيدا وصور المجد والعز والتسلط على البحار . قال الاب مرتين العلامة المدقق

الى اليوم على وضعها وترتيبها واسمائها الفينيقية بوجه التقريب عند اكثر الامم الراقية : مما يشيد على الدوام بذكرها وفخارها كلما كتب كتاب

في المحل نفسه (ص ١٨١) « وقد وصل الجبيليون في مدة قريبة الى مرتبة عظيمة من السعادة والعمران . . . واتوا اعمالاً عظيمة تثبت لهم النشاط والاقدام : لانهم وسعوا دائرة تجارتهم وبثوا مستعمراتهم في كثير من الافاق : والراجح انهم وصلوا قبل جميع ممالك الدنيا الى مقام القوة البحرية واستولوا على سلطان البحار قبل ما يخطر لاحد ان ينازعهم فيه . ولكن التاريخ يصور لنا جبيل مثل مدينة مقدسة لا مثل مدينة ذات اقتدار وسطوة » .

اما بيروت فيقال بالاجماع انها كانت في اول امرها مستعمرة لجبيل . وقد جاء في الفقرة الثانية من بقايا اساطير سنخونيتن البيروتي ان الاله ايل او عليون مؤسس مدينة جبيل وملكها هو الذي بناها وسماها باسم زوجته بيروت (وهي عندهم نفس الالهة عشتروت) . ولهذا قيل ان اسمها في الاصل « بروت » بدون الياء : وقد ورد على هذا الشكل في بعض كتابات الاولين : ومعناه في العبرانية والارامية لغة اهل بيروت وجبيل « السرو » : وهذا الشجر كان مكرساً لعشتروت ويرمز به اليها وهي كانت على ما هو مشهور معبودة اهل بيروت . ومهما يكن من امر هذه الحكاية فان من الثابت ان بيروت تضارع مدينة جبيل في القدم وان الجبيليين هم الذين اسسوها : ثم تعاظم امرها حتى صارت مملكة مستقلة عن امها . وقد ترجح اليوم عند علماء التاريخ انها اقدم من صيدا على ما اثبته البارون دى اكستين (Journ. asiat. 419 II 1859)

وقد ورد شيء كثير عن هذه الممالك الصغرى العامرة في العاديات المكتشفة مما يدل على رقيها وحضارتها فضلاً عن

وقيل إنَّ اسمها مأخوذ من « بئروت » ومعناها في العبرانية الآبار جمع بئر : واستدلوا على ذلك من كثرة الآبار فيها من قديم الدهر . ولا نخال هذا الرأي مصيباً لانه من المعقول ان هذه الآبار انما أُحدثت بعد استعمارها بمدة لا سيما وفيها نبع ماء زلال مشهور الى الان فلم تتخذ هذه الابار الا بعد ان كبرت هذه المدينة حتى لم يعد يكفيها هذا النبع

وهناك رأي آخر لهستياوس الملطي الكاتب القديم العهد نظنه اقرب الى الصواب : وهو ان اسم بيروت مأخوذ في الاصل عن لفظة « أبيروت » جمع « ابير » في الفينيقية بمعنى القوة والشجاعة : ويقال ان اسم رومية انما هو بهذا المعنى . وللفظة ابير ايضاً معنى الثور رمز القوة وقد كنوا به عن الالهة عشتروت معبودة بيروت : فلا يبعد ان يكون اتخذ اسمها من احد هذين المعنيين بتخفيف الهمزة وحذفها والله اعلم .

ذلك ويستخلص من الكتابات المكتشفة حديثاً في صعيد مصر المعروفة برسائل تل العمارنة الواردة خاصة من لبنان وبيروت الى امينوفيس الثالث وامينوفيس الرابع ملكي مصر في نحو القرن الخامس عشر قبل المسيح باللغة الاشورية او الارامية — ان بيروت وتسمى هناك « بيروتا او بيروتو » بكسر الباء كانت على جانب من الحضارة والرقي معدودة في سواحل الجبل كصور وصيدا وجبيل ومذكورة بكثرة سفنها العامرة وتجارتها الواسعة .

ويظهر ان بيروت قد اشتهرت بالعلم والادب اكثر من كل ما جاورها . وبلغت في عهد الرومانيين من العز والابهة مبلغ مدينة رومية العظمى :

استقلالها . والكتاب المقدس عينهُ مملوء بالشواهد المعتبرة على كل ذلك مما لا يحتاج الى مزيد بيان في هذه النبذة الوجيزة وهو مشهور عند كل من لهُ المام بالتاريخ القديم

ومن ثم فاذا كان بعض الغزاة الفاتحين من ملوك اشور وبابل ومادي وفارس حتى الاسكندر الكبير فالسلوقيين بعده فالرومانيين قد قهروا هذه الممالك اللبنانية الصغرى وغلبوها على امرها واستبدوا بها اذ تغلبوا على كل سورية واخضعوها لهم (كما قال صاحب كتاب سورية الغد في اول الباب ١٢) فان ذلك على ما يظهر لكل ذي لب لم يكن ليمس استقلالها المدعى بهِ : لان عنصرها الارامي او الفينيقي قد بقي سالماً في ارض اجداده محافظاً على سليقتهِ وعوائده

وبرزت في درس علم الفقه والحقوق خاصة منذ عهد اغسطس قيصر الذي اطلق عليها اسم « جوليا السعيدة » حتى صارت في القرن الثالث للمسيح من اشهر مدارس هذا الفن الجليل يتقاطر اليها طلابه من كل صوب : ودعيت لذلك « محط العدل وصوان المشترعين » : ونبغ فيها كثير من العلماء المشهورين اشترك جمهور منهم في وضع وتنقيح وترتيب شرائع يوستنيانوس الشهيرة التي اصبحت اساس هذا الفن حتى الان . وقد ضربت في القرن السادس للمسيح بزلزال شهير لم يبقِ منها سوى اطلال دوارس واثار تدل على مجدها وعظمتها . وموقعها في طول ٣٣ درجة و ٧ دقائق الى الشرق : وعرض ٣٣ درجة و٥٤ دقيقة الى الشمال

ومعبوداتهِ ولغته وسائر روابطهِ المعنوية نازعاً على الدوام الى التخلص من ربقة مغتصبيه بكل جهد غير راضخ لهم الا مكرهاً بحيث كان كلما تسنى لهُ ان يخلع نيرهم عن عاتقه ويعود الى استقلالهِ ولو بسفك الدم كان يفعل : (١)

---

(١) قال البحاثة الشهير الاب هـ . لامنس اليسوعي في الجزء الثاني من كتابه « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار » المطبوع على حدة نقلاً عن مجلة المشرق في بيروت سنة ١٩٠٦ (ص ٣٠٤ وما يليها) ما حكايته بهذا الموضوع « فصارت سورية من بعد الاسكندر الكبير (الذي توفي في بابل سنة ٣٢٣ ق م) الى احد قواده سلوقوس نقاطور فتملكها والحق بها لبنان فصار هذا الجبل تحت حكم السلوقيين الى ايام الرومان . وهنا مبحث مهم لم نكن لنتعرض له لولا ان بعض المحدثين استندوا الى حجج واهية ليؤيدوا زعمهم الباطل . ودونك القضية المطلوب بيانها : هل يا ترى لما استولى اليونان على جبل لبنان غلب العنصر اليوناني العنصر الفينيقي او الارامي بحيث يصح القول ان اليونان من الامم التي استوطنت لبنان ؟ نجيب على هذا القول بالاجمال اننا بينا غير مرة ان العنصر المتغلب على سورية كان العنصر الارامي لا اليوناني (راجع المشرق ٣ : ٢٦٨) فان صدق ذلك عن سورية فهو اصدق واحق عن لبنان خصوصاً فان ارامية سكانه في ايام الدولة اليونانية اوضح من النهار » — الى ان قال (ص ٣٦) — « فانه لا يوجد بلد حافظ على معبوداته القديمة مثل لبنان والشام فان الدين الارامي والفينيقي صبر على كل التقلبات السياسية الى ان غلبته النصرانية . وكل

ذلك على نحو ما جرى في التاريخ القديم مثلا لليهود الذين اجلاهم مغتصبوهم الاشوريين الى بابل واكتسحوا

ما يمكن ان نسلم به من هذا القبيل ان بعض اسماء الالهة الفينيقية برزت على صورة يونانية في لفظها — وكذلك اطلق الكتبة اليونان واصحاب الامر على هذه الالهة اسماء غريبة فدعوا هذا « جوبيتر » وذاك « ابولون » . اما الاهلون فحافظوا على اسماء آلهتهم بكل حرص وقد ذكر المؤرخ ممسن (Mommsen وهو اكبر علماء احوال الروم) في تاريخه المشهور (ج ٥ ص ٢٥٢) ان اهل سورية لم يختلطوا باليونان الا اختلاطاً ضعيفاً : واثبت ذلك بانهم حافظوا على اديانهم الخصوصية . ثم ان الاب لامنس بعد ان ذكر بعض آلهة الفينيقيين الذين اطلق عليهم اسماء الالهة اليونانية والرومانية كبعل مرقد في دير القلعة بلبنان الذي دعي « جوبيتر » مع انه لا يشبهه في شيء عندهم الخ قال (ص ٣٨) « واذا عدلت الى هيكل افقا (بلبنان) وجدت كذلك عبادة عشتروت الفينيقية مستترة برداء الالهة الزهرة (Venus) اليونانية وان كانت كل واحدة مختلفة عن الاخرى : وذلك يظهر من شعارها الذي لا يشبه في شيء شعار آلهة اليونان » واردف كلامه هذا بقوله « وما قلناه عن العنصر الارامي في لبنان يصح ايضاً عن لغتهم الدارجة وهو رأي المؤرخ الشهير ممسن اذ قال (ص ٢٥٢) انى اظن ان اللغة الارامية كانت اللغة السائدة دون غيرها في لبنان على عهد قياصرة رومية اه » .

بلادهم حتى جعلوها قاعاً صفصفاً مدة نحو سبعين سنة . فهل يا ترى مس ذلك باستقلالهم الطبيعي بشيء ام عادوا اليه عند ما قدروا واقاموا مملكتهم القديمة في ارض اجدادهم كما هم نازعون حتى الان الى ذلك بعد نحو الفي سنة بدليل ماتسعى اليه هذه الايام جمعياتهم وخاصة الجمعية الصهيونية الشهيرة ؟

وكما جرى ايضاً في التاريخ الحديث للرومان والسرب واليونان والبلغار مع الاتراك الغاصبين . وكما هو جارٍ الآن للبولونيين مع جيرانهم الذين تغلبوا عليهم وقهروهم واستبدوا بهم واقتسموا مملكتهم وهم لم يفتروا ولا طرفة عين عن السعي بكل جهد وراء استقلالهم وقد تحملوا دونه من البلايا والنوائب ما يفوق الوصف .

وهكذا اهل جبل لبنان الاصليون وهم بقايا أولئك الفينيقيين الكرام رغم توالي الايدي عليهم كانوا كل حين ينزعون الى الاستقلال الذي فطروا عليه : وكانوا كلما سنحت الفرصة ينشدونه بكل جد واجتهاد حتى ينالهم منه ما امكن بحيث يمكن ان يقال بكل صواب انهم لم يخضعوا قط لحكام سورية الاجانب خضوعاً مطلقاً : ولم يمتزجوا بالامم التي دخلت عليهم في بلادهم : بل استمروا على الدوام أمة فينيقية

الاصل في ارض اجدادها (١)

***

مما يجب الانتباه اليه هنا ان الديانة المسيحية القويمة

---

(١) نرى لمزيد الفائدة ان نذكر هنا خلاصة بعض ما ارشدت اليه هذه الايام الآثار المصرية الهيروغليفية العريقة في القدم المكتشفة حديثاً مما يتعلق خاصة بتاريخ بلادنا وما جاورها

فمن ذلك اولاً ما جاء في روايات « مانيتون » الكاهن المصري التي ابقتها يد الدهر من تاريخه الذي كتبه في القرن الثالث قبل الميلاد فقال بحسب رواية يوسيفوس (ك ١ ق ٤ من رده على اقوال ابيون) ما حكايته « كان ملك يسمى « تياوس » دهمنا في ايامه غضب الله ففاجأنا من جهة الشرق جيش اقوامه اوغاد جسروا ان يغشوا بلادنا فاستحوذوا عليها دون حرب » الى ان قال « وكل هذه القبيلة دعيت « هيكسوس » اي الملوك الرعاة لان معنى « هيك » في اللغة المقدسة ملك ومعنى « سوس » بلغة العامة « رعاة » . وقال في محل آخر بحسب رواية يوليوس الافريقي « انهم اخوة فينيقيون ملوك اجانب » .

ولدى البحث الطويل الدقيق قرر اخيراً العلماء ان هؤلاء الغزاة انما فتحوا مصر السفلى خاصة بين القرن العشرين والحادي والعشرين قبل الميلاد الرباني : وانهم كانوا اخلاطاً من الاراميين والكنعانيين الذين اول من سكنوا لبنان وجواره من الشمال ومن الجنوب : وكان الحثيون اشهرهم واقدرهم : فتكونت منهم على قول مانيتون

التي كانت حوالي القرن الخامس للميلاد الرباني قد حلت محل

الدولة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة · ويقال ان ابراهيم الخليل قد اتى على عهد هؤلاء الملوك الرعاة واتاها بعده حفيده يعقوب والاسباط على عهدهم ايضاً : وان آخرهم المدعو « ابابي » او « ايوبي » كما في الآثار المصرية او « ابو فيس » كما يدعوه اليونان الذي حكم على ما يظهر سنة ١٧٧٠ قبل المسيح وبه انقرضت دولة الرعاة هو الذي استوزر يوسف الصديق وسلطهُ على ارض مصر ·

وكان اهل مصر العليا اي الصعيد يؤدون لهؤلاء الهيكسوس الاتاوة السنوية الى ان لموا شعثهم واخذوا عدتهم فثاروا على الملوك الرعاة: وبعد حروب كثيرة تمكنوا من اخراجهم من ارض مصر : فعادوا الى بلادهم الاصلية قبل جلاء بني اسرائيل الى ارض الميعاد بعدة غير قليلة ·

فاستتب الامر للدولة الثامنة عشرة التي اسسها الملك « احمس » وخلفه « امون هوتبو » فغزا بلاد الكنعانيين (وهي ارض الميعاد) وفرض الجزية على ملوكها · ثم خلفه « توتمس » الاول فتوسع في الغزو حتى بلغ دمشق : وفتح بعدها بلاد « الروتانو » في شمالي لبنان حتى الفرات : كما يشهد العمود الذي نصبه هناك بالقرب من مدينة « كركميش » تذكرة للخلف: وكركميش هذه انما هي « منبج » كما يدعوها العرب او « مابوغ» كما يدعوها السريان او « هيرابليس » كما يدعوها اليونان · واما الروتانو اهل هذه البلاد المذكورون في الكتابات الهيروغليفية فالمقصود بهم على ما حقق علماء الآثار سليلة « لود » بن سام وقد قرأها بعضهم « اللودانو » واثبتوا صحة قراءتهم هذه وصوابها مما لا محل لذكره هنا ·

وقد جرت حروب كثيرة هاتيك الايام بين توتمس الثالث وملوك

الديانات الوثنية خاصة في كل السلطنة الرومانية لم تؤثر على

سورية وخاصة هؤلاء اللودانو كانت الغلبة فيها للمصريين الذين كانوا يكتفون بالجزية من هؤلاء الملوك ويدعونهم وشأنهم : وكان اهل فينيقية على الغالب يفضلون السلم على الحرب لانهم كانوا اميل الى التجارة والصناعة والرفاه منهم الى النضال والكفاح : فكانوا من ثم يسرعون الى استرضاء هؤلاء الغزاة بالمال على امل ان يستردوه اضعافاً وهم على حريتهم واستقلالهم من تجارتهم مع مصر وغيرها مما وراء البحار : ومما يدل على ذلك ما جاء في تاريخ الملك توتمس الثالث المكتوب باللغة الهيروغليفية على جدران هيكل الكرنك المشهور : وهو ان هذا الملك لما زحف لاول مرة على سورية في السنة الثالثة والعشرين لملكه تحالف ملوك سورية والكنعانيين عليه تحت قيادة ملك قادس اللوداني ولاقوه الى « مجدو » وهي اللجون بالقرب من جبل الكرمل : فكان النصر بعد حرب عوان لتوتمس الذي واصل الزحف الى لبنان فاعمال سورية حتى الفرات ولم يجد اقل مقاومة : لان الذين لم يشهدوا حرب مجدو تسابقوا الى الاستسلام دون قتال · وقد عدّت المدن التي سلمت له كما ورد ذكرها على جدران الكرنك فاذا هي مئة وتسع عشرة مدينة منها « باروتا » (وهي بيروت) و « تماسكو » وهي (دمشق) فانهما سلمتا له قبل وصوله اليهما · والظاهر انهما لم تدخلا بالمحالفة لانهما اراميتان وكان اكثر المتحالفين من الكنعانيين · وفي غزوة هذا الملك الثانية لسنة ٢٩ من ملكه اذ عصاه ملك الروتانو او اللودانو واتفق مع ملوك سورية الشمالية على مناوأته قد دخل بلاد « زاهي » ويراد به على قول لينورمان (مج ٢ ص ٢٩٥ من تاريخه) قسم من

لبنان بين مدن فينيقية وسورية المجوفة . وحاصر مدينـة « قادس » وهي عاصمة اللودانو في برية حمص حتى افتتحها عنوة : مما يدل على انه لم يمس فينيقية ولا مدنها بشر لموالاتها له . ثم اذ عاد توتمس هذا في السنة ٣٣ لملكه من غزوة بلاد الاشوريين ظافرًا لاقاه وفود من قبل شعب « زاهي » المذكورة آنفاً و « لمنون » (اواسط لبنـان) و « اسّو » وهي (على رأي لينورمان في المحل المذكور) عمـل في شمالي لبنان كان مشهورًا بمعادن الحديد ،

وفي نحو الربع الاول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الرباني كان انقراض الدولة الثامنة عشرة وابتداء الدولة التـاسعة عشرة برعمسيس الاول وهو (على ما هو ثابت الان عند علماء الاثار المصرية) من سلالة المـلوك الرعاة : وبعد ان استتب له الامر فكر في ارجاع سيطرة مصر على بلاد سورية فزحف عليها بجيوشه الجرارة . والظاهر انه لم يصادف اقل مقاومة لا في فلسطين ولا في ممالك فينيقيـة الذين كانوا موالين للمصريين لدوام اتصالهم معهم بالمتاجرة الرابحة : ولهذا قـد تجاوزهم على سلام حتى بلغ الى ما وراء العاصي لاخضاع مملـكة اللودانيين او الروتانو . وكان الحثيون قد استولوا على هذه المملـكة بسبب ضعف اصحابها المذكورين وعظمت فيها شوكتهم وامتـدت صولتهم الى الفرات شمالاً : فصادف منهم رعمسيس الاول اشد مقاومة وقد اصلوه حرباً عواناً لم تكن في الحسبان حتى اضطر اخيرًا ان يعقد صلحاً مع ملكهم « سابالت » وهـو اول ملك عرف حتى الان منهم وعهدًا يشترك بمقتضاه كلتا الدولتين بالدفاع والهجوم على كل من ناوأهما .

وقد ابرم رعمسيس هذا العهد ليتقي غائلتهم ولو جاء في الاثار التي تنبئ بهذه الحرب « ان كانت نهاية هـذه الحروب معهم بخضوعهم صاغرين دون شرط » لان المصريين هم الذين كتبوها في بلادهم تعظيماً لملكهم

وملك رعمسيس الاول نحو سبع سنين فخلفه ابنه « ساتي الاول » وهو الذي شرع باضطهاد بني اسرائيل في مصر كما في سفر الخروج . ومن اغرب آثاره واجملها ردهة الاعمدة الشهيرة في هيـكل « امون » بالكرنك ولم تزل الى اليوم موضوع اعجاب السياح : وقد نقش على جدرانها صور غزواته وانتصاراته مع تواريخها المسهبة . ومما جاء فيها انه في السنة الاولى لملكه نكل اولاً بالعرب الذين كانوا اكثروا من الغزو والاعتداء على تخوم مصر الشرقية : وفي السنة التالية زحف ايضـاً على سورية فلم يجد مقاومة في فلسطين ولا في فينيقية حيث جدد ملوكها عهد الولاء معـه موثرين الربح الطائل بالسلم على العدوان والحرب كعادتهم : ودان له الاراميون في نواحي دمشق ولبنان الشرقي الى تدمر وفي اعالي لبنان الغربي وقد مُثّلوا في ردهة الاعمدة المذكورة يقطعون اخشاب الارز والسرو لابنية الملك ساتي نفسه .

وقد ملك ساتي نحوًا من ثلاثين سنة وخلفه رعمسيس الثاني المعروف بسيزوستريس وفي ابان ملكه ثارت فلسطين على عماله حتى اضطر ان يغشاها مرتين بجنوده وقد بلغ في احدى غزواته مدينة بيروت وترك صورته منقوشة على صخر عند مصب نهر الكلب في جبل لبنان . وحارب الحثيين الاشداء في بلادهم وفتح عاصمتهم « قدس » بعد حرب ضروس : ثم صالحهم على شروط ومعاهدات حسنة نقشت وثيقتها على جدار هيكل

مما يدل على شدة استمساكهم بميراث أجدادهم حتى من هذا الوجه السمج وعلى شدة نزوعهم الى الاستقلال(١).

وقد جاء (٢) ان الملك قسطنطين الكبير قد اصدر أمره الى عماله في سورية ان يهدموا هيا كل الاصنام في جبل لبنان ليحولوا دون ما كان يأتيه اللبنانيون من الفظائع في

الكرنك في ظاهره : وهي اول عهدة ظفر العلماء بنصها البديع من هاتيك العصور النائية واثبتوها في مؤلفاتهم. وقد تزوج بعد ذلك رعمسيس بابنة كيناسار ملك الحثيين لاحكام اواخي المودة والولاء بين الفريقين : وقد وجدت له اثار شتى لا تزال محفوظة الى الان.

وفي المتحف البريطاني بابير من الاثار المصرية ترجمه العالم «شباس» وعلق عليه بعض الشروح فاذا فيه رحلة عامل مصري اوفد في ذاك العصر الى مدينة الاسرار (وهي جبيل) ثم «باروتا» (بيروت) و «صيدونا» (صيدا) و «سربوتا» (صارفة صرفند) و «تسار» (صور) واستتبع محطات سفره نحو الجنوب حتى وصل الى مصر.

وقد ملك رعمسيس الثاني نحو ٦٧ سنة وخلفه ثالث ابنائه المدعو منفتاح : وهو باجماع الرأي فرعون الذي خرج بنو اسرائيل في ايامه من مصر و كان ما كان من طردهم الكنعانيين وغيرهم من ارض الميعاد دون ان يمسوا ارض لبنان وفينيقية بسوء مع انهما كانتا محسوبتين من ارض الميعاد على ما هو صريح في التوراة

(١) طالع تاريخ بارونيوس الشهير فصل ٥٥

(٢) طالع بروكوب المؤرخ الشهير

أعياد معبوداتهم الوثنية. فهدموا ما هدموا منها وحولوا بعضها كنائس نصرانية وفي جملتها هيكل «افقا» الشهير في اواسط جبل لبنان عند مخرج نهر ابراهيم الذي كان يعرف بنهر ادونيس أو نهر تموز : فهذا كان على اسم عشتروت فحولوه هيكلاً على اسم السيدة العذراء الطاهرة تقديساً لذاك المكان ومنعاً لاسباب هاتيك المفاسد والرجاسات الوثنية.

ومع هذا لم يرعو أهل ذاك الجبل عن غوايتهم بل عادوا الى ما كانوا عليه عند ما سنحت لهم الفرصة وارتفعت عنهم القوة وعوامل الضغط على حريتهم : بدليل ما جاء بعد ذلك في رسالة للقديس يوحنا فم الذهب موجهة الى رئفينوس حيث قال «ان شرور فينيقية قد تجدد شرارها حتى زاد كيد الوثنيين فيها» وجاء في تاريخ ثودوريطس (ف ٥ ع ٢٩) ان هذا البطريرك القديس «لما علم ان سكان فينيقية ما زالوا يمرحون جنوناً في سبيل عبادة الاوثان استدعى بعض الرهبان ممن اكلتهم غيرة الله وعززهم بالاوامر السلطانية العالية وارسلهم ضد هيا كل الاصنام فقتل اللبنانيون هؤلاء الرهبان (على ما قال بارونيوس

مستنداً الى بعض المؤرخين الثقات) وقد ذكر سوزمان المؤرخ الشهير من كتبة القرن الخامس. (ك ا ف ٥٨) ان الوثنيين كانوا في ايامه يجتمعون في افقا وكان كهنة هيكلها المشهور يختلقون المعجزات تضليلاً لهم الخ : وجاء في سيرة حياة القديس سمعان العمودي الشهير التي دونها قزما الكاهن عشيره بكل تدقيق في النصف الثاني من القرن الخامس (١) : ان من عجائب هذا القديس العظيم ان بعض اهل لبنان قد اتوا اليه يسألونه انقاذهم من بعض الضواري التي كانت تسطو على قراهم وتفترس كل يوم شخصين او ثلاثة منهم : واذ علم القديس انهم من الوثنيين اجابهم ان العلاج الفعال لنجاتهم انما هو ان يتنصروا ويقيموا في جهات كل قرية من قراهم اربعة صلبان : ولما اتموا ما امرهم به هذا القديس كفت عنهم هذه الضواري أذيتها : والظاهر ان هذه الاعجوبة قد حصلت في جبة بشراي في شمالي لبنان. وقد قال العلامة السمعاني ان الموارنة هناك قد توارثوا خبرها بالتواتر عن اجدادهم الى اليوم وهم يدلون على هذه الصلبان

(١) وقد اثبت هذا الاثر النفيس العلامة السمعاني في كتابه المعروف بالمكتبة الشرقية مج ١ ص ٢٣٩ .

وقد شاهد هو نفسه بعضها بأم عينه .

وقال حضرة العلامة الاب لامنس اليسوعي في كتابه الذي استشهدناه في الحاشية السابقة من اثار لبنان (ص ٢٨) ما حكايته " ولكن لا يسعنا السكوت عن امر يذهلنا أي انذهال وهو قلة الاثار النصرانية في لبنان قبل القرن السابع. فانك لا تكاد تجد اثراً واحداً يمكن نسبته الى النصارى بلا ريب مع كثرة العاديات الوثنية الموجودة في انحاء الجبل : وكذلك ترى من الكتابات اليونانية واللاتينية قسماً صالحاً(١)

(١) قال هذا البحاثة الشهير نفسه في كتابه المذكور آنفاً (ص ٣٥ وما يليها) بهذا المعنى ما حكايته « ان وجود الكتابات اليونانية في محل ما لا يدل على كون اهل ذلك المحل من اليونان .... فدليل الكتابات وحده لا يجدي اذاً نفعاً لبيان عنصر امة ما .... وقد لحظ ذلك احد علماء عصرنا وهو نلدكه الشهير قال : (راجع المجلة الاسيوية الالمانية سنة ١٨٨٥ ص ٣٣٣) « انه لا يجوز الاستناد على مجرد وجود كتابات في احدى اللغات او عدم وجودها للقول بان اهل ذلك البلد كانوا من ذلك العصر او لا » مثال ذلك مدينة بيروت التي لم يُلفَ فيها حتى الان كتابة فينيقية أفيسوغ ان نقول انها لم تكن فينيقية ? كلاً : وكذلك لبنان ساء من زعم ان اهله كانوا يوناناً او روماناً لوجود كتابات قديمة في عهد هاتين الدولتين . وعلاوة على ما تقدم نرى الكتابات اليونانية المكتشفة في لبنان مشحونة بالاغلاط مشوهة بالتصحيفات غير تامة المعاني وكل ذلك دليل على

وهي كلها لعبدة الاوثان اللهم الا خمس او ست منها يونانية . فيا ليت شعري ما السبب في ذلك؟ اليس هذا دليلاً على ما لاقته النصرانية في سبيلها من العراقيل لما حاولت ان تنشر تعاليم الخلاص بين اهل لبنان ؟ ولنا في تعليل ذلك سبب آخر وهو ان الفوز الاخير الذي ناله الدين النصراني في لبنان انما كان على يد قوم من الآراميين وليس من اليونان : ولذلك لا تجد من الكتابات اليونانية النصرانية الا النزر القليل » اه.

فيستنتج من كل ذلك ان اهل فينيقية اللبنانية (وانما يراد بهم هنا اهل جبل لبنان الاصليون) بما انهم قد ثبتوا مدة غير قليلة على وثنيتهم مع ان كل البلاد التي حولهم كانت

ان النساخ والحفارين كانوا يرسمون الالفاظ رسماً مادياً وهم لا يدركون معانيها . وان قال قائل ان اعلام الاشخاص المرسومة على هذه الآثار يونانية أجبنا مع اكبر علماء احوال الروم وهو العلامة الشهير ممسن في تاريخه « ان اغلب هذه الاسماء ليست يونانية واذا كانت يونانية ترى معها الاسم الفينيقي والسامي الذي كان يعرف به الشخص » وفي هذا القول بينة واضحة على ان اليونانية لم تكن سوى مسحة ظاهرة وزي خارجي تزيا به اهل لبنان حباً بالجاه وتشبهاً بمتأدبي ذلك العصر . وما قيل عن الآثار اليونانية يصح باولى حجة عن الآثار اللاتينية . وانما اقتصر هذا العلامة على الآثار اليونانية لانه اراد هنا ان يدفع حجة بعض الكتبة من الملكيين الذين يزعمون عكس ذلك استناداً الى مثل هذه الادلة الواهية .

تدين النصرانية حتى مملكة قسطنطينية : و بالتالي كل حكام سورية لم يكن ممكناً لهم ان يختلطوا باحد العناصر المجاورة او الدخيلة عليهم ولا ان يمتزجوا بهم اقل امتزاج ولو بطريقة الزواج . ولا يمكن ان يقال بسهولة ان الذين فتحوا سورية واستولوا على لبنان في جملتها قدروا ان يستأصلوا سكانه الاصليين الذين هم من عنصر فينيقي ويستوطنوه مكانهم حتى يمكن ان يقال ان العنصر الفينيقي قد اضمحل وتلاشى او ذاب في العناصر التي تغلبت عليه . ذلك فضلاً عن ان كل الادلة التي بين أيدينا تدل على العكس دلالة صريحة.

ولهذا يحق الاستنتاج بكل صواب ان اصحاب جبل لبنان الاصليين انما هم سلالة الاراميين او الفينيقيين اصحاب الممالك المشهورة والمستقلة من قديم الدهر . وقد استمروا على الدوام ينزعون الى هذا الاستقلال في كل عصر بحيث لم يخضعوا لمغتصبيهم من الفاتحين الغزاة الا مكرهين والى حد محدود فقط : فهم اذاً على قلتهم كالعناصر السلافية في مواطنها : وهي القضية الرائجة هذه الايام حتى لم تعد مجهولة عند احد .

ذلك ومما يظهر ان جبل لبنان قد بقي مستقلاً استقلالاً نوعياً على عهد الرومانيين وسلطنة بيزنطية وهي قسطنطينية

انه قد خص في ذاك العهد بامتيازات موافقة له : لان هذه السلسلة على ما في الآثار التاريخية التي بين ايدينا قد اتخذت هذا الجبل المنيع معقلاً وحصناً حصيناً لصد غزوات العرب عن سورية ·

قال بروكوب المؤرخ الشهير (كتاب اف ١٦) من كلامه عن الحروب الفارسية — ان يستيانوس الاول في سنة ٥٢٧ قد أخرج باليزاريوس على الفرس وضم اليه « كوزاس وبوزاس قائدي جندية لبنان » · ثم قال (كتاب ٢ ف ٨) ان كسرى كان قد حاصر انطاكية سنة ٥٤١ وان اللبنانيين قد هرعوا للدفاع عنها « فان ثيوتست ومولاز قائدي الجندية اللبنانية قد وصلا اليها بستة الاف فارس » : غير انهم لما رأوا ان المدينة قد سقطت في يد الفرس اركنوا الى النجاة راجعين الى جبالهم · ثم قال بعد ذلك ما خلاصته : انه في سنة ٥٤٣ عند ما استأنف الروم الحرب مع الفرس طلب قائدهم « وسبتانيوس وثيوتست قائدي الجندية اللبنانية » وسألهما ان ينضما الى جيشه · ولكن لما رأيا ان لا بد لهما من ان يبعدا بجنودهما عن سورية قد اعتذرا عن اللحاق به بحجة انهما يخشيان ان يداهم العرب سورية وفينيقية وينهبوهما في غياب

هذه الحامية وهما موكولتان الى حراستها · وقد جاء ايضاً في التاريخ الكنسي لابيقغريوس السقولستي انه في عهد موريس (٥٨٣) قد تمرد جنود سورية على قوادهم ونادوا بجرمانوس ملكاً رغم ارادته ··· الى ان قال « وجرمانوس هذا كان قائد جنود فينيقية لبنان » ·

فلينصف بعد ذلك المنصفون ويستنتجوا من هذه الآثار التاريخية ما يشاؤون · على اننا لا نخالهم مستخلصين من ذلك الا ما نستخلصه نحن من ان سكان جبل لبنان الاصليين انما هم بقية من الفينيقيين الذين كانوا من قديم الدهر مستقلين في جبالهم ومدنهم الساحلية الى ان تسلط عليهم قهراً بعض الملوك الغزاة الذين فتحوا كل سورية في ادوارهم حتى الفتح العربي : وقد استمروا مع ذلك على بعض استقلالهم محافظين على حريتهم وتقليداتهم وعوائدهم ومعبوداتهم وعنصرهم الاصلي ونالهم من حكام سورية ما لم ينل غيرهم من الرعاية والامتيازات التي تقتضيها حالة بلادهم ·

الباب الثاني

في

في بيان استقلال جبل لبنان

وسكانه الاصليين

من بعد الفتح العربي لسورية حتى عهد الصليبيين

قبل الشروع في الكلام بهذا الموضوع سبيلنا ان نبحث عن سكان جبل لبنان الاصليين الذين هم حقيقة من الفينيقيين بعد دخول النصرانية فيه وتسلطها عليه حتى تلاشت منه الوثنية بالمره .

لقد سبق لنا ان ذكرنا في الباب السابق كلاماً لحضرة النقادة الشهير الاب لامنس اليسوعي مؤداه انه قل ما يوجد من الآثار النصرانية في لبنان اثر يرتقي الى ما قبل القرن السابع للمسيح • وهذا يوافق من بعض الوجوه ما بين أيدينا من الشهادات التاريخية التي ذكرناها هناك مما يدل على ان الديانة المسيحية لم يستتب امرها فيه جميعه قبل القرن السادس على الاقل .

وقد استنتج الاب لامنس هناك ايضاً ان الفوز الاخير الذي ناله الدين النصراني في لبنان انما كان على يد قوم من

الاراميين وليس من اليونان . وهذا طبيعي لان الاراميين وهم اخوان هؤلاء الفينيقيين في كل شيء حتى في الاصل واللغة كانوا أقرب الى الامتزاج بهم والتأثير عليهم من اليونان البعيدين عنهم بكل معنى كما لا يغرب عن ذي بصيرة .

فاذا صح ذلك حق لنا ان نقول : ان رهبان دير القديس مارون الذي كان على ضفاف العاصي في نواحي افامية من سورية الثانية وهم رسل المسيحية الغير الذين سفكوا دماءهم في سبيل تعزيزها ضد كل مناوئ هم هم الذين اخذوا على عهدتهم السعي في تبشير اخوانهم اللبنانيين واستجلابهم الى الدين المسيحي بعد ان اقنعوهم بسماجة الوثنية التي كانوا عليها وبينوا لهم طهارة هذا الدين القويم وسمو مبادئه وقداسة شرائعه وتعاليمه الالهية . (١) وبعد ما هدوهم الى السراط

---

(١) وليس ادل على ذلك من حادثة ارتداد بعض اللبنانيين الوثنيين على يد القديس سمعان العمودي الى النصرانية اذ لجأوا اليه طالبين انقاذهم من الضواري على ما رأيت في الباب السابق « ص ٣٤» .

ومن الثابت ان هذا القديس سمعان انما هو قورسي الاصل وبالتالي من تلاميذ القديس مارون الناسك ابي الطائفة المارونية على ما روى ثودوريطس اسقف القورسية في كتابه تاريخ رهبان هذه الاقطاعة نفسها (راجع كتابنا « لباب البراهين الجلية في اصل الطائفة المارونية » المطبوع في مصر القاهرة سنة ١٩١٢) .

المستقيم وعلموهم حقائقه حتى رسخوا فيه أخذوا بهدم معالم الاصنام واقامة الكنائس والمدارس المسيحية ورتبوا لهم كهنة يرعونهم الى غير ذلك مما يطلب في مثل هذه الاحوال واتخذوهم تحت حمايتهم ورعايتهم في كل أمر . ولهذا التصق هؤلاء النصارى الجدد في لبنان بمرشديهم الرهبان المشار اليهم وجعلوهم مرجعهم في كل شيء حتى تشرفوا أخيراً باتخاذ اسمهم والانتساب اليهم كسائر اخوانهم تلاميذ رهبان دير القديس مارون في كل هاتيك الجهات على ما هو مشهور وهذا سبب تسميتهم بالموارنة (١) .

ولم يذكر كاتب سيرة حياة هذا القديس المعظم كيف كان ارتداد هؤلاء اللبنانيين الى النصرانية بالتفصيل . بيد ان العقل السليم يرشد الى انهم قد طلبوا من رهبان تلك الناحية التي كان متنسكاً فيها القديس سمعان مَن يعلمونهم اصول الديانة المسيحية ويتولون امر تنصيرهم وايلائهم سر العماد المقدس . فجاء معهم بعض هؤلاء الرهبان ممن اكلتهم غيرة الرب وقاموا بهذه المهمة خير قيام : وقد تم لهم ذلك في اواخر القرن الخامس . ومن ثم توغل هؤلاء الرهبان في انحاء جبل لبنان مرشدين ومعلمين حتى لم يمض ردح من القرن السادس الا وقد صار معظم اهله نصارى : وقد اطلق عليهم اسم « موارنة » نسبة الى هؤلاء الرهبان كما اطلق في ذلك العصر على كل مشايعيهم في سورية الثانية (راجع كتابنا نفسه)

(١) ودونك ملخص ما جاء في كتابنا « لباب البراهين الجلية »

فيستنتج من ذلك ان هؤلاء الموارنة سكان جبل لبنان انما هم نفس تلك البقية الفينيقية التي ثبتت فيه على توالي الايام

المذكور بهذا الموضوع : ان المارونية انما هي نسبة الى القديس مارون الناسك المعظم : وانها قد ظهرت في عالم التاريخ في برهة القرن السادس للمسيح كما تدل الآثار التاريخية الباقية : وقد ظهر هذا القديس النبيل على ما يتحصل من سيرة حياته التي كتبها للخلف العلامة ثاودوريطس اسقف القورشية الشهير المعاصر له في برهة القرن الرابع ورقد بالرب في اوائل القرن الخامس ، وكان متنسكاً على احد الجبال بجوار افامية (او في بلادقورس على ما ذهب اليه بعضهم) : فضاع شذا فضائله المسيحية وقداسته الباهرة في كل هاتيك الارجاء حتى امّه جمهور من المؤمنين يتبركون به ويستشفون بصلواته وشفاعته المشفعة ويتصحون بحكمته وارشاداته ، وقد اقتدى كثيرون منهم به فاعتزلوا العالم وتتلمذوا له فكان نبراساً ساطعاً على منارة التقى يهدي الجميع الى الحياة الابدية ، واذ نقله الله سبحانه اليه ليكلله بالمجد مع اصفيائه المتقين تألب حول منسكه كل اهل الجوار تبركاً من جثمانه الطاهر وتكريماً لرفاته المحترمة ، وقد تنازعها اهل هاتيك البلاد فكان كل فريق منهم يدعي الاحقية باخذها اليه الا ان البلدة الاقرب والاكثر عدداً وقد جاء اهلها بجملتهم لهذه الغاية هي التي استحوذت على هذا الكنز الثمين بعد ان تغلبت على الآخرين وهزمتهم ، فنقلوه اليهم بكل اكرام وبنوا له هيكلاً فخماً جداً وهم لا يزالون الى يومنا هذا يكرمون هذا الظافر باحتفال باهر وينالون الكرامات .

وتقلبات الدهر واختلاف الدول على سورية الى هذا العهد ٠
وقد رأيت مما ذكرناه في الباب الاول من هذا الفصل كيف

وهذا ملخص كلام العلامة ثاودوريطس المشار اليه وهو وحده الذي كتب سيرة حياته كما هو معلوم وهو ثقة عند الجميع ، ومن المعلوم ان ثاودوريطس هذا قد جعل اسقفاً على مدينة قورس وتوابعها في خلال سنة ٤٢٣ والظاهر انه كتب سيرة هذا القديس وغيره ممن تتلمذوا له وتنسكوا خاصةً في القورشية بعد تسقيفه عليها ٠

ولم يكن في عهد القديس مارون من بدعة او مذهب خارجي في كنيسة المسيح بل كان الجميع على الايمان القويم ٠ حتى ظهر نسطور اولاً فخرج ببدعته المشهورة وهو بطريرك على القسطنطينية منذ سنة ٤٢٧ وحُرم هو وتعاليمه واشياعه في مجمع افسس الاول سنة ٤٣١ ، ثم ظهر بعده اوطاخي الراهب بمذهب المنوفيزية (وهو مذهب الطبيعية الواحدة في المسيح في سنة ٤٤٨ وقد وافقه عليه جمهور من الناس كرهاً لمذهب نسطور ومعارضة له وابطالاً لزعمه ان في المسيح طبيعتين واقنومين متحدين اتحاداً روحانياً ، وقد تطرفوا حتى وقعوا في النقيض المذموم ، فحرم هؤلاء ايضاً لاصرارهم على غيهم في المجمع الرابع المعروف بالخلقيدوني الشهير ، فتعصب لهم جمهور كبير من الروم والقبط والارمن والسريان وغيرهم ، لاصحاب هذا المجمع المقدس وتعاليمه وتحديداته خصوصاً من حيث ان للسيد المسيح طبيعتين متحدتين باقنوم واحد هو الاقنوم الالهي كل اهل اوروبا واكثر الروم والسريان ، وحصل بين الفريقين مجادلات عنيفة ادت الى شدة التباين والنفور والحقد ، وكان

كانوا مستقلين في هذا الجبل في أمور دينهم وعوايدهم بعد ما أخنى عليهم الدهر رغم ما استولى عليهم من الضعف بالنسبة

ملوك قسطنطينية تارةً ينتصرون للمذهب القويم المقرر بالمجمع الخلقيدوني واخرى لمخالفيه ٠

وهذا دير القديس مارون انما اقيم على ما يظهر تدريجاً بجانب الكنيسة التي شيدت بعد وفاة هذا القديس واودعت فيها رفاته الطاهرة على ما ذكرنا آنفاً عن العلامة ثاودوريطس ، اقامه بعض تلامذته في العيشة النسكية الذين جاوروا هذا الهيكل الفخيم تبركاً به وخدمة لاكرامه من نذور المؤمنين وتبرعاتهم الكثيرة : وقد سنوا لانفسهم قانوناً على مقتضى تعاليم ابيهم المطوب وكثرت الاديار والمناسك حوله فكان له الاولية والرئاسة عليها جميعها كما هو ثابت من الآثار الباقية من تلك الاعصار الخالية ، ومن ثم لا يمكن ان يقرر بالضبط متى ولا كيف كان تأسيس هذا الدير على ما نال بعد ذلك من الشهرة الذائعة ، الا انه من المؤكد ان قد كان تأسيسه قبل المجمع الخلقيدوني المقدس بمدة وجيزة واشتهر على ما هو معروف بعده بمدة اذ كان رهبانه واشياعهم من اكبر المنتصرين لتعاليمه واشد المتمسكين بها ، ولهذا فاذ تغلب ساويرس زعيم المنوفيزيين على كرسي انطاكية بواسطة الملك انسطاس وطمثاوس بطريرك قسطنطينية الدخيل سنة ٥١٢ في حكاية لا محل لذكرها في هذه الحاشية الموجزة كان اول هم عنده ان يكم افواه هؤلاء الرهبان ويخمد انفاسهم وانفاس مريديهم لينال مأربه من اماتة ذكر المجمع الخلقيدوني وتعاليمه واحياء مذهب المنوفيزية في كل رعيته ٠ واذا استعصى عليه ذلك بوجود هؤلاء الرهبان الذين ضاهوا الرسل

الى غاصبيهم الذين استولو على كل سورية في أدوارهم :
وعرفت ما عرفت من امرهم هذا حتى أواخر عهد حكومة
قسطنطينية .

الكرام بالشجاعة والغيرة على بث تعليم الكنيسة الصحيح وامساك المؤمنين عليه قد ارسل عليهم من كيده مشايعه بطرس اسقف افامية الدخيل بشرذمة من عسكر الروم الذين وضعهم انسطاس الملك تحت اشارته فنكل بهم تنكيلاً ونهب اديرتهم وهدمها وشتتهم ايدي سبا وقتل منهم ٣٥٠ راهباً وهم الشهداء الذين تعيد لهم الكنيسة المقدسة في ٣١ من شهر تموز باسم « تلاميذ مار مارون » : وقد تم ذلك حوالي سنة ٥١٧ كما تشهد بصحته اعمال المجمع الخامس الذي عقد في قسطنطينية سنة ٥٣٦ .

وقد هلك انسطاس الملك مصعوقاً سنة ٥١٨ و خلفه يستين على عرش قسطنطينية وكان على الايمان القويم فاخذ يحتاط للشرور التي اتولها سالفه بالكنيسة فانهزم ساويرس من وجه العدالة الى مصر حيث هلك في نواحي الاسكندرية بين سنة ٥٣٩ وسنة ٥٤٢ ورجع رهبان مار مارون الى اديارهم واستتب لهم الامر ، وخلف بستين هذا ابن اخته يستينانس المعروف بالكبير (سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٦٥ م) فتمشى على اثار خاله الطيب الذكر ، وقد ذكر بروكوب القيصري في كتاب تاريخ الابنية التي رممها وشيدها يستينانس هذا وهو معاصر له انه قد جدد ايضاً بناء دير القديس مارون في الافامية الذي كان قد احرقه اشياع ساويرس (ك ٤ ف ٩) .

فبقي الان ان نبين في هذا الباب ما استمروا عليه من
الاستقلال منذ الفتح العربي الى زمان الصليبيين وهو مدار
البحث هنا فنقول :

واستمر رهبان القديس مارون على جهادهم في سبيل الحق ونضالهم عن تعاليم المجمع الخلقيدونى القويمة ودفاعهم عن اشياعه في كل هاتيك النواحي بكل جد وعناية حتى اشتهروا بذلك واخذ خصومهم من كل فرق المنوفيزية يدعونهم بالخلقيدونيين . ويدعون كل اشياعهم في هاتيك النواحي المجاورة لهم تارة بالخلقيدونيين واخرى بحزب الرهبان مارون واهل مارون واصحاب مارون نسبة الى هذا الدير وهؤلاء الرهبان زعمائهم في الاستمساك بهذا التعليم القويم تعليم المجمع الخلقيدوني المقدس، واول من عرّف هذا الحزب بمثل هذه الاوصاف انما كان حزب المنوفيزيين خصومهم من قبيل الامتهان كما كان اولئك يسمون هولاء تارة بحزب اوطيخا واخرى بحزب ساويرس او بطرس (القلينيقي) او يعقوب (البرادعي) الى غير ذلك من النسب الى بعض زعمائهم ، وعلى تراخي الايام قد اطلق اسم (المارونية او الموارنة) على الفريق الكاثوليكي المتمسك بتعاليم المجمع الخلقيدوني . كما اطلق اسم " اليعقوبية او اليعاقبة ، على كل المنوفيزيين اصحاب الاعتقاد بالطبيعة الواحدة ولو اختلفت شروحهم لهذا المذهب الزائف .

فمن هنا يرى كل لبيب كيف ان هذا الاسم " الماروني ، قد اطلق على جمهور من الناس في كل نواحي سورية ولا سيما الثانية منها وكان مرادفاً لاسم " الخلقيدوني ، اي الارثوذكسي الكاثوليكي الشريف ويفهم ايضاً كيف ان هؤلاء الموارنة قد وجدوا بكثرة في نواحي افامية

كل ذي المام بالتاريخ يعلم ان الفتح العربي لسورية قد تم في مدى سنتين من أواخر النصف الاول للقرن السابع (اي من سنة ٦٣٤ الى ٦٣٦ م): وان لا ذكر مطلقاً فيه لفتح جبل لبنان والاستيلاء عليه استيلاء فعلياً واخضاع أهله لهؤلاء الفاتحين بوجه من الوجوه: بل بالعكس فان هذا الجبل قد بقي حراً واهله لم يخضعوا لنير هؤلاء الفاتحين الذين رغم ما أظهروا من شدة البأس قد استمروا معهم على حرب وعداء دائم.

ومما يدل على ذلك دلالة صريحة بين الشواهد التاريخية الكثيرة شهادتان معتبرتان لمؤرخين شهيرين من كتبة القرن الثامن احدهما رومي كتب في قسطنطينية وهو القديس ثوفان المؤرخ الثقة: والاخر عربي كتب في سورية وهو البلاذري المكتشف تاريخه حديثاً وقد نال من ثقة العلماء اوفر نصيب.

وانطاكية وحلب وقنسرين والعواصم والرها ودمشق وجبل لبنان. ويفقه كنه هذه النظرية التي اثبتناها في كتابنا هذا خلافاً لما ذهب اليه بعضهم من ان موارنة جبل لبنان انما هم عين الموارنة الذين كانوا مقيمين في نواحي افامية وما جاورها وبسبب شدة الاضطهاد الذي جرى عليهم من العرب الفاتحين قد فزعوا الى جبل لبنان وتحصنوا به ذوداً عن حياضهم كانهم قبيلة واحدة لا يتفكك بعضها عن بعض.

وهاك ما قاله القديس ثوفان في تاريخ سنة ٦٦٩ ملخصاً (١)

« ان الملك قسطنطين الرابع (المعروف باللحياني) قد أرسل حوالي هذا العام فرقة من المردين (٢) الى جبل لبنان فدخلوه واستولوا على كل ماهو من جبل اللكام (وهو جبل السويدية الذي فوق انطاكية) حتى المدينة المقدسة (وهي أورشليم): وجعلوا مقامهم في مشارف لبنان حيث انضم اليهم مع اهله جماعة كثيرة من العبيد والاسرى حتى بلغوا ألوفاً كثيرة في مدى قصير من الزمان: واخذوا يشنون الغارات على أهل جوارهم حتى ضايقوا العرب أشد مضايقة واضطروا الخليفة معاوية ان يعقد صلحاً غير موافقة له مع الملك قسطنطين ويكف عن محاصرة العاصمة. ثم اضطروا بعده الخليفة عبد الملك ابن مروان ان يجدد هذا عهد الصلح بشروط أهم مع يستنيانوس ابنه (المعروف بالاخرم) كان في جملتها ان يسحب

---

(١) اعلم ان القديس ثوفان قد سلك في امر تاريخ السنين المسيحية مسلكاً غير المشهور الان ولهذا فسنة ٦٦٩ عنده توافق بحسابنا الان على رأي العلماء سنة ٦٧٧ فانتبه.

(٢) ان هؤلاء المردين على ما هو ثابت الان قبيلة منشأها أعالي جبال أرمينية مما يلي بلاد فارس كانت مخلصة لملوك الروم فيستعملونها في تذليل البلاد الجبلية وهي كقبيلة الاكراد المشهورة.

هذا الملك الفتى فرقة المردين من لبنان ، وقد سحبها لغباوته فعلاً الى جهات بمفيلية (١) وكانت نحو اثني عشر الف مقاتل.اه

---

(١) ان القديس ثوفان لم يذكر ان هؤلاء المردين قد نقلوا الى بمفيلية لكنه قال في تاريخ السنة الثانية ليوستنيانوس المذكور ما مؤداه « ان الملك مضى في هذه السنة الى ارمينية حيث قابل عسكر المردين الذي كان قبلاً في لبنان كسدٍّ من نحاس لمملكته فدكه بيده »

الا ان قسطنطين السابع ملك الروم الملقب « برفيروجنات » « اي المولود بالبرفير الملوكي » وهو ابن الملك لاون الحكيم من كتبة القرن العاشر قد ذكر هؤلاء المردين في كتاب « تدبير الملك » المطبوع في باريس (فصل ٥٠ ص ١٣٧) حيث قال ان هؤلاء المردين نقلوا الى بمفيلية وكان قائدهم يقيم في مدينة اضالية بصفة والٍ عليها ويسمى قبطاناً : وان اباه الملك لاون السادس الحكيم قد نصب والياً منهم عليها اسمه استوارس بلاتين — وقال ايضاً في الفصل ١٤ من كتابه المذكور في اعمال المملكة ما مؤداه (عمل بمفيلية وفيه المردون الذين أُجلوا من لبنان ويليهم قائد لهم وقد استمروا هناك من عهد يوستنيانوس الى ايامنا) .

اما هؤلاء المردون فهم المعروفون عادة بالمردة كما ذكرهم مؤرخونا تعريباً عن لفظة mardaiti التي سماهم بها القديس ثوفان وهو اول من ذكرهم : وعن جمهور من مؤرخي اليونان كزوناراس وشدرينوس وهذا الملك المذكور آنفاً وغيرهم : وهي على صيغة النسبة في اليونانية . وقد ذكرهم ابن العبري في تاريخه بلفظة مردين على النسبة باللغة السريانية

ودونك شهادة البلاذري المؤرخ العربي المشهور بالحرف الواحد :

« فلما كانت ايام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد الملك الخلافة بعده لتوليته اياه عهده واستعداده للشخوص الى العراق لمحاربة المصعب بن الزبير — خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم (١) ثم صارت الى جبل لبنان وقد ضوت أليهم جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين.فاضطر عبد الملك الى ان صالحهم

ايضاً ولهذا استحسنا ان نعربها هنا على النسبة في العربية واردنا ان لا يفوت المطلع ذلك .

ومما يجب الانتباه اليه انه يوجد للان قبيلة مهمة من قبائل البانيا تعرف بقبيلة « المرديت » يدَّعي اللبنانيون ان اصلها منهم : وهم ينكرون ذلك ويقولون : ان اصلهم من جهات ارمينية مستندين الى تقليداتهم ويوفق بين القولين ان هؤلاء المرديت بعد ان اجلوا من لبنان الى ارمينية كما روى القديس ثوفان واقاموا في بمفيلية حيث لم يبق لهم من اثر قد انتقلوا الى جهات البانيا ومن ثم تولد هذا التقليد عندهم وتغلب على ما قبله والله اعلم .

(١) المراد بخيل الروم هنا فرقة المردين التي ذكرها ثوفان آنفاً كما يرى المتأمل . وقد اثبتنا ذلك باستفاضة في كتاب انا برأسه طبع في بيروت سنة ١٩٠٤ .

على الف دينار في كل جمعة وصالح طاغية الروم (أي ملكهم) على مال يؤديه اليه لشغله عن محاربته وتخوفه ان يخرج الى الشام فيغلب عليه . واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب اهل العراق فانه صالحهم على ان يؤدي لهم مالاً ...وذلك سنة ٧٠ (١) » الى ان قال« وكان ميمون الجرجماني عبداً رومياً لبني ام الحكم . . . . وانما نسب الى الجراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم » اهـ .

فليس اصرح من هاتين الشهادتين الراهنتين على بقاء جبل لبنان في ذاك العهد على استقلاله كما يرى المتأمل البصير .

وقد بقي الامر كذلك على ما يظهر الى القرن العاشر اذ لا ذكر عند المؤرخين لفتح لبنان واستيلاء العرب عليه صريحاً في كل هذه الفترة .

ومما يؤيد ذلك ما جاء في تاريخ الاسلام للعلامة البطريرك اسطفانوس الدويهي المدقق الشهير (٢) فقد روى عند ذكر حوادث

(١) ان هذه السنة من السنين الهجرية توافق سنة ٦٨٩ المسيحية اي بعد تولي يستنيانوس هذا عرش الروم من بعد ابيه بنحو ثلاث سنوات .

(٢) وهذا الكتاب لم يزل بلا طبع ويوجد منه نسخ خطية عديدة في لبنان وفي خزانة الكتب الواتيكانية برومية وفي خزانة الكتب العمومية بباريس .

سنة ٣٢٧ الموافقة لسنة ٩٣٨ م ما مؤداه :

« وفي سنه ٣٢٧ وهي السادسة لدرغول (١) كانت نقلة البطريرك يوحنا مارون من انطاكية الى جبل لبنان من جور المسلمين . وتوجه لزيارة القدس الشريف فاعترضه المسلمون ايضاً في طريقه كما وجدنا في التواريخ السريانية . ومضى الى يانوح التي كانت من اشرف القرى والمجالس في جبة المنيطرة (في اواسط لبنان) واهلها كثيرو الغيرة وقد بنوا دير ما جرجس كله من الحجر الازرق في غاية الصناعة وهو

(١) لم ندر من هو درغول : هذا وقد راينا الاصل السرياني الذي نقل عنه العلامة الدويهي هذه الرواية في خزانة الكرسي البطريركي في بكركي بكسروان وهو ورقة رثة باقية من اصل كتاب قديم عبثت به ايدي الزمان : ثم فتشنا في ما وصلت يدنا اليه من تواريخ العرب لسورية عن اسم درغول هذا فلم نقف له على اثر لا في هذه الفترة ولا في غيرها . الا اننا وجدنا في اوائل القرن الخامس للهجرة الموافق للقرن الحادي عشر من القرون المسيحية اسم طغرل بك ابن الامير ميخائيل ابن الامير سلجوق راس الدولة السلجوقية المشهورة سنة ١٠٥٠ م ومما يروى عنه انه في نحو سنة ٤٤٧ هـ وهي سنة ١٠٥٩ م زحف على بغداد واستولى عليها وخطب له الخليفة العباسي « القائم » في جوامعها وازوجه من ابنته ونكل ببني بويه اصحاب العراق وقتل الملك الرحيم فانقرضت به دولتهم واستولى على الموصل الخ

باقٍ الى يومنا هذا ولكنه خالٍ »١هـ .

وكلامه هنا عن بطريرك الموارنة المعروف بيوحنا مارون الثاني. (١)فهذا كان يقيم تلك الايام في دير القديس

(١) وعندنا انه الاول لا الثاني : وهو على ما يظهر من هذه الرواية اول بطريرك ماروني اقام بجبل لبنان . وكان هؤلاء البطاركة قبله يقيمون في دير القديس مارون الى ان خرب في عهد هذا البطريرك الذي نحن بصدده (راجع كتابنا لباب البراهين الجلية ف ٤ اثر ٨ برمته)

« ذلك خلافاً لما ذهب اليه الاسقف جبرائيل بن القلاعي الماروني في اواخر القرن الخامس عشر ومن لف لفه على ما روى العلامة الدويهي الشهير بعده بنحو قرنين : الذي رغم تنقيره وتنقيبه في وضع سيرة حياة هذا البطريرك القديس قد وقع بسبب هاتيك الروايات المبتسرة التي لم يستطع ان يمحصها لنقص المستندات بين يديه في مناقضات تاريخية لا تثبت على النقد عند اهل النظر،

فمن ذلك انه جعل يوحنا مارون هذا في بهرة القرن السابع : وقال انه كان ابن اغاثون وانوهيميا ، وان جده اليديس هو ابن اخت كرلوس الكبير ملك فرنسا : وانه اقيم مطراناً على مدينة البترون في جبل لبنان سنة ٦٧٨ : ثم بطريركاً على انطاكية سنة ٦٨٦ : وان يستنيان الثاني ملك الروم المعروف بالاخرم ارسل عليه حملة عسكرية عليها قائدان من قواده لينكلا بالموارنة ويأتيا بالبطريرك مكبلاً بالاصفاد سنة ٦٩١ مما اضطره ان يفزع الى جبل لبنان ليقيم بين ابنائه الذين هبوا هبة الاسود في وجه هذا الجيش وهزموه شر هزيمة بعد

مارون الشهير على ضفاف العاصي بالقرب من مدينة انطاكية

ان قتلوا قائديه : وانه قد رقد بالرب في هذا الجبل سنة ٧٠٧ واخذ من ثم يخلفه البطاركة واحداً بعد الاخر في جبل لبنان نفسه الى يومنا هذا .

ويعارض هذه الروايات اولاً : ان كرلوس الكبير ملك فرنسا الشهير قد ولد في سنة ٧٤٢ وملك على فرنسا من سنة ٧٦٧ الى سنة ٨١٤ على ما في التواريخ الصحيحة ، فلا يوافق والحالة هذه عقلاً ان يكون خالاً لجد يوحنا مارون هذا في بهرة القرن السابع ، هذا ولا محل للقول بان المراد هنا انما هو كرلوس آخر ملك على فرنسا في اواخر القرن السادس او اوائل السابع تصحيحاً لهذه الرواية لانه ما من اثر في التاريخ ولا في اساطيرهم يسوغه بوجه من الوجوه

ثانياً انه لم يظهر قط من ذكر رجل اسمه يوحنا مارون في الاثار التاريخية المعروفة حتى الان من سريانية او عربية او يونانية او لاتينية فما يتعلق بالقرن السابع او الثامن او التاسع افلا يعقل والحالة هذه ان يكون مثل هذا الرجل موجوداً وقد جرى له كل هذه الامور او بعضها في القرن السابع او في خلال هذه المدة ويصمت عنه كل مؤرخي هاتيك العصور بتاتاً وتختفي اثاره الى هذا الحد حتى لا يوجد اقل اشارة اليه ، اللهمَّ الا ما جاء في تاريخ التلمحري بطريرك اليعاقبة من كتبة القرن التاسع عن الشقاق الذي حصل بين الخلقيدونيين في سورية حوالي سنة ٧٢٧ الذين منهم الموارنة بسبب مذهب مكسيموس الذي زرعه بينهم بعض المسبيين من الروم في جيش العرب : وقد انفسد خاصة (على قوله بهذا المذهب الجديد لاجل خاطر الروم

الى ان هدمه المسلمون وشتتوا رهبانه ايدي سبا : فاضطر

اهل المدينة ومطرانهم وروسائهم ... الى ان قال: « واما رهبان دير مارون واسقف محلهم ومعهم بعض الناس فلم يقبلوا هذا المذهب ولكن اهل المدينة قد قبلوه : وقد حصلت منذئذٍ حرومات ومشاجرات في الجدال بين الخلقيدونيين لا يحصى عديدها » : وهذا مما يدل دلالة صريحة على ان الخلقيدونيين وهم غير النساطرة واليعاقبة كانوا كلهم جميعاً الى الربع الاول من القرن الثامن على مذهب واحد ووتيرة واحدة في كل سورية الى ان انقسموا الى فرقتين قامت كل فرقة بذاتها في خلال هذه المدة واخذت ترجع في امورها الدينية الى رئيسها الخاص : وهذا ايضاً مما يعارض القول بان يوحنا مارون قد اقيم بطريركاً على انطاكية بعد ثوفان في اواخر القرن السابع : ومما ينفي وجوده في تلك الفترة من الدهر على ما وصفوا كما يرى المتأمل الخالي الغرض .

ثالثاً : وما هو اغرب من ذلك ابتكارهم امر الحملة العسكرية التي ارسلها يستنيان الاخرم ملك الروم على الموارنة بطريركهم في خلال سنة ٦٩١ : فان هذه الرواية لا اثر لها الا عندهم وهي لا تتفق بوجه من الوجوه مع تواريخ ذلك العصر ولا تثبت على النقد . لانه من المقرر تاريخياً عند الجميع ان العرب كانوا قد استولوا في ذلك الزمان على كل سورية وغيرها من بلاد الروم حتى انهم قد حاصروا قسطنطينية نفسها مدة سبع سنوات وكادوا يفتحونها لولا بعض الحوادث الداخلية التي حملتهم على الارتداد عنها في خلال سنة ٦٧٧ التي فيها دخل جيش المردين (كما يقول القديس ثوفان المؤرخ الشهير) او خيل الروم وعليها قائد من قوادهم (كما يقول البلاذري المؤرخ العربي) الى جبل لبنان بامر

ان يفزع الى جبل لبنان ويحتمي من جورهم واضطهاداتهم

قسطنطين ملك الروم المعروف باللحياني ، واتفقوا مع اهله واللاجئين اليه على غزو العرب ومضايقتهم في جواره الى ان سحب هذا الجيش ابنه يستنيان في اول سنة لملكه بحسب معاهدة الصلح التي جدد ابرامها معه تلك السنة عبد الملك بن مروان خليفة المسلمين اذ ذاك (راجع كتابنا بشأن المردة والجراجمة والموارنة المطبوع في بيروت سنة ١٩٠٤) وفي سنة ٦٩٠ نكل يستنيان نفسه بعهد الصلح مع العرب عن ضعف راي وعدم روية لحداثة سنه : فوقعت الحرب بينه وبين العرب دارت فيها عليه الدوائر وكسر هو وجيوشه شر كسرة بسبب خيانة البلغاريين له . فانظر يا رعاك الله هل يتفق هذا التاريخ الصحيح مع تلك الرواية ، وتأمل ملياً هل كان ممكناً عقلاً لملك الروم ان يرسل مثل هذه الحملة الى نواحي سورية الثانية في سنة ٦٩١ لمثل هذا الغرض او لغيره من الاغراض : وكيف لم يذكر احد المؤرخين عنها شيئاً البتة فيما لو صح حصولها ؟

بيد انه قد حصل شيء من مثل هذا على رهبان دير القديس مارون في نواحي افامية وعلى اسقفهم المقيم عندهم في بهرة القرن الثامن اي في نحو سنة ٧٤٦ على ما روى التلمحري المؤرخ الثقة المشار اليه : فقد قال ما حكايته «في هذا الزمان اباح مروان ملك العرب للخلقيدونيين فاقاموا ثوفيليطا بن قنبرة من حران بطريركاً عليهم : وكان هذا صائغ الملك مروان : فاخذ من مروان عسكراً لاجل اضطهاد الموارنة : ولما اتى الى دير مارون اخذ يضايقهم لكي يقبلوا مذهب مكسيموس ... ولما تضايق الرهبان من شدة التعذيب وعدوا بانهم في الغد يوافقونه ،

وكان معه راهب شيخ يحبه: فدخل هذا الراهب عليهم واذ بلغ كنيستهم ضرب بيده مائدة الخلاص قائلاً: غداً تتقدس لها المذبح النجس: في تلك الساعة ... سقط مايتاً: فتألم ابن قنبرة جداً وجزع واراد ان يحمل الميت ويذهب فلم يدعه الرهبان حذراً من ان يقال انهم هم الذين قتلوه. فتركه ومضى دون ان يقضي لبانته: وبقي الموارنة كما هم اليوم (اي في القرن التاسع) يسمون لنفسهم بطريركاً واساقفة من ديرهم.

فهذه الحادثة التاريخية اشبه بما يرويه مؤرخو الموارنة عن الحملة التي ارسلها يستنيان ملك الروم عليهم وعلى بطريركهم الاول كما يرى المتأمل: والظاهر انها قد تواترت على السن الخلف فضاعت حقيقتها بينهم حتى بنوا اخيراً عليها هذه الحكاية المبتسرة.

وعندنا مع ذلك ان هذه قصة مار يوحنا مارون لا يصح ان تزرى برمتها وهي مستندة على ما يظهر الى آثار تاريخية قديمة العهد: فقد قال العلامة الدويهي انه وجدها في كتاب قديم العهد مكتوبة بالخط الكرشوني في كنيسة دمشق كما نقلها عنه حرفياً: وقد وجدت على هذا الشكل ايضاً في نسختين قديمتين ايضاً من سنكسار الكنيسة المارونية (وهو كتاب مجموعة قصص القديسين الذين تعيد لهم هذه الكنيسة رسمياً) وهما محفوظان في خزانة الكتب الواتيكانية برومية (عدد ٢٧ و٢٨) وكل هذه النسخ القديمة تتفق على الرواية ان يوحنا مارون هو ابن اغاثون وانوهيميا وان جده اليديبس هو ابن اخت كرلوس الكبير ملك فرنسا او ملك الافرنج او الملك الفرنجي في انطاكية. وانه ترهب في دير القديس مارون على عدوة العاصي قرب افامية: وانه صار بطريركاً على انطاكية وفزع الى لبنان من جور

الغير المؤمنين واقام فيه الى رقد بالرب واخذ البطاركة بعده يخلفونه فيه ايضاً.

وعندنا ان هذه الرواية عينها تصبح اقرب الى الحقيقة اذا نسبت الى البطريرك يوحنا مارون الذي ظهر في النصف الاول من القرن العاشر منها فيما لو نسبت الى يوحنا مارون المزعوم في بهرة القرن السابع كما يرى المتأمل. وربما دُفع اعتراض المعترضين على صحة هذه الرواية بانه من المشهور عند الجميع (راجع كتاب الكنيسة والشرق في العصور المتوسطة والصليبية للمؤرخ الفرنساوي لويس برهيار ص ٢٥) ما كان من العلايق الودية بين كرلوس الكبير والخليفة هرون الرشيد وان هذا اهدى الى ذلك ملك المغرب العظيم مفاتيح القبر المقدس سنة ٨١٠ وسمح له بان ينشيء نزلاً في القدس للحجاج.

ويقال ان هذا الملك الكبير نفسه قد حجَّ هو بذاته الى القدس الشريف. واذا ارتاب احد في صحة هذه الرواية فلا اقل من ان يكون قد حج اليه جمهور من قومه وبينهم ابن اخت له يدعى اليديبس او البيديوس واقام بعد ذلك في نواحي انطاكية وهو المقول عنه بانه جد القديس يوحنا مارون البطريرك الذي نحن بصدده. وليس في هذا القول شيء من الغرائب المستحيلة عقلاً. والا لما صح ان موارنة تلك العصور النائية تبتكر ذلك وتضعه في قصة هذا الرجل العظيم دون اقل مستند. وانت تعلم يقيناً انهم لم يكونوا اذ ذاك في حالة من العلم والاطلاع على اخبار المغرب تمكنهم من مثل هذا الابتكار لو لم يكن بلغ اليهم بالتواتر خلفاً عن سلف من عهد هذا البطريرك القديس: ومع ذلك تراهم قد خرجوا في روايته خروجاً ينفي عنهم سابق معرفته هذه الحقائق حتى يبتكروا منها مثل هذا الابتكار كما يرى المتأمل الخالي الغرض.

فعندنا من ثم انه من الواجب اللازب ان يكون هذا المنعوت بالثاني هو هو الاول بعينه وهو هو القديس يوحنا مارون الذي تكرمه الطائفة المارونية بجبل لبنان وتدعوه اول بطريرك لها فيه . لانه كما رأيت اول بطريرك من بطاركتها جعل مقامه في هذا الجبل المبارك ومنه تبتدئ سلسلة بطاركتهم فيه : واما البطاركة الذين تقدموا على هذه الطائفة فانما كانوا مقيمين في دير القديس مارون الذي على ضفاف العاصي فلم يكن موارنة جبل لبنان يعرفونهم الأ الماماً ، ولم يكن لهم من اتصال بهم الا بواسطة اساقفتهم وكهنتهم ، لا سيما وقد كانت المواصلات هاتيك الايام صعبة جداً . واذ خرب ذاك الدير العظيم وتشتت رهبانه ايدي سبا وتضعضع اتباعه في هاتيك النواحي وفزع هذا البطريرك الى جبل لبنان حيث لم يكن يناله سيف الظالمين وجعل مقامه بينهم ومقام خلفائه ايضاً شرع موارنة لبنان بعصر جديد وبدأوا بسلسلة بطاركتهم من ذاك الحين ولم يحفلوا بالسلف الذين باد ذكرهم على تراخي الزمان معما باد من اثار ذاك الدير العظيم وكتبه النفيسة التي كانت مخزونة فيه بكل حرص ولم يبق منها غير ذكرها في بعض الآثار التاريخية .

ولهذا قد اهتم موارنة لبنان في هاتيك العصور بتدوين سيرة حياة هذا الاب القديس الذي عرفوه عن كثب وعدوه شهيد الواجب بسبب ما تحمل من النصب والاضطهاد الذي الجأه الى الهرب الى جبل لبنان والاقامة بينهم الى ان رقد بالرب بشذا القداسة فادوا له تكريم القديسين .

هذا ونحن نعلم ان بعض الناس من الموارنة لا يتلقون هذا الراي الجديد الا بالاستخفاف وينسبون قائله الى الجسارة والطاولة على علمائهم

بين ابنائه الاخصاء(١) .

وكل عاقل يرى من خلال هذه الشهادات التاريخية انه

الاعلام : ولكن الحقيقة لا تخشى لومة لائم وهي لا بد لها من ان تظهر بالاحتكاك ، ومعاذ الله ان نتقصد ما قد يتهموننا به ، وانما القصد كل القصد ان نمحص تاريخنا من بعض الشوائب بقدر الامكان ونفتح باباً لبحث اهل النظر الصافي فيه وكم ترك الاول للاخر .

(١) روى المسعودي المؤرخ العربي الشهير وهو من كتبة القرن العاشر للمسيح في كتابه المعروف « بالتنبيه والاشراف » (ص ١٥٩) من طبعة باريس ، في وصف هذا الدير ما حكايته « انه دير عظيم يُعرف شرقي حماه وشيزر ذو بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيءٌ عظيم فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الاعراب وجور السلطان وهو يقرب من نهر الارنط نهر حمص وانطاكية »

وقال مترجم كتاب المسعودي هذا الى اللغة الفرنساوية في الحاشية على هذه الفقرة — ان هذا السلطان الذي من جوره خرب هذا الدير هو المعروف بسيف الدولة — وعندنا ان هذا ليس يثبت : لان هذا سيف الدولة لم يلقب قط بالسلطان حتى يصح هذا الكلام عليه ، وانما يصح ذلك على الاخشيد محمد بن طغج صاحب مصر والشام هاتيك الايام : وكان يلقب احياناً بالسلطان لان لفظة « الاخشيد » انما هي لقب سلاطين الفرغانيين في لغتهم وكان محمد هذا منهم على ما هو مشهور :

وكان الخليفة القاهر ولاه على مصر بعد موت عاملها سنة ٣٢١ هـ ثم عزله حالاً وولى مكانه محمد بن كيغلغ : فلم ينم ابن طغج على هذا

لو لم يكن في ذلك العصر جبل لبنان مستقلاً والموارنة في

الحيف حتى تغلب سنة ٣٢٣ على الشام ثم على مصر واستتب له الامر فيها .

والظاهر ان هذا السلطان المعروف بالاخشيد كان كثير الجور على النصارى يطلق يد المسلمين فيهم · ففي سنة ٣٢٣ هـ ثار المسلمون في القدس الشريف عليهم ونهبوا كنيسة القيامة واحرقوها : وفي سنة ٣٢٨ هـ ثاروا عليهم في عسقلان ونهبوا كنيسة السيدة المعروفة بالخضراء واحرقوها ايضاً وهرب اسقف عسقلان الى الرملة حيث بقي ما بقي من حياته ، وفي هذه السنة نفسها توفي سعيد بن البطريق بطريرك الاسكندرية الملكي صاحب التاريخ المشهور : وكان بينه وبين امته شقاق عظيم فاقفل الاخشيد كنائسهم واستولى على ما فيها من التحف والادوات الذهبية والفضية وغيرها وكانت شيئاً كثيراً جداً .

افلا يمكن والحالة هذه ان يكون هذا السلطان او احد عماله في تلك النواحي قد طمع بهذا دير القديس مارون حوالى سنة ٣٢٧ لما كان عليه من الغنى الذي وصفه المسعودي فعمل على نهبه وحرقه وتشتيت من بقي من رهبانه حتى لم يبقَ له ولا اقل اثر كما كتب عنه المسعودي نفسه ؟ وان يكن ايضاً بطريرك الموارنة الذي كان مقيماً فيه قد لجأ الى جبل لبنان في ذلك الاوان كما هو مذكور في هذا الاثر ؟ والمسعودي معاصر لتلك الاحداث لانه من كتبة القرن العاشر وقد توفي سنة ٩٥٧ م ولا يبعد ان يكون قد رأى هذا الدير بذاته قبل خرابه حتى وصفه هذا الوصف الدقيق .

واما سيف الدولة وهو ابو الحسن علي ابن ابي الهيجاء عبد الله بن

حرز حريز منه آمنين نوائب الدهر ونكبات العرب واضطهاداتهم لما صح ان يفزع هذا البطريرك اليهم فيه حيث وجدهم في بسطة من العيش وعلى جانب من الحرية والامان : فنصب كرسيه بينهم في بلدة يانوح التي بجبة المنيطرة على مقربة من نبع افقا في اعالي بلاد جبيل وكسروان. وقد استمر بطاركة الموارنة من بعده مدة طويلة يتوارثون هذا الكرسي خلفاً عن سلف وآثاره الى الان تدل عليه .

ومما يدعم كلامنا هذا أثر تاريخي لا شبهة في صحته : وهو يخبر عن احد اساقفة الموارنة انه قد فزع هو ايضاً من نواحي حلب الى هذا الجبل المبارك في اواخر القرن الحادي عشر حذراً من الاضطهاد الذي كان يتهدده تلك الايام . وهذا الاسقف انما هو المعروف « بتوما الكفرطابي اسقف

حمدان فكان قد ولاه اخوه ناصر الدولة الحسن على ديار بكر وآمد وميافارقين سنة ٣٢٣ هـ وفي ٣٣٣ زحف على حلب وعليها عامل من قبل الاخشيد المذكور فملكها : ثم ملك بعد ذلك كل ما هو منها الى حمص بعد حرب عوان مع الاخشيد حتى تصالحا اخيراً على ان تبقى كل هذه الاقطاعة من حلب الى حمص لسيف الدولة بعد ان ازوجه من اخته .

وهذا ايضاً مما يدعم قضيتنا ويسند رواية الدويهي المذكورة آنفاً من حيث نقلة هذا البطريرك الى لبنان سنة ٣٧٧ هـ اي عندما خرب هذا الدير والله اعلم .

كورة حلب الماروني » .

ولهذا الاسقف كتاب مشهور عنوانه « كتاب المقالات العشر » يوجد منه عدة نسخ خطّية قديمة العهد بين الموارنة بجبل لبنان : ثم في خزانة الكتب الفاتيكانية برومية وفي خزانة الكتب العمومية في باريس على ما نعلم : ولا جدال في صحة نسبته اليه . وفي صدر هذا الكتاب مقدمة عن تاريخ وضعه يظهر ان كاتبها احد كتبة أسراره أوملازميه الذين بيضوه له وهي معدودة من اصل هذا الكتاب لانها توجد في كل نسخة معروفة حتى الان من نسخه .

واليك ما جاء في هذه المقدمة مما يوافق موضوعنا بالحرف الواحد قال :

« نخبركم يا اخوة فلما كان في بعض الزمان من تاريخ اسكندر بن فيليفوس اليوناني الف واربعماية سنة (اي سنة ١٠٨٩ م) جرى فيها مكاتبات ومراسلات بين بطرك الروم في مدينة انطاكية انبا يوحنا وبين توما مطران كورة حلب الماروني .... فكتب انبا يوحنا ... رسالة ... وارسلها معه الى انبا توما مطران الموارنة الى كفر طاب بلدة كورة

حلب(١) .... فلما وصلت الرسالة الى انبا توما مطران كفرطاب تاملها جيداً ... وان انبا توما مطران كورة حلب جعل رسالة جزيلة تضاد اعتقاد البطريرك يوحنا ... في عشر مقالات .... فلما صار من امور حوادث الزمان (٢) الوارد من الله تبارك

(١) ان « كفر طاب » هي بلدة قديمة بين نهر العاصي ومدينة حلب على مقربة من معرة النعمان : واسمها سرياني مركب معناه — البلد او الكفر الطيب — وقد درست اليوم . وكان فيها كرسي هذا الاسقف الماروني ولهذا يقال له عادةً — توما الكفرطابي اسقف كورة حلب — وقد ارتاب بعض علمائنا في صحة مارونية هذا الاسقف بسبب هذه الرسالة في المشيئة الواحدة . ولكن الحقيقة انه انما كان مارونياً كما اثبتناه باستفاضة في كتابنا « لباب البراهين الجلية » المشار اليه غير مرة هنا .

واما البطريرك الذي جرت هذه المجادلة الدينية كتابةً بينه وبين هذا الاسقف الماروني فانما هو يوحنا الرابع اليوناني الاصل وهو مشهور بين بطاركة انطاكية الملكيين . وقد روى عنه غليام اسقف صور كاتب تاريخ الصليبيين المشهور انه : عند ما فتح هؤلاء انطاكية سنة ١٠٩٨ رحل عنها الى قسطنطينية حيث توفي فاقام الافرنج بعد وفاته بطريركاً منهم على هذا الكرسي الرسولي .

(٢) يشير هنا الكاتب بهذه العبارة الى اول دخول الصليبيين سورية وحربهم مع المسلمين حتى فتحوا انطاكية . والظاهر انه هرب من جور المسلمين الذين سأموا النصارى اصناف النكال في كل هاتيك النواحي

وتعالى توجه انبا توما الى جبل لبنان بمشيئة ربنا يسوع المسيح له المجد . وكان يظن انه ما يقيم فيه غير نصف سنة ويعود الى مستقره فحدث بغتة ان الافرنج نزلوا الى طرابلس الشام وراموا افتتاحها وكذلك صار انهم فتحوها . وان القديس انبا توما مكث في جبة يانوح اربع سنين وعاد رجع الى جبة بشري واقام فيها مدة سنتين »(١) .

نكاية بالافرنج كما لا يغرب عن كل ذي بصيرة . وقوله ان قد كان من قصده ان يقيم نصف سنة في لبنان ويعود الى مقره يظهر منه انه كان يعتقد ان الافرنج متى استولوا على انطاكية هان عليهم طرد المسلمين من كل هاتيك النواحي واستوثق الامان للنصارى فيعود كل الى مقره تحت حكم الافرنج فجاء الامر بالخلاف واكتفى الافرنج بالاستيلاء على انطاكية وزحفوا منها على اورشليم لانها غاية قصدهم الاولى من هذه الحملة : ومن المعلوم ان فتح مدينة طرابلس انما كان سنة ١١٠٩ : فيتحصل من كلامه عن فتحها وما يليه انه اتى الى جبل لبنان حوالى سنة ١١٠٤ والله اعلم .

(١) ان جبة يانوح موقعها في اواسط جبل لبنان في صرود بلاد جبيل مما يلي نبع افقا المشهور بالهيكل الذي كان بجانبه لعشتروت في ايام الوثنيين .

واما جبة بشري فموقعها في شمالي جبل لبنان حيث ارز الرب المشهور وهو بقية من ارز لبنان القديم في سفح جبل المكمل او ظهر القضيب وهو اعلى قمة بجبل لبنان . وهذه الغابة من الارز قائمة وحدها

فيستنتج من ذلك ايضاً ان الموارنة سكان جبل لبنان قد كانوا في هذا القرن الحادي عشر مستقلين في جبلهم هذا المنيع لا يزعجهم فيه امر من الامور التي كانت تزعج النصارى عادة في ما جاورهم من بلاد سورية مما يدل على عدم تسلط العرب عليهم في ذاك العهد .

ونختم هذا الباب بشهادة اخرى راهنة مما يثبت ما نحن بصدده اثباتاً تاماً : وهي مأخوذة من تاريخ الصليبيين لغليام اسقف صور اللاتيني المشهور . فقد جاء في هذا التاريخ (كتاب ١٢ ف ٢١) ما مؤداه :

« لما خيم الافرنج فوق مدينة طرابلس (في زحفهم على اورشليم بعد فتح انطاكية) هبط اليهم جماعة من المؤمنين السريان الذين يسكنون جبل لبنان فوق جبيل والبترون

على علو نحو ١٩٠٠ متر من البحر وفيها الشجر القديم العهد من هذا الارز يبلغ عمره على ما يقال اكثر من ثلاثة الاف سنة : وليس حول هذه الغابة من شجر غيره وهذا من الغرائب . وهو عندهم حرم للرب وذكر لارز لبنان القديم الوارد ذكره مستفاضاً في الكتاب المقدس . واهل البلاد يحافظون عليه اشد المحافظة وفيه معبد لذكر تجلي الرب الواقع عيده في السادس من شهر اب (اغسطس) حيث يجتمع اليه جمع غفير كل سنة لاقامة هذا العيد بزيد الحفاوة والابهة .

وطرابلس مما يلي الشرق لاجل تهنئتهم وعرض خدماتهم عليهم . فرحبوا بهم بعواطف الحب الاخوي واتخذوا منهم هداة يرشدونهم آمن الطرق وايسرها في تلك الجبال الهائلة التي كانت تعترضهم .

فيتحصل من هذه الشهادة اولاً ان هؤلاء المؤمنين السريان اتاهم الموارنة لان النواحي التي عدّدها هذا المؤرخ الجليل لم يكن يسكنها تلك الايام غيرهم ممن يمكن ان يُدعوا بهذا الاسم . وقد صرح هذا المؤرخ نفسه بذلك في محل اخر كما سيجيء مما لا يبقي مجالاً للاعتراض او الريب .

ثانياً ان هبوطهم اليهم فوق مدينة طرابلس لاجل تهنئتهم وعرض خدماتهم عليهم واتخاذ هؤلاء الافرنج هداةً منهم كل ذلك مما يشعر باستقلالهم في ذاك العهد كما يرى كل منصف بصير : والا لخافوا سطوة اسيادهم المسلمين وتحاشوا جهدهم مثل هذه المظاهرات العدوانية التي اتوها دون حساب للعواقب مما لم يكن يفوتهم لو كانوا تحت سيطرة اعداء هؤلاء الافرنج (١) .

---

(١) وقد جاء في التاريخ الاكبر مما رواه عنه بكل امانة ناشر كتاب تاريخ الموارنة بالطبع في بيروت سنة ١٨٩٠ للعلامة الشهير البطريرك اسطفانوس الدويهي بين تعليقاته عليه (ص ١٠٠) ما حكايته « وفي سنة ٤٧٤ (اي سنة ١٠٨١) كتب تاج الدين تتش

ومما يجب الانتباه اليه هنا ان الموارنة بسبب قلة عددهم هاتيك الايام في جبل لبنان قد تركوا سواحله وتحصنوا في اعاليه على ما هنالك من ضيق المعيشة ليذودوا باكثر سهولة عن حياضهم ويعيشوا احراراً مستقلين في جميع امورهم الدينية والمدنية . وهذا ما كانوا يميلون اليه طبعاً وقد نشأوا عليه من البداية وبذلوا كل شيء دونه .

وقد تسلط المسلمون على سواحل لبنان فقط وحصروا الموارنة من البر والبحر في جبالهم الحصينة . وقد صبر هؤلاء على شظف العيش لاجل المحافظة على حريتهم واستقلالهم صبر الابطال دون ان ينال منهم جيرانهم منالاً . وهذا جل فخارهم مذ الدهر وهم محافظون عليه الى ما شاء الله لانه في سليقتهم الكريمة .

السلجوقي ملك دمشق كتاباً الى الامير شجاع الدولة يستدعيه الى طاعته ويحثه على غزو المردة (اي الموارنة) والمحافظة من الافرنج » : والظاهر ان ذلك جرى يوم سمع هذا الملك بزحف الافرنج على سورية فتحسب لهم بهذه الطريقة مما يدل على ان الموارنة في تلك المدة كانوا مما يحسب لهم حساب بسبب استقلالهم واعتصامهم في جبالهم المنيعة . واسم « المردة » كان يطلق على موارنة جبل لبنان كما يعلم كل احد بسبب من الاسباب التي لا حاجة لذكرها في هذه العجالة .

الباب الثالث

في

احوال الموارنة على عهد الصليبيين

— تمهيد —

ان مهد المارونية على ما بيناه في كتابنا « لباب البراهين الجلية في اصل الطائفة المارونية » واثبتناه باستفاضة عن الآثار التاريخية الراهنة ولخصناه في الحاشية التي علقناها على الباب السابق (ص ٤٢) انما كان في نواحي افامية من سورية الثانية (١) حيث انشئ دير القديس مارون العظيم في بهرة القرن الخامس للمسيح واشتهر رهبانه بكثرة عددهم

(١) ان سورية الثانية بحسب تقسيم البلاد على عهد الرومانيين ويقال لها عندهم سورية الطيبة كانت حدودها الجنوبية (على قول العلامة الاب لامنس اليسوعي في الجزء الثاني من كتابه عن آثار لبنان الذي استشهدناه سابقاً ص ٨١) تنحدر الى جوار حمص فيلحق بها ارفوستا ومريمين ورفانية التي موقعها على نحو عشر ساعات من شمالي حمص بغرب وكانت حاضرتها افامية وهي الان قلعة المضيق وكان يدخل في حيزها ابيفامية وهي حماة.

وغيرتهم المتوقدة على الدين المسيحي الارثوذكسي وشدة انتصارهم حتى الدم للمجمع الرابع المسكوني المقدس وهو المجمع الخلقيدوني الشهير .

وقد علمت ايضاً مما سبق بيانه ان كل الذين شايعوا هؤلاء الرهبان وتمسكوا بهذا التعليم القويم من اهل جوارهم كان المنوفيزيون او اليعاقبة يدعونهم تارةً بالخلقيدونيين واخرى باشياع رهبان دير مارون الى ان اختصروا ذلك بالاستعمال فدعوهم « موارنة » وقد كثر اشياع هؤلاء الرهبان الذين اطلق عليهم هذا الاسم حتى امتدوا الى منبج (هيرابوليس) والرها (١) وحلب وقنسرين وانطاكية والعواصم وكل بلاد الشام بما فيها جبل لبنان على ما في الآثار التاريخية المعتبرة . وقد كانوا على هذا الامتداد حتى القرن الحادي عشر كما رايت في الباب السابق من حكاية انتقال البطريرك يوحنا مارون الى لبنان ومن قصة توما الكفرطابي اسقف كورة حلب الماروني . ويؤيد ذلك ما جاء في كلام المسعودي المؤرخ العربي المذكور آنفاً حيث قال في الفقرة التي استشهدناه بها

(١) ومنهم ثاوفيل الرهاوي الماروني رئيس منجمي المهدي ذكره ابن العبري في تاريخه المشهور واثنى عليه

هناك من كتاب التنبيه والاشراف ما حكايته :

« وامر هؤلاء الموارنة مشهور بالشام وغيرها واكثرهم بجبل لبنان وسنير (١) وحمص واعمالها كحماة وشيزر (٢) ومعرة النعمان . »

وكان منهم قسم غير قليل في جزيرة قبرس : والظاهر انهم هاجروا اليها منذ القرن العاشر ايام وقع الاضطهاد عليهم في حمص وحماه وخرب ديرهم الكبير في تلك الناحية : على ما مرَّ بك هناك ايضاً . وكان لهم في هذه الجزيرة دير كبير يقال له دير مار يوحنا الكوزبند فيه الرهبان : وكان مرجعهم الى بطريركهم بجبل لبنان كما يؤخذ من الآثار التاريخية المكتشفة في كتب الموارنة الباقية (٣) .

(١) وهو على رأي أَبي الفداء المؤرخ العربي الشهير طرف جبل دمشق الشمالي

(٢) هي على رأي الاب لامنس « شيجر » الحالية وموقعها بين حماة وافامية القديمة

(٣) راجع لباب البراهين المذكور آنفاً ص ٢٩٩ : ثم ما علق باللغة السريانية على هامش الكتاب السابع ص ٢٦٢ من الكتب السريانية التي نقلها العلامة السمعاني الى خزانة الكتب الفاتيكانية . ثم كتاب فهارس المكتبة الماديشية للعلامة المطران اسطفان عواد الشهير . وكل ذلك مذكور في كتاب لباب البراهين الجلية . وقد بحثنا عن المحل المدعو

ومن الغريب ان هؤلاء الموارنة من بعد مجيء الصليبيين الى سورية لم يبق لهم من اثر في هاتيك النواحي القاصية من سورية الا في جبل لبنان وقبرس والاراضي المقدسة على الاقل منذ استولى عليها أولئك الصليبيون . فاين يا ترى ذهبوا وكيف درست آثارهم فيها ؟

هذا مما لم يذكره احد الى الان ولم نقف له على خبر : ولهذا يمكننا ان نلجأ في الجواب عليه الى التقديرات المعقولة في هاتيك الاحوال فنقول :

يظهر ان هؤلاء الموارنة الذين كانوا عديدين في كل جهات سورية خارج جبل لبنان عند ما وقعت الحروب الهائلة بين جنود الصليبيين وبين المسلمين في سورية على ما هو مشهور اخذ هؤلاء يضطهدون النصارى الذين تحت حوزتهم في هاتيك الجهات التي تناوح انطاكية وينكلون بهم تنكيلاً حتى قتلوا منهم ونكبوا من نكبوا نكاية بالافرنج لانهم نصارى مثلهم والحرب الواقعة انما كانت دينية بحتة كما لا يغرب . وقد هرب طوال العمر من هؤلاء النصارى من وجه مضطهديهم مشتتين

هنا بالكوزبند فلم نقف له على خبر في هذه الجزيرة : الا اننا وجدنا في تاريخ العلامة الدويهي اسم « الكيزفانه » مراراً وهو اسم قرية هناك للموارنة : فقضينا بان احدهما محرف عن الآخر . والله اعلم

أيدي سبا الى مواطن الامان التي منها جزيرة قبرس حيث المهرب ايسر في البحر . ولم يهرب على ما نرى الى جبل لبنان منهم الا القليل من اهل جواره لانه لم يكن ليستوعبهم مع كثرة ما فيه من السكان على ضيقه وهذا يظهر لكل لبيب بادنى تبصر .

فاذا صح تقديرنا هذا ولا نخاله الا صحيحاً فانه يفسر تفسيراً معقولاً سبب وجود طوائف عديدة تلك الايام في هذه الجزيرة من ارمن ونساطرة ويعاقبة وموارنة ايضاً .

— ولنرجع الى ما نحن بصدده —

قد رايت في اواخر الباب السابق كيف قد هبط لملاقاة جيوش الحملة الصليبية والترحب بهم عند عرقة جماعة من المؤمنين السريان الذين في جبال لبنان وكيف قد اتخذوا منهم هداة يرشدونهم الى آمن الطرق وايسرها الى اورشليم في هاتيك الجبال الهائلة التي كانت تعترضهم . ونزيدك الان علماً ان المؤرخ غليام اسقف صور صاحب هذه الرواية قد روى ايضاً في تاريخه المذكور (ك ٢٢ ف ٨) بعد ان اوضح ان هؤلاء السريان انما هم المعروفون بالموارنة (١) قال ما يلي حرفياً :

---

(١) واليك الفقرة التي صرّح فيها هذا اسقف صور بذلك لمزيد

« ولم يكن جمهور هذا الشعب قليل العدد بل كان يقال انهم انما يتجاوزون الاربعين الفاً عداً : وهم يقطنون نجود لبنان ووهاده في اسقفيات جبيل والبترون وطرابلس كما قلنا غير مرة : وانهم رجال اشداء مدربون على السلاح وقد افادوا

الفائدة . فقد قال قبيل الفقرة التي هنا في المتن ما حكايته : « وفي هذه الاثناء بينما كانت المملكة تتمتع بالسلام الموقت (اي الهدنة) كما قلنا آنفاً فان طائفة من السريان الذين في عمل فينيقية حول مشارف لبنان مما يلي مدينة جبيل قد حصل لهم تغير في الحالة التي كانوا عليها : لانهم كانوا قد تبعوا مدة خمسماية سنة ضلالة رجل مبتدع اسمه مارون حتى اتخذوا منه اسم موارنة » . هذا ونحن ليس من غرضنا هنا ان ندخل في مشاكل دينية حتى نزيف قوله في آخر هذه الفقرة عن نسبة الموارنة الى رجل مبتدع اسمه مارون . بيد اننا نحب ان تعلم ان هذا مارون المبتدع ليس له من وجود الا في مخيلة سعيد بن البطريق بطريرك الاسكندرية الملكي صاحب التاريخ المشهور الساقط اليوم عند اهل النقد لانه قد ملأهُ بالترهات والاساطير مما لا مستند له ولا اقل رائحة من الصحة : وقد ضلل به كل الذين استندوا اليه وقبلوا رواياته التي من مثل هذه دون روية ولا تدقيق : وفي جملتهم هذا اسقف صور الذي صرح في مقدمة تاريخه بانه انما اعتمد في امور كثيرة مما يتعلق بالشرق على تاريخ ابن البطريق هذا . ومن البديهي ان الذي يبنى على الفاسد هو فاسد . وقد رددنا ذلك باستفاضة في كتابنا لباب البراهين الجلية المذكور غير مرة هنا فمن شاء المزيد عليه ان يراجعه .

جداً اصحابنا في كثير من المواقع التي حصلت لهم مع الاعداء (١) » .

وقد روى مثل ذلك ايضاً ريمند دي اغويليار المؤرخ المعاصر للصليبيين : الا انه خالف الاول في عددهم فقال انهم يبلغون الستين الفاً (٢) . وزاد على اسقف صور ان هؤلاء السريان انفسهم قد دلوا الصليبيين حينئذٍ على ثلاثة طرق الى اورشليم : احدها على دمشق وهو طريق اسهل واغنى بالميرة

(١) وقد قال هذا المؤرخ الجليل عند كلامه عن حصار اورشليم ما معناه : ان الافرنج محاصر لها اذ ضاقت بهم الحيل واحتاجوا الى الخشب لاجل تعزيز الحصار ولم يكن حول المدينة من غابات يستعينون بها لاجل هذه الغاية قد دلهم « رجل سرياني مؤمن » كان معهم على غاب بعيد كان يعرفه فاستعملوه في سد هاتيك الحاجات حتى ابتسم لهم النصر . وهذا ايضاً مما يدل على اشتراك السريان المذكورين بالفتح .

(٢) ليس من خلاف على ما نرى بين هذين المؤرخين في عدد هذا الشعب لان قول الاول انهم يتجاوزون على ما قيل له الاربعين الفاً لا ينفي قول الآخر كما يرى المتأمل ، وعندنا ان هذا العدد انما كان مقتصراً على الذكور لانهم في تلك العصور كانوا يعتبروا الامة والقبيلة بعدد رجالها دون اقل حساب للنساء في التعداد ، وقد بقيت هذه الطريقة دارجة في لبنان وسورية الى هذه الايام . ويؤيد هذا الرأي قوله بعد العدد انهم رجال اشداء الخ

ولكن فيه مسافة يومين بلا ماء للشرب : والثاني في الجبال اللبنانية وهو امين وغني ايضاً بمواد الغذاء ولكنه صعب المسالك جداً على دواب النقل : والثالث على ساحل البحر بيد ان هذا ذو مضايق كثيرة بحيث يمكن خمسين رجلاً او مئة من العرب اذا ارادوا ان يمنعوا العالم كله من عبورها . اما الافرنج فقد فضلوا هذا الطريق الاخير لانه انفع وايسر من جهة اتصالهم باسطولهم لاجل الذخيرة .

وقال المؤرخ الاخر لهذه الحروب الصليبية الاسقف يعقوب دي دتري الشهير (١) (تاريخ اورشليم ك ١ ف ٧٧) ما مؤداه : « فان اناساً غير قليلي العدد كانوا يسكنون حوالى مشارف لبنان في مقاطعة فينيقية مما يناوح جبيل وهم مدربون على الرماية بالقسي والسهام ويقال لهم موارنة نسبة الى زعيمهم المدعو مارون الخ . »

فمن هذه الشواهد التاريخية الراهنة يظهر جلياً لكل ذي بصيرة ان هؤلاء الموارنة سكان جبل لبنان قد اتصلوا بجيوش الافرنج الصليبية من اول الامر وحالفوهم واشتركوا معهم في ميادين القتال واخلصوا لهم كل الاخلاص وزحف

(١) وهو الذي اقيم مطراناً على عكاء سنة ١٢١٨ ثم جعل كردينالاً سنة ١٢٢٩

معهم على اورشليم قسم لا يستهان به منهم وكانوا بسلاً اشداء وقد افادوهم كثيراً جداً في كل امر حتى تم لهم جميعاً فتح المدينة المقدسة في ١٥ تموز (يوليه) سنة ١٠٩٩ ونالوا قسماً حسناً من الغنيمة .

هذا ومن بعد فتح اورشليم واقامة ملك (١) عليها نهض ريمند كونتي تولوزه بجيشه لفتح مدينة طرابلس . ففتح اولاً طرطوس سنة ١١٠٢ : وزحف بعدها على طرابلس فحاصرها حصاراً شديداً وبنى حصناً حصيناً تجاهها على جبل الغرباء المشرف عليها (وهو مكان قلعتها اليوم) لينازلها منه فثبتت في وجهه ثباتاً عنيفاً حتى حار في امرها . وفي هذه الاثناء زلت به القدم فسقط عن سطح حصنه هذا ومات دون ان يقضي منها وطراً . وكان ولده برتران كونتي سان جيل قد جاء لمعاونته في سبعين سفينة من الجنويين جنوده الاخصاء ففتح اولاً مدينة جبيل التي في سفح لبنان عنوة سنة ١١٠٤ ثم تحول منها الى الاشتراك في حصر مدينة طرابلس فشدد عليها الحصار بعد موت ابيه ، فجاء اسطول مصري لمعاونتها من

(١) وهو غودفريد دي بوليون قائدهم الاكبر من اللورين في فرنسا بالنظر الى ما اظهر من البسالة والحزم والحكمة والفضل في هذا الفتح .

البحر : ثم جاء بلومند ملك اورشليم الجديد في جيش اخر لمعاونة الافرنج . وقد قال بعض مؤرخي العرب ان قد انضم اليهم نصارى الجبال التي حولهم (وهم الموارنة حلفاؤهم) وقد استولوا اولاً على عرقة ثم حملوا حملة صادقة على مدينة طرابلس ففتحوها عنوةً في سنة ١١٠٩ بعد ست سنوات من محاصرتها .

واذ استتب لهم الامر سلمت هي وكل ايالتها الى كونتي سان جيل بعد ان اقسم يمين الامانة لملك اورشليم . وكانت ايالتها تمتد اذ ذاك الى نواحي المرقب من الشمال فالى وادي العاصي وسهول بعلبك من المشرق فالى نهر ادونيس (وهو نهر ابراهيم الان) من الجنوب فالى البحر المتوسط من الغرب بما فيه وادي طرطوس وعرقة من الشمال ثم جبيل والبترون من الجنوب . ويقال انه هو الذي بنى القلعة المشهورة من اثارها المعروفة الى الان في سمار جبيل فوق مدينة البترون .

وبعد الفراغ من امر تنظيم طرابلس وايالتها زحف بلدوين ملك اورشليم الثاني بجنوده على بيروت ومعه صاحب طرابلس الجديد بجنوده الجنويين والموارنة ايضاً فحاصروها من البر والبحر . وذكر صاحب كتاب الغرر الحسان في تاريخ

حوادث الزمـان انه في « سنة ٥٠٤ هـ (سنة ١١١٠ م) جمع ملك القدس جيوشه وقصد مدينة بيروت فحاصرها مـدة شهرين براً وبحراً . وكان في المدينة الامير شجاع الدولة وجماعة من اقاربه . ولما تعذر على الملك بلدوين فتحها استنجد بافرنج السواحل وامراء المردة (اي الموارنة) فـانجدوه : فنهض افرنج الشمال وتجمعوا مع المردة في جبيـل . ونهض افرنج الجنوب وتجمعوا في برج الغازية : ثم نهض الفريقان في يوم واحد الشماليون من طريق الجرد والجنوبيون على طريق الساحل ودهموا الغرب صباحاً فنهبوه واحرقوا وقتلوا واسروا من وجدوه ولم ينج من اهاليه سوى الغائبين والمنهزمين والمختبئين . . . وفي ٢٣ نيسـان (ابريل) اخذوهـا بالسيف وقتلوا عدداً كثيراً من اهلها . » وفي التواريخ الافرنجية انهم في ١٣ ايار (مايو) سنة ١١١٠ رفعوا الحصار عن المدينة واستتب الامر فيها لملك اورشليم فجعلها اقطاعة للبارون فولك دي غيناه : وجعل حدودها من نهر ادونيس في الشمال الى نهر الدامور في الجنوب .

وفتح ايضاً الملك بلدوين بعد ذلك مدينة صيدا في ٤ كانون الاول (دسمبر) سنة ١١١٠ وجعلها اقطاعة تابعة لملكه وسلمها الاوستاخ غرينياه : وجعل حدودها من نهر الدامور الى نهر الليطاني فادخل

فيها عدلون وصرفند والشوف وجزين اي قسماً كبيراً من لبنان الجنوبي .

فيظهر جلياً من تاريخ هذه الفتوحات والتنظيمات ان كل بلاد الموارنة من جبل لبنان قد دخل حتى سنة ١١١٠ في حكم هؤلاء الافرنج فنالهم منهم كل رعاية وتمتعوا على عهدهم بتمام الحرية مع المحافظة على استقلالهم الداخلي وعوائدهم وقد قال الكاتب المدقق اميـل راي في كتابه النفيس عن تاريخ النحل الافرنجية بسورية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ص ٦٢ ما حكايته « ان هؤلاء (اي الموارنة) انمـا هم الذين قد خصهم المشترع من دون سائر الوطنيين بعناية خصوصية وكانوا ماثلين على الدوام في ذهنه وقد نالوا منه حظاً ممتازاً لم ينله سواهم من هاتيك الامم » . وقد روى الكاتب الفرنساوي بوغنوت الشهير في مذكراته بشأن نظام الاراضي في الاقطاعات التي اسسها الافرنج في سورية ص ٧٣ « ان هؤلاء (اي الموارنة) قد استمروا على عوائدهم بحيث كان يحكمهم ويدبر شؤونهم الزمنية بعض اعيانهم . وكان يقال للحاكم من هؤلاء اذ ذاك « ريّس » اي رئيس : وكان يقتبس هذا الحق اما عن حقوق عائلية : واما بسبب الثروة : او عملاً بتقاليد قديمة عند فريق منهم . وكان حكمهم فيهم على طريقة حكم الاقطاعيين وقيمتهم

عندهم كقيمة الفيكونتية في فرنسا من وجوه عديدة . وقد وجد الافرنج هذه الطريقة عندهم من ذي قبل فلم يستنكفوا من ان يبقوهم عليها حسب عوائدهم .

وكان فضلاً عن ذلك للموارنة نحلة في القدس الشريف ايضاً سكنت هناك منذ اوائل الفتح مع الافرنج انفسهم وكانت محترمة عندهم جداً . ولهم كهنة منهم يقضون لهم الواجبات الدينية بحسب طقسهم وعوائدهم في كنائس اللاتين. وكان مرجع الجميع الى بطريركهم بجبل لبنان : كما تشهد الآثار التاريخية الباقية بذلك .

ويظهر ان هذه المعاملة الحسنة الممتازة التي عاملهم بها اولئك الحكام الجدد لم يكن الدافع اليها كونهم كانوا نصارى على مذهبهم فقط ولكن ما وجدوا فيهم من الشجاعة والبسالة والاخلاص فضلاً عن اشتراكهم معهم في حروبهم كلها منذ اتصلوا بهم . ولهذا قد فُتح للموارنة في ذاك الحين عهد جديد لم يكن لهم مثله قط وعاشوا بامان واطمئنان وراحة بال من حوادث الزمان . وقد بنوا الاديار والكنائس بغيرة وسخاء واقتدوا بالافرنج في كل امر حسن حتى غدوا كانهم منهم (١) وقد والوهم في كل امر من امور الدين والدنيا وتابعوهم

(١) قال الاسقف يعقوب دي وتري في المحل المذكور سابقاً

في كل شيء كانهم منهم . وقد ذكر العلامة الدويهي في كتابه رد التهم ودفع الشبه المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٠ ملحقاً بتاريخ الموارنة (فصل ٧ ص٣٥٦) ما حكايتهُ « ولما كانت سنة ١١٣١ قدم الكردينال غليلمو من قبل البابا زخيا الثاني الى الامصار الشامية برسائل الى البطريرك غريغوريوس من حالات لاجل طلب الطاعة والاتحاد مع كنيسة رومية فاجتمع

ما مؤداه حرفياً « ولهذا مع كون كل الاساقفة في الشرق ما خلا اللاتين لا يستعملون لبس التاج الحبري والخاتم ولا يحملون عصا الرعاية وليس عندهم نواقيس من نحاس لانهم انما يستدعون الشعب الى الكنيسة بقرع العصي والاخشاب فان الموارنة المذكورين يحفظون عوائد اللاتين وطقوسهم للدلالة على انقيادهم اليهم وامتزاجهم بهم » . وقال العلامة الدويهي في تاريخه المشهور ما حكايته « وفي سنة ١١١٢ اخذ جماعتنا (الموارنة) بجبل لبنان يدقون النواقيس من نحاس بدل الخشب للصلاة والقداس : والذين فاضت نعمة الله عليهم اخذوا ينشئون الكنائس والاديار والمدارس . وكان للخوري باسيل البشراني ثلاث بنات تقلا وصالومي ومريم نذرنَ العفة وانفقنَ جميع ما يملكنَ على بناء الكنائس : فبنت تقلا هيكل مار جرجس ومار ضومط في بقرقاشا وكنيستين في بشنين من ارض الزاوية احداهما على اسم مار لابي الرسول والثانية على اسم مار سركيس الشهيد : ثم رقدت بالرب سنة ١١١٣ . واختها مريم بنت هيكل مار سابا في قرية بشراي وصالومي انشأت هيكل القديس دانيال في قرية الحدث بجبة بشراي »

عند الكردينال في مدينة طرابلس روساء كهنة الطائفة وعلماؤها فحلفوا انهم طائعون لبابا رومية ثابتون على امانته واثبتوا حلفهم بخط ايديهم (١) » .

(١) والظاهر انهم اجروا ذلك اقتداء بالافرنج . وقد اردف العلامة الدويهي هذه الفقرة بقوله : « لا تتوهمنَّ ان البابا سألهم الطاعة بسبب انهم كانوا مخالفين ولكنه بعد وفاة البابا انوريوس اختار قوم انقليطوس وكان المذكور رديء السيرة فسلب اواني مار بطرس وذخائر الكنائس برومية : وبالرشوة استعطف خواطر اكابر رومية وعقد مجمعاً حرم فيه زخيا وكل من ينادي باسمه او يعضده . ولاجل ان يقرب اليه روجيار امير صقلية وبلادها وعده بان يجعل صقلية ملكاً مؤبداً له ولذريته وانفذ رسائله ورسله الى ملوك النصارى ورؤسائهم وشعبهم في بلاد الغرب والى يوحنا ملك الروم والى بطاركة الشرق يخبرهم بقيامه لينادوا باسمه ويرذلوا زخيا خصمه . واما البابا زخيا فلما رأى خيانة الرومانيين وميلهم الى انقليطوس شخص من رومية الى فرنسا وانحاز الى كبرائها فعقدوا هنالك مجمعاً للبحث عمن يليق بان يتولى كرسي رومية فوقع اختيارهم على زخيا ورذلوا انقليطوس واطاعوه وقبل قدميه لويس ملك فرنسا وزوجته واولادهما وكذلك هنريكوس ملك الانكليز وحلف رؤساء الكهنة بالطاعة له في امصار فرنسا واسبانية وانكلترة والمانية وغيرها وكذلك فعل رؤساء الافرنج الذين كانوا في بلاد الشام : وهكذا فعل ايضاً رؤساء الامة المارونية على يد الكردينال غليلمو لصحة امانتهم وصدق طاعتهم للبابا زخيا دون غيره » وهذا كما يرى المتأمل مما يثبت صدق قولنا بان الموارنة كانوا يتمشون على قدم الافرنج

وقد جاء في اثر خطي قديم العهد وجده العلامة المطران اسطفان عواد على هامش كتاب الاناجيل المقدسة الذي كان في كرسي بطريركية الموارنة بجبل لبنان من عهد عهيد ثم نُقل الى خزانة الكتب المادشية التي بمدينة فلورنسة بايطالية ، وقد قال عنه المطران المذكور انه بخط كاتبهِ عن نفسهِ البطريرك ارميا الماروني واثبتهُ مع ترجمته الى اللغة اللاتينية وتعليقه عليه في فهارس كتب هذه المكتبة النفيسة ، واليك ما جاء في هذا الاثر التاريخي المعتبر مترجماً بكل تدقيق عن اصله السرياني وفيه ما يلامس موضوعنا بنوع صريح :

« في سنة ١٤٩٠ لليونان (وهي سنة ١١٧٩ م) في اليوم التاسع من شهر شباط انا الحقير ارميا من قرية دملصا (١) المباركة اتيت الى دير سيدتنا القديسة مريم بميفوق في وادي ايليج من عمل البترون الى سيدنا بطرس بطريرك الموارنة ورسمني بيديه المقدستين مطراناً على دير كفتون المقدس الذي على ضفة النهر (٢) وبقيت هناك اربع سنوات » .

في مثل هذه الامور الدينية ايضاً .

(١) وهي فوق مدينة جبيل مما يناوح عمشيت الشهيرة ولهذا اشتهر بارميا العمشيتي .

(٢) وهو اليوم بيد الروم ولا ندري كيف وصل اليهم والظاهر

« وبعد انقضاء السنين الاربع طلبني امير جبيل (١) والاساقفة وروساء الكنائس والكهنة والقوا قرعة فاصابتني وصيروني بطريركاً في دير حالات (٢) : ثم ارسلوني الى مدينة رومية العظمى وتركت اخانا المطران ثاودورس يدبر الرعية ويهتم بشوؤنها . »

فقوله هنا عن امير جبيل انه قد طلبه الى مجمع الانتخاب وهو افرنجي على ما هو مشهور لدليل صريح على اهتمامه الجدي بامور الموارنة الدينية وعلى قبول اشتراكه معهم في مثل هذه الامور الجوهرية عن طيبة خاطر لموضع محبتهم له وثقتهم به حتى حسب نفسه وحسبوه هم ايضاً منهم . وقد حصل ذلك على ما يظهر في خلال سنة ١١٨٣ (٣) .

انه لم يكن الروم هاتيك الايام في كورة طرابلس وانما هم دخلاء هناك في عصر متأخر بدليل استيلائهم ايضاً على دير البلمند الشهير الذي كان للصليبيين كما لا يغرب عن كل ذي المام بتاريخهم .

(١) وكان اذ ذاك هوغو دي لمبرياك .

(٢) وهو اليوم خراب وآثاره تكاد لا ترى : واما موقعه فبالقرب من نهر ابراهيم الى الشمال مما يشرف على البحر .

(٣) وهنا محل للنظر من جهة تاريخ اقامة هذا البطريرك وقول غليام اسقف صور ان الموارنة رجعوا الى حضن الكنيسة المقدسة سنة ١١٨٢ على يد هيماريك بطريرك انطاكية اللاتيني : والظاهر انهم كما

***

ولم يكد يميل القرن الثاني عشر الى الزوال حتى قضت نوائب الدهر على مملكة اورشليم الافرنجية بالزوال ايضاً قبل انقضاء الربع الاخير منه : وقد صح اذ ذاك قول الشاعر :

فيومٌ علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نُسرّ

ففي سنة ١١٨٧ سقطت اورشليم بعد طبرية في يد المسلمين على يد الملك صلاح الدين الايوبي الشهير : فذهب اخر ملوكها غويد اللوسنياني طريداً شريداً . وكان في هذه الاثناء قد جاء ملك الانكتار ريشار قلب الاسد البطل المغوار على رأس الحملة الصليبية الثالثة فمر بجزيرة قبرس واستولى عليها . وفي سنة ١١٩٢ وهبها لهذا ملك اورشليم المغلوب على امره الذي اخذ يلح على الامراء الصليبيين الذين طُردوا نظيره من اقطاعاتهم بالذهاب معه اليها لكي يعزز مملكته هذه الجديدة . فذهب معه اكثرهم في جمهور من رعاياهم الموالين من افرنج ووطنيين تخلصاً من النير الاسلامي الثقيل . وكان في جملة هؤلاء جمهور من الموارنة ممن كانوا في خارج جبل لبنان : وقد وجد هؤلاء

اثبت العلامة الدويهي في كتاب رد التهم المذكور (ف ٧ ص ٣٥٧) قد ادوا اذ ذاك يمين الطاعة للبابا الشرعي اسكندر الثاني مع روساء الكنيسة اللاتينية واعيان الافرنج في سورية لحكاية طويلة لا محل لذكرها هنا .

اناساً منهم كانوا مقيمين في هـذه الجزيرة من ذي قبـل فاستأنسوا بهم وانضموا اليهم في شمالي الجزيرة حيث كوَّنوا مستعمرة جبلية لهم اشبه بجبالهم اللبنانية (١) .

(١) قد ذهب الكاتب الفرنساوي المدقق دي مالاتري في تاريخ قبرس (مج١ ص ١٠٦ الى ١١١) انه من المرجح جداً ان الموارنة قد وجدوا في جزيرة قبرس منذ هذا التاريخ اذ ليس من دليل على وجودهم قبل ذلك · ويعارض قوله هذا الآثار الخطية التي وجدت معلقة على بعض الكتب القديمة من كتب الموارنة : واولها ما كتبه شمعون الراهب باللغة السريانية على هامش الصفحة ٢٦٢ من الكتاب السابع بين الكتب السريانية المخطوطة التي نقلها العلامة السمعاني الى خزانة الكتب الواتيكانية وهو كما يلي مترجماً بالحرف الواحد : « انا الحقير شمعون الراهب اسماً كتبت هذه الاسطر في هذا الكتاب عند ابينا الطوباوي بطريركنا مار بطرس بطريرك الموارنة الساكن في الدير المقدس دير القديسة مريم الذي في ميفوق بوادي ايليج من ارض البترون : الى ان اعطاني امراً بان اكون رئيساً ومديراً لدير القديس يوحنا الذي في كوزبند بجزيرة قبرس ·· وذلك في سنة ١٤٣١ اليونانية (وهي سنة ١١٢١ م) » · والاثر الثاني كتابة سريانيـة ايضاً بخط البطريرك يعقوب الراماتي سنة ١٤٥٢ اليونانية (وهي ١١٤١ م) على كتاب ميامر مار يعقوب السروجي في نصف الميمر ٦٥ وقد قال العلامة الدويهي الذي نقله عنه انه كان محفوظاً على عهده في دير قنوبين الكرسي البطريركي اذ ذاك · وفيه ان هذا البطريرك قد اقام تلك السنة رئيساً على هذا دير مار يوحنا في الكوزبند بجزيرة قبرس الراهب دانيال الخ ·

وقد حان ان نذكر هنا مـا عند الموارنة من التقاليـد المتسلسلة عن اتصالهم بالقديس لويس التاسع ملك فرنسـا اذ قدم الى سورية سنة ١٢٤٨ على رأس الحملة الصليبية السابعة لاجل استرجاع المدينة المقدسة وتعزيز الافرنج الصليبيين .

فقد ذكر المؤرخون الثقاة ان هذا الملك العظيم الشان قد اتخذ اولاً جزيرة قبرس محطةً لجنوده وقد قضى فيها فصل الشتاء على الرحب والسعة . وفي ربيع سنة ١٢٤٩ ركب اساطيله ومعه نحو خمسين الف مقاتـل بعدتهم الكاملة الى القطر المصري (١) قصد الاستيلاء عليه حتى اذا صح له ذلك

والاثر الثالث هو بخط البطريرك بطرس سنة ١٤٦٥ اليونانيـة (وهي ١١٥٤ م) وفيه انه اقام هذه السنة الراهب اشعيـا من دير قزحيا رئيساً على هذا دير مار يوحنـا الكوزبند في جزيرة قبرس (راجع كتابنا لباب البراهين الجلية ف ٥) · فوجود هذا الدير فيه الرهبان بجزيرة قبرس منذ ذاك العهد دليل قاطع على وجود طائفة عديدة زاهرة هناك كما لا يغرب عن المتأمل اللبيب وبهذا القدر غنى ·

(١) وقد روى ابن العبري في تاريخه العربي المطبوع في بيروت (ص ٤٥٢) ان هذا ملك فرنسة « قد ارسى اولاً بعكا وانبث اصحابه في جميع بلاد الساحل · فلما استراحوا جاؤوه حاشدين حافلين وساروا في البحر الى دمياط وملكوها بغير تعب ولا قتال » وهو مؤرخ معاصر فلا ندري الى اي شيء استند في هذه الرواية المخالفة لما قاله كل مؤرخي الافرنج ·

وذلل حكامه سهل عليه جداً استرجاع اورشليم وتوابعها من يد المسلمين بحسب غرضه من هذه الحملة . وقد والاه على هذا الراي ملك قبرس هنري اللوسنياني وانضم اليه بما عنده من الجنود : فقصدوا جميعاً اولاً ثغر دمياط الذي سقط في ايديهم دون عناء . وفي سنة ١٢٥٠ توغلوا في بلاد مصر حتى بلغوا المنصورة حيث خانهم الحظ وانكسروا شر كسرة ووقع ملك فرنسة وملك قبرس وبعض الخواص في الاسر . ففدا الملك نفسه ومن معه بمبلغ طائل من المال وبترك دمياط للمصريين : وقد تركها وقفل راجعاً بمن بقي معه الى فلسطين واقام بمدينة عكاء وبنى مدينة قيصرية لاتباعه . وقد مكث

وقد روى العلامة الدويهي في تاريخه المطبوع في بيروت ايضاً (ص ١٠٩) وفي النسخة الخطية التي بين ايدينا لهذا التاريخ : انه «قضى فصل الشتاء في قبرس ومنها سار الى عكا وارسى بها وفرّق جماعته على ساحل البحر فازدادوا عزماً وقوة . ثم سار في البحر بخمسين الفاً قاصداً دمياط» والظاهر انه اراد ان يوفق بين الروايتين . ولا نظن ان ذلك موافق للحقيقة : لانه لا يعقل ان يكون هذا الملك قرر هو وخواصه الشروع باخذ مصر ليسهل عليهم استرجاع اورشليم ثم جاؤوا الى فلسطين ليذهبوا منها الى مصر فتبعد عليهم الطريق ويعطوا مجالاً لاهل مصر حتى يستعدوا للقائهم : ثم ليست عكا على طريقهم من قبرس الى دمياط كما لا يغرب .

في هاتيك الربوع نحو اربع سنين حتى اضطر ان يرجع الى فرنسة بسبب موت والدته . وابقى من قومه عدداً غير قليل فبقوا زها السنتين ينتظرون الفرج لاجل العود الى اوطانهم .

وهذا ملخص ما جاء في التواريخ العمومية الصادقة بهذا الموضوع . وقد جاء في الآثار المارونية : ان الذين كانوا في قبرس من هذه الطائفة ولم يكن عددهم قليلاً قد تقربوا الى هذا الملك القديس هناك بعواطف الدين والحب والاخلاص : وقد تطوع منهم قسم يعتد به في جيشه . وقد روى العلامة الدويهي في كتابه رد التهم المذكور (ف ٧ ص ٣٧٣) عن جبرائيل بن القلاعي الذي عاش منذ اول النصف الثاني من القرن الخامس عشر وكان مطراناً على جزيرة قبرس : فقال ما حكايته «في سنة ١٢٤٨ خرج لويس ملك فرنسة من بلاده في نحو خمسين الف مقاتل فشتى بهم في قبرس : ثم انه في اول الربيع سار بهم وبنصارى موارنة من سكان الجزيرة الى جهة مصر الخ» وقد ذكر مثل ذلك في رسالة له انفذها في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٦٧١ باللغة العربية الى قنصل فرنسة في صيدا المدعو «بونيكورسه» بعد ذكر مساعدة الموارنة للصليبيين في كل فتوحاتهم من اول الامر واستبسالهم في القتال على ما ذكر

غليام اسقف صور وسواه كما رأيت في الباب السابق فقال : « واذ اتى بعد هاتيك الحروب القديس لويس ملك فرنسا فخر الملوك لفتح مصر قد تجند معه مقاتلة الموارنة في قبرس ورافقوه في هذا الحملة ... ويقول مؤرخونا انه بعد عود الموارنة قد جاء كثير من الجنود الفرنساوية الى جبالنا اللبنانية وحاربوا بها الاعداء مدة اكثر من ثلاثين سنة وانزلوا بهم خسائر جسيمة » . وقد قال بذلك ايضاً المطران نقولا مراد النائب البطريركي الماروني برومية في نبذة له نشرها باللغة الافرنسية سنة ١٨٤٤ وعين عدد المتطوعين حينئذ من هؤلاء الموارنة خمسة الاف مقاتل سلم منهم في الموقعة المنصورة مئة واثنان .

وليس هذا من الغرابة في شيء بعد ان علمت آنفاً ان ملك قبرس قد انضم بجنوده الى جيش القديس لويس التاسع وحاربوا معاً في دمياط والمنصورة : لانه من المقدر عقلاً ان يكون بين جنود ملك قبرس قسم من هؤلاء الموارنة كما لا يغرب عن ذي بصيرة .

هذا واذ جاء هذا الملك القديس ببقية جنوده الى عكا ناجياً من الاسر يظهر ان موارنة جبل لبنان ايضاً قد هرعوا اليه لتهنئته بالسلامة ولعرض خدماتهم عليه : وقد اتوا في خمسة وعشرين الفاً بالهدايا النفيسة على رأسهم ابن اميرهم اذ

ذاك المدعو سمعان (١) بدليل البطاقة التي تكرم بها عليهم وترجمتها كما يلي حرفياً :(٢) .

« الى امير الموارنة بجبل لبنان »

« والى بطريرك (٣) هذه الطائفة واساقفتها »

« لقد أفعم قلبنا سروراً عند رؤيتنا ولدكم سمعان آتياً »

« الينا من قبلكم على راس خمسة وعشرين الف رجل »

---

(١) قد جاء في تاريخ مملكة اورشليم للمؤرخ روهرخت الالماني (ج ٦ ص ٢٢٠) ذكر مقدم ماروني يدعى سمعان تولى عينتاب شمالي سورية على عهد الصليبيين واثاره مفقودة مع اثار كثيرين غيره من اعيان هذه الطائفة في تلك العصور والتي قبلها (راجع كتاب الاب لامنس المذكور غير مرة ص ٥٥) .

(٢) اول من اثبت هذه البطاقة على ما نعلم هو المطران نقولا مراد في نبذته المذكورة هنا في المتن : وقال انه اخذها عن صورة خطية قديمة محفوظة في خزانة الاوراق في بطريركية الموارنة بجبل لبنان ، وهي ترجمة عربية لهذه البطاقة اعتنى هو بترجمتها الى اللغة الافرنسية الحديثة : وقال ايضاً ان مترجمها كتب عليها انه نقلها عن الاصل اللاتيني الذي كتبت به . فهذه الترجمة اذاً انما هي عن ترجمة افرنسية حديثة مأخوذة عن ترجمة عربية قديمة فقدت اليوم فيما فقد من اوراق الكرسي البطريركي القديمة .

(٣) ان البطريرك الذي وجهت هذه البطاقة اليه انما هو البطريرك سمعان الذي اقيم سنة ١٢٤٥ وتوفي سنة ١٢٧٧ م وهو الذي

« يبلغنا عبارات حاساتكم ويقدم لنا الهدايا فضلاً عن الخيل »
« الكريمة التي ارسلتموها الينا . فنؤكد لكم ان المودة »
« الصادقة التي اخذنا نشعر بها بحرارة شديدة نحو الموارنة في »
« مدة اقامتنا في قبرس حيث هم مقيمون قد زادت فينا ايضاً : »
« ونحن على يقين من ان هذه الامة التي وجدناها قائمة تحت »
« اسم القديس مارون انما هي قسم من الامة الفرنساوية : »
« لان اخلاصها للفرنساويين اشبه باخلاص الفرنساويين »
« بعضهم لبعض : ومن ثم فمن العدل ان تتمتعوا انتم وسائر »
« الموارنة بنفس الحماية التي يتمتع بها الفرنساويون لدينا »
« وان تقبلوا في الوظائف نظيرهم تماماً » .

« ونحن نحرضك ايها الامير الشريف على بذل الغيرة »
« والجهد في سبيل سعادة سكان لبنان وعلى العناية باقامة »
« اشراف من الاكثر اهلية بينكم كما يُعمل عادة في فرنسا . »
« وانتم ايها السيد البطريرك والسادة الاساقفة وسائر »
« الاكليرس والشعب الماروني مع اميركم الشريف ايضاً فاننا »
« ننظر بمزيد التعزية الى تعلقكم الثابت بالديانة الكاثوليكية »

كتب اليه ايضاً البابا الاسكندر الرابع يثني عليه بقبوله الافرنج المهاجرين الى لبنان مع طائفته ويفوضه بامورهم الروحية كما سيجيء الكلام فيما يلي .

« والى احترامكم لرئيس الكنيسة خليفة القديس بطرس »
« ونحضكم على حفظ هذا الاحترام وعلى الثبات في ايمانكم »
« بلا انفصام »

« اما نحن وكل الذين يخلفوننا على عرش فرنسة فاننا »
« نتعهد بان نوليكم انتم وشعبكم نفس الحماية التي للفرنساويين »
« انفسهم وبان نعمل على الدوام كل ما هو ضروري لسعادتكم . »

« وصدر عن عكا في ٢١ ايار (مايو) سنة ١٢٥٠ وهي »
« الرابعة والعشرون لتملكنا . » (١)

***

ويظهر ان بعد عود القديس لويس ملك فرنسة بجيوشه الى بلاده في نحو سنة ١٢٥٤ قد زاد الافرنج ضعفاً حتى زاد طمع المسلمين فيهم واخذوا يسترجعون منهم تدريجاً ما كانوا قد استولوا عليه من البلاد في ايام عزهم وصولتهم .

وكان الموارنة في لبنان خاصة عوناً للافرنج على المسلمين

---

(١) وقد المع الى مثل ذلك بعض الخطباء الفرنساويين في مجلس النواب في باريس مثل الكونت دي مونت لبر والمسيو ملفيل والكونت دي كتربوب والمسيو كربيو النائب الاسرائيلي . وتجد ذلك في مجموعة المحررات السياسية التي عني بترجمتها وطبعها شهيدا الوطن المرحومان الشيخ فيليب والشيخ فريد الخازن سنة ١٩١٠ .
وسننشر اقوال من ذكرنا هنا في ذيل هذا الكتاب ان وفق الله .

في هاتيك الاحوال ولم يدخروا وسعاً في انجادهم وقت الشدة :

وقد ذكر العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٢٦٤ من كتابه المطبوع في بيروت المذكور مرارًا (ص ١١١) ما حكايته :

« في هذه السنة خرج الملك الظاهر (١) بعساكره من الديار المصرية ففتح القليعات (في بلاد عكار) وعرقة وهمَّ بحصار طرابلس فانقضت عليه رجال الموارنة من الجبال وهزموا عسكره . »

الى ان قال في تاريخ سنة ١٢٦٦ م بعد ان ذكر فتح هذا الملك الظاهر لمدينة يافا وقلعة الشقيف وحصن تيرون بين صيدا ودمشق الخ ما حكايته :

« ثم اغار الملك الظاهر على طرابلس فقطع اشجارها وغور انهارها وخرب اربعاً وعشرين قرية من قراها فانسكبت عليه رجال المردة (اي الموارنة) من الجبال ففر هارباً الى حصن الاكراد ومن هناك زحف الى انطاكية فنازلها بغتة في مستهل رمضان وبعد حصار اربعة ايام ملكها بالسيف يوم السبت فقتل اهلها واحرق كنائسها وغنم منها اموالاً كثيرة ···· وكانت اذ ذاك انطاكية للبرنس بيومند بن بيومند وله معها طرابلس . وقد كان البرنس مقيماً بطرابلس

(١) وهو ركن الدين بيبرس البندقداري

لما فتحت انطاكية » اهـ .

والظاهر انه لما كان الملك الظاهر قد رُدَّ مرتين خائباً عن طرابلس بسبب الموارنة اللبنانيين كما رأيت حنق عليهم وأخذ يتحين الفرص للانتقام منهم والتنكيل بهم ولكنه لم يفلح الى ان تولى مكانه السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ابو المعالي الصالحي النجمي وهو السابع من ملوك الترك في الديار المصرية فأتم الانتقام منهم .

وقد روى صاحب كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان (١) قال : « في سنة ١٢٨٣ لما تولى بيبرس اجتمع الامراء فانتخبوا الامير قلاوون اتابك (٢) العسكر وسمي بالملك المنصور فامر بغزو جبل لبنان لان اهله كانوا نجدة افرنج السواحل » اه

وروى العلامة الدويهي في تاريخه المذكور (ص ١١٥) بهذا الشأن انهُ قد وقف على كتاب خطي للصلاة كُتب في سنة ١٥٩٤ اليونانية الموافقة لسنة ١٢٨٣ المسيحية وفيه كتب

(١) للشيخ طنوس بن يوسف بن منصور الشدياق الشهير من اواخر القرن الثامن عشر الى اواسط القرن التاسع عشر وقد انجز كتابه هذا في سنة ١٨٥٥ ونشره بالطبع في بيروت سنة ١٨٥٩ وضمنه فوائد شتى من تواريخ لبنان واسره ونوابغه حتى المعاصرين له بكل تدقيق واخلاص

(٢) اي امير الامراء وهو المعروف اليوم على ما نرى بالقائد العام .

ناسخهُ ما موءداه :

« انه في شهر ايار (من هذه السنة) سارت العساكر الاسلامية الى جبة بشراي وصعدت بوادي حيرونا شرقي طرابلس وحاصرت قرية اهدن حصاراً شديداً وفي تمام الاربعين يوماً ملكوها في شهر حزيران فنهبوا وسلبوا وخربوا القلعة التي في وسطها والحصن الذي على رأس الجبل . ثم انتقلوا الى بقوفا ففتحوها في شهر تموز وقبضوا على اكابرها واحرقوهم في البيوت ودكوها الى الارض واسرفوا في النهب والسلب. وبعد ان وضعوا السيف في اهالي حصرون و كفر صارون وذبحوهم في الكنيسة زحفوا في ٢٢ آب الى الحدث فهرب اهلها الى العاصي وهي مغارة منيعة فيها صهريج ماء فقتلوا من ادركوه وخربوا الحدث وبنوا برجاً قبالة المغارة وابقوا فيه كميناً من العسكر ثم هدموا جميع الاماكن الحصينة . »

واتفق بعد ذلك ان قد توفي سنة ١٢٨٧ البرنس بيومند صاحب طرابلس فانتهز الفرصة السلطان قلاوون المذكور بعد ان اخمد قوة الموارنة الذين فوق طرابلس وامن شرهم فحاصر هذه المدينة نحو ٣٣ يوماً وفتحها عنوة يوم الثلاثاء في ٢٦ نيسان واسرف في اهلها نهباً وقتلاً حتى لم ينجُ منهم الا القليل .

وقد قال العلامة الدويهي في تاريخ هذه السنة بعد



فتح طرابلس هذا ما حكايته :

« ومن حيث ان الكسروانيين والجرديين (١) قد نزلوا من الجبال لنجدة الافرنج وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً برز الامر من حسام الدين لاجين نائب دمشق (الذي كان مشتركاً في حصار طرابلس وفتحها) الى قراسنقر ان يجمع العساكر الشامية ويزحف بها لاستئصالهم قال ابن سباط (٢)

« وكتب ايضاً الى اثنين من امراء غرب بيروت جمال الدين حجي بن محمد التنوخي وزين الدين بن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة

---

(١) المراد بالكسروانيين سكان بلاد كسروان وهي مقاطعة مشهورة في قلب جبل لبنان كان يقال لها العاصية لوعورة جبالها والداخلة ايضاً لدخول البحر في ساحلها على شكل جون . وكان يحدها من الجنوب نهر الجماني وهو نهر بيروت ومن الشمال نهر العاملتين (دعي بهذا الاسم لوقوعه بين معاملة جبيل التي تخص طرابلس ومعاملة كسروان) واما الجرديون فالمراد بهم سكان بلاد الّتي من لبنان وهو ما يتاخم بلاد كسروان من الجبل : وكان بينهم وبين الكسروانيين محالفة متينة على ما يظهر .

(٢) هو حمزة بن احمد الفقيه المعروف بابن سباط الغربي « اي من غرب لبنان » من كتبة المسلمين في القرن السادس عشر وله تاريخ حسن ينتهي حوالي سنة ٩٢٧ هـ (اي سنة ١٥٢٠ م) .

الى جهة الجرد وكسروان يتوجهان اليه بعساكرهما واحويتهما وان من نهب امرأة تكون له جارية او صبياً يكون له مملوكاً ومن احضر منهم رأساً فله دينار : وان سنقر المذكور متوجه لاستئصال شافتهم وسبي ذراريهم » اه .

وقد جاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحيي (١) بشأن هذه الحملة على بلاد كسروان ما موءداه :

« في شهر شعبان سنة ٦٩١ هـ (اي سنة ١٢٩٢ م) توجه الامير بيدرا قائد السلطنة بمصر وقصد جبال كسروان وتوجه بصحبته من الامراء الاكابر شمس الدين سنقر الاشقر والامير قراسنقر المنصوري والامير بدر الدين بكتوت الاتابكي والامير بدر الدين العلائي وغيرهم واتاهم من جهة الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا والامير عز الدين ايبك الحموي وغيرهما والتقوا بالجبل . وحضر الى الامير بيدرا من ثنى عزمه وكسر حدته فحصل الفتور في امرهم حتى تمكن الكسروانيون من بعض العسكر في تلك الاوعار ومضايق

(١) هو كاتب من بني تنوخ امراء الغرب في نحو القرن الخامس عشر : وقد اكتشف تاريخه هذا عن بيروت وآل تنوخ ونشره بالطبع في مجلة المشرق البيروتية ثم مستقلاً حضرة الاب لويس شيخو اليسوعي العلامة المجتهد حوالي سنة ١٩٠٢ م .

الجبال فنالوا منهم . وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع فيهم اهل تلك الجبال . (١) اه .

(١) وقد ورد خبر هذه الغزوة لكسروان في تاريخ المماليك للمقريزي ولا تختلف تفاصيلها عما ذكرناه هنا عن صالح بن يحيى : اما العلامة الدويهي فقد ذكر حادثة هذه الحملة على كسروان على اثر فتح طرابلس سنة ١٢٨٧ م وسكت عن نتيجتها سكوتاً تاماً : وقد ذكرها صالح ابن يحيي في تاريخ سنة ١٢٩٢ خاتماً اياها بتغلب الكسروانيين على جيش المسلمين كما رأيت .

على ان ابن يحيي قد اثبت بين الخطوط الشريفة التي وردت الى جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي الخط الاتي بهذا الشأن قال « ومن مضمون مثال من ملك الامراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور قلاوون الى جمال الدين وزين الدين بن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة الى جهة كسروان والجرد يتوجها اليه بجموعهما واسرتيهما وان من سبى امرأة منهم كانت له جارية او صبياً كان له مملوكاً ومن احضر منهم رأساً فله دينار . وان سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب اموالهم وسبي ذراريهم وانفسهم . تاريخه ٧ جمادى الاولى سنة ٦٨٦ » اي سنة ١٢٨٧ م :

والظاهر ان الحقيقة انما هي في رواية ابن يحيي : وان ابن سباط الذي نقل عنه الدويهي استند في تاريخ هذه الحادثة الى ما رآه من تاريخ هذا الخط الذي روى ملخصه كما رأيت : اما ابن يحيي فقد استدرك على ذلك ما فات ابن سباط استدراكه فقال « وهذا الخلف كان للسلطان الاشرف خليل لان والده المنصور قلاوون توفي في ذي القعدة سنة ٦٦٩

فكل من دقق النظر في هاتين الروايتين التاريخيتين عن هذه الحادثة التي وقعت على اثر فتح طرابلس تبين له جلياً ان المسلمين الذين عارضهم الكسروانيون عند فتح هذه المدينة منتصرين للافرنج قد ارادوا أن ينتقموا لانفسهم منهم فدبروا امر هذه الغزوة على الاثر . ثم رأوا من الحكمة ان يقضوا على كل الافرنج في السواحل التي حول لبنان لكي يتفرغوا للانتقام من اهل كسروان دون ان يبقوا عدواً وراءهم .

وبالواقع فان الدويهي قد ذكر في تاريخ سنة ١٢٩٠ م (٦٨٩ هـ) خبر فتح مدينة عكا في حديث طويل الى ان قال «وكان هذا الفتح في ١٩ جمادى الاخرى وتهدمت ابراج المدينة واسوارها وامر السلطان(١) بهدمها الى الارض فدكت دكاً : ولما بلغت اخبار عكا الى الافرنج وقع الرعب فيهم

وقد برز ظاهر مصر لقصد عكاء . وربما كان تأخر سنقر المنصوري عن كسروان بهذا السبب فتأخر امرهم الى سنة ٦٩١ (وهي سنة ١٢٩٢ م) وجرى الامر كما ذكرناه من توجه العساكر المصرية الى كسروان وعودهم شبه المكسورين »

(١) وهو الملك الاشرف صلاح الدين خليل سلطان الديار المصرية والشامية .

فتركوا البلاد وهربوا . ولما قدمت البشائر الى السلطان بان الافرنج خرجوا من صور امر باخلائها وهدمها وكان في صور خلق كثير من المسلمين فلم يقبلوا بذلك بل أقاموا بها ثم ان السلطان توجه الى دمشق مؤيداً منصوراً فقبض على حسام الدين لاجين نائب السلطنة بدمشق وحبس ابن غرض وولى علم الدين سنجر الشجاعي نيابة دمشق : فسار الشجاعي بفرقة من الجيش الى صيدا فخرب المدينة والجزيرة وقلعتها الجنوبية والشمالية . ثم قصد بيروت فحاصرها واخذها في آخر رجب : ثم هدم سورها ودك قلعتها وكانت حصينة جداً : وجعل المسلمون كنيسة ماريوحنا في بيروت جامعاً وطلوا سورها طيناً : وهرب اهل عتليت في البحر واشعلوا بها النار في مستهل شعبان : وفي ١٥ منه نازل الشجاعي انطرسوس فسلمها الافرنج . وكانت جبيل تحت الطاعة فأتاها الشجاعي وطرد منها الافرنج ودك قلعتها(١) : وفي ايام السلطان المذكور

---

(١) وجاء في تاريخ صالح بن يحيى في ذكر فتوح بيروت ثالثاً ما خلاصته — ان سنجر الشجاعي بعد ان فتح بيروت وغدر باهلها الافرنج سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) جهز علم الدين الداوودي والجاكي الى جبيل فاستولى على اسوارها وقلعتها وابقى على اهلها وكانوا من الجنوية (اي اهل جينوا)

اقفرت بلاد السواحل التي كانت بيد الافرنج وخربت عن آخرها من غير تعب ولا قتال وقد كانت حصينة فانهزم منها الافرنج (١) بعد ان كانوا اشرفوا على ملك الشام والديار المصرية » اهـ .

***

ويقال ان الافرنج بعد ما غُلبوا على امرهم في انطاكية وطرابلس وسائر ساحل سورية قد انحاز قسم كبير منهم الى جبل لبنان وسكنوا بين اخوانهم الموارنة آمنين على الرحب والسعة وامتزجوا بهم كل الامتزاج : ومما يدل دلالة صريحة على ذلك ما كتبه البابا الاسكندر الرابع الى سمعان بطريرك الموارنة في هذه الاثناء من الثناء عليه وعلى طائفته لقبولهم جماعة الافرنج الذين فزعوا الى هذا الجبل المبارك من وجه العدو : ومن ايلائه اياه كل التفويضات اللازمة لادارتهم الدينية فيحتسبهم كابناء طائفته .

ومن رووا ذلك بياجيوس ترسي في كتابه « سورية

(١) وجاء في كتاب الغرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان عند ذكر هذه الحوادث عينها ما حكايته « ونضفت السواحل من الافرنج بعد ما كانوا اشرفوا على ملك الشام والديار المصرية . والبعض من الافرنج سكنوا في جبل لبنان والباقي عادوا الى بلادهم في المراكب . »

المقدسة » المطبوع في رومية سنة ١٦٩٥ (ص ٢٥٢) حيث قال ما مؤداه : انهُ لما اخذت انطاكية من يد الافرنج التجأ كثير من سكانها الكاثوليكيين الى البطريرك سمعان الماروني بجبل لبنان فقبلهم بالحب واكرم مثواهم وكتب الى البابا الاسكندر الرابع يخبره بحالتهم وشدة تعلقهم بالكرسي الرسولي : فاجابه البابا ببطاقة شريفة بها يثني عليه وعلى غيرته واهتمامه بالمذكورين ويفوض اليه امرهم ويدعوه فيها بالبطريرك الانطاكي : وهذه البطاقة هي محفوظة الى اليوم في الكرسي البطريركي الماروني بجبل لبنان .

وقد صرح البابا بناديكتوس الرابع عشر في خطبته على مجلس الكردينالين في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤ بمناسبة تثبيت البطريرك سمعان عواد الماروني بما يؤيد ذلك (١) .

(١) قد راينا لمزيد الفائدة ان نثبت في هذه الحاشية كلام هذا الحبر الاعظم العلامة الشهير مترجماً حرفياً عن اصله اللاتيني بكل تدقيق ولو كان في اثباته جميعه بعض الخروج عن الموضوع فقد قال ما حكايته :

« ولا يفوت علمكم على ما نظن انه في نحو اواخر القرن السابع عندما استحكمت بدعة المنوثيلية في البطريركية الانطاكية قد قرَّ راي الموارنة ان ينتخبوا لهم بطريركاً خاصاً يثبت من الحبر الروماني ويقبل من لدنه درع كمال الرئاسة قصد ان يبرأوا بانفسهم من هذا الوباء الملم . وان البابا الاسكندر الرابع الحبر الروماني بعد ذلك بقرون اذ استولى

وعندنا انه مما يؤيد ذلك ما جاء في تاريخ صالح بن يحيى

العرب على انطاكية وطردوا اللاتين منها حتى اضطر الكاثوليك منهم ان يفزعوا الى جبل لبنان حيث قبلهم بطريرك الموارنة بكل حب قد انعم على هذا البطريرك نفسه بلقب البطريرك الانطاكي (الذي كان اذ ذاك مختصاً ببطريرك اللاتين وحده) وقد حفظ من ثم بطاركة الموارنة هذا اللقب حتى الان ولو جعلوا كرسيهم دائماً في جبل لبنان » .

« ومن ثم فالموارنة قد استمروا على الدوام كما هم الآن كلهم كاثوليكاً متحدين بهذا الكرسي المقدس ومترعين بعواطف الاحترام والخضوع لبطريركهم وللحبر الروماني ايضاً . . . »

الى ان قال في تتمة هذا الخطاب عينه .

« وعليه فاننا بكل طيبة خاطر نوافق على المدائح الواسعة التي اطراهم بها سلفاؤنا الاحبار الرومانيون . فقد قال بيوس الرابع في بعض رسائله الرسولية فيهم انهم الالوف العديدة الذين لم يسجدوا قط للبعل بل ثبتوا على الدوام محافظين على الايمان المسيحي والدين الكاثوليكي بين الهراطقة والمشاقين الذين يكتنفونهم من كل جانب : وقد اثبت البابا اكليمنت الثامن هذا الاطراء وزاد عليه ان الموارنة قد ادوا الطاعة على الدوام للكنيسة الرومانية ام جميع المؤمنين ومعلمتهم : واذ شبههم بولس الخامس بالورد النضير تطرق الى القول بانهم قد ازدهروا بنعمة خاصة من لدن الله بين اشواك الغير المؤمنين في الشرق . وقال فيهم اربانس الثامن في رسائله الرسولية ايضاً ان جمال الكرمل لم يذوِ ومجد لبنان لم ينقص لان بطريرك الموارنة واحبارهم وكهنتهم قد احترموا على الدوام سلطان بطرس في الكرسي الرسولي

المذكور آنفاً وهو كما يلي قال : « ومما نقلناه عن النويري والصلاح الكتبي في فتوح كسروان من جملة حوادث سنة ٧٠٥ هـ (وهي سنة ١٣٠٥ م)وذكرا توجه العساكر الشامية الى جبال كسروان وابادة اهلها وتمهيدها وهي النوبة الثانية في ايام الملك الناصر محمد بن المنصور فقالا — كان اهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وتطاولوا الى أذى العسكر عند انهزامه من التتر سنة ٦٩٩ (أي سنة ١٣٠٠) واغضى السلطان عنهم وتمادى في عقابهم فزاد طغيانهم واظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجبالهم المنيعة ووثقوا بجموعهم الكثيرة وعللوا النفوس بانه لا يمكن الوصول اليهم ».

الى هنا ما نقله صالح بن يحيى عن هذين المؤرخين وفيه ما يلائم برهاننا : لان هذه الكثرة التي وصل اليها أهل كسروان حتى اغرتهم على عمل ما عملوا مع عساكر المسلمين انما كانت على ما نرى من انحياز افرنج السواحل اليهم كما يرى المتأمل البصير بعد ما رأى انهم انما كانوا من غرض واحد وقد

وفي الحبر الروماني . واخيراً قد اطرى الموارنة بمثل ذلك واعظم منه اكليمنت الحادي عشر في مراسيمه الرسولية المشهورة بالطبع اهـ .

(عن مجموعة مراسيم البابوات التي تتعلق بالموارنة للاب طوبيا العنيسي المطبوعة حديثاً في رومية) .

انتصروا لهم ايام فتح مدينة طرابلس وفي ظروف أخرى بعدها كما سترى .

وقد روى العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٣٠٢ م ما مؤداه « نزل الافرنج على نهر الدامور ليلة الاربعاء ثامن جمادى الاولى (سنة ٧٠٢ هـ) فقتل هناك فخر الدين عبد الحميد ابن جمال الدين التنوخي وأسر اخوه شمس الدين عبد الله فافتداه ناصر الدين بن خضر الحسين بثلاثة الاف دينار : فرُفعت الشكاوي الى نائب دمشق الافرم من الجرديين واهل كسروان » .

أليس في هذه الرواية ما يؤيد كلامنا عن انحياز الافرنج هذا الى كسروان بعد نكباتهم في السواحل ومحاربتهم معهم عصبةً واحدة ؟ والا فما معنى قوله ان الافرنج نزلوا على نهر الدامور ونكلوا بالتنوخيين فرفعت الشكاوي الى نائب دمشق من الجرديين واهل كسروان ؟ .

***

ودونك ما حصل بعد هذه الشكاوي من المذكورين فقد قال الدويهي بعد هذه الرواية ما مؤداه :

« قال ابن الحريري (١) انه بهذه السنة (اي سنة ١٣٠٢م)

(١) وهو من مؤرخي المسلمين المعتبرين .

قد اجتمع النواب جمال الدين اقوش الافرم نائب دمشق وسيف الدين اسندمر نائب طرابلس وشمس الدين سنقر المنصوري وحشدوا جيوش الشام الى مقاتلة الجرديين واهل كسروان . فاجتمع مقدمو الجبال واستعدوا للقاء الجيش فهزموه وقتلوا كثيرين وغنموا غنيمة كبيرة — قال ابن القلاعي (١) ان الواقعة كانت عند جبيل وان المقدمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين مقدماً والمشهورون فيهم خالد مقدم مشمش وسنان واخوه سليمان مقدما ايليج وسعاده وسركيس مقدما لحفد وعنتر مقدم العاقوره وبنيامين مقدم حردين (٢) : فرتبوا الفي مقاتل

(١) هو من كتبة الموارنة المشهورين ولد في قرية لحفد من اعمال جبيل في اواسط القرن الخامس عشر وفي سنة ١٤٧١ سافر الى القدس الشريف وضوى الى رهبانية الافرنج وقد تأدب بالعلوم الرياضية والالهية في رومية حتى سنة ١٤٩١ التي عاد فيها الى لبنان وكان ذا فائدة جلى لاهله بما صنف من الكتب والرسائل وما اظهر من الغيرة الرسولية عليهم : واقيم مطراناً على قبرس سنة ١٥٠٧ وتوفي سنة ١٥١٦ .

(٢) كل هؤلاء المقدمين كانوا من الموارنة ومن نواحي بلاد جبيل والبترون : وصاحب هذه الرواية يمكنه ان يعد معاصراً لمن حصلت هذه الوقائع في ايام آبائهم واجدادهم على الاكثر فاخذها عنهم بالتواتر كما يرى المتأمل : ومما يؤيد ذلك ويثبت حصول مثل هذه الموقعة في هذا التاريخ قول النويري والصلاح الكتبي الذي اثبتناه آنفاً عن صالح بن يحيى

يكمنون عند نهر الفيدار والفين عند نهر المدفون (١) ثم انحدروا بثلاثين الفاً لقتال الجيش فوقعوا بحمدان القائد في الطريق منفرداً فقتلوه . وحملوا على الجيش فأهلكوا اكثره وغنموا امتعتهم وسلاحهم وأخذوا اربعة آلاف راس خيل من خيلهم وقدمت الاكراد لنجدتهم فصدهم المكمنان في الفيدار والمدفون فلم يخلص منهم الا القليل (٢) وقُتل من

وهو « كان اهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وتطاولوا الى اذى العسكر عند انهزامهم من التتر سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) » ولا عبرة في اختلاف التاريخ بين هذه السنة وسنة ١٣٠٢ كما ذكر الدويهي عن ابن الحريري فان مثل هذا الاختلاف الطفيف يجوز عند المؤرخين . وقد حصل مثله في الحادثة الاتية كما سترى :

(١) الفيدار نهر شتوي الى الجنوب من مدينة جبيل : والمدفون نهر اخر مثله بين جبيل والبترون .

(٢) وقد ذكر صاحب كتاب الغرر الحسان المذكور سابقاً هذه الحادثة في سنة ٦٩٤ هـ (سنة ١٢٩٤ م) كما يأتي حرفياً « وفي هذه السنة ثارت الفتنة بين نصارى بلاد جبيل من جهة الانشقاق الذي وقع بينهم : وسارت اليهم عساكر الاسلام من نواحي الشام : وحين بلغ الامير يوحنا صاحب جبيل ذلك هرب في البحر واقلع في الليل . ثم اجتمعت اهل الجبال نحو ثلاثين الف مقاتل وضربوا عسكر الاسلام . وهجم خالد مقدم قرية مشمش وقتل مقدم عساكر الاسلام . وهزموهم عند مدينة جبيل . فوقعت الاسلام بيد الكمين الذي كان في نهر المدفون ولم يسلم

الامراء التنوخية نجم الدين محمد وأخوه شهاب الدين احمد ولدا جمال الدين حجي . ثم غزت الجردية بلادهم وأحرقوا منها عين صوفر وشملك وعين زوينة وبحطوش وغيرها من بلاد الغرب » اهـ .

ولم يصبر المسلمون على هذه الكسرة التي زادت الكسروانيين والجرديين تمرداً حتى ابوا ان يصلحوا شؤونهم مع جيرنهم التنوخية امراء الغرب ومع نائب دمشق : فزاد غيظ هذا النائب وغيظ المسلمين منهم وعولوا على الانتقام والتنكيل بهم بكل وسيلة حتى يأمنوا شرهم . قال العلامة

منهم انسان . ثم اتت نجدة من طرابلس فالتقاهم عسكر وادي المدفون الى قرب البحر فهزموهم وقتلوا منهم عدداً عظيماً وشقعوا رؤوسهم كالقلعة . ومن ذلك الوقت سميت تلك الارض الشقعة وقبورهم باقية للآن » وذكر ايضاً موقعة ثانية تشبه هذه في تاريخ سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) جرت بين جمال الدين الافرم نائب دمشق والجرديين والكساروة : وقال « فاجتمع مقدمو الجبال ولاقوهم الى نواحي جبيل ولم يكن الاثلاثماية شخص من كسروان . . . وكان المقدمون المعروفون من الجبال خالداً من مشمش وسناناً واباه مقدمي ايليج وسعاده وسركيس مقدمي لحفد وعنترا مقدم العاقورة والبعض من كسروان الخ

الدويهي بتاريخ سنة ١٣٠٧ م (١)(٧٠٧هـ) ما حكايته:

« ذكر ابن الحريري وابن سباط انه في يوم الاثنين ثاني محرم سار اقوش الافرم نائب دمشق بخمسين الفاً بين فارس وراجل الى جبل الجرد و كسروان التي جبال بيروت . فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة امراء بعشرة الاف مقاتل . والتقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال عظيم وكانت الدائرة على الامراء : فهربوا بحرمهم واموالهم واولادهم

(١) والصواب سنة ١٣٠٥ م الموافقة لسنة ٧٠٥ هـ كما جاء في تاريخ صالح بن يحيى . والظاهر ان هذا الخطا قد حصل من النساخ لان الدويهي ذكر قبل هذه الحادثة انه في سنة ١٣٠٤ م (سنة ٧٠٤ هـ) ان العلماء قد افتوا بنهب بلاد الجبليين والكسروانيين بسبب استمرارهم على العصيان وابائهم الدخول في الطاعة : وقال « ولذلك جردت العساكر من جميع بلاد الشام ولم تزل تزداد الجموع من كل ناحية الى سلخ هذه السنة اي اخرها » وانتقل حالاً الى ذكر الحادثة كما رويناها هنا اي سنة ١٣٠٧ : فلا يعقل ان يبقى هذا العسكر المجموع للحرب اكثر من سنتين يستعد لهذه الحملة كما لا يغرب عن ذي بصيرة : وقد ذكر هذه الحادثة عينها صاحب كتاب الغرر الحسان نقلاً عن ابن الحريري وابن سباط قائلاً انها حصلت في سنة ٧٠٥ هـ (وهي سنة ١٣٠٥ م) . وقد وقع في نفس هذا الخطاء كل الذين نقلوا تاريخ هذا الخبر عن الدويهي كصاحب الدر المنظوم وصاحب كتاب تاريخ الاعيان . فلزم التنبيه الى ذلك.

ونحو ٣٠٠ نفس واجتمعوا في غار غربي كسروان يعرف بمغارة نيبيه فوق انطلياس . ثم احاط العسكر بتلك الجبال ووطئوا ارضاً لم يكن اهلها يظنون ان احداً من خلق الله يصل اليها فخربوا القرايا وقطعوا الكروم وهدموا البيع (١) وقتلوا جميع من صادفوا من الدروز والكسروانيين وغيرهم فذلت تلك الجبال المنيعة بعد عزها . . . »

واردف الدويهي قائلاً « وفي هذه السنة امر الملك الناصر محمد بن قلاوون تركمان الكورة ان ينزلوا في ساحل كسروان ليحافظوا عليه من الافرنج (٢) وهم الامراء آل عساف : وكان دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد وجسر المعاملتين تحت غزير » اهـ .

وروى صالح بن يحيى ان هذه الغزوة لبلاد كسروان قد حصلت في سنة ٧٠٥ هـ (اي سنة ١٣٠٥ م) وهو الصواب كما رأيتَ في الفقرة السابقة التي ذكرناها عنه عن النويري والصلاح الكتبي . وقد قال بعد هاتيك الفقرة حرفياً :

(١) ان ذكر هدم البيع في هذه الفقرة بكسروان لبرهان على نصرانية اهله فضلاً عن البراهين العديدة التي يمكننا ان نأتي بها لاثبات ذلك لو وجدنا متسعاً للكلام في هذه العجالة .

(٢) أليس في قوله هذا ما يدل ايضاً على ان كان للافرنج اتصال

« ففي ذي الحجـة سنة ٧٠٤ هـ (سنة ١٣٠٥ م) جهز جمال الدين آقش الافرم نائب الشام زين الدين عـدنان : ثم توجه بعده تقي الدين وقراقوش وتحدثا معهم في الرجوع الى الطاعة فابوا . فامر عند ذلك بتجريد العساكر اليهم من كل مملكة . وتوجـه آقش الافرم من دمشق بسائر الجيوش يوم الاثنين الثاني من محرم سنة ٧٠٥ هـ (سنة ١٣٠٥ م)(١) وجمع جمعاً كثيراً من الرجال نحو خمسين الفاً وتوجهوا الى جبـال الكسروانيين والجرديين . وتوجه سيف الدين اسندمر نائب طرابلس وشمس الدين سنقر المنصوري نائب صفد : وطلع اسندمر المذكور من جهة طرابلس وكان قـد نُسب اليـه مباطنتهم . فجرد العزم واراد ان يعمل في هذا الامر ما ينفي التهمة اللاصقة به (٢) فطلع الى جبل كسروان من اصعب

باهل كسروان ؟ وان حكام المسلمين كانوا يحسبون حساباً كبيراً لهـذه الاتصالية التي كانوا يبذلون الجهد في منعهـا حذراً من تقوية اهل البلاد عليهم وانقاذها من سيطرتهم ؟

(١) اعلم ان سنة ٧٠٤ هـ ابتدأت في ٤ آب (اغسطس) سنـة ١٣٠٤ م وسنة ٧٠٥ هـ ابتدأت في ٢٤ تموز سنة ١٣٠٥ م فيكون ثاني محرم ٢٥ تموز سنة ١٣٠٥ : وهكذا يصح الحساب والتوفيق بين التاريخ الذي في اول هذه الفقرة وبين هذا الاخير .

(٢) وهي تهمة الارتشاء منهم في الحمـلة الاولى حتى مكنهم من

مسالكه (١) واجتمعت على اهله العساكر واحتـوت على جبالهم ووطئت ارضاً لم يكن اهلها يظنون ان احداً يطأها وقطعت كرومهم وأخربت بيوتهم : وقُتـل منهم خلق كثير وتفرقوا في البلاد . واستخدم اسندمر جماعة منهم في طرابلس بجامكية (اي بمرتبات) وجازاهم من الاموال الديوانية . واقامو على ذلك سنين : واقطع بعضهم املاكاً من حلقـة طرابلس : واختفى بعضهم في البلاد واضمحل امرهم وخمـل ذكرهم . وعاد نائب الشام الى دمشق بالعساكر في رابع شهر صفر من السنة المذكورة : وجعل الناظر في بلاد بعلبك وجبال الكسروانيين بهاء الدين قراقوش فقهر من كان تأخر بجبال كسروان وقتل من اعيانهم جماعة : ثم اعطوا اماناً لمن استقر في غير كسروان . ثم اقطعوا علاء الدين بن معبـد البعلبكي وعز الدين خطاب وسيف الدين بكر الحسامي وابن صبح (٢) اراضي في كسروان : ثم ابطلوها عنهم واقطعوها التركمان فادركوا موانئ البحر ودروب البر من ظاهر بيروت

كسر عسكر المسلمين كما رأيت .

(١) اي من جهة نهر ابراهيم القبلية التي تدعى الى الان بسبب ذلك « فتوح كسروان »

(٢) وهو شهاب الدين نائب صفد كما ذكر المولف نفسه بُعيد ذلك .

الى عمل طرابلس اي عند جسر المعاملتين : واستمروا الى وقتنا هذا وشُهروا بترْكان كسروان وعُرفوا به» .

وقد ذكر صالح بن يحيي ايضاً خبر هذا الفتوح بايجاز عند كلامه عن الحوادث التي جرت في ايام الامير ناصر الدين الحسين ابن سعد الدين خضر ابن نجم الدين محمد امير الغرب على الوجه الاتي قال :

« وفي ايام ناصر الدين في اوائل محرم سنة ٧٠٥ ه كان فتوح كسروان فقصد الجبل ومعه اقاربه وجمعه . فقُتل منهم الامير نجم الدين محمد واخوه شهاب الدين احمد ولدا الامير جمال الدين حجي في نهار الخميس خامس شهر محرم المذكور بقرية نيبيه من كسروان التي فوق نهر انطلياس : وقُتل معهم من اهل الغرب ثلاثة وعشرون نفراً . وكانت وقعة نيبيه المذكورة وقعةً رديئة لان اهل كسروان تجمعوا وقاتلوا بها وكان هناك مغارة اجتمعوا فيها بعد القتال . وذكر ان عدد اهل كسروان بلغ اربعة الاف راجل فهلك منهم بالسيف خلق كثير والذين سلموا منهم تفرقوا في جزين وجبالها وفي البقاع وبلاد بعلبك واعطت الدولة بعضهم الامان » (١)

(١) ربما اعترض معترض ان اهل كسروان لم يكونوا في ذاك العهد

وأورد ناشر تاريخ الدويهي بالطبع فقرة عن مختصر تاريخ لبنان فيها ذكر خراب كسروان تلتحم مع هذه وهي :

من الموارنة حتى ولا من النصارى كما ارتأى بعضهم . والجواب على ذلك ان ما يدلي به اصحاب هذا الرأي الى اقامة حجتهم انما هو في الغالب من البراهين السلبية . وربما رأى بعضهم في كلام ابن يحيي آنفاً ان الذين سلموا منهم تفرقوا في بلاد جزين والبقاع وبعلبك ما يثبت هذا الرأي لانهم لو كانوا من الموارنة لفزعوا الى اخوانهم في شمالي لبنان . ولكن هذا المؤرخ انما يتكلم هنا عن الذين سلموا في موقعة نيبيه كما يرى المتأمل : وقد اختلط فيها الجرديون (وهم على ما يظهر من الدروز) والكسروانيون الذين نحن بصددهم . فمن الارجح ان الذين طلبوا هاتيك الجهات انما كانوا من الدروز والذين بقوا واعطتهم الدولة الامان كانوا من الموارنة او من النصارى بالاجمال . واما الذين حاربوا في شمالي كسروان اسندمر نائب طرابلس فالظاهر انهم طلبوا شمالي لبنان واقام قسم منهم في طرابلس ونواحيها « واختفى بعضهم في البلاد واضمحل امرهم وخمل ذكرهم » كما قال ابن يحيي نفسه .

ولا يعارض ذلك على ما نرى من هذا القبيل ابو الفداء في تاريخ سنة ٧٠٥ ه حيث قال عن هذه الحادثة عينها « وفي هذه السنة سار جمال الدين اقوش الافرم بعسكر دمشق وغيره من عساكر الشام الى جبال الظنينين وكانوا عصاة مارقين فاحاطت العساكر الاسلامية بتلك الجبال المنيعة وترجلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات وقتلوا واسروا جميع من بها من النصيرية والظنينين وغيرهم من المارقين : وطهرت تلك الجبال منهم . وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس وامنت

«ومن ذلك الوقت خربت كسروان والذين سلموا من اهلها تشتتوا في كل صقع وسكن المسلمون سواحل

الطرق بعد ذلك . »

فان كل من تبحر في هذه الرواية وقابلها بما اوردناه هنا من مثلها رأى لا محالة ان صاحبها على عظم قدره لم يتحرَّ التدقيق فيها بل رواها مقتضبة هكذا على ما بلغه بالتواتر مع انه معاصر لها لانه على ما هو مشهور قد توفي في سنة ١٣٣٠ م وقد وقعت تقريباً في جواره وهو صاحب حمص . والظاهر انه لم يكن له معرفة راهنة بهذه البلاد واهلها ولا اقل صلة بها وبهم لانه لم يكن له من سبيل اليها لانحرافها عن طريقه المعتاد الى دمشق وغيرها وهي لغير المسلمين : ولهذا سماها « جبال الظنيين » وهم على ما يظهر اهل الظنون في الدين الضعفاء العقيدة . وهذا يصح عندهم على غير المسلمين مطلقاً . ولهذا لم نجد سم « الظنيين » لجيل من الناس او لفرقة دينية عند غيره من الكتبة . فلا عجب والحالة هذه اذا سمى ابو الفداء في هذه الرواية المقتضبة الكسروانيين والجرديين الذين نحن بصددهم بالنصيرية والظنيين والمارقين بلا تدقيق : لان — اهل الكفر (على رأيهم) امة واحدة — وعنده ان اهل الجبال انما كانوا من الكفار فاطلق عليهم هذه الاسماء مع قطع النظر عن صحة التسمية وتعريف مسمياتها . ومن ثم فمثل هذا الكلام المرمي على عواهنه ليس مما يعوَّل عليه في مثل هذه القضية وعلى الخصوص متى ظهر من واقع الحال ما يعارضه .

هذا وقد كتبنا فيما سلف مقالة برأسها في هذا المعنى رداً على حضرة العلامة المدقق الاب هـ. لامنس اليسوعي الشهير وهو من اصحاب هذا

كسروان في الازواق وغدير وساحل علما وغزير وغيرها : وامتد المتاولة الى جرد البلاد مثل حراجل وميروبا وفاريا وما

الرأي : والحقناها بكتابنا عن المردة والجراجمة والموارنة المطبوع في بيروت سنة ١٩٠٤ وقد برهنا بها الخلاف .

وعندنا انه لا يعقل ان يكون الافرنج قد استولوا على مدينتي جبيل وبيروت دون ان يستولوا على بلاد كسروان الذي هو بين هاتين المدينتين : ثم ان ينتصر اهل كسروان لهم على المسلمين عند فتح طرابلس ويتحملوا العواقب الوخيمة دون ذلك وهم ليسوا من مذهبهم في الدين . وقد ذكر الادريسي (وهو من كتبة القرن الثاني عشر) انه التقى في بعض اسفاره ببعض اليعاقبة في نواحي جونية في اول عهد الصليبيين . وهو يريد على ما يظهر فرقة من النصارى السريان والارجح انهم الموارنة وهم اقرب الى اليعاقبة في طقوسهم وازيائهم الخارجية فظنهم منهم واطلق عليهم اسمهم دون تدقيق .

ذلك فضلاً عن الاثار النصرانية الباقية من قديم العهد الى الان في اكثر جهات بلاد كسروان وقد ذكرنا بعضها في تلك المقالة . وحسبنا الان ان نذكر بايجاز ما جاء في تاريخ بناء دير مار شليطا الذي في مقبس بجوار قرية غوسطا في اواسط كسروان وهو اول دير أُقيم في هذه المقاطعة بعد عود الموارنة اليها . فقد جاء في سجل هذا الدير ما ملخصه : ان القس حنا محاسب قد جدد بناءه في سنة ١٦١٥ على خرائب كنيسة قديمة العهد كانت باقية هناك على اسم هذا القديس عينه : وبجانب هذا الدير خرائب آبار وآثار للصليبيين يقال لها حتى الان عند العامة « خرائب السويس » مما يرجح على ما يقال بالتواتر ان نحلة من سويسرة جاءت مع

يليها : واما اواسط البلاد فدامت خراباً مدة مستطيلة » .

فمن هذه الشواهد التاريخية يتحصل بكل صواب ان الموارنة سكان جبل لبنان كانوا حتى آخر عهد الصليبيين في نواحي سورية متمتعين بتمام الحرية والاستقلال الذاتي في بلادهم : وكانوا عوناً للصليبيين في الملمات ونجدةً في الحروب وملاذاً لمن يهرب منهم من سيف العدو الى هذا الجبل المبارك . ولهذا كانوا قذى في عيون الفاتحين الذين لذلك كانوا يعملون في كل فرصة على الانتقام منهم وهم تارة يتغلبون عليهم وتارة يُقهرون : حتى تم لجيوش المسلمين ان

الصليبيين وسكنت هناك . وعندنا ان اسم « غوسطا » التي في خراجها هذا الدير انما هو منحوت من لفظة Angusta اللاتينية ومعناها « الضيقة » كما هي طبيعة هذه البلدة . ثم انه يوجد في هذا الدير كتابة قديمة تعزى الى تاودورس اسقف حماة جاء فيها : ان الذي بنى هذا المقام اولاً كان اسمه « الكوالير بكخوس » (راجع ما جاء عن ذلك في مجلة المشرق لسنة ١٩٠١) وقد وقفنا هذه الايام ايضاً على تاريخ خطي لبناء كنيسة السيدة في قرية حراجل التي في جرود كسروان بجوار قرية ميروبا : ومما قيل فيه نقلاً عن التواتر الذي كان شائعاً بين المتاولة الذين سكنوا هذه القرية بعد خراب كسروان : ان قد وجد هناك بعض آثار لكنيسة قديمة للسيدة العذراء ترجع الى ما قبل خراب هذه البلاد وسكنى المتاولة فيها : اي الى ما قبل سنة ١٣٠٥ . وبهذا القدر غنىً الان

ينكلوا بهم في مقاطعة كسروان وينكبوهم ويخربوا ديارهم وكنائسهم ويجلوا من بقي منهم على قيد الحياة عن هذا الوطن العزيز الذي في سنة ١٣٠٥ كان قد امسى قاعاً صفصفاً خالياً من السكان : حتى امر الملك الناصر محمد بن قلاوون (١) تركمان الكورة ان يحتلوا سواحل كسروان ليحافظوا عليه من الافرنج. ثم سكن بعض المسلمين في وسوطه والشيعية (المتاولة) في اعاليه ولم يتسنَّ للموارنة ان يعودوا الى سكناه الا منذ اواسط القرن السادس عشر كما سيأتي .

ذلك واما الموارنة الذين كانوا يقطنون شمالي لبنان اي من نهر ابراهيم (وهو نهر ادونيس او تموز) حتى جبة بشراي فقد استقروا بعد خراب كسروان في هاتيك الجبال مستكنين راضين بما قسم الله لهم غير مكترثين لما كان يجري حولهم من الحروب والكوائن بين الحكام المسلمين والاحزاب الخارجية. ولم يكونوا ليتحرشوا لاحد لان لا غرض لهم معهم كما كانوا يتحرشون اولاً بقصد الانتصار لاخوانهم الصليبيين عند ما كانت الجيوش الاسلامية تتسطى عليهم وتنازلهم القتال لاجل فتح البلاد التي كانت تحت سلطنتهم كما رأيت . وبهذا يحسن ختام هذا الباب .

---

(١) وهو التاسع من ملوك الترك بمصر

الباب الرابع

في

بيان استقلال الموارنة بجبل لبنان

من بعد خروج الصليبيين من سورية الى استيلاء الدولة العثمانية عليها
اي من اوائل القرن الرابع عشر الى اوائل القرن السادس عشر

يظهر من الآثار التاريخية التي بين ايدينا انه بعد التغلب على الصليبيين واخراجهم من البلاد واستيثاق الامر للمسلمين في بلاد كسروان وفي كل السواحل اللبنانية على ما رأيت حتى الان لم يعد يحصل ما يكدر صفو العيش في كل الجهات التي كان يسكنها الموارنة من جبل لبنان وهي على ما علمت اعالي بلاد جبيل والبترون وجبة بشراي (١) فاخذوا منذ ذاك

(١) ليس من غرضنا ان نذكر في هذه النبذة الا ما يوافق اثبات استقلال الموارنة في جبل لبنان : والا فان جمهوراً كبيراً من الموارنة كان مقيماً خارج هذا الجبل وكان له شأن يذكر : كالموارنة الذين كانوا في اورشليم وسائر الاراضي المقدسة والذين كانوا في جزيرة قبرس وانتقلوا منها الى جزيرة رودس مع فرسان القديس يوحنا اورشليم ومع اللوزينيان حكام قبرس ومنها الى جزيرة مالطة : على ما روى العلامة الدويهي في

الحين يلمون شعثهم ويُعنون في تعمير بلادهم بكل معنى . وانصرفوا الى اعمال التقوى والعبادة فبنوا الكنائس والاديرة والمحابس التي كثر عديدها في هاتيك الايام مما يدل على ما كان مخيماً في ربوعهم من الراحة والامان والحرية الدينية . وكان للبطاركة والاساقفة عندهم في كل ذلك الكلمة العالية والامر النافذ بلا معارضة : فأخذ هؤلاء يقيمون على كل قرية كبيرة وما جاورها حكاماً من اهل الوجاهة بينهم لاجل ادارة شؤونهم المدنية وفصل ما كان يحصل بينهم من المنازعات : وكانوا يسمون هؤلاء الحكام « مقدَّمين » لان لهم التقدم على الجمهور : وكانوا يرقونهم على الغالب الى الدرجات الصغار من درجات الكهنوت حتى الشدياقية ليكون لهم التقدم على العلمانيين في الكنائس وفي المجالس الرسمية ايضاً بعد الكهنة كما تقضي القوانين البيعية : وقد قام هؤلاء مقام الرؤساء الذين كانوا على عهد الصليبيين كما ذكرنا في الباب السابق .

وكانت يد المسلمين في ذلك الزمان ثقيلة على كل النصارى

كتابه « رد التهم والاحتجاج » والعلامة البطريرك بولس مسعد في كتابه « الدر المنظوم » والعلامة المدقق الاب لامنس اليسوعي في كتابه المذكور غير مرة هنا (ص ٥٥) فراجع ذلك اذا شئت في مكانه .

الذين يعيشون بينهم في المدن خاصة . فقد ذكر العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٣٥٣ م (أي سنة ٧٥٤ هـ) « انه قد قرئ هذه السنة بجامع دمشق مرسوم السلطان في ملازمة أهل الذمة (أي النصارى) الشروط العمرية (١) بان لا يُستخدموا في الدواوين السلطانية ولا في غيرها : وان يُحمل حكم مواريثهم على الاحكام الشرعية : وان لا يزيد احدهم عمامته على عشرة اذرع ولا يركبوا الخيل والبغال بل الحمير : وان يدخلوا الحمامات بعلامات مخصوصة من خرصان أو خواتم من نحاس أو رصاص : ولا تدخل نساؤهم مع المسلمات بل ليكن لهنّ حمامات تختص بهنّ : وان يكون ازار النصرانية كتاناً ازرق واليهودية اصفر والسامرية احمر : وان يكون احد خفيها اسود والآخر ابيض » اهـ .

فمثل هذه الاوامر الجائرة لم تتناول قط الموارنة بجبل لبنان الذين لم يكونوا تحت سيطرة الحكام المسلمين على ما يظهر لا في هذه الامور ولا في غيرها : لانهم انما كانوا احراراً مستقلين في بلادهم ولهم شرائع دينية ومدنية مختصة بهم يجرون على مقتضاها في جميع احوالهم : كما يدل ما بقي حتى الان من الكتب

(١) وهي الشروط التي سنها عمر بن الخطاب على النصارى بعد فتح سورية .

الشرعية الموضوعة لهم بنوع خاص لاجل اجراء الاحكام بحسبها خصوصاً في أمر المواريث التي لها عندهم قوانين مستقلة تناسب احوالهم وقواعد دياناتهم . فمن ذلك كتاب الهدى المشهور ثم كتاب الناموس ويوجد من هذين الكتابين النفيسين نسخ شتى في لبنان وفي خزائن الكتب الاوروبية وخاصة في رومية وباريس مما نُسخ في هذا العصر وبعده . وفي ذلك اكبر دليل على صحة قولنا هذا .

ثم لم يكن لهؤلاء الموارنة اقل اختلاط في بلادهم مع احد من المسلمين أو من سائر الطوائف الاجنبية عنهم حتى تحصل مثل هذه المغايرة التي تبعث على مثل هذا الظلم والاستبداد تمييزاً للمسلمين عن الذميين أو لبقية الطوائف بعضها عن بعض من وجه التنافس الذي يحصل غالباً فيما بينهم حيثما وجدوا معاً كما هو جارٍ الى الان . ولهذا لم يكن من سبيل الى التحرش لهم لا من هذا القبيل ولا من سواه مما كانوا يتحرشون به لنصارى سورية خارج لبنان كما هو مستفاض في الآثار والتواريخ الراهنة (١) دون ان يُعثر فيها على شيء من ذلك مما يتعلق

(١) ان الآثار الخطية الاصلية التي من هذا القبيل هي اكثر من ان تحصى عند الملل النصرانية التي كانت تحت حكم المسلمين وسيطرتهم مثل فرمانات باثبات البطاركة والاساقفة ووكلائهم ورخص ببناء كنائس

باللبنانيين منهم لا من جهة اقامة الكنائس والمدارس والمحابس ولا من جهة تنصيب البطاركة والاساقفة ولا من جهة ادارة الرعية بالروحيات والزمنيات الخ (١) : أفليس هذا ما يقال له الاستقلال الداخلي الذي نهتمّ باثباته هنا ؟ .

ذلك ومما يدل على مقام هؤلاء المقدمين هاتيك الايام ان رتبهم هذه كان يتوارثها ابناؤهم خلفاً عن سلف : وعند انقطاع الذكور من ذريتهم كانت تلي الاقرب اليهم

او اديرة او مدارس او مقابر او دفن المتوفين من النصارى في مقابرهم الخ : وكلها تشعر بذل وامتهان وتصرح باهانات قبيحة للنصارى ودينهم مما لا يتصوره اديب ولا يسمح لنا القلم بتدوينه . الا اننا على سبيل المثال نذكر هنا مضمون رخصة من قاضٍ مسلم بدفن نصراني توفي جاء فيها ما حرفيته « من جانب الشرع الشريف — الى مطران كفرة السريان — ايها المكروه بالنظر المعتقد بالكفر ان الميت من طائفتكم اللعينة فمن حيث الملعون قد فطس وهلك فلاجل ادخال جثته الخبيثة ضمن الارض قد صار الاسترحام من طرف سدة محلته وجرى اخذ الخراج فانه وان تكن الارض لا تقبل جثته الخبيثة فلكي لا يكون سبباً لافساد الهواء قد اعطيت الرخصة بعنوان الشرع الشريف بان تدفن ضمن مزبلتكم المخصوصة بموجب مذهبكم الباطل الى زمرة جهنم السفلى — اقتضى اعطاء هذه الرخصة لكي لا يصير مانع من طرف احد » اه

(١) وسنرجع الى هذا الموضوع باستفاضة ان شاء الله في اخر الخلاصة التي نعلقها على هذا الكتاب فمن شاء المزيد عليه ان يطلبها هناك .

نسباً من جهة الاناث على نحو ما كانت عليه رتبة الكونتية والمركيزية الخ في أوروبة في القرون المتوسطة . وليس بين ايدينا من الاثار التاريخية التي تثبت ذلك الا ما حفظه التواتر وليس في التواريخ ما ينفيه أو يعارضه في هذه الفترة من الزمن : على انه جاء في كتاب أخبار الاعيان بجبل لبنان (١) « انه في سنة ١٣٧٥ توفي غزال القيسي الماروني مقدم العاقورة بدون عقب فورثته ابنته زوجة جرجس الدحداح الملقب بالشدياق » وانما مقصود المؤرخ هنا انتقال مقام المقدمية بالارث الى ابنته وبالتالي الى صهره الشدياق جرجس (٢) الذي كان من اكفائه في هذه البلدة مما خوله نيل لقب الشدياق ومصاهرة هذا المقدم كما يرى المتأمل .

وقد روى العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٣٨٨ م (أي سنة ٧٩٠ هـ) عن المؤرخ حمزة بن سباط : ان الملك الظاهر برقوق زحف هذه السنة على سورية بالجيوش المصرية لمقاتلة الناصري يلبغا وتمربغا منطاش : فجمع الناصري ومنطاش

(١) للشيخ طنوس الشدياق المذكور سابقاً (ص ١٠٩)

(٢) وقد جاء في هذا الكتاب نفسه ان الشدياق جرجس انما هو جد المشايخ آل الدحداح المشهورين كما سترى في محله

عساكر الشام والعربان والتركمان وجرت بين الفريقين مواقع كبيرة انتهت بانتصار منطاش والناصري عليهِ : فاختفى الملك الظاهر واتفقت عساكر مصر مع المذكورين فخلعوه واعادوا في العشر الاول من جمادى الاخرى الملك الصالح حاجي ولقبوه بالملك المنصور . وبعد ان توارى الملك الظاهر مدة من وجهِ اعدائهِ رجع فجمع مماليكه وعسكر الترك وحارب خصومه حتى انتصر عليهم واستعاد ملكه بالسيف .

واستتلى الدويهي بعد هذه الرواية التي اوجزناها هنا قائلاً ما حرفيته :

« ولما تدروش الملك الظاهر قدم على قرية بشراي شرقي طرابلس (حيث كل السكان من الموارنة) فاقام الشدياق يعقوب بن ايوب مقدماً و كتب له بذلك صفيحة من نحاس »(١)

ويظهر ان هذا الشدياق يعقوب قد كان مقدماً في بلدته من قبل بدليل تلقيبه بالشدياق : وانما انتهز وجود هذا السلطان المتخفي في ضيافته فاخذ منه هذه الصفيحة ليعزز مقامه عند الحاجة لدى حكام الجوار من المسلمين ويأمن مزاحمة اقرانه .

وقد روى الدويهي ايضاً في تاريخ سنة ١٤٤٤ خبر وفاة

---

(١) وقد ذكر هذه الرواية صاحب كتاب الغرر الحسان وصاحب كتاب اخبار الاعيان عن حمزة بن سباط ايضاً .

الشدياق يعقوب مقدَّم بشراي وان مدة ولايته كانت نحو ٦٢ سنة ثم قال « فخلفه في المقدمية اولاده المقدم سيفا وهو زين (١) والمقدم قمر والمقدم مزهر : فحكموا حكماً عدلاً واستتبت الراحة في ايامهم كما كانت في ايام والدهم » (٢) .

وقد اردف الدويهي قائلاً ما حكايته :

« ومن اخبار هذا العصر نستدل على انه في دولة المقدمين واحكامهم العادلة توفرت الراحة لاهل لبنان وكثرت عندهم المدارس والكنائس : وكان في قرية حدشيت وحدها

---

(١) كذا في الاصل الخطي وهو اصوب مما نقله المعلم رشيد الشرتوني ناشر تاريخ الدويهي بالطبع في بيروت الذي اخذنا سابقاً عنه : لان لفظة « زين » هي سريانية ومعناها في العربية سلاح او سيف : ولهذا كان الاسمان يدلان على مسمى واحد وهما من قبيل اللقب . اما المقدم بدر فهو ابن المقدم قمر لا كما وهم الدويهي : ويدلك على صحة ذلك ما جاء في الاثر الخطي الآتي في الكلام على المقدم عبد المنعم :

(٢) وجاء في تاريخ سنة ١٤٤٢ انه في نحو هذه السنة اعتنى خليل ابن مقلد مقدم العاقورة ببناء القبو الذي فوق عين القرية ورفع فوقه برجاً . وهذا مما يدل على ان مقدمي العاقورة قد استمروا يتخالفون في المقدمية الى هذا العهد ولو لم يصل الينا شيء من آثارهم كمقدمي بشراي الذين خصهم المؤرخ بالذكر لانهم من بلاده وقد وجد بين قومه آثاراً كثيرة لهم . ولا ينكر ان مقدمية جبة بشراي كانت اهم من مقدمية العاقورة وغيرها عند الموارنة في هاتيك العصور .

عشرون كاهناً وفي كنائس بشراي مذابح على عدد ايام السنة وفي الحدث ستمائة زوج بقر وفي الحارة العليا من اهدن سبعون بغلاً : وقد احصينا اسماء من كان من النساخ في ذلك العهد ممن وقفنا على كتبهم فاذا هم ينيفون على مئة وعشرة ..... وبسبب ما اشتهر به لبنان من الامن والطمأنينة قصده الناس من الاماكن البعيدة مثل اولاد جمعه الذين تركوا عين حليا وسكنوا بشراي :واولاد شاهين الذين رحلوا من صدد الشرق وسكنوا قرية حصرون : والخوري يوحنا والقس ايليا واخوهما الشدياق جرجس اولاد الحاج حسن انتقلوا من نابلس الى حدشيت : والقس يعقوب ورفاقه الذين هاجروا من الحبشة وترهبوا في دير مار يعقوب اهدن ولذلك لقب الدير بدير الاحباش » اه .

أبعد هذه الروايات التاريخية من ريب في استقلال الموارنة الى هذا العصر في جبل لبنان ؟ ونحن انما نتحرى في هذه النبذة اثبات ما يتعلق بتاريخهم المدني مع ان هناك فيما يتعلق بتاريخهم الديني شواهد شتى راهنة مما يدل على تمام حريتهم واستقلالهم من حيث اقامة بطاركتهم ومطارينهم على مقتضى احكامهم الدينية بسلاسل متواصلة دون ان يزعجهم أحد في ذلك لا من الخارج ولا من الداخل: حتى انه لم يذكر

قط ان قد خلا كرسيهم البطريركي من بطريرك لهم يتولى تدبيرهم في الروحيات والزمنيات بكل حرية واستقلال . الا ما كان هؤلاء البطاركة بعد انتخاب الاساقفة القانوني لهم وتوليهم هذا المقام يسعون له بكل جد عند سنوح الفرص من حيث الاتصال بالكرسي الرسولي وطلب درع التثبيت وهو رمز كمال الرئاسة من لدن الحبر الروماني الذي لم يكن يتأخر عن تلبية الطلب وارسال الهدايا والرسائل المعتادة لهم والمرسلين لمساعدتهم في تهذيب الشعب على قواعد الديانة الكاثوليكية المقدسة : وعندنا من ذلك شيء كثير نتجاوز عن ذكره لانه ليس من غرضنا في هذه العجالة .

ولنرجع الى ما كنا بصدده

فالظاهر انه في خلال المدة التي بين سنة ١٤٤٤ حيث توفي المقدم يعقوب المذكور آنفاً وسنة ١٤٦٠ قد توفي أولاد هذا المقدم المذكورون أيضاً وأحد احفاده المدعو رزق الله وولده يعقوب : وخلف هؤلاء جميعاً المقدم عبد المنعم بن زين (الذي هو سيفا) والمقدم بدر بن قمر : بدليل ما جاء معلقاً على نسخة كتاب الاناجيل في السريانية والعربية في الصفحة ٩ منه بخط المقدم عبد المنعم نفسه(١)

---

(١) وكان هذا الكتاب مخطوطاً باصله في خزانة المدرسة المارونية

قال ما حكايته « لما كان في سنة ١٧٧١ من سني الاسكندر اليوناني ابن فيلبس (وهي الموافقة لسنة ١٤٦٠ م) وقف هذا الانجيل الطاهر المقدمان عبد المنعم بن زين وبدر بن قر عن نفسيهما وأنفس والديهما واولادهما وعن نفس المقدم رزق الله وولده يعقوب : وقفاه للقديس برصوما الفاضل الطاهر الكائن في قرية بشراي — كتبه عبد المنعم بن زين » (١) .

برومية على عهد العلامة السمعاني الشهير .

(١) كنا قد ذكرنا هنا في الطبعة الاولى عن تاريخ الدويهي المطبوع في بيروت « انه في سنه ١٤٧٢ كانت وفاة المقدم رزق الله بن جمال الدين بن سيف بن المقدم يعقوب فخلفه في المقدمية ابن اخيه المقدم عبد المنعم بن عساف بن جمال الدين » : ولكننا قد عثرنا بعد ذلك في مطالعاتنا على هذا الاثر التاريخي الراهن في تاريخ سورية للعلامة المطران يوسف الدبس (جزء ٢ مج ٤ ف ٣ عد ٦٢٩ ص ٣٦٣ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٩) فرأينا ان نصلح ذلك كما رأيت وهو على ما نرى اقرب الى الصواب . وقد حصل على ما يظهر في روايات العلامة الدويهي بعض التقديم والتأخير بسبب الخطأ الذي حصل في هذا التاريخ . وعندنا ان قوله في تاريخ سنة ١٤٧٠ عن توفر الراحة في دولة المقدمين لاهل لبنان يجب ان يكون بعد ذكر وفاة المقدم يعقوب وانتقال الحكم لاولاده كما ذكرناه هنا : لان بعد هؤلاء قد حصل شقاق كبير بين الموارنة على عهد هذا المقدم عبد المنعم بسبب اتصاله باليعاقبة وانتصاره لمذهبهم وقد بنى لهم كنيسة برصوما قرب داره فثار الموارنة عليه وعليهم كما ترى في المتن ه ا .

ذلك ولا نرى بدًّا من ان نذكر هنا حادثة تتعلق بأمر الديانة لانها مما يثبت تمام حرية الموارنة واستقلالهم في المعنيين.

كان هذا المقدم عبد المنعم قد تعلم القراءة في حداثته عند كاهن يعقوبي اشربه مع العلم روح معتقد اليعاقبة . ولما تولى امر المقدمية(١) كان يتردد عليه تاجر اسمه موسى ابن عطشه من اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة فاستشعر منه ضعفاً في ديانته وميلاً الى هذا المعتقد الغريب : ثم انه انتهز فرصة زواجه وارسل اليه هدايا نفيسة مع بعض القسوس من اليعاقبة : فاكرم وفادتهم وانزلهم عنده على الرحب والسعة . فأخذ

(١) روى العلامة الدويهي في تاريخه المذكور مراراً بحسب النسخة الخطية ما ملخصه : انه بعد وفاة المقدم سيفا ابن المقدم يعقوب قد خلفه في المقدمية ابنه عبد المنعم الاول الذي توفي سنة ١٤٦٩ فخلفه رزق الله ابن اخيه جمال الدين بن سيفا : وتوفي رزق الله سنة ١٤٧٢ فخلفه ابن اخيه عبد المنعم الثاني ايوب بن عساف بن جمال الدين وعلى عهد هذا عبد المنعم الثاني كان تسرب روح اليعقوبية بين الموارنة على ما ذكرنا في المتن . ولكن الصواب على ما نرى بعد اكتشاف هذا الاثر الخطي المذكور آنفاً هو انه لم يكن في هذه السلسلة مقدمان باسم عبد المنعم بل واحد فقط وهو ابن زين او سيفا الذي ذكر اسمه بخط يده في هذا الاثر وهو الذي آوى اليعاقبة وانتصر لهم وبنى كنيسة برصوما وكان ما كان من امره وامرهم مع الموارنة على ما ذكرنا هنا .

هؤلاء يكثرون من الهدايا والتودد اليه حتى استمالوه بكليته ولم يستنكف من ان يبني لهم كنيسة خاصة قرب داره على اسم برصوما احد زعمائهم : وهي التي وقف لها كتاب الاناجيل المقدسة في سنة ١٤٦٠ كما مرّ بك . فتشجع هؤلاء اليعاقبة وأخذوا ينفثون سم ضلالهم في الشعب حتى اغووا جمهوراً منهم وتظاهروا باليعقوبية هم واولئك الدخلاء الذين كانوا قد اتوا من الخارج وسكنوا في جبة بشراي .

وكان ذلك على عهد البطريرك يعقوب الحدثي الذي توفي سنة ١٤٦٨ : ثم على عهد اخيه بطرس الذي خلفه في المقام البطريركي وتوفي سنة ١٤٩٢. وفي ايام هذا الاخير استفحل امر هؤلاء اليعاقبة ونهض هذا البطريرك لمناصبتهم وارسل اليهم كهنة ورؤساء كهنة فضلاء ليردوهم عن طغيانهم ويرشدوهم الى سواء السبيل . فتعرض لهم المقدم عبدالمنعم الضال والغرباء الذين قدموا (على قول الدويهي) من صدد ونابلس والحبشه وعظم الشقاق في البلاد حتى ان المقدم المذكور قد تهدد كل من يتعرض لهؤلاء اليعاقبة بالنفي ومصادرة املاكه .

وفي سنة ١٤٨٨ قد حصلت مواقع كبيرة ومناوآت بليغة في جبة بشراي بين حزب اليعاقبة وبين الموارنة انتهت بتغلب هؤلاء وفي مقدمتهم اهل اهدن الذين ابلوا بلاءً حسناً في هذه

الحرب الدينية الداخلية وانتصروا على حزب اليعاقبة(١) الذين اذ رأوا ان لا قبل لهم بالاقامة بين الموارنة رحلوا عن بلادهم مكرهين ورجع الذين والوهم عن غيهم واضطر المقدم عبد المنعم الى ملازمة السكينة حتى ادركته المنية في خلال سنة ١٤٩٥ فتولى المقدمية بعده ولده جمال الدين يوسف وكان مستقيم الديانة وعلى غير رأي أبيه فاستتبت الراحة في عهده.

فلو لم يكن الموارنة في ذاك العصر احراراً مستقلين حتى في امورهم الدينية لما كان من مجال لهم ان يثوروا على المقدم عبد المنعم الضال وعلى اليعاقبة الذين انحاز اليهم وأخذ بيدهم حتى طردوهم من بلادهم بطريق الارهاب والاكراه على الرغم منه. أفليس في ذلك خير دليل على أن هؤلاء الموارنة كانوا عند الاقتضاء يذودون عن حياضهم بكل ما عزَّ وهان موتمرين بامر بطاركتهم واساقفتهم الذين كانوا يحرصون اشد الحرص على كرامتهم وديانتهم ؟ .

ذلك وقد خلف هذا المقدم يوسف ابن المقدم عبد المنعم المذكور آنفاً ولده الياس . وروى العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٥١٤ ان البطريرك سمعان الحدثي قد طلب له في جملة ما

(١) وقد استفاض العلامة الدويهي في ذكر هذه الحادثة ووصفها وانما نحن اجتزأنا بلخصها . فمن اراد المزيد عليه ان يراجعها هناك .

طلب من البابا لاون العاشر مرسوماً يحثه به على ان يكون غيوراً على جماعة أهل لبنان . وقد شرفه هذا البابا العظيم القدر بهذه الرسالة التي وقفنا على أصلها اللاتيني في كتاب مجموعة الخطوط البابابوية الشريفة الى الطائفة المارونية المطبوع حديثاً برومية فآثرنا ترجمة بعضها عنه هنا لمزيد الفائدة وهذا مستهلها :

« الى الابن الحبيب اياس الشريف سيد الموارنة الزمني »

ومما جاء فيها بعد ذلك ما ترجمتهُ حرفياً :

« فاننا نحرضك أيها الابن الحبيب بحرمة هذا الكرسي الرسولي ان تثابر على تقديم الاحترام الواجب من قبلك ومن قبل رعيتك (كما بلغنا بكل سرور انك عامل حتى الان) الى البطريرك بطرس (شمعون) والى المطارنة والاساقفة والكهنة وسائر الاكليروس كأناس يرعون نفوسكم حتى تفلحوا بمعونة الله في كل اعمالكم وافكاركم وتقووا على التخلص من عبودية الغير المؤمنين ٠٠٠٠ اخيراً ولكي تعلم جيداً اننا نتخذك كولدنا العزيز بنوع خاص في احشاء المحبة الحنون نهدي اليك مع رسول البطريرك بطرس نفسه بزتين لتلبسهما متى شئت تذكاراً لنا . وكان بودنا ان نرسل اليك هدايا أخرى عن طيبة

خاطر لو عرفنا انها تصل بدون خطر » .

فمن كل ذلك يظهر لكل منصف من ذوي البصائر ما كان عليه الموارنة في مواطنهم من جبل لبنان من الحرية والاستقلال والراحة الداخلية في كل احوالهم دون اقل سيطرة عليهم من الخارج لا في امورهم الدينية ولا في امورهم الزمنية : حتى يمكن ان يقال انهم انما كانوا كمملكة صغرى معصومة في ضمن حدود بلادها وكلها امة واحدة لا اختلاط فيها وقد احترمها على الغالب أهل جوارها فلم يتعرضوا لها في شيء مما كانوا يتعرضون به لغيرها خاصة من النصارى الذين كانوا بين ظهرانيهم على ما رأيت بعضه فيما سلف من هذا الباب .

فاي برهان والحالة هذه يريد خصومنا في هذه القضية اصرح واقوى من هذا على استقلال الموارنة بجبل لبنان كل هذه المدة أي من بعد الصليبيين الى اوائل القرن السادس عشر ؟ فلقد حصحص الحق اذن وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً . وبهذا القدر غنىً لذوي الالباب .

الباب الخامس

في

بيان استقلال الموارنة بجبل لبنان

من اوائل القرن السادس عشر الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر
اي منذ فتحت الدولة العثمانية سورية ومصر حوالي سنة ١٥١٥
الى نظام لبنان الحالي سنة ١٨٦٠

روى العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٥١٥ م (أي سنة ٩٢١ هـ) ما ملخصهُ انهُ بعد ما جرت حروب كثيرة بين السلطان سليم ابن السلطان بايزيد العثماني وبين اسماعيل شاه ملك العجم حتى هزمه وتملك بلاده قصد محاربة الغوري ملك مصر الاشرف قانصو لانه كان يمالئ اسماعيل شاه صديقه ويحرضه على محاربة السلطان . فالتقى الفريقان في مرج دابق بالقرب من حلب وتغلب السلطان سليم على الغوري حتى فتح كل مدن سورية ؛ ثم زحف على مصر وكان الجراكسة قد نادوا بالداودار سلطاناً عليها ولقبوه بالملك الاشرف : فتغلب السلطان سليم عليه ايضاً وقتله شر قتلة وفتح مصر واستتب له

الامر في كل بلاد مصر وسورية دون مزاحم . وقد تم له ذلك في سنة ١٥١٦ م (وهي سنة ٩٢٢ هـ) .

قال الدويهي بعد ذلك « فركدت اذ ذاك زعازع الحروب وخمدت الفتن بين الامراء في جبل لبنان وقد مثلوا كلهم اجمعين بين يدي السلطان الفاتح . وبعد أداء واجب الطاعة ولّى الامير فخر الدين بن يونس بن معن على بلاد الشوف : والامير جمال الدين التنوخي اليمني على بلاد الغرب : والامير عساف التركماني على جبل كسروان وجبيل : وامرهم ان يحسنوا سياسة الرعية ويجدُّوا في عمران بلدانهم . وقد ضرب عليهم الضرائب يستوفونها من البلدان التي ولاهم عليها . ورتب على بلاد كسروان من ذلك سبعمائة سلطاني ليس غير وكان مقدار السلطاني ثلثي القرش الاسدي : واعطى كلا منهم بذلك خطاً شريفاً » (١) .

---

(١) وروى صاحب كتاب الغرر الحسان في تاريخ سنة ٩٢٢ هـ . (سنة ١٥١٦ م) هذه الحوادث كما يلي حرفياً « وكتب (السلطان سليم الفاتح) وهو بدمشق الى امراء جبل لبنان بالامان وحضر اليه الامير فخر الدين ابن الامير عثمان بن معن والامير جمال الدين اليمنى والامير عساف التركماني وغيرهما من امراء البر . ولكن الامراء التنوخيين (القيسيين) لم يحضروا لانهم كانوا من حلف الشراكسة ويدعون بالقرب منهم . ولما حضر الامراء قدام السلطان صحبة خير بك والغزالي تقدم

وكان الامير عساف يقيم اولاً مدة الصيف عند عين شقيق في جرود كسروان وفي الشتاء ينزل الى عينطورة في سواحله . وكانت جماعته (وهم التركمان) متفرقة في الازواق على ساحل البحر . فلما شمله انعام السلطان سليم انتقل الى قرية غزير وجعل سكناه فيها وكان له ثلاثة بنين وهم حسن وحسين وقاتبيه .

ولما ترتبت امور البلاد على هذا الشكل ومدأ الامن

الامير فخر الدين ابن معن وقبل الارض ودعا للسلطان سليم هذا الدعاء ... فسأل السلطان خير بك عنه . فاعلمه انه امير من سكان البر يحكم قرى واماكن في جبال ضيقة من اقطاع الشام فاعجبه السلطان سليم لاجل فصاحته وجسارته وانعم عليه وقربه لديه وقال : هذا الرجل بالحقيقة واجب ان يدعى سلطان البر . ومن ذلك الوقت لقب ابن معن بهذا الاسم اي سلطان البر : وكان كل من تولى في ذاك الوقت على ولايته يدعى سلطان . ثم طلب غيره من الامراء الاذن بان يدخلوا على السلطان فقيل لهم بما ان السلطان فخر الدين قد دخل فلا لزوم لغيره ان يدخل .

وقرر الامير فخر الدين على بلاد الشوف والامير جمال الدين اليمني على بلاد الغرب والامير عساف على بلاد كسروان وبلاد جبيل وامرهم ان يحسنوا السياسة الى قومهم : وان يسعوا بكلما يؤول لعمار بلادهم .

ولزيادة حلمه رتب عليهم مالاً قليلاً فجعل على بلاد كسروان سبعماية سلطاني وكان السلطاني يساوي ثلاثين قرشاً اسدياً واعطاهم بذلك خطاً شريفاً»

والسلام رواقه عليها اخذ الناس يقبلون من كل جانب الى السكنى في مقاطعة كسروان بعد مرور نحو مئتي سنة على خرابها . فجاء المتاولة (وهم الشيعية) من جهات بعلبك وسكنوا فاريا وحراجل وبقعاته في صروده : وقدم السنية من البقاع واستوطنوا فيطرون وفقيع (وهي القليعات) في وسوطه وفتقا والجديدة وساحل علما في سواحله : واتى الدروز من المتن والجرد وسكنوا برمانا ومزارع كسروان : ورجع اليه ايضاً بعض النصارى النازحين من بلاد طرابلس (١) :

(١) يظهر ان هؤلاء النصارى الذين رجعوا الى بلاد كسروان من بلاد طرابلس انما كانوا من سلالة سكانه الاصليين قبل خرابه المشهور في سنة ١٣٠٥ كما ذكرنا في محله آنفاً . وتقديرنا هذا انما هو مبني على ما جاء في رواية صالح بن يحيى المؤرخ بهذه الحادثة حيث قال كما رأيت ما حكايته : « واستخدم اسندمر جماعة منهم في طرابلس بجامكية وجازاهم من الاموال الديوانية واقاموا على ذلك سنتين واقطع بعضهم املاكاً من حلقة طرابلس واختفى بعضهم في البلاد واضمحل امرهم وخمل ذكرهم »

وعندنا ان هؤلاء الاحفاد كانوا يعلمون بالتواتر تاريخ اصلهم في كسروان وكيف نزح اجدادهم عنه مكرهين : فكانوا على الدوام يحنون الى هذا الوطن العزيز حتى سنحت لهم هذه الفرصة الملائمة للرجوع اليه فرجعوا الى استيطانه . وليست المدة بين نزوح اجدادهم وعودتهم طويلة كما قد يتوهم (وهي تكاد لا تزيد عن المئتي سنة) حتى ينسوا وطنهم هذا الاصلي : فان من المعقول ان هؤلاء الاحفاد قد عاشروا بعض اولئك

وكذلك نزل اهل المجدل الى عرامون واهالي يانوح الى كفور الفتوح(١). الا ان الشيخ حبيش بن موسى بن عبدالله ميخائيل من يانوح قد انتقل الى غزير : وكان له ولدان يوسف وسليمان فقربهما الامير عساف اليه لما توسمه فيهما من الذكاء والشجاعة . واذ توفي الامير عساف في خلال سنة ١٥١٨ تولى مكانه من قبل والي دمشق على كسروان وجبيل ابنه الاكبر وهو الامير حسن . فوقعت الفتنة بينه وبين اخيه الاصغر الامير قاتبيه على الولاية حتى غدر هذا به وبأخيه الثاني الامير حسين فقتلهما في بيروت : الا انه ابقى على الامير منصور ابن اخيه الامير حسن الى ان يرزق ولداً يخلفه . وحينئذ ضمن بلاد كسروان وجبيل من والي الشام وقبض على يوسف وسليمان ولدي الشيخ حبيش ونفاهما الى مصر لانهما كانا خادمي اخويه (٢) .

الاجداد الذين تم خراب كسروان على ايامهم او على ايام آبائهم وتلقوا اخباره عنهم في خلال هذه المدة كما لا يغرب .

(١) والمجدل ويانوح قريتان في جبة المنيطرة بجوار العاقورة في صرود بلاد جبيل : وكانت يانوح كرسي بطريرك الموارنة مدة طويلة كما رأيت ولم تزل آثار هذا المقام البطريركي فيها الى الان وهي تدل على اهميته .

(٢) ان الشيخ حبيش هذا كان من اعيان الموارنة وهو جد المشايخ

وفي سنة ١٥٢٣ توفي الامير قاتبيه دون عقب فخلفه الامير منصور ابن اخيه الامير حسن . فاستقدم اليهِ من مصر الشيخ يوسف والشيخ سليمان ولدي حبيش وقربهما اليه كما كانا على زمان والده : فاخلصا له الخدمة . وقد امتد حكمه الى بلاد عكار دون طرابلس وما يليها لانها كانت بيد النواب وكان يضمن ما لها من الدولة محمد اغا ابن شعيب من اهالي عرقة : وهو الذي كان يضمّن للامير منصور عساف من تحت يده اموال بلاد جبيل والبترون وجبة بشراي والزاوية والضنية : وكان الامير منصور بسبيل ذلك يسيطر على كل هذه البلاد بحسب العادة .

***

والظاهر من كل ذلك انه بعد ان استولى سلاطين آل عثمان على سورية قد مدوا سيطرتهم على جبل لبنان أيضاً دون حرب وولوا عليه أمراءه وضربوا الضرائب على كل مقاطعة منه

آل حبيش المشهورين للان في غزير وجوارها . اما قوله ان الامير قاتبيه قد ضمن بلاد كسروان وجبيل من والي الشام فالمراد به انه تعهد بدفع المال المضروب عليه الى خزينة الدولة العثمانية بعد استيلائها على كل سورية كما مرَّ بك : وهذا كان يكفي الولاة العثمانيين حتى يقروا الحكام على البلاد ويطلقوا يدهم فيها وهو من قبيل الجزية او الخراج : وكان هؤلاء الحكام يستبدون في البلاد دون حرج .

مكتفين بذلك . وكان مرجع هؤلاء الامراء الى ولاة الشام الذين كانوا يتقاضون منهم المال المضروب للدولة على البلاد . ويظهر ايضاً ان الجهات التي كان يسكنها الموارنة من هذا الجبل قد استمرت في اول الامر على حالها لانها لم تكن خاضعة فعلاً للسلطة التي انتزع منها السلطان سليم بلاد سورية . وربما كان الولاة قد فرضوا عليها بعد ذلك مالاً يؤديه حكامها الموارنة الى الخزينة وتركوها على حالها : فلم يستنكف الحكام واصحاب الرأي من اهل البلاد ذلك حذراً من الدخول في حروب ومنازعات لا قبل لهم بها على قلتهم وضعفهم . وقد استمروا مع ذلك على ما كانوا عليه من قبل الى ان صارت المزاحمة على المقدمية فالتجأ فريق منهم الى الحكام المسلمين الذين مدوا بهذا السبيل يدهم اليهم ونصروا فريقاً على الآخر وغيروا وبدلوا في المقدمية ولكنهم لم ينصبوا قط مقدمين او حكاماً عليهم الا منهم ولم يتجاوزوا هذا الحد معهم .

وبالواقع قد ذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٥١٩ : انه في هذه السنة توفي المقدم عساف البشراني وهو الياس بن جمال الدين يوسف بن عبد المنعم الذي شرفه البابا لاون العاشر بالرسالة المذكورة آنفاً : وقد ترك ولداً صغيراً اسمه يوحنا فتغلب على المقدمية كمال الدين عبد الواهب الماروني المعروف

بابن عجرمة من قرية قيطو في جبة بشراي : وقد تزوج بست الملوك بنت الشيخ علوان بن حسام الدين بن قمر البشراني وحظي بمال وافر وبنى برجاً كبيراً في قرية قيطو وتولى البلاد مما يلي الشمال بغرب .

ولما بلغ يوحنا هذا اشده وادرك ما كان من مزاحمة ابن عجرمة له على المقدمية أخذ يترقب الفرص للاثار منه واسترجاع كل ولاية أجداده . وفي ذات يوم من سنة ١٥٣٧ تم الاتفاق على الاجتماع بابن عجرمة في قرية بلوزه التي بين بشراي وقيطو : فسبق ابن عجرمة اليها بحاشيته وجلس عند اصل جوزة كبيرة هناك . ثم وصل بعده المقدم يوحنا برجاله : وكان يقال له ايضاً عبد المنعم وكان بطلاً مغواراً ابيّ النفس . ولما رأى ان ابن عجرمة لم يحتفِ به ولم يقف لهُ حنق عليه وطعنه بالرمح فقتله : وانفض المجلس وحمل ابن عجرمة رجاله الى قريته حيث دفن شرقي كنيسة القديس سركيس .

اما ست الملوك زوجة ابن عجرمة فقد أخذت تتحين الفرص للاخذ بالثار : وفي خلال سنة ١٥٤٧ بلغت مناها بقتل عبد المنعم يوحنا غيلة : ولم يترك عقباً فانقرضت به دولة مقدمي بشراي ابناء سيفا ابن المقدم يعقوب ايوب الاول وانتقلت الى العناحلة ابناء قمر لاتصالهم بابناء سيفا المذكورين بواسطة

الزواج.

بيد انهم لم يعتمدوا على التراث خوف المزاحمة وهم غرباء ولهذا قد سعى المقدم رزق الله بن حسام الدين العنحلاني لدى الامير منصور عساف حاكم بلاد كسروان وما يليها من الشمال حتى بلاد عكار فاثبته مقدماً على جبة بشراي . وهكذا مُدَّت يد هذا الحاكم الاجنبي الى حكومة جبة بشراي والى الموارنة واخذ منذ ذلك الحين ينصب عليهم الحكام منهم مع رعاية استقلالهم في كل شيء سوى الجزية أو الضرائب المالية التي كان يجمعها منهم تسديداً لطلب الدولة : وسوى ما كان يتصل به من الشكاوي على هؤلاء الحكام من قبيل التظلم والمزاحمة (١) .

(١) ومما جاء في تاريخ سنة ١٥٥٠ للعلامة الدويهي ذكر الراهب انطون الحصروني ابن الحاج فرحات : وقد قال فيه انه كان يجيد اللغة التركية وانه عند ما قدم السلطان سليمان الى مدينة حلب حضر اليه في جملة المشتكين الطرابلسيين : فانعم عليه بخمسة مراسيم سلطانية تسجلت في طرابلس ايام حسن بك مآلها : ان غلال الزيتون تقسم تحت شجره فالنصف لصاحبه وربع حق وربع ظلم : وان لا يتعرض احد للنصارى لا في امور دينهم ولا في امور زواجهم : وان ترمم الكنائس . وكل ذلك على ما يظهر في مدينة طرابلس وما يليها دون لبنان حيث لم يكن من لزوم لمثل هذه الاوامر : ثم انفذ امراً همايونياً الى قاضي طرابلس ان لا

ومما يدل على ذلك ما جاء ايضاً في تاريخ سنة ١٥٧٤ من انه في خلال هذه السنة قُتل المقدم رزق الله المذكور فولى الامير منصور مكانه على جبة بشراي أخويه داغراً وعسافاً . ثم قُتل هذان المقدمان غيلة فولى بعدهما رجلاً من غير سلالتهما يقال له أبا سلهب القريعي . فلم يرضَ الشيخ ابو منصور حبيش عن تولية القريعية وكان كاخية الامير وله عنده الكلمة النافذة : فتسبب بعزل ابي سلهب هذا عن ولاية الجبة وبتسليمها الى المقدم مقلّد بن الياس : وقد اشرك معه في الحكم الشدياق يوسف ابي رعد المسمى خاطراً وهو ابن الشدياق

يتعرض احد لبطريرك الطائفة المارونية بدير قنوبين في امر من امور بطريركيته : وان تكون حقوق الطائفة المارونية وكرامتها مرعية بوجه خاص : وان يعاقب العقاب الشديد كل من تجرأ على مخالفة ذلك . وكان هذا في غرة ربيع الاول سنة ٩٥٥ هـ (اي سنة ١٥٤٨ م) .

فمن هنا يرى المتأمل ان الموارنة قد زادوا استقلالهم النوعى تعزيزاً خاصة في امورهم الدينية : وأمنوا مطاولة بعض الحكام من الاجانب عليهم في هذه الامور المهمة عندهم جداً . ذلك فضلاً عما في قوله « ان تكون حقوق الطائفة المارونية وكرامتها مرعية » من التصريح بوجوب المحافظة على استقلالها الذي تمتعت به الى ذاك العهد كما بيناه هنا باستفاضة .

شاهين الحصروني من بيت مشروق (١) .

وجاء في تاريخ سنة ١٥٧٩ انهُ في هذه السنة قُدّمت السعاية الى الباب العالي في الامير منصور بن عساف بسبب قتله ابن شعيب وامراء فتقا وعبد الساتر وغيرهم : فصدر الامر من السلطان بجعل طرابلس باشاوية لتنكسر شوكة ابن عساف وان يتولى سياستها ابن سيفا التركماني. وعندها هرب الشدياق خاطر الى جهات بعلبك والمقدم مقلد الى ناحية الشوف فمات هناك هذا الاخير عن صبي وبنت وهما جمال الدين وست البنات ثم ان يوسف باشا ابن سيفا المذكور كاتب الشدياق خاطراً بالامان واعاده الى ولاية جبة بشراي وجعل الشدياق باخوس ابن صادر الحدشيتي (٢) شريكاً له في الحكم : وهكذا صار مرجع مقدمي جبة بشراي الى والي طرابلس .

وفي سنة ١٥٨٠ توفي الامير منصور عساف فخلفه ابنه الامير محمد في الولاية على بلاد كسروان . وفي سنة ١٥٩٠

(١) قال الدويهي هنا ما مؤداه « اما اهدن فكان تدبيرها مسلماً الى ثلاثة شمامسة » ولم يذكر غير ذلك لنعلم كيف تسلم هؤلاء الشمامسة تدبيرها او ممن او لاي سبب كان هذا الاستثناء .

(٢) وفي نسخة انه يوسف باخوس بن صادر الحدشيتي . وقد توفي هذا الشدياق باخوس سنة ١٥٩٤ واقيم مقدماً مكانه ولده الشدياق فرج ومنه آل باخوس المشهورون في كسروان .

قتله غيلة يوسف باشا سيفا صاحب طرابلس وانقطعت به سلالة الامراء آل عساف حكام بلاد كسروان . وتزوج يوسف باشا في سنة ١٥٩٣ بارملة الامير محمد هذا : واستولى بهذه الحجة على كل ميراث آل عساف بكسروان : وقتل اولاد حبيش الموارنة الذين كانوا مدبرين عندهم الا ولدين من اولادهم هرباً الى الشويفات فحماهما الامير محمد بن زين الدين .

وكان حاكماً اذ ذاك على بلاد الشوف الامير فخر الدين الثاني ابن الامير قرقماز المعني : وكان عنده بمنزلة مدبر او مستشار الشيخ ابوصقر ابراهيم ابن الشدياق سركيس الخازن الماروني وأخوه الشيخ ابو صافي رباح بمنزلة دهقان أي ناظر لاملاكه ومداخيله (١) فأخذ الشيخ ابو صقر يغريه على ضم

(١) يظهر ان العناية الصمدانية بعد ان اختلت امور الموارنة في جبة بشراي بسبب ضعف مقدميها ومزاحمتهم على الحكم كما رأيت قد قيضت لهم وسائل اخرى حفظاً لكرامتهم وصوناً لحريتهم واستقلالهم الداخلي : لانها لم تشأ ان تتركهم عرضة لاستبداد الحكام الاجانب من المسلمين الذين حولهم فيسوموهم من الظلم والحيف ما لا قبل لهم في احتماله لضعف احوالهم .

ومن ثم فمن بعد مقتل الامير قرقماز بن معن صاحب بلاد الشوف في خلال سنة ١٥٨٤ في حكاية طويلة لا محل لايرادها هنا قد اوعزت السيدة نسب التنوخية زوجته الى مدبره الشيخ كيوان الماروني من

مقاطعة كسروان التي تربى فيها الى ولايته : وقد حسّن له ذلك وهوّنه عليه لان ولاتها الشرعيين وهم الامراء آل عساف

دير القمر ان يهتم باخفاء ولديها القاصرين الامير فخر الدين والامير يونس من وجه اعداء ابيهما حذراً من اغتيالهما . فسار الشيخ كيوان بهما متسللاً بقصد ان يخفيهما في بلاد عكار : وفي طريقه اضطر ان يبيت بهما في انطلياس عند صديق له اسمه ابو صقر ابراهيم الخازن : وكان رجلاً عاقلاً اصيل الراي فباح له الشيخ كيوان بالسر وكيف انه هارب بالاميرين الصغيرين الى بلاد عكار . اما ابن الخازن فسفه هذا الراي ببراهين دامغة حتى اقنع الشيخ كيوان ان يستودعه اياهما الى ان تتغير الاحوال ويبلغا اشدهما وتكفل له بالحرص كل الحرص عليهما وبتربيتهما على ما يليق بشأنهما وتم الاتفاق بينهما على ذلك . فانتقل الشيخ ابراهيم الخازن بهما وبعائلته جميعاً الى برج قديم على جبل بين نهر الكلب والضبية (وهو الآن دير مار يوسف البرج) : واصلحه ما امكن وسكنه مدة ثم هجره لانه رآه غير موافق لكتمان سر الاميرين : وذهب بالجميع الى محل يقال له « بلونة » تحت قرية عجلتون في كسروان فيه حرج كثيف : فاشترى قسماً كبيراً منه مما يشرف على وادي نهر الكلب بعيداً عن السابلة : وبنى له بيتاً فيه واخذ ينشّئ هناك الاميرين مع اولاده على الاداب المسيحية الراقية الى ان بلغا اشدهما : فخابر والدتهما بامرهما وهذه اخبرت اخاها الامير سيف الدين التنوخي الذي كان مقيماً في قرية عبيه من مقاطعة الغرب : فطلبهما اليه واخذ يسعى سعيه حتى ارجعهما الى حكم بلاد الشوف مكان والدهما . وكان الامير فخر الدين رجلاً حزوماً عاقلاً وبطلاً مغواراً وحاكماً عادلاً فتعلقت به الرعية كل التعلق . واذ استتب له

قد انقرضوا وانما يوسف باشا سيفا مغتصب لها . وفي سنة ١٥٩٨ شن الامير فخر الدين الغارة على يوسف باشا وحصل بينهما موقعة كبيرة عند نهر الكلب بسبب حكم بلاد كسروان (على ما قال الدويهي) . فدارت الدوائر على ابن سيفا وتولى الامير فخر الدين الحكم على بيروت وكسروان سنةً واحدة ثم تركهما برضاه لابن سيفا نفسه لعدم ملائمة الظروف وعاد الى الشوف .

أما يوسف باشا فانه اذ رجع الى كسروان أخذ ينتقم بدهائه من كل الذين شايعوا الامير فخر الدين وكان معظمهم من الموارنة . وقد روى العلامة الدويهي : ان في جملة من قتل منهم غيلة مقدمي جاج فسلط عليهم يوسف وقانصوه

الحكم استدعي اليه مربيه الحكيم الفاضل الشيخ ابا صقر ابراهيم الخازن وجعله كاخيته اي مدبره ومرشده لما كان يعهده فيه من الحكمة والحزم واصالة الرأي : ومن هنا بدأ تقدم بيت الخازن .

واما اصل هذه العائلة المعروف فمن قرية جاج التي في اعالي بلاد جبيل . هاجر جدهم الشدياق سركيس الخازن منها الى بلاد كسروان في خلال سنة ١٥٤٥ على ما ذكر العلامة الدويهي : وسكن اولاً في قرية البوار في ساحل الفتوح ثم انتقل الى انطلياس : كما جاء في كتاب خطي قديم محفوظ عند هذه العائلة وقد لخصنا هذه الرواية عنه مع بعض الخلاف عما رواه صاحب تاريخ الاعيان بجبل لبنان ومن لف لفه .

ولدي احمد حماده فاوقعا بهم وهم على البيـادر : وكانوا اربعة وكلهم من الموارنة : واستوليا على اموالهم وعقاراتهم وتسلطا على مشيخة بلاد جبيل بموافقة ابن سيفـا . ومن ذاك الحين اخذت تمتد يد المتاولة وسيطرتهم على بلاد جبيل ثم على بلاد البترون : واخذ الموارنة يهاجرون من هذين المكانين بكثرة الى نواحي كسروان والشوف بسبب جور هؤلاء المتاولة واستبدادهم .

وفي سنة ١٦٠٠ توفي الشيخ ابو صقر ابراهيم الخازن فاقام الامير فخر الدين مدبراً له مكانه ابنه الشيخ خازناً المعروف بأبي نادر . وكان (على مـا وصفه العلامة الدويهي) رجلاً شجاعاً فطناً شديد الغضب حسن الرضى حزوماً منكراً للظلم حافظاً لسر بيت معن : وكان كوالده يحرض الامير على يوسف باشا حتى عاد لمحاربته لاجل ولاية بلاد كسروان وغيرهـا في سنة ١٦٠٥ وقد حصلت بينهما موقعة فاصلة عند فرضة جونيه انهزم فيها ابن سيفا برجاله وتم النصر للامير فخر الدين فولى على كسروان من قبله الشيخ يوسف المسلماني وعاد الى الشوف .

واتفق في سنة ١٦٠٧ ان جاء الوزير مراد باشا بعساكر

السلطان من الاستانة للانتقام من علي باشا جنبلاط (١) الذي كان قد استولى عنوة على مدينة حلب وعصي فيها . فانضم الى هذا الوزير يوسف باشا سيفا برجاله وكان ينتهز الفرص ليغريه على الامير فخر الدين عدوه . ومن بعد فتح مدينة حلب وتمهيد الامور فيها أخذ يظهر حنقه على الامير فخر الدين بحجة انه كان مشايعاً لعلي باشا جنبلاط . واذ بلغ الامير ذلك ارسل اليه ولده علياً وعمره نحو تسع سنين وارسل معه ثلاثمائة الف غرش على سبيل التقدمة استعطافاً لخاطره عليـه . فسر الوزير بذلك وعفا عنـه وأنعم على ولده الامير علي بسنجقية صيدا وبيروت وغزير قاعـدة بلاد كسروان : وتثبت بذلك للامير فخر الدين الحكم على بلاد كسروان شرعياً .

على انه بعد وفاة مراد باشا الوزير سنة ١٦١١ تولى دست

---

(١) ان اصل هذه الكلمة « جان بولاد » وقد حرفها اهل جبـل لبنـان بالاستعمال حتى صارت كما ترى . وجان بولاد انما هو جد هذه العائلة وهو من الاكراد الايوبيين . وكانت سلالته متقدمة جداً في الدولة حتى نكبوا هذه النكبة في حلب : فتشتتوا في جهات ارمينيـة وجاء منهم الدعو جانبولاد بن سعيد بن رباح الى بيروت لائذاً بالامير فخر الدين المعني لما كان بينه وبين هذه الاسرة من العلائق الحسنة والمحالفة مع كبيرها علي باشا الذي نحن بصدده : وقد حارب معه حروباً كثيرة لا محل لذكرها هنا .

الوزارة مكانه نصوح باشا : فتوجه الى ديار بكر ومنها الى حلب . فأخذ خصوم الامير فخر الدين يغرونه عليه بحجة انه اسعف ابن الحرفوش وابن شهاب على التخلص من احمد باشا والي دمشق : وان الخدمة (اي الهدية المالية) التي ارسلها اليه كانت اقل كثيراً من الخدمة التي ارسلها الى مراد باشا سالفه مع ابنه الامير علي . فحنق الوزير عليه واخذ يضايقه وهو يتحاشى جهده ان يدخل في حرب مع عساكر السلطان : حتى اضطر اخيراً ان يدبر أمور بيته ويحتاط لسلامة ولده الامير علي ويرحل الى بلاد ايتالية حيث نزل ضيفاً كريماً على دوق تسكانة الاكبر مدة نحو خمس سنوات تولى الحكم في اثنائها مكانه اخوه الامير يونس وابنه الامير علي بتدبير الشيخ ابي نادر الخازن (١) .

وفي هذه الاثناء وضع يوسف باشا سيفا يده على بلاد كسروان فامره جركس محمد باشا محافظ دمشق ان يخلي البلاد

---

(١) وروى العلامة الدويهي ان الامير فخر الدين قبل سفره الى ايتالية قد جمع اخاه الامير يونس ووالدته ومشايخ الشوف وبيت الخازن واوصاهم ان يكونوا يداً واحدة ليصونوا بلادهم من يد الاتراك الثقيلة وان لا يصدقوا عهودهم لئلا يجري لهم ما جرى لجماعة ابن جنبلاط الذين استسلموا لهم في حلب فنكلوا بهم تنكيلاً .

للامير ابن معن : فابى الخضوع واتفق مع الامير شلهوب الحرفوشي ومع حسن آغا وأمراء رأس نحاس وغيرهم وزحفوا بالفي مقاتل على آل معن . فجمع الامير يونس والامير علي ابن أخيه وحليفهما الامير علي الشهابي ثلاثة آلاف مقاتل : والتقى الفريقان عند عين الناعمة وبعد قتال شديد دارت الدوائر على ابن سيفا وحلفائه فانهزموا شر هزيمة . واذ استتب الامر للامير يونس ارسل الشيخ ابا نادر الخازن ومملوكه ذا الفقار ليسكنا في غزير ويتوليا بلاد كسروان وسائر البلدان التي تتبعه (١) .

وكان الامير يونس بن معن قد نال العفو لاخيه الامير فخر الدين وارسل اليه الى بلاد تسكانة الشيخ ابا رحال خاطراً الخازني برسالة يخبره بذلك ويصف له احوال البلاد جميعها . فاخذ الامير فخر الدين يستعد للعودة الى لبنان : وفي التاسع من شوال سنة ١٠٢٦ هـ (اي سنة ١٦١٧ م) وصل الى عكا فلاقاه اليها اخوه الامير يونس ومعه الشيخ ابو نادر

---

(١) كان معظم سكان بلاد كسروان اذ ذاك من المسلمين فحذراً من ثورتهم في هاتيك الظروف رأى الامير يونس من الحكمة ان يشرك مع مدبره الشيخ ابي نادر الخازن في الحكم مملوكه ذا الفقار تمهيداً لما حصل بعد ذلك فعلاً من ايلائه الحكم على هذه البلاد مستقلاً .

الخازن : وقد أثنى الامير يونس قدام أخيه على اخلاص الشيخ ابي نادر وهمته وشجاعته وما أبداه من حكمة التدبير وصادق الخدمة في مدة غيابه . فازداد الامير فخر الدين اعجاباً وتمسكاً به وأثبت له على سبيل المكافأة حق الولاية على بلاد كسروان جميعه من نهر الجعماني وهو نهر بيروت الى وادي المعاملتين التي بجانب غزير : واعطاه خطاً بان تكون هذه الولاية له ولذريته . ومن هنا ابتدأت ولاية المشايخ آل الخازن على بلاد كسروان واخذوا باضعاف المسلمين وبمشترى املاكهم وبتمهيد السبيل الى تكثير الموارنة فيه حتى محصوه في مدة قليلة لهم ومدوا عليه سرادق الامان .

واستوثق الامر للامير فخر الدين بعد عوده من ايتالية وامتدت هيبته على جميع اهل جواره. وفي سنة ١٦١٨ استنجده عمر باشا الباتجي او البستنجي والي طرابلس على يوسف باشا سيفا : لانه لم يرد ان يتخلى له عن البلدان التابعة لولايته . فانجده الامير ونكل بابن سيفا ثم صالحه على مال يؤديه اليه حتى رفع الحصار عنهُ . وفي عودته الى بلاده فتح قلعة جبيل التي كانت بيد السيفلية عنوةً : وولى على بلاد جبيل أيضاً الشيخ أبا نادر الخازن ساعده الايمن في كل هذه المواقع وقد أبلى فيها بلاءً حسناً .

وفي سنة ١٦٢١ أرسل الامير فخر الدين الشيخ ابا نادر الخازن برجاله الكسروانيين الى جبة بشراي فطردوا منها ايضاً رجال ابن سيفا وولى الامير عليها الشيخ ابا صافي رباحاً عم الشيخ ابي نادر . وكان مقدم بشراي المدعو عاشينا بن شلهوب قد قتل القس دانيال العكاري في دير مار توما بارض حصرون طمعاً في دراهمه : فامسكه الشيخ ابو صافي وجاء به الى قلعة سمار جبيل ورفع امره الى الامير فخر الدين الذي أمر باهلاكه : فقتله ودفنه عند جسر المدفون الذي تحت سمار جبيل على طريق البترون . فجاء والده المقدم شلهوب ليحتج عن ابنه لدى الامير فأمر بقتله ايضاً لانه كان من مشايعي ابن سيفا (١) .

---

(١) جاء في تاريخ الدويهي انه في سنة ١٦١٢ توفي الشدياق خاطر الحصروني فخلفه في مشيخة جبة بشراي ابنه الشدياق رعد الذي مات بعد سنة مسموماً : فولى يوسف باشا سيفا مكانه على الجبة ابا عاشينا شلهوب لانه ابن اخت المقدم عاشينا بن حسام الدين العنحلانى الذي انقرضت ذريته : فزاحمه على هذه الولاية اولاد الشدياق خاطر الذين كانوا يزيدون عليه في ضمان البلاد . فسعى بهم المقدم شلهوب عند ابن سيفا حتى قبض عليهم : وبعد ان استنزف اموالهم بالمواعيد الفارغة قد نكل بهم فانتقل خاطر وشمعون ولدا المقدم رعد الى مزرعة بيت قصاص في جبة المنيطرة ومعهما بعض اقاربهما حذراً من غوائله . كما جاء في نسب بيت الشدياق بتاريخ

***

ذلك والخلاصة من كل ما ذكرناه حتى الان في هذا الباب ان احوال الموارنة في بلادهم من جبل لبنان قد تغيرت بعض التغير بعد استيلاء الدولة العثمانية على سورية وقد سيطر عليها الحكام الذين كانوا ينصَّبون من قبلها على ما جاورهم من بلاد سوريا ولبنان . واختلت امور المقدمية خاصةً في جبة بشراي بعد انقراض سلالة المقدم يعقوب بن أيوب البشراني . فاحدث التزاحم بين طلاَّبها ان اضطر بعضهم للالتجاء الى حكام بلاد كسروان أو الى حكام طرابلس بحسب الظروف فيشتروا المقدمية بالمال . ومع هذا فمما يجب الانتباه اليه هو ان هؤلاء المقدمين انما كانوا الى هذا العهد من الموارنة اهل البلاد بحيث لم تمتد أيدي الحكام الاجانب الى استقلالهم الداخلي لا من جهة القضاء والمعاملات الشرعية : ولا من جهة الاحكام أو تولية البطاركة والمطارنة وسائر الاكليروس : او بناء الكنائس والاديار والمحابس والمدارس : او اقامة الشعائر

الاعيان لطنوس الشدياق (ص ١٨٥) وفي سنة ١٦٥٠ انتقل الجميع الى عشقوت في كسروان تحت حماية الشيخ ابي نوفل الخازن . ثم قبض ابن سيفا على المقدم شلهوب واخيه جرجس فقتل هذا وافتدى الاول نفسه بالمال وطلب الولاية لابنه المقدم عاشينا المذكور اعلاه .

الدينية بحسب قوانينهم وعوائدهم .

ونحن نرى إنهم رغم هذا الانقلاب في هذا العصر الذي أثر بعض التأثير على استقلالهم قد ربحوا ربحاً بيناً . فانهم امتدوا الى بلاد كسروان الذي كانوا قد خسروه منذ نحو مئتي سنة واستولوا بذكائهم وصدقهم واخلاصهم وحسن سياستهم اولاً على حكامه من آل عساف : كالمشايخ ابناء حبيش الذين اسندوا طائفتهم في كل مكان من جبل لبنان خاصة على عهد الامير منصور عساف . وما كاد يتقلص ظل هؤلاء ويضعف حكم المقدمين في جبة بشراي وفي بلاد جبيل والبترون حتى قام المشايخ بنو الخازن وتولوا الحكم على بلاد كسروان ومدوا عليه سرادق العدل والأمان وعملوا على اخراج الاجانب منه وتمليكه جميعه للموارنة الذين هاجروا اليه من كل النواحي وخاصة من بلاد جبيل والبترون . وقد امتد نفوذهم الى كل بلاد الموارنة حتى جبة بشراي وحموا حماهم وحافظوا على كرامتهم واستقلالهم وعلى الامان والسلام في ديارهم بحيث كان يعد هذا الانقلاب على نوع ما في مصلحة الموارنة وقد فتح لهم عصراً جديداً في تاريخهم الوطني .

ولما كان تاريخ تقدم المشايخ آل الخازن متفقاً مع تاريخ

الامير فخر الدين المعني الثاني كما رأيت لذلك قد اسهبنا الكلام في امر هذا الامير الكبير وبينا كيف تولى ولاية شرعية على بلاد كسروان وولى عليه الشيخ أبا نادر الخازن وذريته واطلق يده فيه ثم في بلاد جبيل وجبة بشراي لاجل فائدة الموارنة الذين كان يحبهم ويميل اليهم بسبب بيت الخازن الذين تربى عندهم وعرف صدقهم وامانتهم بالاختبار .

وقد قال العلامة الدويهي في الفصل ١٨ من كتاب الاحتجاج الملحق بتاريخه المطبوع في بيروت ما مؤاده وكان جبل لبنان في امان واطمئنان لان حكم البلاد كان في يد الامير فخر الدين بن معن الذي ولى ابا نادر الخازن وابا صافي على بلاد جبيل والبترون وجبة بشراي . ولاجل ذلك عمد الناس الى خدمة الله والحياة النسكية وبناء الكنائس والمدارس وقدم من بلاد الافرنج اناس كثيرون من الاخوة الصغار ومن الكبوشيين واتخذوا السكنى في جبة بشراي . اه

وقال ايضاً في تاريخ سنة ١٦٣٣ بعد كلامه عن مقتل الامير فخر الدين واولاده ظلماً في الاستانة (١) ما مؤاده .

(١) قال الدويهي في تاريخ هذه السنة ما حكايته « واما الامير فخر الدين واولاده فسيقوا الى اسطنبول . ولما وقف بحضرة السلطان احتج عن نفسه انه ما جمع المال الا باوامر مخصوصة من الوزراء والنواب

ولا قتل العصاة على السلطان . وان القلاع التي استفتحها انما اخذها من العصاة وكسبها الى السلطنة فاستصوب قوله حضرة السلطان . واما علي ابن علم الدين اليمني فقبض على وجهاء بيت معن وقتلهم وسلب مقتناهم ... فلما علم بذلك الامير ملحم ابن الامير يونس (المعني) ركب على اليمنية في القيرط فوق قرية مجدل المعوش فظفر بهم ... وتجددت الشكايات الى الباب العالي على الامير فخر الدين بان ابن اخيه ملحماً جمع الرجال وقتل كاخيته كجك احمد وفتك بالعسكر وقصد ان يحاصر الشام . عند ذلك امر السلطان بقتل فخر الدين واولاده وتقلد السيفلية ايالة طرابلس واليمنية بلاد الشوف » (طالع ايضاً كتاب الغرر الحسان: وكتاب تاريخ الاعيان بهذا الموضوع) وقد زاد صاحب كتاب الغرر الحسان بعد رواية هذه الحوادث ما يلي حرفياً « وكان الامير حسين ابن الامير فخر الدين ولداً صغيراً فرضيت منه الدولة وبقي مقيماً في اسلامبول» وروى في تاريخ سنة ١٠٦١ هـ (١٦٥٠ م) قال « وفي هذه السنة حضر الى دير القمر الامير حسين المعني ابن الامير فخر الدين وكان مرسلاً من قبل الدولة العلية الى الهند : وهو الامير الذي كان صغيراً حين قبضت الدولة على والده واخوته وقد تشفع به محمد باشا المقدم ذكره . وارتقى هذا الامير في مراتب الدولة الى ان صار خوجكاناً عظيماً وكانت ترسله الدولة في المهمات . وحين حضوره الى دير القمر لاقاه ابن عمه الامير ملحم وقدم له كل اكرام . ثم عرض عليه الاقامة فيستلم بعده الاحكام فابى حسين قبول ذلك وسار في طريقه بعد ان اقام نحو عشرين يوماً بكل اكرام »

وركبوا الخيل بسروج ولفوا شاشات بيضاء وكروراً ولبسوا طوامين وزنانير مسقطة وحملوا القسي والبنادق المجوهرة وقدم المرسلون من الافرنج وسكنوا الجبل وكان أكثر عسكره من النصارى ومدبريه وخدمه من الموارنة » (١) .

عودٌ على بدء

هذا ومن بعد مقتل الامير فخر الدين واولاده في الاستانة قد حصل اضطهاد عظيم على قومه وعلى كل الذين كانوا يشايعونه ويلوذون به في جبل لبنان وبنوع خاص على المشايخ الخوازنة . وقد تغاير رؤساء الاحزاب على الحكم في ايالة

(١) جاء في كتاب سيرة حياة الاميرفخر الدين المعني المطبوع باللغة الايتالية ان هذا الامير اذ كان في بلاد تسكانة قد تنصر ولكنه اذ عاد الى لبنان لم يتظاهر بالنصرانية حذراً على مركزه . وهذا الامر شائع على الالسنة بالتواتر ولا غرابة فيه فانه قد تربي تربية مسيحية منذ نعومة اظفاره عند الشيخ ابي صقر ابراهيم الخازن وبين اولاده الاتقياء كما رأيت : ثم رأى في تسكانة ازدهار النصرانية وتأدب بادابها الراقية . ومن الادلة على ذلك ميله الشديد الى النصارى واعتماده عليهم بوجه خاص في كل اعماله وتخويله اياهم من الحقوق ما لم يكن المسلمون ليحتملوه في ذلك العهد كما لا يغرب .

طرابلس وجرت بينهم حروب كثيرة بسبيل ذلك حتى تم الظفر اخيراً للامير علي بن الامير محمد السيفلي فتولى الحكم على طرابلس والبترون وجبيل . وقال العلامة الدويهي بعد ان روى هذه الرواية باكثر اسهاب ما حكايته « وبسبب كثرة الحكام والاغراض كثر الظلم وكلفوا الرعايا بدل المال مالين وقبضوا على الرؤساء في القرى لكي يعلموهم عن عقارات بيت معن وبيت الخازن وغيرهم .

وبسبب هذه الحوادث الجائرة رأى الشيخ ابو نادر الخازن من الحكمة ان يتوارى عن العيون فاخذ في سنة ١٦٣٥ ولده نادراً المعروف بابي نوفل واخاه أبا رحال خاطراً وسار بهما الى بلاد تسكانة في ايتالية حيثما كان قد اعتزل الامير فخر الدين ايام نكبته الاولى : ونزلوا ضيوفاً كراماً على الدوق الكبير فرديناند الماديشي صاحب البلاد وقد استمروا هناك نحو سنتين على الرحب والسعة . وفي هذه الغضون ذهب الامير ملحم بن الامير يونس المعني فجمع رجال حزبه وزحف على الامير علي بن علم الدين الذي كان قد تولى على بلاد الشوف بعد نكبة المعنيين : فانتصر عليه وهزمه واستولى على بلاد الشوف وذلك في خلال سنة ١٦٣٦ . وانتصر للامير علي نائب الشام ورده الى ولاية الشوف : فتركها الامير ملحم وذهب الى

وادي التيم لائذاً بالامراء الشهابيين. وطرد اذ ذاك الامير علي مشايخ بيت الخازن وبيت حبيش الى بلاد جبيل .

اما الامير ملحم فلم يصبر على الضيم بل اخذ يتحين الفرص حتى استرد حكم هذه البلاد التي كانت لاجداده وحكم بلاد كسروان ايضاً وذلك سنة ١٦٣٧ . وكان الشيخ ابو نادر الخازن قد رجع ومن معه الى لبنان : واذ استوثق الامر للامير ملحم تولى تدبير شؤونه كما كان عند عمه وابيه واستعاد مقامه واسترد املاكه واستأنف الحكم على بلاد كسروان فارجع اليه العدل والامان والراحة الى ان توفاه الله بعدعشر سنوات من ذلك مملوءاً تعزية واياماً صالحة ومفاخر لا تمحوها الايام .

وقد قال العلامة الدويهي معاصره في تاريخ سنة ١٦٤٧ ما مؤداه « وفي هذه السنة في أول تموز كانت وفاة الشيخ ابي نادر بن ابي صقر بن الخازن مدبر الامير فخر الدين ابن معن » تولى بلاد كسروان وجبيل والبترون وبشراي والمرقب : وكان ذا غيرة في امور الدين . فخلفه ولده الشيخ ابو نوفل نادر الخازن وزاد غيرةً ومكارم على والده وابتنى كنيسة وعين لها كاهناً يقيم القداس فيها دائماً » اه .

***

وكان هاتيك الايام رجل من مشاهير الطائفة المارونية في نواحي طرابلس يقال له الشدياق او الشيخ ابو رزق البشعلاني (١) . وكان ذا عقل ثاقب ورأي صائب وحكمة في التدبير فضلاً عن الثروة الواسعة التي خولته الوجاهة الكبرى بين مواطنيه والكلمة النافذة عند الحكام . وقد اتخذه حسن باشا الذي تولى ايالة طرابلس سنة ١٦٤٤ بعد عزل محمد باشا الارناوط كاخية له اي مديراً او مستشاراً . وبعد سنتين عاد محمد باشا المذكور الى هذه الايالة فعزله من هذه الوظيفة . ثم عُزل محمد باشا سنة ١٦٤٩ وتولى ايالة طرابلس مكانه صهره عمر باشا فاخذ الشيخ ابا رزق البشعلاني كاخية له ايضاً وكان للموارنة واحلافهم في ايامه شأن يذكر : فولى اخاه الشيخ ابا صعب حكم جبة بشراي (٢) وسعى لدى عمر باشا حتى ولى

---

(١) وفي تاريخ ابن سباط وفي الغرر الحسان : انه الشدياق ابو رزق البشعلاوي وفي نسخة خطية قديمة لتاريخ الدويهي انه الشيخ ابو رزق الترتجي « وقرية ترتج في جرود بلاد جبيل . واما قرية بشعلي ففي جرود بلاد البترون : وهما متجاورتان .

(٢) جاء في تاريخ الدويهي انه في سنة ١٦٣٥ اسند مصطفى باشا والي ايالة طرابلس حكم جبة بشراي الى الشيخ ابي كرم يعقوب ابنه

الامير ملحماً المعني على البترون سنة ١٦٥٠ واستوفى مالها الشيخ ابو نوفل الخازن الذي كان مدبراً لهذا الامير .

وفي سنة ١٦٥١ رجع حسن باشا السابق ذكره الى الولاية على ايالة طرابلس فسلم امورها بيد الشيخ ابي رزق البشعلاني وولى على بلاد عكار حسناً أغا ابن ابي دية لكي يستوفي مالها من تحت يد ابن معن بواسطة الشيخ ابي رزق لانه كان من مشايعيه . الا ان حسن باشا لم يستمر طويلاً في الولاية لانه في سنة ١٦٥٢ قد عاد اليها محمد باشا الارناوط . اما الشيخ ابو رزق البشعلاني فقد زاد مركزه تعززاً هذه المرة

الريس الياس الحدثي والى الشيخ جبرائيل يوسف الاهدني . وكان هذا الاخير عادلاً في الحكم . وقد قتل الاول في سنة ١٦٤١ وتوفي الثاني بعد ان قضى عشر سنين في مشيخة جبة بشراي فخلفه فيها اخوه الشدياق ابو ديب حنا فثار عليه مشائخ بيت حماده المتاولة وارسلوا من قتله في قرية زغرتا . وتولى حكم الجبة بعد المقدم زين الدين ابن الصواف الدرزي ومعه ابو عون الجميل الماروني من بكفيا . فلما استقام الامر للشيخ ابو رزق البشعلاني على ما رأيت ارسل اخاه الشيخ ابا صعب حاكماً على الجبة لانه لم يهن عليه ان يتولاها غير الموارنة . وقد جاء في النسخة المطبوعة في بيروت لتاريخ الدويهي ما حرفيته انه « مشيخ اخاه وابا صعب على جبة بشراي » وانما الحقيقة هي ما ذكرنا هنا « اي ان اخاه انما هو المكنى بابي صعب » كما تحققناه في النسخة الخطية .

لان محمد باشا الارناوط قد عرف فضله بالاختبار من عهد صهره عمر باشا : ولهذا قد فوض اموره كلها اليه وولاه على البلدان : فنودي له بشيخ المشايخ ودقت له الموسيقى حتى حسده اكابر البلاد وقالوا لا يصح ان ينقاد المسلمون الى رجل نصراني . ومن ثم اخذوا بدس الدسائس عليه والسعاية به حتى فازوا بعد نحو السنة بالمرغوب . وذلك انه اتفق في خلال سنة ١٦٥٣ ان جاء الى طرابلس بعض المشايخ من آل حبيش بقصد التبضع ليزوجوا احد اولادهم فنزلوا ضيوفاً على الشيخ ابي رزق : فانتهز اصحاب الاغراض هذه الفرصة وابلغوا محمداً باشا ان هؤلاء المشايخ انما اتوا بقصد الغدر . فغضب الباشا وأمر بالقبض على الشيخ ابي رزق واولاده وضيوفه فشدوا وثاقهم بالاصفاد ورفعوهم الى القلعة وكان عددهم تسعين نفساً : ثم نهبوا داره واستباحوا املاكه .

وبعد مدة قليلة عُزل محمد باشا وتولى مكانه على ايالة طرابلس قرا حسن باشا فتوجه الى حماه واخذ معه ابا رزق وسائر المرابيط فسجنهم في سراياه بحماة حتى ينظر في امرهم . ثم دعا الشيخ ابا رزق الى المحاسبة وطلب منه اثني عشر الف غرش : ولكن قد ثبت عليه بالمحاسبة تسعة اكياس فقط دفعها عنه ابن الصهيوني زميله فاطلق الباشا سبيله وسبيل

رفاقه جميعاً . وقد هم قرا حسن باشا ان يعيد الشيخ ابا رزق الى وظيفته ويفوض اليه اموره : الا انه لسوء الحظ قد وصل اثناء ذلك قبجي من لدن الباب العالي في طلب رأسه : فاشار الباشا وابن الصيهوني عليه ان يخلص نفسه بالاسلام : فلم يسعه الا ان تظاهر به قصد تخليص اخيه الشيخ ابي صعب واولاده من يد الظلام : ولذلك اوصى اخاه المذكور بالحاح ان ينتقل بعياله سريعاً الى ولاية ابن معن ويلوذ بحمى الشيخ ابي نوفل الخازن صديقه (١).

---

(١) كل هذه الرواية مأخوذة عن تاريخ العلامة الدويهي المعاصر ببعض التصرف . وقد روى ايضاً ان ابا رزق هذا قُتل غيلة بعلة انه كان من مشايعي آل معن . ويذكر الدويهي ايضاً في تاريخ سنة ١٦٨٧ بكل ايجاز كعادته ما جرى للشيخ يونس ابن ابي رزق هذا قال « وفي سنة ١٦٨٧ اخذ طرابلس حسين باشا فقبض على الشيخ يونس وعلى اخويه عبدالله ورزق بسبب دعوى والدهما ابي رزق البشعلاني فاضطر يونس ان يطلب الاسلام ليخلص الاطفال . وفي نهار الاربعين وهو التاسع والعشرون من شهر ايلول هربوا ليلاً مع عشرين نفساً الى قاطع كسروان تحت حماية ابن معن وانجدهم الشيخ ابو قانصوه فياض الخازن بواسطة ابنه حصن ورجاله وحموهم بسلامة : وهناك اظهر يونس صحة ديانته » . والظاهر ان الشيخ حصن قد اسكنهم في قرية عشقوت وهي محل حصين جداً في وسط البلاد بين عجلتون مركز بيت ابي ناصيف وابي نوفل

الخازن وبين غوسطا مركز بيت ابي قانصوه ليتمكنوا من حمايتهم من يد الغدر . ولا يزال في هذه قرية عشقوت الى الآن عائلة يقال لها بيت ابي رزق وقد ذهب فرع منها الى قرية جزين . وفي تقاليد هذه العائلة انها ترجع الى جدها ابي رزق البشعلاني وليس من وجه لتكذيبها .

وقال الدويهي ايضاً في تاريخ سنة ١٦٨٧ ان قبلان باشا والي ايالة طرابلس قبض على الشيخ يونس ابن ابي رزق البشعلاني : وفي ٢١ ايار رفعه على الخازوق بعد ان عرض عليه الاسلام فامتنع . وقد اوجز الدويهي كثيراً جداً في هذه الرواية مع ان هذه الحادثة قد وقعت في عهد بطريركيته . الا ان المسيو دي لاروك الشهير قد اسهب في ايرادها في كتاب رحلته الى سورية ولبنان في عهد الملك لويس الرابع عشر (مجلد ٢ ص ٢٦٣) ونحن نلخصها هنا عنه . قال بعد ان ذكر ما ذكره الدويهي عن هذا الشيخ يونس من جهة امساكه واغرائه على الاسلام وتظاهره به مضطراً حتى يخلص قومه وخاصة النساء من فظائع المسلمين الى ان تسنى لهم ثم له الهرب الى كسروان — ان اول عمل عمله الشيخ يونس بعد نجاته هو انه قد اسرع للمثول امام البطريرك اسطفانوس الدويهي واعترف بذنبه الفظيع باكياً بكاء مراً ونادماً ندامة جرى على ما اضطرّ اليه من الكفر : فتلقاه هذا البطريرك كالابن الشاطر وبعد ان فرض عليه الكفارة الملائمة حله من ذنب الكفر وارشده ان يعوض هذه المعثرة الجهرية بتوبة جهرية . ومن ثم عرض الشيخ يونس امره للسلطان بواسطة بعض اصحابه في الاستانة : وقدم لديه اوراقه التي تثبت اكراهه على الاسلام فحولها السلطان الى المفتي الذي افتى بعدم صحة اسلامه وباعتباره نصرانياً

في هذه الفترة الصعبة من الدهر بل قيضت لهم منهم من يهتم بأمورهم ويخفف ظلم الحكام عنهم حتى استطاعوا ان يستمروا بقدر الامكان على حريتهم واستقلالهم الداخلي رغم تقلب الظروف وتراحم الولاة في جوارهم على الحكم .

بيد انهم بعد نكبة الشيخ ابي رزق البشعلاني واضطرار اخيه الشيخ ابي صعب لترك الحكم على جبة بشراي وتراحم بعض الاعيان عليه مما اقلق اهل البلاد قد رأى اهل الجبة من الحكمة ان يفضوا هذا المشكل بالسعي وراء رجل

وارسلت هذه الفتوى اليه . فلم يعتم ان نزل الى طرابلس وجاهر بنصرانيته على الملا اجمع ورجع الى مقامه اي مدبر الوالي طرابلس كما كان اولاً . بيد ان المتعصبين من المسلمين لم يرضوا عنه بل اخذوا يدسون الدسائس عليه حتى افلحوا اخيراً مع احد الولاة من الاتراك فسجنه وضيق عليه ثم اخذ يغريه بالمواعيد اذا جاهر باسلامه : ولكنه قد بقي ثابتاً ثبوت الابطال على ايمانه فامر بتعذيبه ثم برفعه على الخازوق فمات موت الشهداء وهو يتلو صورة ايمانه علناً ويسبح الله على ما انعم عليه به من التعويض عن ضعفه السابق بهذه الكفارة الشريفة . وقد اورد صاحب هذا الكتاب صورة المنشور الذي كان بيد اخيه يوسف في باريس من امضاء العلامة الدويهي وفيه وصف هذه الحادثة ثم قال : انه تلقى تفاصيلها عن يوسف هذا فاذا هي مطابقة لما كتبه هذا البطريرك الى رومية وكتبه قنصل طرابلس الى حكومته في باريس اه .

اجنبي من اهل المكانة ليولوه عليهم . قال صاحب مختصر تاريخ لبنان وهو من اعيان هذه المقاطعة . « لما تغيرت الاحوال والحكام في الجبة ذهب عمدة من تلك الناحية الى الشيخ سرحان ابي حماده وسألوه ان يوجه اليهم واحداً من عائلته ليتولى حكم جبة بشراي فوجه معهم ابن عمه الشيخ احمد ويكنى بابي زعزوعه لانه كان شاباً . واتفق اهل البلاد مع الشيخ سرحان على ان الشيخ احمد يتولى بلادهم كما يشاء ويعاقب المذنبين بما يشاء : ولكنه لا يحق له ان يتداخل في ثلاثة امور اي الدين والعرض والدم . فحضر المذكور سنة ١٦٥٤ واجرى كل عدل ورحمة وارضى اهل البلاد » اه(١) .

وهذا من جهة جبة بشراي التي اصابها ما اصابها من الضيم بسبب قربها من طرابلس واختلاف اعيان الموارنة فيها من جراء مزاحمتهم على المقدمية او الحكم عليها : ومما يجب الانتباه اليه ان اهاليها قد بقوا محافظين مع كل ذلك جهد

(١) والظاهر ان هؤلاء الاعيان قد اتفقوا مع الشيخ سرحان حماده على تولية ابن عمه عليهم على هذه الشروط ثم سعوا جميعاً لدى والي ايالة طرابلس فولاه على الجبة . ولهذا يقول الدويهي بما عودنا من الايجاز انه في سنة ١٦٥٤ ولى محمد باشا الكبير صاحب طرابلس على جبة بشراي الشيخ احمد ابن حماده

المستطاع على استقلالهم الداخلي كما يتحصل من شروطهم على الشيخ سرحان حماده المذكورة آنفاً (١) .

اما موارنة بلاد جبيل والبترون فقد اختلت امورهم اكثر بسبب تهجم المتاولة (وهم الشيعية) عليهم من بعد نكبة الامير فخر الدين المعني والمشائخ الحوازنة . ولهذا اخذوا يخلون البلاد ويهاجرون خاصة الى جهات كسروان والمتن والشوف حيث كان الامان قد مد رواق ظله بعناية الامير ملحم المعني والشيخ ابي نوفل الخازن كاخيته ومدبر اموره .

***

ومما لا بد من ذكره في هذا الباب

مما يلامس موضوعنا

هو انه في هذه الايام بدأت تظهر من جديد عناية الدولة الفرنساوية العظمى بالطائفة المارونية وحمايتها من اعتداء الظالمين . وقد وقفنا على خط شريف اصدره في سنة ١٦٤٩ جلالة الملك لويس الرابع عشر الشهير باسمه واسم والدته به

(١) وسترى في خلاصة هذا الكتاب التي علقناها على آخره شرح المقصود من قولهم « ولكنه لا يحق له ان يتداخل في ثلاثة امور اي الدين والعرض والدم » وكيف يدل هذا على تمام استقلالهم الداخلي وحريتهم الشخصية .

يجدد حماية الامة الافرنسية لهذه الطائفة . وهذه ترجمته عن اصله الافرنسي (١) .

« لويس بنعمة الله ملك فرنسة ونافره »

« لكل من يقف على كتابنا هذا سلام »

« نُعلم كل واقف على كتابنا هذا اننا لما كنا بعد استشارة الملكة سيدتنا الوالدة المحترمة قد اخذنا ووضعنا كما نأخذ ونضع بواسطة خطنا هذا الذي امضيناه بيدنا تحت كنف حمايتنا الخصوصية السيد البطريرك السامي الاحترام وجميع الاساقفة والاكليروس والعوام من النصارى الموارنة الذين يسكنون خاصةً في جبل لبنان فنحن نريد ان يستشعروا بمفعول ذلك في كل مناسبة تطرأ . ومن ثم ننهي الى عزيزنا الامين السيد دي لاهي فنتلي المستشار في مجلسنا وسفيرنا في

(١) ان هذا الخط الشريف لا يزال محفوظاً باصله في خزانة الوزارة الخارجية بباريس تحت عدد ٣٩٢ ومنه صورة طبق الاصل في خزانة الوزارة البحرية هناك وقد نشره البارون دي تستا في مجموعته المشهورة مج ٣ ص ١٤٠ : وقد كُتب على هامش النسخة التي في الوزارة الخارجية ما يلي — بسبورت الملك الى الموارنة حصل بواسطة المطران اسحق (الشدراوي) ... مطران طرابلس —

الشرق والى كل من يخلفه في مقامه ان يسعفوهم عموماً وافراداً ويشملوهم بعنايتهم وحمايتهم سواء كان ذلك لدى باب حبيبنا وصديقنا الاكمل السلطان الاعظم او في كل محل آخر حيث تقضي الضرورة . بحيث لا تجُرى عليهم اقل معاملة سيئة بل ينبغي ان يكونوا بعكس ذلك قادرين ان ينجزوا اعمالهم ويتصرفوا بمقتضيات مراتبهم الروحية بكمال الحرية والاختيار ونأمر قناصل ونواب قناصل الدولة الفرنساوية المقامين في الموانئ والاساكل في الشرق وغيرهم ممن يرفعون الراية الفرنساوية في الوقت الحاضر وفي ما يأتي من الزمن ان يساعدوا بكل مقدرتهم السيد البطريرك المشار اليه وجميع الموارنة المذكورين سكان جبل لبنان : وان يُركبوا في المراكب الفرنسية او غيرها الشبان وكل ماروني غيرهم يريد ان يأتي الى بلاد النصارى اما لدرس العلوم او لغاية اخرى من غير ان يطلبوا منهم الا النول الذي في وسعهم ان يدفعوه معاملين اياهم بما امكن من الحلم والمحبة . ونلتمس من السادة العظام الفخام باشاوات ومستخدمي الحضرة العلية السلطانية ان يسعفوا ويساعدوا حضرة رئيس اساقفة طرابلس وجميع الاكليروس والشعب الماروني : ونعدهم من قبلنا اننا نسلك هذا المسلك مع كل رجل من امتهم يصل الينا في حقه كتاب

وصاة منهم » .

« وصدر في سان جرمان في مدينة لاي في ٢٨ نيسان (ابريل) سنة ١٦٤٩ وهي السادسة لملكنا » اه .

ذلك وقد استوثق الامر في بلاد كسروان خاصة للشيخ ابي نوفل نادر الخازن وتسلط عليه بحكمته ودرايته وذكائه وهمته حتى نال شهرة بعيدة : وكان ملاذاً للنصرانية من كل ملة . ولندع الآثار التاريخية الراهنة تتكلم بشأنه لاظهار قدره ومكانته عند معاصريه من كل طبقة .

فهذه ترجمة خط شريف من جلالة الملك لويس الرابع عشر مؤرخ في شهر اذار (مارس) سنة ١٦٥٩ عن اصلها المحفوظ عند المشائخ آل الخازن بلبنان وهي :

لويس بنعمة اله ملك فرنسة ونافره الخ .

« اننا قد تحققنا كل ما يبديه السيد ابو نوفل نادر الخازن امير الموارنة والكفليار الروماني الشديد التمسك بعرى الايمان الكاثوليكي الرسولي الروماني القاطن في بلاد الشام من مواصلة العناية والاهتمام لاجل صيانة تاج هذه المملكة حتى ان يصرف اكثر اوقاته في ما يعود بالشرف والنفع لسلطنتنا : اذ قد شهد رعايانا الذين يأتون بلاد المشرق بحسن

معاملته لهم وحمايته اياهم ومساعدته في ما يصون حياتهم ويحفظ تجارتهم: وعلى الخصوص بغيرته على نشر وتوسيع نطاق الديانة المقدسة: والحق يقال ان اياديه لم تزل متوالية على ناشري عرف البشارة بكلمة الله . ولذلك نعلن لجميع ارباب الحكومة باننا قد شملنا السيد أبا نوفل الخازن واولاده وورثته بالنعم والامتيازات نظراً الى استحقاقهم ومتعناهم بها في رسالتنا هذه دون التزام بدفع حق او شيء لنا او لمن يخلفنا من الملوك . . . وهنا نصدر امرنا لجميع الامراء ارباب المناصب في مملكتنا ولخواص بطانتنا واصحاب الحقوق والمراتب في باريس وجميع الحكام والولاة العموميين في فرنسة . . . لكي يساعدوهم ويعاونوهم في كل ما قلناه . ونعلن لهم آمرين بان السيد ابا نوفل الخازن واولاده وورثته يعتبرون كاشراف فرنسة وان كل واحد منهم يحق له ان يتمتع بالنعم والامتيازات والاعفاءات كالذين هم حقيقة مولودون وقاطنون في مملكتنا . ويحق لهم ان يقتنوا املاكاً منقولة وثابتة ويتقلدوا الرتب والوظائف: ولهم ان يتصرفوا بالاملاك التي ملكوها التصرف التام وان يخصصوها بوصية يعمل بها بدون معارض ولا منازع ولا مضاد او ممانع من ذوي السلطة وغيرهم كأنهم ولدوا في مملكتنا . ولما كانت اعمال السيد ابي

نوفل الخازن مما يستحق المكافأة وافضل النعم وقد حملتنا على مجازاته مع ولديه السيد ابي قانصوه والسيد نوفل (وهو ابو ناصيف) اللذين تأكدنا انهما سالكان مسلك والدهما ومتشبهان به باعمالهما الحميدة بحيث قد وجدا أهلاً لهذه النعم والامتيازات والاعفاءات التي لم تكن لاحد غيرهما لهذا سلمناهم جميعاً كتاباتنا هذه بملء سلطاننا وبارادة ملوكانية مصرحين باننا قد وهبناهم ومتعناهم بما ذكر ونهب وننعم بذلك ايضاً بخط يدنا . ونحب ان نولي السيد ابا نوفل نادراً الخازن واولاده ونخولهم الحقوق لاي وظيفة كانت في أي مكان كان كانهم مولودون في بلادنا: ولوارثيهم حق التصرف بالميراث المتروك كالمورثين مبطلين كافة الخصومات والمضادات التي تعارضهم لان في ذلك اعظم مسرتنا . ونبطل ايضاً ونلاشي جميع الامور والسنن والاحكام التي تضاد لما ذكرنا في كتاباتنا هذه الحاضرة : ولكي يكون ذلك معلوماً لدى سكان مملكتنا ومقرراً قد اثبتنا امرنا هذا بوضع خاتمنا » الخ

وهذه ايضاً ترجمة النطاقة الشريفة التي كتبها جلالة الملك لويس الرابع عشر المشار اليه في اول سنة ١٦٦٢ باسناد قنصلية دولة فرنسة في بيروت الى عهدة الشيخ ابي نوفل الخازن بعد ان جعلها مستقلة عن قنصليتي حلب وصيدا . وهي مأخوذة

عن اصلها الفرنسي المحفوظ عند المشائخ آل الخازن بلبنان:

« لويس بنعمة الله ملك فرنسة ونافره »

« الى كل من يقف على كتابنا هذا سلام »

بناء على المعاهدة المعقودة بين ملوك فرنسة اسلافنا وبين السلاطين العثمانيين المقرر فيها امور عديدة منها اننا نستطيع ان نقيم قناصل في جميع مدنهم لتستتب الحرية للتجار الفرنسيين وغيرهم ممن يرغب ان يتجر تحت لواء فرنسة : وحيث ان التجارة اتسعت جداً في حلب ولم يعد في امكان القنصل هناك ان يقوم بما تقتضيه مهمات التجار العديدين الذين يتجرون في سورية قد اقام المرحوم والدي السعيد الذكر قنصلاً آخر في صيدا . . . قد سهل ووسع معاملات التجارة في سورية : وحيث ان ثغر بيروت هو مناسب جداً للتجار يمضون اليه فيبيعون ويبتاعون : لذلك وجدنا من الموافق ان نقيم نائب قنصل فيه . وبما ان كلاً من قنصل حلب وصيدا يدعي ان ثغر بيروت تابع لقنصليته اضطرنا الحال ان نصدر امرنا الى صديقنا وعزيزنا السيد ابي نوفل نادر الخازن ليتقلد زمام قنصلية بيروت تسهيلاً للتجارة ومقتضياتها (١)...ولاجل

(١) كان في هذه الايام لدولة فرنسا قنصل اسمه فرنسيس پيكاه (Piquet) يتولى مهام القنصلية في نواحي طرابلس وجزيرة قبرس

هذه الاسباب وحيث ليس من واسطة لتوسيع نطاق التجارة

و كرمانية وبيروت وحلب حيث كان يقيم عادةً : وكان غيوراً جداً على الدين المسيحي وله رتبة مشير للملك . فهذا اذ رأى كثرة اختلاف التجار الفرنسيين الى مدينة بيروت بحيث لم تكن كثرة مشاغله تسمح له بالعناية بهم كما ينبغي : وكان عالماً من جهة اخرى بما للمشايخ الخوازنة الكرام من النفوذ والغيرة على مصالح المسيحيين من كل جنس رأى ان يقيم منهم نائب قنصل عنه على ثغر بيروت . فكتب الى الشيخ ابي ناصيف ابن الشيخ ابي نوفل الخازن في ٢٨ حزيران (يونيه) سنة ١٦٥٦ ينتدبه لهذه المهمة: ورسالته هذه محفوظة باصلها عند هؤلاء المشايخ في جبل لبنان. ولم يكتفِ بذلك بل كتب ايضاً الى جلالة الملك ان يعززه بخط شريف من لدنه فكتب اليه رسالة بهذا الصدد وهذه ترجمتها عن اصلها المحفوظ عندهم ايضاً وهي :

« لويس بنعمة الله الخ — الى السيد الشيخ ابي ناصيف — بما انه من اللازم اللازب لخير التجار الفرنسيين المتعاطين التجارة في بيروت ان يكون لهم نائب قنصل : وبما انه قد بلغني ان لك غيرة شهيرة خصوصية نحو الشعب الفرنسي ونحو كل اسم مسيحي وددت ان اكتب اليك ما يأتي : انك تسرني جداً ان شئت ان تستخدم النفوذ الذي لك في البلاد لانتخاب نائب قنصل وان تمد الاكليرس الفرنسي بالمساعدة التي طالما تنازلت الى بذلها . وفيما اني اعد نفسي بما تقدم ارجو من المولى القدير ان يحفظك ايها الشيخ ابو ناصيف ويرعاك بانظاره المقدسة » وهي مؤرخة في اول ايار (مايو) سنة ١٦٥٧ . والظاهر ان قنصل صيدا الفرنسي كان يدعي هذا الحق على بيروت لقربها من صيدا فوقعت المنازعة التي فصلها الملك بهذا الفرمان المثبت في المتن.

الا بان نفرز بين قنصلية صيدا وحلب: فبرسالتنا هذه الممضاة بخط يدنا اعلمنا ونعلم اثبتنا ونثبت اردنا ونريد باختيارنا ومالنا من ملء السلطة الملوكانية بان نخص من نشاء بانعامات كهذه ان يتقلد زمام قنصلية بيروت شخص خصوصي غير خاضع لقنصليتي حلب وصيدا . ولاجل القيام بهذه المهمة ينبغي ان نقيم شخصاً غيوراً على خدمتنا ومحباً للخير العام ٠ واذ رأينا انهُ لاجل هذه الغاية لا يمكننا ان ننتخب شخصاً احسن من السيد ابي نوفل (يؤيد قولنا ما يبذله من العناية لرعايانا ولكل من يعترف بالديانة المسيحية الكاثوليكية الرومانية في سورية مما حملنا على ان ننعم عليه بالفرمانات التي تجعله من الفرنسيين رعايانا) اقمناه وسلطناه ونقيمه ونسلطه بهذه التحريرات الحاضرة قنصلاً على الشعب الفرنسي والتجار الذين يتجرون في بيروت تحت لواء فرنسة . ومن الآن يتعاطى السيد ابو نوفل متعلقات هذه القنصلية ويخلفه بعد موته السيد نوفل ولده وله ان يتمتع بالشرف والسلطة والامتيازات والحقوق والمنافع والمحاصيل والرواتب المختصة بهذه القنصلية كما يتمتع بها قناصل الشرق : ويحق له ان ينيب عنه مدة غيابه نائب قنصل في بيروت بشرط ان يكون فرنسياً ويكون هو نفسه مسئولاً عنه قانونياً ٠٠٠٠ واثباتاً لما تقدم ختمنا هذا

الفرمان بخاتمنا وفيه نطلب من اعظم اعزائنا وأجل اصدقائنا حضرة السلطان المعظم ومن الباشاوات العظام وسائر مستخدمي الحضرة السلطانية ان يساعدوه عند مسيس الحاجة : و كذلك ولده نوفلاً بعد مماته ونائب القنصل الذي يعينانه : وان يأذنوا لهم في استعمال الحقوق المختصة بالقنصلية كما اننا نفعل مثل ذلك بكل من يعينونه هم لمثل هذا المقام وتصل لنا في حقه وصاة منهم » اهـ .

وفي سنة ١٦٦٣ قد اثبت السلطان محمد الرابع هذه الوظيفة للشيخ ابي نوفل بفرمانٍ عالٍ لا يزال محفوظاً باصله عند هذه الاسرة بلبنان . ومما جاء فيه « ومن كان له دعوى على هذا القنصل (اي الشيخ ابي نوفل) لا تُسمع دعواه الا في الباب العالي : ومتى اراد التوجه الى الباب العالي أو الى فرنسة فله ان يقيم مكانه وكيلاً : وفي ذهابه وايابه ان كان بحراً او براً ممنوع عنه كل رسم ومعارضة : واذا شاء او اضطر الى ابتياع ما يحتاجه فليس لاحد ان يعارضه : ونعلم حكام الاسكلة المذكورة (اي بيروت) ان يعرفوا نادراً المومأ اليه قنصلاً انفاذاً لامري الشريف واستناداً الى الوثيقة التي بيده من سلطانه ٠٠٠٠ » .

فمن هنا يرى المتأمل ما كان للشيخ ابي نوفل الخازن من

المقام وعزة الجانب وما نال بلاد كسروان في عهده الميمون من الامان والراحة والسلام حتى صار موئلاً حريزاً للموارنة الذين هاجروا اليه بكثرة من كل الجهات وقد انشأوا فيه الكنائس والاديار والمدارس بتمام الحرية حتى ملأوه منها . وقد جاء اليه أيضاً المرسلون اليسوعيون فاحتضنهم الشيخ ابو نوفل واهتم بهم كل الاهتمام لما توسم في وجودهم بين ظهراني الموارنة من الخير السابغ واسكنهم في قرية عينطوره الشهيرة بمدرستها التي اول من اسسها هؤلاء المرسلون الكرام (١) .

(١) ولمزيد الفائدة رأينا ان نثبت هنا ما جاء بهذا الموضوع في كتاب « مجموعة الرسائل المعمرة » لهؤلاء الرهبان الفضلاء المطبوع في باريس سنة ١٧٠٧ ودونك تعريبه حرفياً : « ان السفينة التي ركبها الاب فرنسيس لبر مع رفيقه هاجت عليها ريح شديدة فالقتها في ناحية قريبة من قرية تدعى عينطورة . فلما ابصر سكان هذه الناحية ان السفينة تقترب من جهتهم ظنوا ان فيها قرصاناً فاسرعوا بدون ان يبحثوا عما كان من امرها وقبضوا على الاب لبر ورفيقه وآخرين غيرهم من المسافرين وجاءوا بهم الى والي البلاد . وكان الوالي وقتئذٍ السيد ابا نوفل الماروني المشهور وكان ذا استقامة طار صيتها في الافاق حتى ان لويس ١٤ اختاره مع كونه من رعايا السلطان العثماني ليكون قنصلاً على شعبه الافرنسي وبعث اليه بالفرمان المؤذن بذلك : فامام هذا السيد الجليل مثل لبر ورفيقاه وبعد السؤال علم انهم ليسوا قرصاناً ولكنهم مرسلون بعثت بهم العناية الالهية اليه . فانزلهم

ومع هذا فلكي يزيد مقامه تعزيزاً وبلاده راحة في مستقبل الايام اخذ يسعى جهده في تثبيت ولايته وولاية ذريته

عنده واكرم ضيافتهم ووهب لهم محلاً من املاكه في احدى جهات لبنان المدعوة كسروان وامر ببناء بيت ومعبد في ارض مناسبة لذلك وقد انفق هو نفسه ما اقتضاه هذا العمل . وكان يسر عند رؤيته الفوائد الجمة التي كانت تنجم عن هذه الهبة ولم يفتر الموارنة عن اداء الشكر له . وما زال السيد ابو نوفل اعظم محامٍ عنا ومتفضل علينا حتى انَّ رسالتنا في عينطورة لا تنسى ابداً ان تأسيسها منة منه . ولعمري ان فضله قد عم هذه البلاد » (الى ان قال) « وكان هذا الرجل العظيم كثير الاعتبار عند الشعب الماروني . . . وكان شريفاً في اعماله سمحاً كريماً بما يفوق الوصف ? وكان يُعرف في كل هذه البلاد باحكم الناس . ولا غرو فانه كان ثاقب الفكر محكم الرأي لم يأتِ شططاً في الامور : جامعاً بين المهابة واللطف يرهب القلوب ويستميلها اليه معاً . . . وكان ذا دراية تجعل الناس يخشون السلطة ولا يكرهونها وتحبب اليهم النير الذي كان يضعه عليهم » اه

وقال فيه المسيو دي لاروك معاصرهُ في كتاب رحلته الى سورية ولبنان ما ترجمته : « وممن امتاز بين الموارنة من الشرفاء والاغنياء اسرة آل الخازن : واعظم ثروة للموارنة هي كونهم اغنياء بالايمان كما قال الرسول وهم على يقين من ذلك . وان السيد ابا نوفل نادراً عميد هذه العائلة وامير الشعب الماروني لا يعتبر ثروته كديانته الكاثوليكية او كالاسم المسيحي الذي حامى عنه بكل غيرة : ولذلك ميزه الكرسي الرسولي اعتباراً لتقواه واستحقاقه بلقب امير وجعله كفليارا رومانياً مع ولديه السيدين ابي قانصوه وابي ناصيف . وهكذا الملك المتمسك بعروة

من بعده على بلاد كسروان جميعها من لدن الباب العالي لئلا يعارضهم في ذلك احد الولاة الذين في جوارهم من الاتراك او من المسلمين على الاطلاق. فنال هذه الامنية من لدن السلطان محمد الرابع في سنة ١٦٧١ بمقتضى الفرمان الشريف المحفوظ بأصله عند هذه العائلة الكريمة بلبنان وهذه ترجمته الحرفية عن اللغة التركية :

الدين المسيحي (وهو لويس الرابع عشر) ومشيخة البندقية قد ميزاه باقامته قنصلاً لفرنسة والبندقية في سورية ». وقال في موضع آخر: « ونسلم ايضاً بما قاله مرهج بن نمرون في كلامه عن السيد ابي نوفل عميد الشعب الماروني الذي نظرناه مراراً في سورية وتلقينا منه ما يدل على ميله الخاص الى الفرنسيين وخصوصاً الى العلماء منهم : لان هذا السيد باقتفائه اثر الامير ابي نادر والده المشهور بالعلوم والفروسية كسب شهرة عظيمة على الخصوص في فن التاريخ : فهو الذي كتب تاريخ الامير فخر الدين وما جرى له في ايامه من الحوادث ». ونقول بكل اسف انه لم يبقَ لهذا التاريخ من اثر !

ويظهر من ذلك ان حكومة جمهورية البندقية ذات النفوذ القوي هاتيك الايام في الشرق والغرب والتجارة الواسعة قد سعت هي نفسها مع الشيخ ابي نوفل ليقبل ان يكون قنصلاً لها في سورية لتستفيد من نفوذه في هذه البلاد. ويؤيده ما جاء في الرسائل المعمرة المذكورة آنفاً وهذه ترجمته الحرفية « ولما وقفت مشيخة البندقية على ما ازدان به (الشيخ ابو نوفل الخازن) من الدراية قدرته حق قدره والتمست منه ان يكون قنصلاً لها. »

« دستور مكرم مشير مفخم نظام العالم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي الصائب ... وزيري باشا المتصرف بايالة الشام الشريف ادام الله تعالى جلاله : وقدوة القضاة والحكام معدني الفضل والكلام قاضي بيروت وصيدا زيد فضلها ».

« انت ايها القاضي ببيروت قدمت الى ديواني الهمايوني بدار السعادة معروضاً بأن رعايا مقاطعات كسروان وبكفيا وغزير التابعة قضاء بيروت المذكور حضروا الى مجلس الشرع الشريف وبينوا ان مال نواحيهم هو ثمانية وعشرون الف غرش : ولحد الان هو جارٍ دفعه الى طائفة الامناء (غير ان الامناء المذكورين يأخذون منهم اموالاً بما يزيد عن المرتب حتى صار ذلك موجباً لخرابهم : وانه اذا احيلت المقاطعات المشار اليها الى عهدة شيخها الشيخ ابي نوفل الخازن واولاده تعمر المقاطعات المذكورة...وحيث لا طاقة لهم على جور وظلم الامناء... اعطيتهم اعلاماً بالرجاء في اعطاء امري الشريف بأن تكون العهدة بذلك للشيخ المذكور واولاده. فقد صدر فرماني باجراء العهدة على الوجه المشروح : وامرت انه بوصول حكمي الشريف ... ينبغي من اهل المقاطعات المذكورة ان يدفعوا الى الشيخ المذكور واولاده سنوياً مبلغ الثمانية والعشرين

الفاً المار ذكرها . فهكذا اعلموا واعتمدوا علامتي الشريفة تحريراً في ٢٥ صفر الخير سنة ١٠٧٢ ه (اي سنة ١٦٧١ م) اه (١) .

ومن المعلوم ان السلاطين العثمانيين العظام في هاتيك الايام وبعدها الى امد قريب كانوا يتقاضون الاموال المضروبة لخزينة السلطنة على كل ايالة من ايالاتهم بواسطة الامناء او المأمورين الذين كانوا يرسلونهم من قبلهم ويكلون ذلك لعهدتهم ويطلقون ايديهم في الرعايا . وكان هؤلاء يكلفون من تحت ايديهم من يضمنون لهم جمع هذه الاموال مع ما يضمون اليها من التكاليف التي يأخذونها لهم ويقدمون للخزينة قسمها المقرر تاماً . ولهذا كانت الايالاتِ تُحكم بالضمان فمن يزيد يركب : وكانت تسمى « عهد جمع عهدة » لقولهم ان مال هذه الايالة وكل الى عهدة فلان اي انه تولى الحكم عليها : ومن هنا تأتت المزاحمات وزيادة الضرائب على الاهلين والمظالم من قتل ونهب بلا حساب .

فقوله اذن في هذا الفرمان الشريف « ان تكون العهدة

(١) اخذنا هذه الترجمة عن تعليقات المرحوم المعلم رشيد الشرتوني على تاريخ العلامة الدويهي الذي عُني بنشره والتعليق عليه في بيروت سنة ١٨٩٠ .

بذلك الى الشيخ المذكور واولاده » وقوله « ينبغي على اهل المقاطعات المذكورة ان يدفعوا الى الشيخ المذكور واولاده سنوياً مبلغ الثمانية والعشرين الفاً » كل هذا مما يفيد عرفاً تولية الشيخ ابي نوفل واولاده على هذه البلاد وعصمتها لهم او استثناءها من ولاية الشام أو بيروت او صيدا او طرابلس كما لا يغرب . وبالواقع فاننا نرى في تواريخ تلك الايام حصول تغييرات متواترة في الحكام على الجبة وبلاد البترون وجبيل والشوف والغرب في جبل لبنان الا بلاد كسروان فلا يتناولها شيء من مثل ذلك مما يدل على استقلال الموارنة فيها على عهد المشايخ آل الخازن الكرام .

ولما استوثق الحكم على بلاد كسروان للشيخ ابي نوفل الخازن ولاولاده خاصةً بعد هذا الفرمان السلطاني : وكان اولاده قد كثروا وكثرت اولادهم ايضاً رأى من الحكمة ان يشركهم في الحكم معه ويخص كل واحد من اولاده الكبار بقسم من بلاده ويبقي لاولاده الصغار قسماً تحت عنايته (١) .

(١) ان الشيخ ابا نوفل قد تزوج ثلاث مرات : فامرأته الاولى هي بنت الشيخ معتوق حبيش : رزق منها ابنه البكر الذي سماه نوفلاً وبه تكنى واشتهر بابي نوفل : فقتل نوفل هذا ووالدته بالصاعقة التي انقضت

وفي الثالث من شهر آب سنة ١٦٧٩ ادركت المنية هذا الشيخ النبيل المفضال عماد الطائفة المارونية في هذا العصر . وقد قال العلامة الدويهي معاصره بعد ذكر وفاته في تاريخ هذه السنة ما مؤداه : «وكان قد تقدم جميع أهل عصره نخوة ومكارم : وخلص نفسه من يد الحافظ ومن يد ابن علم الدين حسين اذ امسكاه مع ابن الامير فخر الدين : واسترجع املاكه بامر شريف بعد ان صارت بكليكاً : وفي سنة ١٦٥٦ انعم عليه البابا اسكندر السابع بكفليارية رومية وان يتقلد طوقاً وسيفاً ويستعمل مهاميز من ذهب : وفي سنة ١٦٥٩ انعم عليه سلطان فرنسة بقنصلية بيروت وتصرف كذلك بقنصلية البندقية . وكان امراء بلاد الشام وقناصل الافرنج يحبونه

على قلعة سمار جبيل سنة ١٦٣٠ على ما روى العلامة الدويهي . ثم تزوج بامرأته الثانية من المشايخ آل الهاشم في العاقورة : ورزق منها اربعة اولاد وهم ابو قانصوه فياض وابو ناصيف نوفل وخازن وطربيه . ثم توفيت وتزوج ثالثة من المشايخ آل الدهان : ورزق منها اربعة اولاد ايضاً ابو نادر خاطر والحاج سليمان وابو كنعان قيس وابو النصر وهم اولاده الصغار المشار اليهم : وبما انه تولى ادارة قسمهم من البلاد بذاته مدة حياته وقد ورثوه عنه بعد وفاته أطلق عليهم جميعاً اسم بيت ابي نوفل الى الان .

كثيراً وكانت كلمته نافذة بكل مكان » اه (١) .

---

(١) وقد جاء في كتاب مجموعة الرسائل المعمرة للاباء اليسوعيين الكرام المذكور آنفاً بهذا الصدد ما مؤداه «وكان هذا السيد ممثلاً لدى اللبنانيين ما لطوبيا البار من الشهامة والفضائل وقد خطت له يد الشكر على صفحات القلوب ذكراً لا تمحوه الايام ولا يبليه الدهر : ولا يزال ابناء وطنه يستمطرون عليه وابل الرحمات ... اما عمر الشيخ ابو نوفل فوان كان طويلاً قد حُسب عند قومه قصيراً لما كان له عندهم من الايادي البيضاء . مات وهو طاعن في السن موت الابطال اثر وهن عراه في شيخوخته : ولقي الموعد ثبت الجنان وعند النفَس الاخير جدد روح الايمان والعبادة وقبل الاسرار المقدسة بانتباه عجيب واسلم نفسه الى الهه ورقد بسلام رقاد الابرار ... وكثيراً ما كان عفاته ينكرون فضله عليهم ، اما بعد موته فلم يستطيعوا ستر هذا الفضل بل نشروه باعظم بيان . وقد كان الحزن عليه شديداً والاسف شاملاً والدموع غزيرة . وقال اهل بلاده ان موته قد سبقه حوادث غريبة الا ان محامده تكفل له بالثناء اكثر من هذه التقاليد غير الثابتة »

وقد جاء في هذا الكتاب عينه ذكر حادثة وصف بها هو نفسه اشكاله لا بأس من ذكرها هنا لما فيها من الفكاهة والفائدة وهي كما يأتي : «فلما ملأ ذكر السيد ابي نوفل انحاء بلاده كلها اضطرم احد شرفاء الاتراك المقيمين بالقرب من الدروز شوقاً الى رؤيته . فوجه اليه رسولاً يسأله ان لا يرد طلبته وان يوافيه في موعد جعله له ليراه . فخاف السيد ابو نوفل ان يكون ذلك خديعة او حيلة نصبت له ففعل ما يفعله الرجل العاقل : وهو انه استعفى بلطف من هذا اللقاء وبعث اليه برسالة

وقد خلف هذا الشيخ العظيم ابنه الاكبر الشيخ ابو قانصوه فياض في رئاسة الولاية على بلاد كسروان وفي وظيفة قنصلية فرنسة في بيروت بحسب نص الفرمان السابق ذكره بتولية والده هذه القنصلية التي تشمل ولده الاكبر من بعده (١)

تنبئ بفرط ذكائه ورقة اخلاقه وهي : — ايها السيد المعظم — انت تود لجهلك لي ان تراني اما انا فلا اود لمعرفتي بنفسي ان يراني احد : ولا غرو فانني لست اهلاً لما توليني من الاعتبار : ومع هذا فكثيراً ما اثر فيَّ عظيم شوقك الى روئيتي حتى انني لم ارَ بداً من الاتيان بما استطيع ان اسركَ به بعض السرور : فاذا كنت لا تراني حقيقة فانك تستطيع على الاقل ان تمثلني في ذهنك : فهاكَ اذن شكل رجل كثيراً ما سمعت به :

« انني رجل فوق الربعة كبير الرأس قصير العنق حاد النظر نافر العينين عريض الجبهة كث اللحية زاهي اللون قصير الانف كبيره . ولكن ذلك لا يجعل منظري قبيحاً وربما قال بعض من رام مدحي انني ذو هيبة ووقار . اما ما اعلمه حقيقة فهو ان صورتي اشبه كثيراً بصور منقوشة على البسط او على دنانير قديمة تركها الرومانيون في بلادنا . هذه هي صورتي كما هي فاحكم اذاً ايها السيد هل يحسن باحد ان يشتاق الى روئيتي وهل يحسن بي ان اشتاق الى ان يراني احد . فاشير عليك بالاَّ تتعب نفسك لاجل روئيتي لما في ذلك من المشقة الباطلة — وهكذا رد الشيخ ابو نوفل سوءاله . ويتبين من هذه الرسالة انه كان جامعاً بين مر الجد وحلو الفكاهة » اه (عن تعليقات الشرتوني المذكور قبلاً) .

(١) جاء في هذا الفرمان « ومن الان يتعاطى السيد ابو نوفل متعلقات هذه القنصلية ويخلفه بعد موته السيد نوفل ولده » فيظهر لكل

وكان اوجه اخوته وقد قال فيه العلامة الدويهي معاصره انه كان سمحاً كريماً محباً للعلماء شجاعاً شديد البأس .

وفي ايامه اي سنة ١٦٨١ جاء من القدس الشريف بعض رهبان القديس فرنسيس الكبير لتأسيس دير لسكناهم بامر رئيسهم في كسروان فتلقاهم الشيخ ابو قانصوه بكل ترحاب ووقف لهم لهذه الغاية قطعة ارض من املاكهِ في جهة حريصا مما يشرف على فرضة جونية فبنوا فيها ديرهم المعروف الى الان . وقد جُعل هذا الدير بامر المجمع المقدس مدرسة لهؤلاء المرسلين يتعلمون فيها اللغة العربية ويسعفون الموارنة في الامور الروحية .

وقد روى الدويهي ان هذا الشيخ النبيل قد توفي الى رحمة مولاه في ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ١٦٩١ . والظاهر انهُ لم يحدث على عهده في كسروان ما يستحق الذكر الا خضد شوكة المتاولة في صروده واضعافهم : وقد كانوا آفة

بصير ان المقصود هنا ولده الاكبر لا الاسم وقد حصل الخطأ من كاتب الفرمان فانه استنتج على ما يظهر من قولهم « ابو نوفل » ان ابنه الاكبر الذي يكنى به وهو نوفل لا يزال حياً يرزق فوضع اسمه مع انه كان قد مات منذ اكثر من ثلاثين سنة كما رأيت . وانما سمى ابنه الثالث بهذا الاسم لانه اراد كما يقدر بصواب ان يبقى اسم ابنه البكر الذي كان عزيزاً عليه حياً وملازماً لاسمه لئلا يقع التباس .

على اهل البلاد بما كانوا يحدثونه من السطو والغزو واصابة الطرق .

وقد خلفه في الحكم ابنه الشيخ حصن وكان على ما قيل فيه حصناً حصيناً لكل اللائذين بحماه : وقد اقتفى آثار ابيهِ وجده في كل امر ونال حظوة عند كبار الحكام والولاة. فمن ذلك ما ذكره العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٦٩٣ لما اراد درسن محمد باشا التفتجي ان يرسل العساكر الى بلاد كسروان للتفتيش عن الامير احمد المعني فاحتياطاً لما كان يتهدد البلاد من الخراب دخل الشيخ حصن عليه بواسطة ارسلان باشا والي طرابلس وشفع عنده في بلاد كسروان وسأله ان يمنع العساكر من الدخول اليها وسلبها فاجابه الى ذلك ثم كلفه بتحصيل مال الدولة من بلاد جبيل (اي انه فوض اليه امرها وولاه عليها) .

ولم يرث الشيخ حصن وظيفة قنصلية فرنسة في بيروت عن والده لان الفرمان الصادر بذلك لجده الشيخ ابي نوفل لم يتناوله . والظاهر ان جلالة الملك لويس الرابع عشر بعد وفاة الشيخ ابي قانصوه امر بضم قنصلية بيروت الى قنصل صيدا. بيد ان هذا الشيخ عند ما رأى ان الزمان قد اناخ بكلكله على الامير احمد المعني خاف على عائلته وبلاده من جور خصوم

ابن معن انتقاماً من كل من كان يشايعه فرأى من اصالة الرأي ان يسعى في تعزيز مقامه قبل فوات الفرصة . ومن ثم اتفق هو وابن عمه الشيخ ناصيف مع مطران نيقوسية قبرس الماروني (الذي كان مقيماً في جبل لبنان بصفة نائب بطريركي) (١) وأوفدوا في اواخر سنة ١٦٩٥ رجلاً فاضلاً من اعيان الطائفة المارونية قد اتم دروسه العالية في رومية ونال من لدن الكرسي الرسولي رتبة كافليار روماني يقال له يوحنا مرماغون (٢) برسائل الاسترحام الى جلالة الملك لويس

---

(١) يظهر ان هذا المطران انما هو المدعو بطرس بن مخلوف من قرية غوسطا في كسروان وقد رقاه الى درجة الاسقفية البطريرك اسطفانوس الدويهي صاحب التاريخ المشهور في الخامس من حزيران (يونيه) سنة ١٦٧٤ على نيكوسية قبرس (كما ذكر هو نفسه) بحضرة سفير فرنسة المركيز اوليار دي نوانتيل الذي زار هذا البطريرك الجليل عند ما كان عائداً من زيارة القدس الشريف على ما ورد في كتاب رحلته الذي كتبه له البير فندال رفيقه في هذه الرحلة.

(٢) وقد كتب هذا الاسم بالافرنسية على هذا الشكل **Marmagon** : ولم نستطع سبيلاً الى فهم اصله باللغة العربية : مع ان المشهور عنه انه ماروني الاصل ومن تلاميذ المدرسة المارونية برومية . وقد ذهب بعضهم الى انه من قرية مشمش في بلاد جبيل ولكن هذا ليس بثبت : وربما كان من موارنة قبرس ومن ملازمي مطران نيكوسية المذكور لان مثل هذه الاسماء الغريبة كثيرة بينهم والله اعلم

الرابع عشر وبعض بطانته لكي يتعطف بتسمية الشيخ حصن قنصلاً لدولة فرنسة في بيروت كما كان والده وجده من قبله تعزيزاً لمقامه ودفعاً للمظالم عن بلاده وطائفته . وقد بسطوا الاحوال الصعبة التي كانت تكتنفهم وتتهددهم بالخراب من كل جانب بعد عزل الامير احمد المعني وقطع الامل من عوده او عود احد من سلالته الى الحكم لانها تنقطع به . فتعطف هذا الملك العظيم الشأن الذي كان قد اتخذ الطائفة تحت حمايته العزيزة وانعم على المشايخ آل الخازن بامتيازات مهمة على ما ذكرنا آنفاً باجابة سؤلهم هذا كما تدل المراسيم الشريفة والأجوبة المحفوظة باصلها الى الآن عند هذه العائلة بلبنان . ونحن هنا نثبت ترجمتها التي وصلت الينا لمزيد الفائدة .

ودونك ترجمة البراءة التي بمقتضاها صار تنصيب الشيخ حصن الخازن قنصلاً لفرنسة على بيروت مكان ابيه وجده سنة ١٦٩٧ .

لويس بنعمة الله ملك فرنسة ونافره .

« وكنت بروفنسة وصوكلك وكل ما يتعلق بها »

« الى كل من يقف على كتابنا هذا سلام »

«لما كان الامير حصن الخازن قد رفع الينا عريضة الالتماس

ان يتقلد وظيفة قنصل على فرضة بيروت : كما كان أبوه وجده من قبله بمقتضى الخط الذي كان بيدهما من قبلنا المؤرخ في اول كانون الثاني (يناير) سنة ١٦٦٢ : وقد قبلنا عريضته هذه واردنا ان نشمله بنعمتنا بعد ان علمنا ما هو عليه من الغيرة على خدمتنا : لذلك قد أقمناه قنصلاً على فرضة بيروت المذكورة المتعلقة بقنصلية صيدا والتي نرغب ان تكون منفصلة عنها الى امر جديد . وفوضنا اليه بهذا الخط الممضي من يدنا هذه الوظيفة ٠٠٠٠ ليقوم بها مدة حياته : ومن ثم تأمر ان يكون له الشرف والسلطة والامتيازات والانعامات والاعفاءات وكل ما يتمتع به قناصل الشرف : وله ان يقيم عنه نائب قنصل على شرط ان يكون فرنسي التبعة ويكون هو المسئول عنه بنفسه . ونؤمل من محبنا وأميننا المشير في مجالسنا سفيرنا في الشرق السيد شتريب دي كرنيران ان يرفع الامير حصناً الخازن الى منزلة قنصل بناء على ما هو واضح من حسن تصرفاته واستقامة سلوكه وتدينه بالديانة الكاثوليكية الرسولية الرومانية دون التفات الى امرنا المخالف ذلك : وان يبذل له كل مساعدة وحماية ويعلن لكل ربان وتاجر تحت لواء فرنسة ان يعرفوه قنصلاً بقطع النظر عن الاوامر الصادرة في ١١ اذار (مارس) سنة ١٦٨٥ الناطقة

بان لا يقام رجل اجنبي على تلك الوظيفة : فاننا بالنظر الى خاطر الامير حصن قد تعدينا تلك الاوامر ونتعداها بتفويضنا اليه ادارة هذه القنصلية . ونطلب من الباشاوات العظام الحاكين حالياً والذين يحكمون فيما بعد على ثغر بيروت ان يمتعوا الامير حصناً المذكور بالراحة والسكينة وان يصدوا كل من يعارضه في القيام بها ويبذلوا كل مساعدة ورعاية . ولذلك ختمنا بخاتمنا هذا الصك الصادر في فرسالية في ١١ حزيران (يونيه) سنة ١٦٩٧ وهي الخامسة والخمسون من ملكنا » اه .

واليك ترجمة الامر الذي وجهه هذا الملك العظيم الى سفيره في الاستانة بهذا الشأن عينه وهي بالحرف الواحد .

« الى السيد دي كستنيار مستشار مجالسي وسفيري الخارق العادة بقسطنطينية » .

« ان السيد مرماغون الكفليار الروماني رسول الاميرين حصن وناصيف ومطران نيقوسية رئيس الديوان الكاثوليكي الماروني في غياب البطريرك اسطفان (١) قد رفع اليَّ رسائلهم

(١) كان البطريرك اسطفان الدويهي اذ ذاك متخفياً من وجه الحاكم الذي كان قد فرض على كرسيه ظلماً مبلغ خمسة آلاف غرش لم يكن للبطريرك قبل في دفعه . وقد رضي ان يدفع نصفه فلم يقبل

التي بها يلتمسون حمايتي من الضيق الملم بهم بعد ما السلطان الاعظم قد ولى على بلادهم الامير موسى علم الدين بدلاً من الامير احمد المعني : ويسألوني ان اقلد احدهم الامير حصناً قنصلية ثغر بيروت ليتمكن من نشر الراية الفرنسية ومن التمتع بالانعامات والامتيازات المختصة بقناصل الامة الفرنسية فيخمد بذلك أوار ما حاط بهم من الضيق . ولما كان من دأبي ان اساعد بكل ما في وسعي على تحسين احوال المستنيرين بالانجيل المقدس في كل قطر من العالم فاني مرسل اليكم كتابي هذا لابلغكم ارادتي : وانا ارغب ان تستوعبوا كل ما يبسطه لكم معتمدهم المذكور مما يتعلق بهاتيك الاحوال وان تبذلوا بعد ذلك لخير الدين الكاثوليكي ونفعه كل العناية باسمي لتنولوه امانيه المعقولة . وفي الختام اسأله تعالى ان يحفظكم ايها السيد دي كستنيار بحراسته المقدسة » .

« وكتب في فرسالية في ٣ تموز (يوليه) سنة ١٦٩٧

(التوقيع) « لويس » (وفي اسفل الصحيفة) « كولبر » (وهو وزير لويس الرابع عشر) اه .

الحاكم الا به كله ولذلك توارى البطريرك من وجهه حتى يكشف الله هذا الظلم عنه بوجه من الوجوه . وفوّض امر العناية بالرعية الى هذا المطران

وهذه ترجمة مرسوم الجواب من جلالة الملك الى الشيخ حصن نفسه .

« الى السيد الاجل الامير حصن قنصل الامة الفرنسية في بيروت »

« ايها السيد الاجل — ان رسولك يوحنا مرماغون الكافليار الروماني قد قدم لي الرسالة التي وجهتها اليّ في شهر كانون الاول (دسمبر) سنة ١٦٩٥ وبها تطلب مني ان اقلدك قنصلية بيروت . فأجيبك اني لما كنت موقناً انك تحسن القيام بالحماية التي امنحك اياها وتساعد رعاياي الذين يتاجرون في سورية : اردت ان افصل اكراماً لخاطرك قنصلية بيروت عن القنصلية العامة وأجعلها قنصلية خصوصية : وامرت ان ترسل اليك براءة تنصيبك قنصلاً بها وتخويلك الحق بأن تنشر على باب قصرك الراية الفرنسية كما كان لابيك وجدك : وان تتمتع ايضاً بجميع الانعامات والامتيازات التي لقناصل الامة الفرنسية . وقد زودت رسولك بعدة رسائل الى سفيري في قسطنطينية والى قناصل فرنسا الذين في جوارك بها آمرهم ان يبذلوا لك كل رعاية وعناية في كل ما تطلبه منهم لمنفعتك ومنفعة ملتك . والله اسأل ان يرعاك ايها السيد الاجل بعين حراسته المقدسة » .

« وكتب في فرسالية في ٣ تموز (يوليه) سنة ١٦٩٧

(التوقيع) « لويس » (وفي أسفلها) « كولبر » اه .

وهذه ايضاً ترجمة جواب الملك المشار اليه الى الشيخ ناصيف الخازن .

« الى السيد الاجل ناصيف أمير الموارنة »

« ايها السيد الاجل — قد علمنا من كتابكم الذي رفعه الينا رسولكم السيد مرماغون الكفليار الروماني ما ينالكم به من سوء المعاملة الحاكم الجديد الذي نصب من عهد قريب مكان الامير احمد المعني : وفهمنا ان من اللازم لتأييد الدين الكاثوليكي في بلادكم ودفع كل ضرر عنه ان نهتم باعادتكم الى حكم البلاد التي كنتم تحكمونها من ذي قبل بحيث تدفعون للباشا الذي يتولى ايالة طرابلس المال المفروض على هذه البلاد ولما كنت شديد الرغبة في بذل كل مساعدة تعود عليكم بالنفع وعلى الخصوص متى كان ذلك في سبيل الحماية التي قد طالما شملت بها الكاثوليك في الشرق سلمت الى رسولكم ما يلزم من الاوامر لسفيري بقسطنطينية حتى يصرف عنايته الفعالة في سبيل تنويلكم ما تطلبون . وفي الختام اسأل الله ان يرعاكم ايها السيد الاجل بحراسته المقدسة » .

« وكتب في فرسالية في ٣ تموز (يوليه) سنة ١٦٩٧

(التوقيع) « لويس » الخ اه .

ثم هذه ترجمة جواب الملك ايضاً الى مطران نيقوسية قبرس النائب البطريركي الماروني في جبل لبنان بهذا الصدد :

« الى السيد الاجل مطران نيقوسية قبرس ورئيس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني بجبل لبنان في غياب البطريرك اسطفان (الدويهي) .

« ايها السيد الاجل — تناولت الكتاب الذي رفعه اليّ من قبلكم رسول طائفتكم السيد يوحنا مرماغون بوصف الضيق الحاصل الان في بلادكم وتسألوني ان انصب الامير حصناً قنصلاً لفرنسة في بيروت . فعنايتي بجميع الذين يعترفون بالدين القويم في أية جهة كانوا من العالم لا تدع لكم محلاً للريب في عنايتي بكم على وجه خاص : ولذلك قد شئت بطيبة خاطر ان اولي الامير حصناً قنصلية بيروت منفصلة لهذه الغاية عن قنصلية صيدا : وقد كتبت في الوقت نفسه الى سفيري بقسطنطينية والى قناصل فرنسة بحلب وصيدا وطرابلس ان يبذلوا جل العناية في ما يعود بالنفع على ملتكم وعلى كاثوليك الشرق الان وفي كل فرصة تسنح . وفي الختام اسأل الله تعالى ان يتولاكم ايها السيد الاجل بحراسته المقدسة » .

« وكتب في فرسالية في ٣ تموز (يوليه) سنة ١٦٩٧

(التوقيع) « لويس » الخ اهـ .

والظاهر ان هذه الاوامر لم تأخذ مفعولها بالسرعة المنتظرة بسبب بعد الشقة ولهذا بقي هؤلاء المشايخ والموارنة معرضين للظلم والجور في هاتيك الظروف . فقد روى العلامة الدويهي في آخر تاريخه انه في النصف الثاني من سنة ١٦٩٩ وقعت الفتنة بين الشيخ عبد السلام بن الشيخ اسماعيل حماده وبين بيت الشيخ احمد حماده حكام جبة بشراي يومئذ : فقدم الشيخ عبد السلام الى جبة بشراي برجاله وهزم بيت الشيخ احمد الى الهرمل واقام في الجبة شهراً وخمسة ايام وضرب على الاهالي مبالغ طائلة من المال . ولما لم يكن لهم ما يسدد مطلوبه أخذ طاسات النساء وسلاح الرجال والحنطة ومؤونة الفلاح.

وبسبب هذا الجور الذي حصل على اهالي الجبة قد كتب البطريرك اسطفانوس الدويهي نفسه عريضة استرحام الى الملك لويس الرابع عشر انفذها الى مقامه العالي مع احد كتبة اسراره الخوري الياس السمعاني في سنة ١٧٠٠ : فتعطف هذا الملك العظيم الشأن باجابته عليها بالرسالة الاتية ترجمتها :

« الى السيد الاجل اسطفانوس بطرس البطريرك الانطاكي »

« ايها السيد الاجل — ان الخوري الياس كاتب اسراركم قدم لي الرسالة التي انفذتموها معه بتاريخ ٢٠ اذار سنة ١٧٠٠ وقد

علمت بكل أسف ما يقاسيه جماعة الكاثوليك ابناء ملتكم المارونية في جبل لبنان من المحن والمظالم وما تتحملونه انتم بشخصكم من الاهانات التي يوجهها بعض الحكام اليكم . ولما كنت كل حين مستعداً ان ابذل كل ما بوسعي من العناية لاجل تأييد الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في كل مكان من المعمور وعلى الخصوص في ارجاء بطريركيتكم حيث تفاقمت المحن فقد سلمت الى كاتب اسراركم المذكور رسالة الى سفيري بقسطنطينية تجديداً وتأكيداً للاوامر التي اصدرتها اليه قبلاً لكي يبذل كل جهده واهتمامه حتى ينال من الباب العالي العثماني كل ما يمكن نيله من الاماني التي تعود بالنفع على الدين الكاثوليكي في بلاد الموارنة مما يجعلكم تشعرون بمفاعيل حمايتنا واجلالنا الخصوصي لكم : وانا اسأل الله تعالى ان يرعاكم ايها السيد الاجل بحراسته المقدسة — وكتب في مارلي في ١٠ آب (اغسطس) سنة ١٧٠١

(التوقيع) « لويس » الخ اهـ .

ذلك ما كان من التجاء الطائفة المارونية بجبل لبنان في ايام محنتها الى حماية الدولة الفرنسية العزيزة الممنوحة لها : ومن عناية جلالة ملكها الاعظم بهذه الطائفة اللائذة بها . وهناك مراسيم ورسائل عديدة متواصلة حتى الان من هذا

القبيل اضربنا عن ايرادها في هذه العجالة اجتناباً لملل القارئ مستغنين بهذا القدر .

وقد حافظ المشايخ الخوازنة بهذه الوسيلة على مقامهم وكرامتهم وراحة الطائفة وكرامتها جهدهم : وحسب لهم اهل جوارهم من الاجانب حساباً كبيراً وتهيبهم الجميع (١) .

---

(١) ذكر البطريرك سمعان عواد الذي كتب سيرة حياة العلامة البطريرك اسطفانوس الدويهي وهو معاصر له : انه في نحو اول سنة ١٧٠٤ قد حضر المشايخ الحمادية المتاولة حكام جبة بشراي عند هذا البطريرك القديس في كرسيه بدير قنوبين الشهير يطلبون منه مبلغاً من المال : واذ ابى ان يلبي طلبهم الجائر قد اوسعه كبيرهم الشيخ عيسى اهانة . فكتب هذا البطريرك الى الشيخ حصن الخازن يخبره بكل ما جرى : فاستشاط الشيخ حصن غيظاً وجهز في الحال عسكراً من اهل كسروان بعث بهم الى جبة بشراي وعليهم اخوه الشيخ ضرغام (الذي صار فيما بعد بطريركاً) واثنان من اولاد عمه وهما الشيخ موسى طربيه والشيخ نادر بن خاطر . واذ علم الشيخ حماده بذلك جاء اليهم ووقع على الارض قدام غبطته بحضرة الجميع وطلب منه السماح قائلاً : او لستم تقولون في صلاتكم « اغفر لنا كما نحن نغفر لمن اخطأ الينا ؟ » وانا قد اخطأت اليك فاغفر لي . فسامحه البطريرك بروح مسيحي مقدس : واذ اراد المشايخ الخوازنة ان يبطشوا به نهاهم عن ذلك . وفي ٢ من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٠٤ سافر معهم الى بلاد كسروان واقام في دير مار شليطا مقبس مدة من الزمن .

عودٌ على بدء

وفي هذه الاثناء نال الامير احمد المعني العفو السلطاني ورجع الى ولايته : فنال المشايخ آل الخازن بعض الراحة . الا ان هذا الامير قد توفي في دير القمر لخمسة عشر خلون من شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٦٩٧ وانقرضت به سلالة آل معن في جبل لبنان .

فولى الباب العالي مكانه ابن ابنته الامير حيدر موسى الشهابي : وبما انهُ كان اذ ذاك قاصراً يكاد لا يبلغ الاثنتي عشرة سنة امر ان يكون قريبه الامير بشير حسين الشهابي حاكم راشيا وكيلاً له في الحكم . الا ان اعيان البلاد من امراء ومقدمين ومشايخ قد اختاروا الامير بشيراً هذا للحكم عليهم كاصيل مكان ابن معن لانه ابن اخته : وجرت المساعي مع الباب العالي حتى أثبت اصيلاً بفرمان سلطاني ناطق بتخويله المحافظة على كل المقاطعات التي كانت لابن معن : وهكذا ابتدأت ولاية الامراء آل شهاب في جبل لبنان. (١)

(١) ان هذه الاسرة ترجع في سلسلة نسبها الى قريش بواسطة « مرة » بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر المدعو « قريشاً » : وكان لمرَّة ثلاثة اولاد اكبرهم « كلاب » الذي من سلالته محمد نبي العرب : والثاني « تيم » الذي من سلالته ابو بكر الصديق : والثالث « يقظة »

ومنذ تولى هذا الامير مكان خاله اخذ يسلك في الرعية مسلك العدل والاستقامة وحافظ على كل احلاف بيت معن واخصهم

ومن سلالته الحرث وكان من الصحابة وقد أمَّره ابو بكر ايام خلافته . وكان للحرث ابن اسمه مالك لقب بشهاب لان امه كانت من ذرية شهاب بن عبدالله بن الحرث بن زهرة القرشي من رهط آمنة ام محمد تبركاً بجده لامه . وعند فتوح الشام قد اقر عمر بن الخطاب مالكاً هذا اميراً على حوران فانتقل اليها بقومه وعشيرته من الحجاز وتوطن قرية « شهبا » واخذ يبرد بلاد حوران بالسيف حتى استولى عليها جميعها .

واستمر الامراء الشهابيون في حوران حتى سنة ١١٧٣ م (وهي سنة ٥٦٩ هـ) ثم انتقلوا الى وادي التيم لاسباب لا محل لذكرها هنا . وكان الافرنج اذ ذاك قد استولوا على وادي التيم وتوطنوا حاصبيا واحكموا تحصينها فوقع القتال بينهم وبين آل شهاب وعشائرهم : ومن بعد مواقع عديدة دارت فيها الدوائر على الافرنج تركوا وادي التيم لآل شهاب مكرهين . واذ بلغ الملك محمود نور الدين زنكي صاحب بلاد الشام ما تم لهم من الانتصار سرَّ بهم كثيراً وارسل اليهم الخلع السنية مع احد خواصه وولى زعيمهم الامير منقذاً على هذه البلاد التي فتحها بسيفه .

وبلغ الامير يونس المعني حاكم بلاد الشوف في جبل لبنان خبر هذا الفوز العظيم فتوجه الى وادي التيم لاجل تهنئة الامير منقذ ومحالفته . فاحتفى الامير بقدومه ثم اتى معه الى لبنان تلبية لدعوته وهناك اتفقا على تزويج الامير محمد ابن الامير منقذ بابنة الامير يونس وتزويج الامير يوسف ابن الامير يونس بابنة الامير منقذ لاجل زيادة احكام عهد المحالفة واواخي الصداقة بين الاسرتين . وقد اخذت تنمو هذه

المشايخ الخوازنة الذين اتخذهم له عوناً في الملمات كما كانوا عند خاله وجده الى ان توفي سنة ١٧٠٦ بلا عقب فخلفه في هذه الولاية الامير حيدر ابن الامير موسى الشهابي وهو ابن ابنة احمد المعني المذكور آنفاً وله من العمر احدى وعشرون سنة. وهذا قد حافظ ايضاً كل المحافظة على ولاء المشايخ آل الخازن وهم قد اخلصوا له الخدمة كما كانوا على عهد جده الامير احمد: حتى انه اذ نكب هذا الامير سنة ١٧١٠ وعزل عن الولاية بدسائس اعدائه واضطر ان يهرب من وجه عسكر الدولة الذي زحف عليه بأمر بشير باشا والي ايالة صيدا قد اعتصم اولاً هو وعياله بالمشايخ آل الخازن وآل حبيش في كسروان. ولما تقوى عليه الامير يوسف علم الدين بعساكره (وهو الذي تولى الحكم مكانه على بلاد الشوف وتوابعها) ترك الامير حيدر عياله على عهدة الخوازنة وذهب هو وبعض خواصه الى الهرمل (١) حيث توارى من وجه اعدائه. فخبأ الخوازنة

الصداقة على تراخي الايام حتى صارت الاسرتان كأنهما واحدة الى ان انقرضت سلالة آل معن بجبل لبنان فورثهم الامراء الشهابيون في الولاية ايضاً على هذا الجبل كما رأيت (راجع كتاب اخبار الاعيان بجبل لبنان)

(١) وهي مقاطعة من لبنان في اعاليه من الشمال بشرق عند مخرج نهر العاصي وهو الاورنت.

عياله في بعض قراهم وكانوا يعتنون بهم حق الاعتناء: وكانوا ايضاً يقدمون كل ما يلزم للامير حيدر ورجاله من النفقات مدة اقامته في الهرمل.

وكان الامير يوسف علم الدين ظالماً مستبداً حتى سئمت نفوس اهل البلاد ولايته وناءت تحت نير حكمه فتآمر عليه اعيان القيسية واتفقوا مع المشايخ الخوازنة على ان يكاتب هؤلاء الامير حيدراً الشهابي في امر عوده الى البلاد فيناصروه جميعاً على اليمنية والامير يوسف علم الدين زعيمهم. فخابره المشايخ آل الخازن بالامر وانجدوه برجال كسروان فحضر بهم وعليهم الشيخ سرحان الخازن الى المتن حيث اجتمع عليه جيش كبير من الامراء والمقدمين الذين من حزبه: وحصلت موقعة عين داره الشهيرة التي انتهت بانتصاره الباهر على اليمنية حزب الامير يوسف علم الدين. فرجع الى استلام ولايته معززاً واقر المشايخ آل الخازن على ولاية كسروان وبالغ في تعزيزهم: وقد تم ذلك سنة ١٧١١. ولما استوثق له الامر بعد هذه الموقعة جعل مقدمي بيت ابي اللمع امراء لانهم ابلوا بلاءً حسناً فيها وتزوج وزوج بعض اولاده منهم. ثم سلخ قاطع بكفيا عن بلاد كسروان (١) من ولاية بيت الخازن وجعله

(١) والمسلوخ انما هو من نهر الكلب الى نهر الجماني ما عدا

اقطاعة لهم يتوارثون الولاية عليها كغيرهم من اصحاب المقاطعات وقد تم ذلك برضى الشعب واختياره لان هؤلاء الامراء الجدد قد تعهدوا لهم بترك المال المضروب عليهم ولم يعترض آل الخازن على هذه القسمة لانها جاءت موافقة للموارنة .

وكان في سنة ١٧٠٠ قد انتقل من قرية غوسطا في كسروان الخوري صالح مبارك بعائلته الى قرية رشميا في بلاد الشوف التي كان قد كثر المهاجرون اليها والى جوارها من الموارنة : وفي سنة ١٧١١ شهد حفيده عبدالله (الذي صار فيما بعد كاهناً) موقعة عين داره المذكورة ومعه جمهور من الموارنة الذين في جواره انتصاراً للامير حيذر الشهابي : فاستبسلوا وابلى عبدالله بلاء حسناً فيها وأسر اميرين من اليمنية . فكافأه الامير حيذر بعد ان استتب له الامر بان أقطعه قرية رشميا ورفع عنها المال الاميري وترك له الجزية : فصار حاكماً هو وسلالته من بعده على هذه الاقطاعة ونالوا حظوة عند الامراء الشهابيين الذين اتخذوا منهم كواخي ومدبرين اشتهروا جداً في سياستهم

سواحل الضبية الى انطلياس ويتبعها دير سيدة طاميش ودير مار عبدا المشمر ودير مار يوسف البرج ودير عوكر وكل ما يلي ذلك من الاراضي والقرى فانه بقي على عهدة المشايخ آل الخازن : ولكنه قد اتبع اليوم لقضاء المتن .

وتدابيرهم ونفعوا الطائفة المارونية نفعاً جزيلاً (١) .

واتخذ الامير حيذر الشهابي بسعي الشيخ ابي شيبان

(١) واشتهر من هذه العائلة المباركة الشيخ سعد ابن الشيخ غندور ابن الخوري عبدالله صاحب رشميا بالشجاعة واصالة الرأي وحسن التدبير : وكان من اهل ثقة الامير ملحم الشهابي فاقامه قبل وفاته وصياً على اولاده : فقام بحق الوصاية خير قيام وبذل من الجهد اقصاه حتى ولى احدهم الامير يوسف على بلاد جبيل وعمره لم يتجاوز السادسة عشرة ثم على كل جبل لبنان منذ سنة ١٧٧١ : واستمر مدبراً له طول حياته بكل حكمة وحزم . ومن اعمال شجاعته انه لما اراد الامير يوسف ان ينتقم من المتاولة الذين تطاولوا على الامير بشير حيذر الشهابي في العاقورة ارسله عليهم برجاله فطاردهم الى قرية دربعشتار في كورة طرابلس حيث اصلاهم حرباً هائلة من الظهر حتى المساء فظفر بهم وهزمهم الى القلمون بقرب طرابلس بعد ان قتل منهم مئة فارس واسر شيخهم ابا النصر حماده وبعض زمرته واتى بهم الى مولاه . واما اعماله في سبيل تعزيز الطائفة المارونية وسائر الطوائف المسيحية فاشهر من ان تذكر واكثر كثيراً من ان تستوعبها هذه الحاشية : وقد استفاض بذكر بعضها مسنداً الى الآثار التاريخية المعتبرة المعلم رشيد الخوري الشرتوني فيما علقه على كتاب سلسلة بطاركة الموارنة للعلامة البطريرك اسطفانوس الدويهي الذي نشره بالطبع في بيروت : ثم صاحب تاريخ سورية المشهور حديثاً بالطبع في بيروت ايضاً في المجلد الذي سماه « الجامع المفصل » منه : وقد جمع فيه كل ما وصل اليه مما يتعلق بتاريخ الطائفة المارونية . ومما يدل على اشتهار فضله على النصرانية في جبل لبنان وسورية ما خصه به الكرسي الرسولي لذلك من

الخازن رئيساً لكتّابه الشدياق بطرس بن فهد من قرية عشقوت في كسروان .فأحبه الامير كثيراً لحصافة عقله وصدق خدمته ثم جعله مديراً له فاستمر في هذه الوظيفة على عهد ابنه الامير ملحم ايضاً الذي خلفه في الولاية سنة ١٧٢٧ (١) .

الكرامة : وقد شرفه البابا بيوس السادس برسالة خاصة استهلها « الى الابن الحبيب والرجل الشريف الحسيب السلام والبركة الرسولية » . واذ توفي الى رحمة الله كتب رئيس المجمع المقدس برومية الى بطريرك الموارنة يعزيه ويعزي طائفته على هذه الخسارة الجسيمة متمنياً ان يكون ابنه الشيخ غندور خير خلف له بوجاهته وغيرته . وبالواقع لم يكن الشيخ غندور اقل شهامة وغيرة على طائفته ولا احط همة واضعف حكمة من والده . وكان قد خلف والده في حياته عند الامير يوسف الشهابي حاكم البلاد الذي لموضع فضله واخلاصه قد كافأه بان اضاف الى اقطاعة رشميا كل ما حولها من القرى التي فيها الموارنة . ولشهرة مقامه وخدماته الجليلة النصرانية قد جعله الملك لويس السادس عشر قنصلاً لفرنسة في بيروت كما يشهد الفرمان الذي بيد سلالته حتى الان وقد نشره مع سواه المعلم رشيد الشرتوني في المحل المذكور آنفاً .

(١) ويرجع اصل هذا الشدياق بطرس الى سلالة فهد بن رعد من اولاد شاهين الذين اتوا الى حصرون من صدد الشرق بحسب رواية العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٤٧٠ : كما مرَّ بك في الباب السابق (ص ١٣٠) . وقد انقطعت سلالة هذا الشدياق بطرس بولدين له بلا عقب : واشتهر بعده الشيخ منصور ابن اخيه جعفر الشدياق ولعب دوراً مهماً في السياسة مع الامراء الشهابيين الى ان توفي سنة ١٧٩٣ وقام ايضاً

فيستدل من هنا ان الموارنة على عهد ولاية الامراء الشهابيين قد زادوا وجاهةً وعزاً وحريةً وراحةً ومقاماً في جبل لبنان مما انساهم عهد المعنيين الذي جعل لهم بواسطة المشايخ آل الخازن الكرام شأناً يذكر وملكهم كل بلاد كسروان . وقد عرف الامراء الشهابيون قدر اخلاصهم وذكائهم وشهامتهم فاستعملوا منهم بعض رجالهم ككتّاب وكواخي ومستشارين عززوا بهم ولايتهم واحكموا سيطرتهم على كل البلاد من كل وجه . حتى كان القرن الثامن عشر للموارنة من احسن القرون في تاريخهم : وصاروا في الحقيقة موئلاً وملاذاً حصيناً للمظلومين من اهل الديانة الكاثوليكية في جميع الولايات التي حولهم .

فمن ذلك ما جاء في تاريخ سنة ١٧٢٥ انه : لما اشتد الاضطهاد هذه السنة في مدينة حلب على طائفة الروم الملكيين المنضمين حديثاً الى وحدة الكنيسة الكاثوليكية (١) من قبل الروم

ولده فارس واشترك مع الشيخ سعد الخوري وولده الشيخ غندور المذكورين آنفاً في تدبير الامير يوسف الشهابي المشهور . ثم خدم اولاده من بعده وخدم ايضاً الامير بشيراً الكبير الى ان توفي سنة ١٨١٧ وله اعمال ووقائع تدل على شهامته وحصافة عقله وشجاعته واصالة رأيه : مما جعل له ولذريته مقاماً رفيعاً في تاريخ الطائفة المارونية .

(١) قال العلامة الكبير البطريرك بولس مسعد في كتابه المشهور

« بالدر المنظوم » من الصفحة ٨١ فصاعداً ما ملخصه : ان هؤلاء الروم الملكيين في سورية لم يرجع بعضهم الى حضن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الا في اواخر القرن السابع عشر : وكان ذلك خاصة على اثر جدال اقامه العلامة اسطفانوس بطرس الدويهي بطريرك الموارنة الانطاكي مع بطريرك هؤلاء الملكية المدعو كيرلس الحلبي واربعة من اساقفته كان في جملتهم اوتيميوس الصيفي اسقف صور وصيدا (وقد ذُكر خبر هذا الجدال في سيرة حياة البطريرك اسطفانوس المذكور التي كتبها معاصره المطران سمعان عواد خلفه فيما بعد على هذا الكرسي البطريركي وذكرت هناك اسبابه ومواضيعه وشروطه التي منها ان يتبع المغلوب مذهب الغالب) فشرع منذ ذاك الحين هذا البطريرك وهؤلاء الاساقفة يتظاهرون بالميل الى الاتحاد مع كنيسة رومية ويبثون هذا الروح القويم في الذين كانوا يلتفون عليهم من هذه الطائفة . وكان اشدهم غيرةً على ذلك المطران اوتيميوس المذكور الذي كان قد تلقى دروسه عند الاباء المرسلين اليسوعيين الفضلاء وتشرب هذا الروح منهم . وكان بطاركة الروم الملكيين يقيمون في دمشق الشام منذ سنة ١٥٢٩ بامر الدولة العثمانية بعد استيلائها على سورية . واذ رأت هذه الطائفة من البطريرك كيرلس المذكور ميلاً شديداً الى كنيسة رومية وقع الريب عندهم في اخلاصه حتى اظهروا له القلى : وعملوا على اقامة رجل من غرضهم اسمه بولس الدمشقي من بيت الدباس (كان اولاً يحترف الحياكة) بطريركاً عليهم باسم اثناسيوس . واشتد النزاع بينه وبين كيرلس هذا البطريرك الشرعي حتى صالحها اخيراً رجل وجيه من اليهود اسمه سلمون على ان اثناسيوس يرأس اساقفة حلب

و كيرلس الابرشية الانطاكية . وتوفي كيرلس كاثوليكياً سنة ١٧٢٠ : ثم توفي اثناسيوس مشاقاً سنة ١٧٢٤ : وكان له شماس قبرصي الاصل يدعى سلفسترس : فاتفق مع بطريرك قسطنطينية الذي رسمه مطراناً ثم اقامه بطريركاً على انطاكية بطريقة غير قانونية : واستحصل له فرماناً سلطانياً بذلك وعززه بالاوامر العالية الشديدة الى الولاة في سورية ضد كل من ناوأه وارسله بهذا السلاح الماضي الى كرسيه في دمشق . وكان حزب البطريرك كيرلس الكاثوليكي قد انتخب له بطريركاً باجماع الرأي القس سارافيم تاناس ابن اخت المطران اوتيميوس مطران صور وصيدا المذكور آنفاً : ورُسم مطراناً في دمشق في ٢٠ ايلول سنة ١٧٢٤ بوضع يد ثلاثة من اساقفتهم وهم نيوفيطس الحلبي مطران صيدنايا وباسيليوس مطران بانياس وافتيميوس مطران الفرزل : وجُلي باسم كيرلس . وبعد تبوئه المقام البطريركي اسرع بارسال صورة ايمانه الى رومية وطلب تثبيته من الكرسي الرسولي كعادة البطاركة الكاثوليكيين . فجمع نشر الايمان المقدس المتولي الشؤون الشرقية قد حكم بعد البحث والتنقيب في ١٥ اذار سنة ١٧٢٩ بصحة ايمانه وانتخابه وبان يجاب طلبه من حيث ايلائه التثبيت والباليون المعتاد الذي هو كمال الرئاسة متى اتم الاوامر والتعليمات التي صدرت له . ولكن الكرسي الرسولي لم يثبته التثبيت الرسمي الاحتفالي ويرسل الباليون اليه الا في سنة ١٧٤٤

اما سلفسترس البطريرك المشاق فمن بعد وصوله الى دمشق سنة ١٧٢٥ قد اثار الاضطهاد على البطريرك كيرلس تاناس وعلى حزبه الكاثوليكي : واخذت بيده ويد حزبه الحكومات المحلية في كل مكان

حتى اضطر البطريرك كيرلس ان يهرب الى جبل لبنان حيث انتصر له يعقوب عواد بطريرك الموارنة واساقفته وقدموا فيه الشهادات اللازمة مع كتب الوصاة الى سفير الدولة الفرنسية في الاستانة طالبين اليه ان يحتاط لهذا الامر مع حكومة السلطان . ولكن لسوء الحظ قد وقعت هذه الكتابات في يد البطريرك سلفسترس الذي استشاط منها غيظاً ووشى ببطريرك الموارنة واساقفته الى سليمان باشا العظم والي طرابلس واغراه على التنكيل بهم بحجة انهم مناصرون للملكيين العصاة على الدولة : واتخذ معه كل الوسائل حتى جهز عسكراً وارسله الى دير قنوبين كرسي بطريرك الموارنة في جبة بشراي فنهبه وقبض على رهبانه وعلى رهبان دير قزحيا بعد ان نهبه ايضاً وعلى شقيق البطريرك يعقوب وجرهم جميعاً الى سجن طرابلس حيث استمروا الى ان صار افتداؤهم بمبلغ من المال . واما بطريرك الموارنة فقد توارى من وجه العسكر هو واساقفته الى ان همدت الامور ورجع الامان الى نصابه بعناية المشايخ آل الخازن الكرام اهـ
(عن الدر المنظوم بتصرف)

واما اصل هذه الطائفة الملكية السورية وسبب تسميتها بالروم وانقيادها الى بطاركة قسطنطينية فقد اوضحه بمنتهى الايجاز والفصاحة البابا بناديكتوس الرابع عشر العلامة الشهير في الخطاب الذي القاه في مجلس الكردينالين السري في ٣ شباط سنة ١٧٤٤ توطئة لتثبيت البطريرك كيرلس تاناس المذكور (راجع كتاب مجموعة بولات هذا البابا مجلد ٢ في الحاشية على عدد ٥) حيث قال ما ترجمته الحرفية :

« منذ تغلب البطاركة المتلطخون بوصمة الهرطقة على الكنيسة

الانطاكية اخذ بطاركة قسطنطينية يبذلون جهدهم لاجل اخضاعها لسلطانهم وعلى الخصوص بعد ان انتحلوا لانفسهم صفة « اب مسكوني » . ولم يذهب جهدهم سدًى لانه بعد ما فتح العرب سورية وما جاورها في برهة القرن السابع واسترجعها نيقوفور فوكاس في القرن العاشر امست انطاكية تحت سيطرة الروم . فانتهز البطريرك القسطنطيني هذه الفرصة واخذ ينتخب هو نفسه البطاركة الانطاكيين ويسيمهم على هواه : وعلى هذا الوجه خلط الملكيون انفسهم بالروم الهراطقة وصاروا يدعون « روماً ملكيين » . الا انه في اواسط القرن الحادي عشر قد خالف بطرس الثالث البطريرك الانطاكي هذه الخطة وبحسب عادة سلفائه من قبل رفع خبر ارتقائه الى مقام هذه البطريركية الى القديس لاون التاسع الحبر الروماني ملتمساً التثبيت من لدنه : وقد ناله فعلاً وغادر الهرطقة على هذا الشكل . وكذلك البطريرك دروثاوس الاول قد اتحد مع الكنيسة الرومانية في المجمع الفلورنتي التيلي »

على انه بعد ما سقطت هذه البطريركية مرة اخرى في حلة الهرطقة وامست تتسكع في دياجيرها لم يعد يذرّ فيها نور الايمان الا في اواخر القرن السابع عشر حيث انهج السبيل الى ذلك اوتيميوس الملكي مطران صور وصيدا واثناسيوس البطريرك وكيرلس (الحلبي) الذي خلفه توّاً وكلاهما قد ارسل الى هذا الكرسي الرسولي صورة ايمانه فلم يثق هذا بذلك كل الثقة ولم يرَ ملائماً ان يتعجل بمنحها درع الرئاسة . وقد قام بعدهما كيرلس آخر في هذا العصر الحالي (وهو كيرلس تاناس) فصار تثبيته وحده من لدن الكرسي الرسولي لانه قدم ادلة لا يشوبها ريب على

وأمر بانزالهم في دير قزحيا وجواره على الرحب والسعة . فوشى بهم الروم الملكيون خصومهم الذين في كورة طرابلس على ساحل لبنان بالاتفاق مع الروم الملكيين الذين في طرابلس الى واليها وحرضوه على الانتقام منهم والتنكيل بهم وبالموارنة مجيريهم بحجة انهم لخائنو الدولة واعداؤها وقد هربوا من قصاصها التي امرت بايقاعه بهم في حلب. واذ علم هذا البطريرك بهذه الدسيسة رأى من الحكمة ان يغادر كرسيه ويأتي الى دير قزحيا حيث توارى حذراً من الغدر واخذ يشجع هؤلاء المهاجرين على الصبر ويخفف من خوفهم وذعرهم . وكتب الى المشايخ الخوازنة في كسروان بما كان وما هو جارٍ من الدسائس

صدق طاعته لهذا الكرسي المقدس واظهر كل شجاعة بالاعتراف بها ضد سلفسترس الشاق الذي تغلب على هذا الكرسي البطريركي » اه

ذلك ومن المقرر تاريخياً ايضاً انه بعد استيلاء الصليبيين على انطاكية سنة ١٠٩٩ غادرها بطريرك الروم الملكيين يوحنا الرابع اليوناني الاصل الى قسطنطينية . فانتظر اللاتين وفاته (لئلا يكون بطريركان على كرسي واحد خلافاً للقوانين المقدسة) واقاموا بطريركاً شرعياً منهم على انطاكية فاتسع المجال لبطريرك قسطنطينية الشاق واخذ يقيم بدون حق بطاركة بالاسم فقط على انطاكية نفسها من مذهبه . ومن بعد خروج الصليبيين من سورية حوالي سنة ١٣٠٠ بقيَ بطريرك قسطنطينية مسيطراً على هذه البطريركية الملكية حتى صار مرجعها اليه في كل امر . وقد زاد استئثاراً بها واحتكاراً بعد فتح الترك لقسطنطينية في بهرة القرن الخامس عشر

عليهم : فارسلوا من قبلهم الى جبة بشراي احدهم الشيخ عبد الله بن فاضل بن خطار وكان شهماً وذا وجاهة عند حاكم طرابلس الذي كان قد ولاه على بلاد عكار . فتوفق الشيخ عبد الله الى فض هذه المشكلة وتسكين غضب والي طرابلس وارسال اولئك الحلبيين الى جهة بلاد كسروان حيث يكونون في حرز حريز من كل كارثة . وفيما هو عائد من دير قزحيا الى جهات كسروان لاقاه بعض المشايخ الحمادية برجالهم قاصدين اهانته بحجة انه كان مزاحماً لهم على ولاية بلاد عكار : فانتصر له رهبان دير قزحيا وصدوهم عنه . واذ بلغ المشايخ الخوازنة ذلك أرسلوا وفداً من قبلهم الى والي طرابلس يخبره بما كان من مطاولة الحمادية . فارسل الوالي عليهم حملة عسكرية : وكان شديد الحنق عليهم بسبب كثرة تعدياتهم وجورهم فنكل بهم وطردهم من البلاد اه (ملخصاً عن سجل دير قزحيا المذكور).

وقد جاء في سجل هذا الدير ايضاً ذكر حادثة التجاء البطريرك كيرلس تاناس سنة ١٧٢٦ الى بطريرك الموارنة يعقوب عواد واساقفته والاضطهاد الذي وقع على موارنة الجبة بسببه كما رويناها في الحاشية السابقة عن الدر المنظوم : وقيل هناك ان هذا البطريرك والاساقفة وبعض رهبان دير قزحيا نفسه قد غادروا جبة بشراي وفزعوا الى بلاد كسروان

حيث مكثوا بامان تحت حماية المشايخ الخوازنة الى ان همدت الامور ورفع هذا الاضطهاد : فرجع كل الى مكانه الا البطريرك يعقوب عواد فانه قد بقي مقيماً في كسروان وسلم تدبير الكرسي البطريركي واملاكه في الجبة الى مطران نائب عنه بالاتفاق مع المشايخ الخوازنة كما تشير الوثائق الرسمية التي كتبت في ذلك (١) .

ومن ذلك الحين صار بطاركة الموارنة يقيمون في بلاد كسروان لكثرة الامان والسلام والراحة فيه تحت حكم المشايخ آل الخازن الكرام (٢) .

---

(١) راجع تاريخ كسروان المطبوع في بيروت تأليف الخوري منصور طنوس الخوري الدلبتاوي

(٢) وذكر صاحب تاريخ كسروان المذكور آنفاً : انه في سنة ١٧٢٤ بنيت كنيسة مار جرجس في زوق مكايل بكسروان بعناية الشيخ ابي شروان موسى بن طربيه الخازن وابن عمه الشيخ خالد لطائفة الروم الملكيين الكاثوليكيين : لان بعض ابناء هذه الطائفة اخذوا منذ اوائل القرن الثامن عشر يفزعون الى بلاد كسروان هرباً من اضطهاد اعدائهم الهراطقة لوجود الامان والراحة فيه . فقدم الى الزوق بيت المدور وبيت القطان من اميون في كورة طرابلس : وبيت عوده من قرية دوما في بلاد البترون : وبيت الدقي من حلب : وبيت زينيه من طرابلس : وقد سكنوا في زوق مكايل شركاء في املاك الخازنيين شركة مساقاة . ولما كثر عديدهم اهتم المشايخ ببناء هذه الكنيسة لهم . وكان بين الذين هاجروا

ومن ذلك ايضاً ما جاء في تاريخ طائفة الارمن الكاثوليك عن احد أساقفتهم المدعو يعقوب مطران مرعش وهربه من الاضطهاد الشديد الذي وقع عليه وعلى طائفته في اواخر القرن السابع عشر الى جبل لبنان حيث مكث بامان وطمأنينة ضيفاً على بطريرك الموارنة اسطفانوس الدويهي عدة سنين الى ان خمدت حدة هذا الاضطهاد . ثم عن ابراهيم العنتابي مطران حلب بعد ان اقيم بطريركاً على هذه الطائفة الموقرة في اواخر سنة ١٧٣٩ (وهو أول بطريرك اقيم عليها) من انه آثر ان يقيم في جبل لبنان حذراً من اضطهاد الهراطقة . وبعد تثبيته رسمياً من البابا بناديكتوس الرابع عشر برومية في اواخر سنة ١٧٤٢ قد التمس من هذا البابا مرسوم وصاة به الى

من حلب من هذه الطائفة ثمان عذارى بقصد الرهبانية فوهب لهنَّ الشيخ موسى الخازن المذكور ارضاً في اعالي قرية الزوق وساعدهنَّ هو وبعض اقاربه على بناء دير فيها على اسم سيدة البشارة . وفي سنة ١٧٤٧ وهب ايضاً الشيخ موسى نفسه ارضاً واسعة على مقربة من هذا الدير لرهبان هذه الطائفة المعروفين بالحناويين فبنوا فيها ديراً آخر لهم على اسم مار ميخائيل وهو قائم الى الآن . وفي سنة ١٧٥٣ وقف ايضاً المشايخ اولاد ابي خطار الخازن للرهبان المذكورين ارضاً كبيرة في جوار مزرعة كفردبيان بكسروان فبنوا فيها تحت ظل الخوازنة دير سيدة النياح المعروف الى الان .

بطريرك الطائفة المارونية وأساقفتها واعيانها ليقبلوه عندهم بالحب الاخوي لانه لا طائفة له في هذا الجبل المبارك: فكتب البابا المشار اليه هذه التوصية الكريمة حسب طلبه في ٢٥ من نيسان سنة١٧٤٣ وجاء هذا البطريرك بها الى جبل لبنان حيث أقام على الرحب بكل كرامة في دير حديث لهُ يقال لهُ دير الكريم في أسفل قرية غوسطا من بلاد كسروان : الى ان توفي ودفن فيه بكل اكرام حوالى سنة ١٧٤٨ (١) فخلفه في البطريركية يعقوب مطران حلب سنة١٧٤٩ وجعل اقامته في

(١) جاء في سجل هذا الدير انه في سنة ١٧٠٧ وفد من حلب اربعة شبان من طائفة الارمن الكاثوليك قصد اعتزال العالم وهم يعقوب وميناس ويوحنا وابراهيم . فدخل يعقوب ويوحنا دير مار انطونيوس قزحيا في جبة بشراي حيث تمرسا على الحياة الرهبانية بحسب قانون رهبان الموارنة : واما ابراهيم وميناس فجاءا الى كسروان وابديا فكرهما وفكر رفيقهما بتأسيس رهبانية لطائفتهما على حسب قوانين القديس انطونيوس الكبير التي عند الموارنة . فتلقاهم المشايخ الخوازنة بكل ترحاب وشجعوهما على ذلك ووهب لهما احدهم الشيخ صخر ابن ابي قانصوه ارضاً ملائمة في اسفل قرية غوسطا بصك مؤرخ سنة ١٧١٦ وباشرا فيها بناء دير المخلص المعروف للآن بدير الكريم وانتقل اليه يعقوب ويوحنا واسسوا فيه جميعاً هذه الرهبانية على مقتضى قانون الرهبان الموارنة . واخذت تنمو هذه الرهبانية نمواً سريعاً خاصة بعد اقامة البطريرك ابراهيم المذكور بينهم .

دير بزمار الذي بنوه حديثاً على شرفة بين غوسطا وعشقوت(١). ومن ذاك الحين اخذ بطاركة الارمن الكاثوليك يقيمون في هذا الدير من بلاد كسروان بكل راحة و كرامة وحرية ويفزع اليهم اساقفتهم و كهنتهم عند كل اضطهاد وشدة مما يثيره عليهم مدة بعد اخرى الارمن الهراطقة في كل الانحاء بحجة اخضاعهم لهم : لان ليس لبطاركتهم واساقفتهم فرمانات سلطانية تخولهم حقوق الاستقلال في عرف الحكومة العثمانية .

ثم من ذلك ان طائفة السريان الكاثوليك (٢) بعد ان

(١) وفي سنة ١٧٤٨ وقف الشيخ مشرف دهام الخازن مزرعة بزمار التي بين غوسطا وعشقوت على ثلاثة من مطارين الارمن الكاثوليك فباشروا فيها بناء دير آخر على اسم السيدة عليها السلام حيث اقام بطاركتهم بعد البطريرك ابراهيم الاول الى ان انتقلوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى الاستانة .

(٢) ان رجوع هؤلاء السريان من مذهب المنوفيزية اليعقوبي الى الايمان الكاثوليكي قد ابتدأ في اواسط القرن السابع عشر اذ جحد هذا الضلال اندراوس اخيجان الحلبي على يد يوسف بطرس بطريرك الموارنة . فارسله هذا الى المدرسة المارونية الشهيرة برومية حيث تثقف بالعلوم العالية ثم رسمه قساً البطريرك يوحنا الصفراوي واعاده الى حلب وارسل معه قرينه في طلب العلوم القس اسطفانوس الدويهي (الذي صار سنة ١٦٧٠ بطريركاً على الطائفة المارونية) ليسعفه بالوعظ والارشاد فرد

توفي بطريركهم اغناطيوس بطرس غريغوريوس في السجن بمدينة ادنه سنة ١٧٠١ بمكيدة جرجس بطريرك السريان اليعاقبة قد بقوا بلا بطريرك يرعاهم بعلة الاضطهاد البليغ الذي اثير عليهم الى سنة ١٧٨٣ : حيث رجع عن ضلال اليعقوبية الى الايمان الكاثوليكي المطران ديونيسيوس جروه الحلبي وارجع معه اربعة اساقفة من اليعاقبة وهم ابراهيم ونعمة وموسى وجرجس بشاره. فانتخبه هؤلاء بطريركاً كاثوليكياً

كثيرين من السريان اليعاقبة هناك . وكان اذ ذاك قنصلاً لفرنسة على حلب فرنسيس پيكاه المشهور بكرم الاخلاق والغيرة على الديانة الكاثوليكية كما ذكرناه بالمدح سابقاً (ص ١٧٨) . فهذا طلب في سنة ١٦٥٦ من البطريرك يوحنا الصفراوي ان يرقي هذا القس اخيجان نفسه الى درجة الاسقفية لما يتأتى من وراء ذلك من تعزيز هؤلاء السريان المرتدين حديثاً الى الايمان الكاثوليكي وتكثيرهم . فوسمه البطريرك اسقفاً يوم عيد الرسولين بطرس وبولس وانفذه الى القنصل بحلب بشرط ان لا يتعاطى امور الموارنة مطلقاً . فقبله هذا القنصل بالاكرام . واذ توفي سمعان بطريرك اليعاقبة سنة ١٦٥٩ وكان صديقاً له اقيم هو سنة ١٦٦١ بطريركاً على السريان الكاثوليك وارسل صورة ايمانه الى الكرسي الرسولي سنة ١٦٦٥ فثبته البابا الاسكندر السابع . ثم توفي سنة ١٦٧٨ فاقيم مكانه اغناطيوس بطرس غريغوريوس وتثبت من الحبر الروماني سنة ١٦٧٩ وهو الذي توفي في سجن آدنه بمكيدة بطريرك اليعاقبة ١٧٠١ .

في ماردين واثبته البابا بيوس السادس في ١٥ كانون الاول من هذه السنة عينها : ولما لم يستطع ان يقيم بين رعيته القليلة في بلاد سورية خوفاً من اضطهاد اليعاقبة قد لجأ الى جبل لبنان بلاد الراحة والحرية والامان. فتلقاه بطريرك الموارنة والمشايخ الخوازنة بكل اكرام وترحاب وسلموه دير سيدة النجاة المعروف بدير الشرفة (١) : فاقام فيه بكل اطمئنان الى ان توفي سنة ١٨٠٠ ودفن هناك . وكان هذا الدير بعده كرسياً لبطاركتهم حتى نالوا سنة ١٨٣٩ من لدن الباب العالي فرماناً سلطانياً تحرروا بمقتضاه من ربقة بطريرك اليعاقبة ومطاردته وصاروا يخرجون من هذا الجبل الامين بكل حرية لتفقد شؤون الرعية ويرجعون اليه عند الحاجة . وقد جعلوه الان مدرسة اكليريكية لطائفتهم العزيزة .

وأعظم من ذلك جميعه ما نحن ذاكروه الان للدلالة على استقلال الموارنة في لبنان وحريتهم بكل معنى ولو كانوا في الظاهر تحت سيطرة الحكام الاجانب من المسلمين او الاتراك : وهو انه في سنة ١٧٥٤ قد اعتنق الدين المسيحي على مذهب

(١) هذا الدير هو على شرفة في اعلى قرية درعون بالقرب من حريصا في اواسط كسروان : وقد بناه الخوري يوسف مارون الطرابلسي في سنة ١٧٥٧

الموارنة الكاثوليكي الامير علي ابن الامير حيذر الشهابي على يد الخوري ميخائيل فاضل البيروتي (١) الماروني وهو الذي منحه سر العماد المقدس . ثم سنة ١٧٦٥ تبعه الامير قاسم ابن اخيه الامير عمر (وهو أبو الامير بشير الكبير) وقبل سر العماد المقدس في غزير هو واهل بيته جميعاً من يد البطريرك يوسف اسطفان وصاروا موارنة . وتنصر بعدهم اولاد الامير ملحم احفاد الامير حيذر الشهابي وهم الامير قاسم والامير سيد احمد والامير حيذر وقبلوا سر العماد المقدس من يد الخوري أنطون القيالي البيروتي الماروني . وتبعهم بعد ذلك كثير غيرهم من الامراء الشهابيين والامراء اللمعيين حكام قاطع بكفيا والمتن من بلاد كسروان وصاروا جميعاً موارنة .

فما تقدم بيانه يظهر لكل ذي بصيرة لايعتورها الغرض الاعمى ما نال الموارنة في جبل لبنان من العز والجاه والمنعة والاستقلال على عهد المشايخ آل الخازن الكرام حتى ان الامراء الشهابيين الذين خلفوا آل معن في الولاية قد اتخذوا هذه الطائفة المارونية عوناً وعدة في النوائب وامتزجوا بها كل

(١) وهو من تلاميذ المدرسة المارونية برومية وقد جُعل بعد ذلك مطراناً على بيروت ثم رقي الى البطريركية في ١٠ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٩٣ وتوفي سنة ١٧٩٦

الامتزاج حتى صاروا منها . وقد لاذ بحماهم اكثر الفرق من نصارى سورية ممن اتحدوا مع الكنيسة الكاثوليكية في هذا العصر هرباً من الاضطهادات الشديدة التي اوقعها عليهم الحكام العثمانيون بدسائس الطوائف الغير الكاثوليكية التي انفصلوا عنها : بحيث لم يجدوا من ملجأ أمين وحصن حصين يفزعون اليه في هذه الملمات الا بين الموارنة في هذا الجبل المنيع : حيث لم تكن لتصل اليهم يد الدولة بسهولة ولا ينالهم من كيد أعدائهم ماكانوا معرضين له في الولايات الخارجية . ولم يكونوا ثمة في حاجة الى فرمانات سلطانية تقرهم في وظائفهم الدينية بل عاشوا بين الموارنة كالموارنة في تمام حريتهم الدينية والمدنية وبنوا لهم الكنائس والاديار والمدارس دون استئذان ولا اقل معارضة من الدولة ورجالها مما لم يكن يتسنى لجميع النصارى الذين يقيمون في خارج لبنان .

ومما يدل ايضاً على تمام حريتهم الدينية واستقلالهم في هذا العصر مجمعهم الاقليمي الخاص الذي سعى بتأليفه البطريرك يوسف ضرغام بن ابي قنصوه الخازن سنة ١٧٣٦ باذن الكرسي الرسولي على عهد البابا اكليمنت الثاني عشر الذي اناب عنه فيه المنسنيور يوسف شمعون السمعاني الماروني العلامة الشهير بتآليفه النفيسة في الشرق والغرب . وقد عُقد قانونياً في دير

سيدة لويزة المشهور في بلاد كسروان : ودعي اليهِ فضلاً عن اعيان الطائفة المارونية من اكليروس وعلمانيين جلة الاكليروس الاجنبي من المرسلين والطوائف الكاثوليكية. فتقرر في هذا المجتمع دستورهم البليغ المعروف بالمجمع اللبناني الشهير الذي أثبته بعد التنقير والتدقيق فيه البابا بناديكتوس الرابع عشر بشكل مخصوص سنة ١٧٤٢ وهو مشهور بالطبع باللاتينية والعربية (١) فاقتضى هذا المجمع حركة كبيرة كما يظهر لكل بصير بالامور (٢) ومع ذلك لم يزعج مزعج آباءه الذين اجتمعوا

(١) ان دستور هذا المجمع الاقليمي البديع الوضع قد نشر بالطبع في اللغة اللاتينية اولاً برومية سنة ١٨٢٠ ونشر في اصله العربي بمطبعة الشوير الشهيرة • ثم صدر امر الكرسي الرسولي الى الطيب الذكر والاثار البطريرك بولس مسعد ان يعنى بترجمته الى اللغة العربية عن هذه النسخة اللاتينية المعروفة والمثبتة من لدنه • فاوعز رحمه الله عداد حسناته الى احد كتبة اسراره الضليع من اللغتين ان يُعنى بهذه الترجمة المطلوبة تحت رعايته بكل دقة • فشمر عن ساعد الجد حتى اتم هذا العمل العظيم ونشر هذه الترجمة الحديثة بعد مراجعتها وتقريرها سنة ١٩٠٠ بمطبعة الارز في جونية وصاحب هذه الترجمة البديعة انما هو فقيد الطائفة حديثاً المثلث الرحمات المطران يوسف نجم الشهير : ومن شاء ان يقف على المزيد من ترجمة سيرة حياته الصالحة عليه بكتاب برنامج اخوية القديس مارون المطبوع في بيروت سنة ١٩٠٤

(٢) وقد جاء في آخر هذا الدستور بين تواقيع آبائه امضاء — الشيخ

اليه من كل ناحية ولم يعارضهم معارض : مما يدل دلالة صريحة على تمام حريتهم الدينية واستقلالهم .

وبالجملة فان هذا العصر كان من بعد عهد الصليبيين أفضل عصر للطائفة المارونية في جبل لبنان استتب فيه استقلالهم على الخصوص في بلاد كسروان بعناية المشايخ الخوازنة الكرام على ما رأيت .

***

وقد ابتسم ثغر الدهر لهذه الطائفة العزيزة بواسطة النوابغ الذين اشتهروا من رجالها ممن تفردوا بالذكاء ومكارم الاخلاق والشهامة وحسن السياسة والعزم والحزم واصالة الرأي حتى اضطر الحكام الاجانب ان يتخذوهم مرشدين ومدبرين ويستفيدوا من صفاتهم العالية الممتازة . وبهذه الوسيلة اخذوا يمدون سيطرتهم ونفوذهم على كل الانحاء بحيث لم يكد ينقضي القرن الثامن عشر حتى كان اكثر جبل لبنان تحت

نوفل الخازن قنصل فرنسة في بيروت — ككاتب سره • وهو ابن الشيخ حصن ابن الشيخ ابي قنصوه الخازن الذي تولى قنصلية فرنسة في بيروت كوالده وجده على ما سبق ذكره هنا : مما يدل على ان ابنه هذا قد تولى ايضاً هذه القنصلية بعد وفاة والده : وكان قناصل فرنسة في بيروت من هذه العائلة ثلاثة على التوالي : والرابع هو الشيخ غندور بك سعد الخوري كما رأيت .

حكمهم. هذا اذا استثنينا منهم الامير بشير الكبير الماروني (١) الذي حكم لبنان الكبير كله بالاستقلال حتى سنة ١٨٤٠ كما سترى .

وقد بقي الحال على ما وصفنا الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث أنشئ نظام لبنان الحالي المشهور منذ سنة ١٨٦١ فغير ما غير من هاتيك الاحوال واقر ما اقر برأي الدول العظام مما لا حاجة الى الخوض فيه في هذه العجالة لانه معلوم عند الجميع . فندع للبيب ان يقابل بين ما كان قبله وبين ما حصل بعده من الاستقلال فيحكم بالفرق البليغ حكمه العادل المنزه عن الاهواء والاغراض الخصوصية .

فمن هؤلاء النوابغ الشيخ سعد الخوري وابنه الشيخ غندور الذي صار ايضاً قنصلاً لفرنسة في بيروت : والشيخ بطرس الشدياق وابن اخيه الشيخ منصور ثم الشيخ فارس الشدياق ابن هذا الاخير وقد مر بك ذكرهم .

ومنهم المشايخ آل أدّه الذين اصلهم من بلدة أدّه بقرب

(١) وهو ابن الامير قاسم ابن الامير عمر ابن الامير حيدر موسى الشهابي الشهير الذي تولى الحكم على كل مقاطعات الامراء آل معن بعد انقراضهم وكان هذا الامير قاسم قد تنصر هو وعائلته في خلال سنة ١٧٦٥ قبل ولادة نجله هذا .

مدينة جبيل وقد اشتهروا باسم بلدتهم . واول من اشتهر منهم الشيخ يوسف أده الذي دخل اولاً في خدمة الامراء آل معن وانتقل بعد انقراضهم الى خدمة الامراء آل شهاب فنال عندهم حظوة كبيرة بما اظهر من الذكاء والاخلاص . ثم ادخل معه في خدمتهم أخوي امرأته منصوراً وبطرس اده . وكان الشيخ منصور من ارباب السيف والقلم أما بطرس فكان اشهر بالسيف منه بالقلم . فاقام الامير منصور الشهابي الشيخ منصوراً مدبراً لشؤونه وقيماً على املاكه وجعل الشيخ بطرس رئيساً لعساكره واذ افضت ولاية بيروت والجبل الى الامير يوسف الشهابي في حياة عمه الامير منصور عظم امر المشايخ أبناء أده على عهده (١) .

وكان للشيخ يوسف أده المذكور آنفاً ولد اسمه الياس رزقهُ سنة ١٧٤١ فاحسن تأديبه في اللغة العربية وفن الانشاء . واذ توفي والده سنة ١٧٦٦ خلفه في منصبه عند الامير منصور ثم اتخذه الامير يوسف ابن الامير ملحم الشهابي المذكور كاتباً

(١) وهذا الشيخ منصور اده هو الذي بنى كنيسة الموارنة الكبرى في بيروت على اسم القديس جرجس : وتوفي سنة ١٧٨٩ ودفن فيها : اما اخوه الشيخ بطرس فقد توفي سنة ١٧٨٦ في بلدة بيت شباب من عمل بكفيا ودفن هناك

خاصاً له . واذ رآه احمد باشا الجزار والي عكا المشهور بمعية الامير يوسف اعجبه ما رآه من صادق خدمته وادبه فطلبه من الامير وجعله كاتباً لديوانه . ثم دخل سنة ١٨٠٤ اي بعد موت الجزار في خدمة الامير بشير الشهابي الكبير . وبعد مدة طلبه منه الملا اسماعيل الكردي صاحب حمص وحماة فولاه رئاسة ديوانه الى سنة ١٨١٠ اذ وقع خلاف شديد بين يوسف باشا كنج والي دمشق وبين الامير بشير الكبير كاد يفضي الى الحرب بينهما . فارسل الملا اسماعيل الشيخ الياس اده ليسعى بالصلح بينهما ويسوي الخلاف : فنجح أتم النجاح وازال الخلاف بحسن درايته : واذ ذاك طلبه الامير بشير من الملا ليرأس ديوانه . وبعد ان خدمه مدة وهو في اوج عزه اعتزل العمل وسكن هو وعائلته بلدة بعبدا بامر الامير الذي رتب له جعلاً يعيش به الى ان توفي سنة ١٨٢٨ . وقام بعد ذلك من هذه العائلة الكريمة رجال امتازوا على اقرانهم منهم ابو خليل ابرهيم اده الذي اشتهر بحصافة العقل واصالة الرأي والشهامة وقد خدم دولة فرنسة وطائفته ايضاً خدمات جليلة لاتزال تذكر بالحمد والشكر . ومنهم ميشيل افندي منصور اده الشهير وقد تولى مناصب عالية في الدولة العثمانية وكان اخيراً مديراً للسياسة في ولاية بيروت وخلفه في هذه الوظيفة المهمة نجله

كميل بك فكان خير خلف لخير سلف .

ومن نوابغ الموارنة في هذا العصر المشايخ آل البيطار المشهورون في قرية غوسطا بكسروان . وقد اشتهر منهم الشيخ سمعان بن يعقوب البيطار . وكان رجلاً عاقلاً كريماً حازماً حسن الادارة استخدمه الامير يوسف الشهابي منذ تولى الحكم على بلاد جبيل والبترون في بعض مهماته : فبرهن على ذكائه واقدامه بكل اخلاص . ولهذا سلمه عمل بلاد البترون وجعله شيخاً فيه بعد ان طرد منه المتاولة : فاهتم بتعمير البلاد وتعزيز الامان فيها وحمايتها من سطو المتاولة . وقد سعى لدى الامير يوسف بتسليم بعض المحلات التي اخلاها المتاولة الى الرهبان اللبنانيين الموارنة فانشأوا فيها الاديار المشهورة الى الان . وأتى بنحل مارونية من كل الجهات واسكنها مكان المتاولة حتى اصبحت بلاد البترون على عهده كلها تقريباً مأهولة بالموارنة كما هي الى هذا العهد . وبعد ان توفي سنة ١٧٩٤ خلفه ابنه الشيخ يعقوب الذي اقتفى آثار ابيه بمداركه ورصانته واقدامه وحسن تدبيره وغيرته على الطائفة مما حفظ مقام عائلته عندها بكل كرامة الى اليوم .

وكان الامير يوسف الشهابي يميل الى الموارنة بقدر ما كان يكره المتاولة فبذل كل جهده في اذلال هؤلاء ومطاردتهم

وتعزيز أولئك لان كل رجاله المهمين كانوا منهم . ومن ثم فلكي يقلص ظل المتاولة عن بلاد جبيل ايضاً ويقضي عليهم قضاء مبرماً قد ولى سنة ١٧٧١ الشيخ رامح بن حيدر بن قيس الخازن على جهات لحفد وجاج وترتج في اعالي بلاد جبيل . فانتقل اليها بعائلته وجمهور من كسروان أسكنهم في جاج وسكن هو في متوسط هذه الناحية بستي لحفد : وتوارث بنوه الحكم على هذه الجهة الى نظام سنة ١٨٦١ .

وممن اشتهر في هذا القرن ايضاً المشايخ آل الدحداح وهم ينتسبون الى جرجس الدحداح صهر غزال القيبي مقدم العاقورة الملقب بالشدياق وقد مر بك ذكره آنفاً . واول من اشتهر منهم الشيخ يوسف ابن الخوري جرجس وكان ضليعاً من اللغة التركية حسن الخط والانشاء بها وباللغة العربية . فاتصل اولاً بالامير حسين الحرفوش في بلاد بعلبك : ثم بالشيخ اسماعيل حماده عميد المتاولة في جبة المنيطرة بجوار العاقورة وفي مقاطعة الفتوح بين بلاد كسروان وبلاد جبيل . فوهب له هذا بعض العقارات في عمل الفتوح ومنذ سنة ١٧٠٥ جاء بعائلته اليه وسكن قرية الكفور ثم انتقل منها الى قرية عرامون في كسروان حيث توفي سنة ١٧١٢ فخلفه أولاده موسى و سليمان ومنصور في خدمة الشيخ اسماعيل : وكان احذقهم الشيخ

موسى الذي دخل سنة ١٧٦١ في خدمة الامير منصور شهاب حاكم الجبل وبقي اخواهُ في خدمة اولاد الشيخ اسماعيل : فاظهر الشيخ موسى من الذكاء والاخلاص ما زاده مقاماً عند الامير وذا كلمة نافذة . وفي سنة ١٧٦٣ اتفق هو واخوه الشيخ منصور والشيخ سعد الخوري المشهور على السعي في اسناد ولاية بلاد جبيل والبترون الى الامير يوسف ابن اخي الامير منصور فافلحوا بعد الجهد . وبعد ما تولى الامير يوسف على هذين العملين معاً استخدم بين كتبة ديوانه يوسف ونادراً ولدي الشيخ سليمان وجعل نصيفاً وسلوماً ولدي الشيخ موسى المذكور في بطانته : وكانا بارعين في اللغة التركية وفن الانشاء والخط . وفي سنة ١٧٧١ بعد ان قلص ظل المتاولة من الفتوح اقطعها لبني الدحداح وجعلهم مشايخ عليها . وأخذوا من ذلك الحين يتقلبون هم واعقابهم في الوظائف وسياسة البلاد تارة عند الامير يوسف وأخرى عند نده الامير بشير الكبير الى ان بلغوا مقاماً رفيعاً بين مشايخ البلاد . وقد بقيت اقطاعة الفتوح تحت ولايتهم الى ان جاء نظام لبنان الجديد سنة ١٨٦١ . وقد افادوا الطائفة فوائد جمة وعززوها خاصة في الفتوح حتى صار كله تقريباً مأهولاً بالموارنة كما هو الى الان .

واشتهر ايضاً المشايخ آل الظاهر في زاوية رشعين من

ضواحي طرابلس في ضمن حدود لبنان . فهؤلاء على ما قال العلامة الدويهي فرع من بيت الرز الذين قام منهم ثلاثة بطاركة على الطائفة المارونية في النصف الثاني من القرن السادس عشر وقد نزحوا من قرية بقوفا بجوار اهدن من جبة بشراي الى قرية كفرحورا في الزاوية . وكان المقدمون في الزاوية من بني الشاعر فدخل عند زعيمهم حاكم الزاوية الشدياق بطرس ابن الرز بصفة كاتب ومدبر له : لانهُ كان ذا عقل ثاقب ورأي صائب وخط جميل وادب كثير فنال من النفوذ ما شجع بعض الموارنة على المهاجرة الى الزاوية . وهي ذات اراضٍ واسعة خصيبة حتى كثر عديدهم وقل نفوذ المقدمين من بني الشاعر بكثرة جلائهم عنها . وتقرب الشدياق بطرس من والي طرابلس : فلم يستنكف هذا من ان يخوله الحكم على الزاوية : واخذ من ذاك الحين يتوارثه اقاربه . وقد ذكر منهم العلامة الدويهي في اول القرن الثامن عشر الشيخ ابا شديد ظاهراً واثنى عليه بقوله « وما زال اعقابهم الى اليوم حكاماً على زاوية رشعين يقومون بمعاضدة الكرسي البطريركي بكل جهدهم كما يفعل الان الشيخ ابو شديد ضاهر خليفة الشدياق انطونيوس ابن الرز » . ونظن ان هذا الفرع ينسب الى الشيخ ظاهر هذا وقد تولت ذريته على الزاوية بالتراث وكان يُقرهم

عليها حكام طرابلس او حكام لبنان حسب الظروف حتى صارت كلها على عهدهم كما هي الان للموارنة (١) وفي سنة ١٧٥٠ رفعهم الامير ملحم الشهابي الى مقام المشايخ الكبار فكتب لهم بحسب عوائد ذاك الزمان « الاخ العزيز » وقد بقيت هذه الاقطاعة تحت حكمهم الى نظام سنة ١٨٦١ .

وكانت جبة بشراي قد احيل الحكم عليها بعد مقدميها الموارنة الى عهدة الشيخ احمد عيادة من بيت حمادة المتاولة والى ذريته من بعده منذ سنة ١٦٥٤ باختيار اهاليها على شروط تضمن لهم استقلالهم في الدين والعرض والدم كما رأيت : وقد علمت ايضاً كيف زاحمهم عليها الشيخ عبد السلام ابن الشيخ اسماعيل حمادة حتى هزمهم الى الهرمل سنة ١٧٠٣ ونهب البلاد ثم احيلت سنة ١٧٥١ الى اولاد ابي محمد عيسى واولاد عمهم حسين المشطوب بالاشتراك وهم من المتاولة ايضاً . فقسم

---

(١) وقد اشتهر منهم في الربع الثاني من القرن الثامن عشر الشيخ كنعان الظاهر بشجاعته وشهامته وفروسيته التي يروى عنها امور غريبة وقعت له مع اهل طرابلس من المسلمين ذوداً عن حياض بلاده . فكمنوا له اخيراً واسروه غيلة سنة ١٧٤١ واقتادوه الى عبد الرحمن باشا والي طرابلس فسجنه عنده : ثم عرض عليه الاسلام فأبى كل الاباءة ولم يلوه عن ايمان اجداده لا وعد ولا وعيد حتى قتل شهيداً واظهر كرامات باهرة تروى عنه بعد موته .

هؤلاء البلاد فيما بينهم مناصفة وسلكوا في الرعية مسلك العدل والاستقامة . الا ان اولادهم نزعوا الى الاستبداد واسرفوا في القتل والنهب حتى بلغت منهم الجسارة ان يسعوا في القبض على المطران يواكيم يمين من اهدن . فهب اهل اهدن عن بكرة ابيهم وهم اباة الضيم في وجوه هؤلاء المتاولة الطغاة واعملوا السيف في اقفيتهم . فثار حينئذ معهم كل اهل البلاد وطردوا المتاولة من الجبة بقرع السيف: واتفق الاعيان على حكم البلاد مقسومة بينهم الى عهد بحسب القسمة التي كان قد اتفق عليها المتاولة : واستولوا ايضاً على املاكهم والبكاليك التي كانت لهم على مقتضى هذه القسمة . ثم نزلوا الى طرابلس وكان واليها عثمان باشا الكرجي شديد الكره للمتاولة بسبب كثرة تعدياتهم وشرورهم في كل مكان وخاصة في حدود ايالة طرابلس . فراق له هذا العمل واحال التزام مال الجبة الى هؤلاء الاعيان بحسب ما اصاب كلاً منهم من قراها واقرهم على الحكم : وكان يشجعهم ويبذل لهم كل مساعدة لصد غارات هؤلاء المتاولة واحلافهم . وقام بعده ابنه محمدباشا فمشى على آثار والده في الاسعاف على مطاردة المتاولة حتى نكلوا بهم وهزموهم الى بلاد بعلبك وضعف امرهم في كل جبل لبنان .

وفي سنة ١٧٦٤ كان الوالي على الجبل كله الامير منصور

الشهابي : فاقر مشايخ الجبة على الاقطاعات التي كانت للمتاولة بحسب قسمتها سابقاً : وامدهم بالمحافظين لمنع تعديات المتاولة المذكورين الذين كانوا كلما سنحت الفرصة يقلقون البلاد بغزواتهم . وتولى بعد ذلك الامير يوسف ابن الامير ملحم الشهابي على بلاد جبيل والبترون فكان آفة على المتاولة وهو الذي ارسل عليهم سنة ١٧٧٧ كاخيته الشيخ سعد الخوري الذي مر ذكره : فقطع دابرهم في موقعة دربعشتار وهزم من سلم منهم الى القلمون بقرب طرابلس واتى بمشايخهم مكبلين بالاصفاد الى مولاه الامير الذي استأصل شأفتهم وسلم الحكم على بلاد الفتوح وجبيل والبترون والجبة الى عهدة الموارنة كما بيناه حتى الان .

وهكذا استقر الحكم على جبة بشراي لمشايخها بحسب تقسيمها : فتولى المشايخ بيت كرم على اهدن وما يليها : وبيت حنا الظاهر (وهم فرع من بيت كيروز) وبيت عيسى الخوري (وهم فرع من بيت رحمة) على بشراي وما يليها : وبيت ابي خطار على عينطورين وما يليها : وبيت ابي سليمان عواد على حصرون وما يليها : وبيت ابي يوسف الياس على كفر صغاب وما يليها : وقد بقيت الحال على هذا المنوال الى نظام لبنان سنة ١٨٦١ .

وكان قد اتصل ايضاً بالامير يوسف الشهابي رجل من بيت ابي سليمان الموارنة في قرية المتين التي في قاطع بكفيا من بلاد كسروان يقال له الشيخ ابو صعب جرجس اشتهر بالفروسية والشجاعة فادى له خدمات جليلة كافأه الامير عليها بان ملكه بعض مزارع الجبة التي كانت للمتاولة بعد طردهم منها فسكن فيها وتولى الحكم عليها هو وذريته وهي المعروفة للان بمزارع بيت ابي صعب في اسفل جبة بشراي مما يلي بلاد البترون (١) .

(١) وقد توفي الشيخ جرجس هذا في خلال سنة ١٧٩٤ عن اربعة اولاد وهم اسعد والياس وغالب وناصيف . فاشتهر احدهم الشيخ اسعد نظير ابيه بالبسالة والفروسية في وقائع عديدة وجهت اليه نظر الامير بشير الشهابي الكبير الذي تولى حكم الجبل بعد الامير يوسف منذ سنة ١٧٨٨ فاتخذه في خدمته الى ان توفي سنة ١٨٢٣ عن ولدين هما الشيخ جرجس والشيخ يوحنا لم يكونا اقل نخوة وهمة من والدهما وجدهما. وكان يوحنا فضلاً عن فروسيته كاتباً بارعاً فاستدعاه الامير امين ابن الامير بشير الكبير اليه سنة ١٨٣٤ وجعله رئيس كتابه . ولما دارت الدوائر على الامير بشير واولاده وقلب له الدهر ظهر المجن سنة ١٨٤٠ . لازم الشيخ يوحنا هذا البيت في رحلته الى جزيرة مالطة حيث اتقن اللغة الايتالية : ثم سافر معهم ايضاً الى الاستانة حيث اتقن اللغة التركية والخط بكل اشكاله . وفي سنة ١٨٤٩ رجع الى بيروت في خدمة مصطفى باشا الشكوردي بوظيفة كاتب عربي له . ثم طلبه نامق باشا والي ايالة

واشتهر ايضاً من الموارنة الشيخ جرجس باز واخوه الشيخ عبد الاحد من بيت ابي شاكر في دير القمر . وكان الاول منهما داهية اهل زمانه في اساليب السياسة : والاخر بطلاً مقداماً وقد جمع بين البسالة والفطنة في التدبير . فهذان بعد قتل الامير يوسف الشهابي في عكا سنة ١٧٩٠ توليا تدبير اولاده الذين كانوا قد تنصروا وتبعوا الموارنة وهم الامير حسين والامير سعد الدين والامير سليم : فتمكن الشيخ جرجس باز بدهائه وبعد نظره من تولية هؤلاء الامراء اولاً على بلاد جبيل : ثم على كل جبل لبنان بعد عزل الامير بشير الكبير : اخيراً على ولاية بلاد جبيل وحدها بعد التراضي مع الامير بشير : الذي اتخذ اذ ذاك الشيخ عبد الاحد مدبراً له وترك اخاه الشيخ عبد الاحد مدبراً لاولاد الامير يوسف .

صيدا الى خدمته فاعزه وجعله ترجماناً عنده . ولما تولى الامير بشير احمد ابي اللمع قائمقامية النصارى في جبل لبنان سنة ١٨٥٤ استدعاه اليه وجعله رئيس كتابه . وكان وامق باشا قد انعم عليه بلقب بك وهو اول من نال هذا اللقب من النصارى . وبعد ان جُعل جبل لبنان متصرفية مستقلة تحت حماية الدول العظام سنة ١٨٦١ جعله داود باشا المتصرف الاول على لبنان رئيس دائرة القلم العربي واستمر في هذه الوظيفة الى عهد رستم باشا المتصرف الثالث ثم اعتزل العمل . وكان ميالاً الى الشعر وله ديوان كبير نشر بعضه بالطبع في بيروت

وقد استجلب الشيخ جرجس باز اليه اكثر اعيان البلاد بحسن سياسته حتى مالوا اليه بكليتهم ولم يكن في باطنه يحب الامير بشيراً . فعظم شأنه واخذ يزاحمه على النفوذ حتى اوجس الامير بشير خيفة منه . واذ اكتشفت دسائسه عليه وعلى اخيه الامير حسن الذي كان قد ولاه على بلاد كسروان عمل على التخلص منه فتغدى به وباخيه الشيخ عبد الاحد قبل ان يتعشياه . فقتل الاول منهما في دير القمر والاخر في جبيل في يوم واحد ونكل باولاد الامير يوسف فسمل اعينهم واسكنهم في درعون ثم في عشقوت وكان ينفق عليهم من ريع املاكهم التي وكلها الى من يديرها لهم . وكان ذلك في نحو سنة ١٨٠٨ فأسف الناس على هذين الشهمين كل الاسف وتحمل اولاد الامير يوسف مصيبتهم بالصبر الجميل وانصرفوا الى التقوى حتى عمروا الجمهور بمثلهم الصالح .

واشتهر ايضاً في كسروان ايام ولاية الامير حسن الشهابي عليه الشيخ ابو انطون يوسف باخوس . فهذا اصله من طرابلس ويتصل نسبه بالشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي الذي تولى المقدمية على جبة بشراي بالاشتراك مع الشدياق خاطر الحصروني منذ سنة ١٥٧٩ الى ان توفي سنة ١٥٩٤ فخلفه في المقدمية ابنه الشدياق فرج كما ذكرنا سابقاً : وفي اواخر القرن

الثامن عشر نزح هو واخواه مخائيل وجبور من طرابلس الى بيروت . ولما وجد احمد باشا الجزار على الامير بشير الكبير واخيه الامير حسن وعزلهما عن الولاية على لبنان واعتقلهما عنده وولى مكانهما اولاد الامير يوسف الشهابي سنة ١٧٩٤ : هربت عائلة الامير حسن من غزير الى بيروت وقد تجنبها كل الناس خوفاً من غائلة الجزار المشهور بكثرة الظلم وسفك الدماء ومن ثم قد احتاجت الى النفقات الضرورية ولم يكن من يجسر على تقديمها لها : فدعت المروءة ابا انطون يوسف باخوس (وكان تاجراً غنياً) ان يسعفهم بمبلغ من المال ليستعينوا به على نكبات الدهر دون ان يأخذ عليهم سنداً به اي دون مقابل . وفي سنة ١٧٩٥ رضي احمد باشا الجزار عن الاميرين وارجعهما الى ولايتهما لانهما اغرياه بالمال الكثير : فرجعت عائلة الامير حسن الى غزير . واذ علم منها بما كان من مروءة وشهامة ابي انطون معها في حين الشدة استدعاه اليه واطال لسان الشكر والثناء عليه : وقد أنس منه مع هذه الشهامة النادرة حصافة العقل واصالة الرأي . فسأله ان يأتي بعائلته الى غزير ويسكن فيها فيكون مستشاراً ومدبراً له في شؤونه لانه قد وضع كل ثقته فيه . فامتثل الشيخ ابو انطون هذه الاشارة واتى بعائلته وسكن غزير من ذلك الحين معززاً

مكرماً : وقام بوظيفته هذه خير قيام : وتبعه أخواه مخائيل وجبور وسكناها ايضاً بعيالهما . ونال الشيخ يوسف باخوس شهرة عظيمة بشهامته ودماثة اخلاقه وحسن تدبيره ونفوذ كلمته عند الامير حسن الذي كان يحبه حباً جماً حتى كان غوثاً لكل المستغيثين به ومما يذكر من اعماله انه في سنة ١٨٠٤ اذ وقع الخلاف بين الامير حسن وبين الشيخ بشاره جفال الخازن على الميزان العمومي الذي نصبه الاول في جونيه وابطله الثاني عنوة ليحافظ على ميزانه في الزوق (١) اراد الاول ان يفتك بالثاني الذي توارى من وجهه : فاخذ الامير يصب جام نقمته على المشايخ الخوازنة حتى استفحل الامر . فتدخل الشيخ يوسف بالمسئلة وبحكمته وحسن اساليبه قد توصل الى اخماد غضب الامير ومصالحته مع الشيخ بشاره وبيت الخازن وعدوله عن نقل الميزان العمومي من الزوق : وبذلك تسبب بالمحافظة على السلام والامان في كسروان . ومن بعد وفاة

(١) كانت بلدة زوق ميكائيل برمتها ملكاً للشيخ بشاره المذكور وكانت محط تجارة الحرير في كسروان تلك الايام وكان ميزان الشيخ صاحبها هو المعتمد رسمياً لتحرير الوزن بالدقة لقاء رسم كان يتقاضاه عليه . فاراد الامير حسن ان يبطله ويقيم ميزاناً في جونية على هذا الشكل فتأتى الخلاف عن ذلك .

الامير حسن سنة ١٨٠٨ سلم اخوه الامير بشير الكبير عهدة غزير الى ولده الامير عبدالله ووكل تدبيره الى الشيخ يوسف باخوس لما كان يعهده فيه من الامانة والاخلاص وحسن التدبير .

وهذا الان كافٍ بهذا الموضوع ولو اردنا ان نذكر كل الذين نبغوا من الموارنة في هذا العصر لاقتضى ذلك منا كتاباً ضخماً . وقد اجتزأنا بذكر لمع قليلة من تاريخ هؤلاء المشاهير لاقامة برهاننا وقضيتنا التي نتوخى اثباتها في هذا الباب .

***

ذلك ومنذ اوائل القرن التاسع عشر قد استوثق الحكم على جبل لبنان برمته للامير بشير ابن الامير قاسم ابن الامير عمر ابن الامير حيدر موسى الشهابي الذي هو ابن بنت الامير احمد المعني . ولد في بلدة غزير بعد ما تولى والده عليها وتنصر فيها سنة ١٧٦٨ على ما رأيت : فكان والحالة هذه من مولده مسيحياً مارونياً بلا نزاع . وقد توفي والده في غزير بعد ولادته بثلاثة اشهر عنه وعن اخيه الامير حسن : فاوصى قبل وفاته ان يكون وصياً عليها وقيماً على املاكهما الشيخ بطرس

الشدياق العشقوتي . وقد اسند احمد باشا الجزار (١) والي ايالة صيدا من قبل الدولة العثمانية الى الامير بشير هذا الولاية على جبل لبنان مكان الامير يوسف ابن عم والده سنة ١٧٨٨ . وكان اكثر رجال بطانته ومدبري اموره الداخلية والخارجية من الموارنة الذين لازموه حتى النهاية . وقد مدّ سيطرته على كل اطراف لبنان مع المحافظة على حقوق اصحاب المقاطعات فيه ولما كان صاحب كتاب « سورية الغد » قد استفاض في الطعن على هذا الامير الملقب بكل صواب عند معاصريه بالكبير وفي نسبة الاستبداد والمظالم الشنعاء اليه حتى لم يستنكف من من التطرف في مس اخلاصه في امر الديانة مما لا ينطبق على الحقيقة وواقع الحال لذلك رأينا ان نفرد باباً برأسه لبيان احواله واعماله والمدافعة عنه بقدر الامكان . اما الان فحسبنا هذا الالماع لسياق البرهان في اثبات هذه القضية . ومن ثم يمكننا ان ننتقل استطراداً الى تاريخ المدة التي تخللت بين انقضاء حكمه وسنة ستين وقدرها نحو عشرين سنة فنقول .

من المعلوم ان حكم الامير بشير الكبير قد انقضى في اواخر سنة ١٨٤٠ اذ غادر قصره في بتدين وسافر بعياله وبعض حاشيته

(١) سيأتي الكلام عنه باسهاب في الذيل الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله .

الى صيدا بقصد الخضوع للدولة العثمانية بعد القضاء على الدولة المصرية في سورية التي كان موالياً لها . فاستقبله خالد باشا والي ايالة صيدا بكل حفاوة وسرور وسيره بحراً الى السرعسكر عزت باشا في بيروت الذي اوعز اليه باختيار محل لاقامته دون سورية ومصر وفرنسة . فاختار جزيرة مالطة ورحل اليها بجمهوره المذكور ثم انتقل الى الاستانة حيث توفي سنة ١٨٥٠

فاقام السرعسكر عزت باشا مكانه والياً على الجبل الامير بشير قاسم حفيد الامير ملحم الشهابي وكان مارونياً ايضاً . فلم يرق الدروز ذلك لانه لم يحسن سياسته معهم ولم يرعَ لهم كرامة . فثاروا عليه وقلبوا له ظهر المجن واخذوا يعيثون في البلاد فساداً أفضى الى الفتنة بينهم وبين نصارى هاتيك الجهات الجنوبية تاتى عنها حروب اهلية هائلة لا محل لوصفها في هذه العجالة . وقد طابت لاكثر الموارنة في سائر الجبل لاعتبارهم انها تكون مندوحة لاسترجاع الامير بشير الكبير من منفاه الى الحكم الذي لم يكن يصلح له سواه خاصة في هاتيك الاحوال . فاضطر الامير بشير قاسم ان يغادر قصبة دير القمر الى بيروت بعد ان ناله ما ناله من الاهانة .

وفي هذه الاثناء وصل مصطفى باشا نوري الى بيروت موفداً من لدن الباب العالي للاشراف على امور جبل لبنان ـ

واذ رآها على ما وصفنا ارسل الامير بشيراً الآخر الى الاستانة واستدعى اليه اعيان النصارى والدروز معاً وكاشفهم في امر تعيين والٍ عليهم من رجال الدولة . فابى النصارى بالاجماع وقد طلبوا باصرار ابقاء الولاية على لبنان للشهابيين ورفعوا بذلك عرائض الاسترحام الى الباب العالي وسفراء الدول في الاستانة أما الدروز فقد خالفوا النصارى واذعنوا لمشورة مصطفى باشا. ولذلك في سنة ١٨٤٢ اقام والياً على لبنان رجلاً نمساوي الاصل تعثمن وأسلم يقال له عمر باشا (١) وارسله الى بتدين وارسل معه الامير احمد ارسلان الدرزي وأخاه الامير اميناً . واتخذ عمر باشا مدبرين له الشيخ منصوراً الدحداح الذي كان مدبراً للامير بشير الكبير في آخر مدته والشيخ خطاراً العماد من الدروز : وولى الشيخ فرنسيس أبي نادر الخازن على بلاد

(١) ولد عمر باشا في قرية بلاسك من كرواسيا النمساوية سنة ١٨٠٦ من ابوين مسيحيين ارثوذكسيين وكان اسمه ميخائيل لتاس : وقد تلقى دروسه الحربية في اوغلي وتطوع في جيش النمسا ٠ ثم جاء الى البوسنه فاسلم فيها وارسله حسين باشا الى الاستانة حيث دخل في الجندية العثمانية ٠ وفي سنة ١٨٤٠ جاء الى سورية مع البعثة العسكرية لاخراج ابراهيم باشا المصري منها ورقي الى رتبة لواء ٠وله مواقع تذكر في الجندية وقد شهد حرب روسيا مع الدولة سنة ١٨٥٣ وفي سنة ١٨٦٨ جعل القائد الاول للجنود العثمانية : وقد توفي بهذه الوظيفة العالية سنة ١٨٧١

كسروان والشيخ ظاهر منصور الدحداح على الفتوح وثلاثة من المشايخ الحمادية المتاولة على بلاد جبيل والبترون والكورة العليا . فاستاء المشايخ الخوازنة من توليته واحداً من فروعهم الثلاثة على اقطاعاتهم الثلاث خلافاً للمعتاد : ونفر منه ايضاً اهل بلاد جبيل والبترون والكورة لتوليته المتاولة عليهم بعد ان تقلص ظلهم الثقيل عن هذه البلاد منذ سنين متطاولة.

اما عمر باشا فلم يحفل باعتراضات المشايخ الخوازنة في كسروان ولا بشكاوي النصارى الذين عين حكاماً لهم من المتاولة . ولكنه حاول ان يسترضي جمهور النصارى عنه من طرق اخرى : فاتخذ منهم جنوداً برواتب وعين عليهم قائدين منهم وهما الشيخ ابو سمرا غانم البكاسيني ويوسف آغا الشنتيري البكفاوي : وكلاهما من الابطال المشهورين بين الموارنة : ثم قبض على بعض اعيان الدروز ممن كانوا العامل الاول في تدبير الثورة السابق ذكرها وارسلهم الى بيروت حيث حجزهم مصطفى باشا في برج ام دبوس . فكبر الامر على الدروز وأخذوا يخابرون بعض النصارى المستائين من عمر باشا في شمالي لبنان بقصد الثورة عليه لاجل عزله : وخابروا ايضاً دروز حوران في الامر طالبين منهم نجدة على الوالي المذكور الذي ذلهم ونفى اكابرهم . فجاءتهم النجدة وعليها زعيم حوران

الشيخ شبلي العريان البطل المشهور: فاجتمعوا جميعاً في المختارة وزحفوا منها الى بتدين بغتة. واذ احس بهم عمر باشا اصدر أمره بملاقاتهم والفتك بهم: وكانت بين الفريقين مواقع هائلة استبسل فيها الشيخ ابو سمرا غانم البطل المشهور.

على انه بينما كان عمر باشا يوقع بالدروز في جهات بتدين كان الموارنة في جهات كسروان وشمالي لبنان مشتغلين بالتحزبات منهم للامير بشير الكبير ومنهم لغيره حتى وقع النفور بينهم واشتد اللجاج مما اعطى سبيلاً لتدخل والي الايالة: فارسل اليهم عساكره بحجة اصلاح الاحوال واخماد نار الفتنة قبل ان يستفحل امرها. ولكن هذا العسكر قد كان ثقيل الوطأة على اهل البلاد حتى ارتفعت شكاويهم الى معتمدي الدول الاروبية: وكانت قد سبقت عرائضهم برفض ولاية عمر باشا وطلب والٍ عليهم من الامراء الشهابيين كالعادة السابقة. فاصرّ المعتمدون المشار اليهم بطلب عزل عمر باشا وتخويل اللبنانيين حق اختيار الوالي عليهم.

وكان الدروز يسعون في هذه الاثناء لاستمالة النصارى اليهم حتى يكونوا يداً واحدة في طلب عزل عمر باشا: وقد زينوا للامير اسعد قعدان الشهابي الماروني انه اذا ما لاءمهم على ذلك واستجلب النصارى حتى يثوروا معهم على عمر باشا لاجل

عزله انتخبوه والياً عليهم مكانه. فرضي الامير اسعد معهم بذلك وحينئذ والاهم ايضاً نصارى الجنوب وغيرهم مشترطين ان يكتبوا لهم وثيقة يصرحون فيها بانهم راضون كل الرضى برجوع الولاية على الجبل الى الامراء الشهابيين. فدونوا لهم هذه الوثيقة وقد اشترطوا هم ايضاً فيها بان يكون احد الامراء اللمعيين معاوناً للامير الشهابي في الحكم وان يكون له اربعة مدبرين اثنان من الدروز واثنان من النصارى.

اما الدولة العثمانية فقد فصلت عمر باشا عن ولاية لبنان اجابةً لطلب سفراء الدول العظام واقامت مكانه موقتاً محمد رشيد باشا: وصدر امرها الى اللبنانيين ان ينتخبوا لهم والياً منهم وعينت لهم معتمدين اثنين ليدونا اسماء المنتخبين والذي ينتخبونه فاجمع النصارى على الاسترحام برد الامير بشير الكبير الى هذه الولاية واصروا على هذا الطلب. الا ان الدولة كانت قد اتفقت مع السفراء على ان لا يتولى احد الشهابيين على لبنان بعد الذي ظهر من خيانتهم بموالاتهم للدولة المصرية وابراهيم باشا حين فتح سورية ومد سيطرته عليها: وقد ارادت ايضاً ان تقسم ولاية الجبل الى قسمين وتولى على القسم الشمالي حاكماً من النصارى بحجة ان تمنع اسباب الخلاف بين الفريقين.

وكانت الدولة قد ولت اسعد باشا على ايالة صيدا وكان اعيان النصارى المصرون على طلب الامير بشير الكبير مجتمعين في نواحي انطلياس . فتوجه اسعد باشا اليهم واخذ ينصحهم بالعدول عن طلب المستحيل ويحذرهم من غوائل هذا اللجاج الذي يفضي بهم الى الخروج من خاطر الدولة . ثم توجه من هناك الى بطريرك الموارنة (١) ليستشيره في من يصلح لهذه

(١) وهو المثلث الرحمات الكثير الفضائل والمبرات والآثار الطيبة من كل صنف البطريرك يوسف حبيش : وكان من تلاميذ مدرسة عين ورقة الاولين . ولموضع شهرته بالعلم والتقى والغيرة على خلاص النفوس وحسن التدبير باصالة الرأي والحزم قد اقيم بطريركاً على طائفته باجماع الرأي في ٢٥ ايار سنة ١٨٢٣ ولم يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر . فاعترض المجمع المقدس برومية على انتخابه بهذا السن مع ان المقرر قانونياً للمقام البطريركي انما هو سن الاربعين كاملة . ولكنه اذ علم ما تجمل به هذا البطريرك الحديث من الصفات النادرة فسح له من عجز العمر واولاه درع التثبيت المعتاد مع المدح والثناء على فضائله الممتازة التي اهلته الى هذا المقام وهو بهذا العمر .

وقد قال فيه صاحب تاريخ سورية وهو من معاصريه تقريباً انه « كان عاقلاً حاذقاً طاهراً دبر البطريركية اثنين وعشرين ربيعاً احسن تدبير واقدسه » . وقد افرغ جهده في انجاح مدرسة عين ورقة ورقيها في العلوم : وعني بتحويل دير مار عبدا هرهريا الى مدرسة عمومية للطائفة سنة ١٨٣٠ على قاعدة مدرسة عين ورقة المذكورة : وفعل مثل ذلك بدير مار سركيس وباخوس في ريفون سنة ١٨٣٢ : واسس جمعية المرسلين

الولاية من الامراء اللمعيين . فاشار البطريرك اذ وقف على دخائل الامور بتولية الامير حيدر اسماعيل ابي اللمع الماروني على النصارى لما كان يتوسم فيه من الحكمة والرزانة والاستقامة والتقى المقرونة بالحزم وحسن التدبير . واذ عاد اسعد باشا الى بيروت استقدم الامير المشار اليه وولاه على كل الاقطاعات التي من نهر ابراهيم اي من آخر حدود الفتوح من الشمال الى آخر حدود المتن من الجنوب وسماه قائمقام النصارى ثم ولى الامير احمد ارسلان من الدروز على ما هو من آخر حدود المتن الى الغرب بقبلة (ما خلا قصبة دير القمر التي اقام عليها مأموراً خاصاً بها من النصارى) وسماه قائمقام الدروز . ثم ولى على ما هو من نهر ابراهيم الى الشمال بشرق حاكماً من

اللبنانيين الشهيرة المعروفة اليوم بالكريمين سنة ١٨٤٠ : واقام الكرسي البطريركي في محل الديمان بشمالي لبنان للصيف : ورمم دير سيدة بكركى بعد هجره وخرابه وجعله كرسياً بطريركياً للشتاء وهو مشهور الى اليوم . وقال ايضاً صاحب تاريخ سورية انه « لما كانت الحرب الوطنية بين النصارى والدروز سنه ١٨٤١ كابد من جراها اتعاباً وخسائر لا تقدر واشتهر بكرمه على الغارين والمعوزين : ولما تجددت هذه الحرب سنة ١٨٤٥ كانت سبباً لموته كمداً وحزناً فتوفاه الله في ٢٣ ايار من هذه السنة نفسها » رحمه الله رحمة واسعة ونفعنا بشفاعته كما نفعنا باعماله الجليلة في هذه الحياة الدنيا

المسلمين وكان ذلك من اول سنة ١٨٤٣ . فشكا الاهالي من هذا الاجحاف بحقوقهم وهم كلهم تقريباً من الموارنة : ووقع الخلاف بين قائمقام النصارى وقائمقام الدروز على حدود ولاية كل منهما وخاصة على القرى التي كلها او معظمها مأهول بالنصارى . و كثر اللجاج حتى اتصل امره بالباب العالي فكتب الى اسعد باشا اولاً بان يضيف حكم بلاد جبيل وما يليه الي قائمقامية النصارى : ثم ان يهتم بقسمة البلاد من الجنوب بين قائمقام الدروز وقائمقام النصارى على حدود مقررة منعاً لهذا الخلاف فقسمها هذا الوزير بحيث جعل طريق دمشق العمومية فاصلاً بين الولايتين وقد تم ذلك في سنة ١٨٤٤ (١) .

ولما كان النصارى الذين تبعوا قائمقامية الدروز كثيري

---

(١) ان دولة فرنسة الفخيمة قد اهتمت لهذا الامر كل الاهتمام واستجلبت خاطر دولة بريطانيا العظمى فساعدتها كل المساعدة على اصلاح شؤون النصارى في جبل لبنان من هذا القبيل لدى الباب العالي حتى كان ما كان من هذا التغيير والتبديل على ما يوافق احوال النصارى كما رأيت .

ومن اراد ان يقف على حقيقة ذلك عليه بمراجعة مجموعة المحررات السياسية المشهورة للبارون دي تستا : او ترجمة ما يتعلق منها بشؤون جبل لبنان للاخوين المرحومين الشيخ فيليب والشيخ فريد قعدان الخازن شهيدي الوطنية المعروفين . وسنثبت بعض ذلك عنها في ملحق بآخر هذا الكتاب .

العدد لم ترقهم هذه القسمة وعدوها مجحفة بحقوقهم . فاخذوا من ثم يرفعون احتجاجاتهم بشدة الى الباب العالي بواسطة سفراء الدول العظمى في الاستانة : وبسبب ذلك وقعت الفتنة بين الدروز والنصارى في ساحل بيروت والمتن والغرب والشحار والشوف وهي المعروفة بفتنة سنة ١٨٤٥ فافضت الى حرب اهلية بينهم . وكانت الدولة العثمانية قد عزلت في هذه السنة اسعد باشا المذكور عن ولاية صيدا وبيروت وولت مكانه وجيهي باشا . ولما رأى هذا الوالي الجديد ان الطائفتين تستعدان للقتال ارسل الى تلك القرى جنوداً للمحافظة على الراحة وارسل ايضاً الى دير القمر شرذمة من عساكر الدولة بقيادة الفريق داود باشا والميرالاي اسماعيل بك ومصطفى بك . الا ان هذه الجنود كانت في كل مكان لاغراض في النفس لا حاجة الى بيانها تلح على النصارى بملازمة السكينة وتسليم سلاحهم وتشجع الدروز وتعطيهم سلاحاً وذخائر .

ومع ذلك نشبت الحرب بين الفريقين وجرت مواقع شتى كان الفوز فيها للنصارى (١) اولاً : ثم تدخل عسكر

---

(١) قال صاحب كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان الشيخ طنوس الشدياق المعاصر لهذه الحوادث (ص ٧٠٦ من طبعة بيروت) ما مؤداه :

« وفي اليوم الثالث (من شهر نيسان ١٨٤٥) قصدت نصارى اقليم جزين دروز الشوف من جانب وانحدر ابو سمراء برجال غربي البقاع النصارى لملاقاتهم وصعد الامير حسن اسعد (الشهابي) من صيدا بكتيبة من النصارى من جانب آخر فاستظهروا على الدروز وهزموهم وفر بعضهم الى بتدين يستغيثون بداود باشا : فارسل معهم عسكراً . فاحرقت النصارى من قرى الشوف باتر ومرستا ومعاصر الفخار وجباع والخريبة وحارة الجنادلة وعاريه وبعذران ونيحا حتى وصلوا الى عماطور فاحرقوا بعضها . واذا بالعسكر العثماني قادم ومعه الشيخ سعيد جنبلاط ورجاله : فانكفأت النصارى لانهم لم يقصدوا قتال العسكر العثماني . فقبض العسكر على اربعين رجلاً من النصارى بالامان واخذ سلاحهم وارسلهم الى سجن دير القمر ورجع الى مكانه » اه

وقال كاتب سيرة حياة البطل اللبناني ابي سمرا غانم المطبوع في مصر (سنة ١٩٠٥ ص ١٣١) : انه لما دارت الدوائر على الدروز في هذه المواقع واحرقت قراهم « كتب سعيد بك جنبلاط (زعيم الدروز) كتاباً الى قائد الجنود العثمانية المرابطة في دير القمر يستعطفه ويرجو منه مساعدة الدروز وارفق الكتابة بمال جزيل . فبعث القائد على الفور الف جندي الى المختارة (مقر آل جنبلاط) لوقايتها من النصارى .. وقد قرَّ رأي النصارى على الزحف على عماطور فقام ابو سمرا برجاله الى حارة الجنادلة ودخلها واخذ يحرق في عمارها وكان قسم من الدروز مجدين في اثر نصارى اقليم التفاح المنهزمين من امامهم فلما شاهدوا النار في حارة الجنادلة انكفأوا

عنهم متراجعين : فخرج ابو سمرا والرجال لملاقاتهم : ثم انقلب عليهم نصارى اقليم التفاح وجعلوهم بين نارين وصدموهم صدمة مريعة فولوا من امامهم مدبرين لا يلوون على شيء ... وظل النصارى يعملون السيف في اقفية الاعداء حتى شتتوا شملهم . وبعد هذا هجم ابو سمرا على عماطور فلم يقوَ سكانها على المقاومة فخرجوا منها منهزمين وتفرق النصارى على بيوتها للسلب والنهب والقاء النار فيها . وعند منتصف الليل احدقت الجنود العثمانية بعماطور ... واما الاسرى (الذين امسكتهم الجنود العثمانية في عماطور من النصارى) فسيقوا الى دير القمر حيث اعتقلوا اياماً ... ثم ارسلهم داود باشا بدون سلاح مع العساكر الى جهات صيدا ولما وصلوا بهم الى نهر الحمام تركتهم العساكر وشأنهم : ولما بلغوا عانوت هجم عليهم الدروز الكامنون لهم في الطريق من جهة وسكان هذه البلدة المسلمون من جهة أخرى واطلقوا عليهم البنادق فافنوهم عن آخرهم . (وقد روى ذلك ايضاً صاحب كتاب اخبار الاعيان) اما دروز بعذران فاذ عادوا الى قريتهم ووجدوها محروقة نقموا من النصارى الذين في قريتهم هذه فقتلوا منهم اثني عشر شخصاً خلافاً للعادة التي كانت مرعية عندهم بان لا يتعدى النصارى على الدروز ولا هؤلاء على النصارى متى كانوا من قرية واحدة بسبب ما بينهم من التضامن الادبي » .

ومما يجدر التنبيه اليه هنا هو ان الموارنة والدروز في جبل لبنان قد كانوا على اتم صفاء ووئام منذ وجدوا معاً تحت حكم الامراء من آل معن او من آل شهاب وكانوا على الدوام حزباً واحداً . وهذا مما جعل الموارنة يتمددون في المتن والشوف والغرب ويساكنون الدروز في قراهم وجوارهم بكل سلامة وطمأنينة حتى فتح ابراهيم باشا المصري سورية

كهنة الموارنة ونهبوا ديرهم هناك : مما حمل قنصل فرنسة في بيروت ان يشدد الاحتجاج ويكتب الى سفير دولته

وادخلها تحت حكم والده محمد علي باشا وتولى هو بنفسه عليها . وبعد ان استتب له الامر في سورية ولبنان امر بجمع السلاح من النصارى في لبنان وجمعه بدون مقاومة بواسطة الامير بشير الكبير حاكم الجبل . ثم انه في سنة ١٨٣٥ طلب التجنيد الاجباري من دروز حوران والعرب الذين بجوارهم في الجندية المصرية فابى هؤلاء الخضوع ولجأوا الى المقاومة بالسلاح فكسروا عسكر ابراهيم باشا في اللجا : فاستعان بالامير بشير وطلب منه نجدة من الموارنة وامر باعادة السلاح اليهم . فلم يسع الامير الا ان ينجده وقد ارسل اليه عسكراً من الموارنة اشتركوا في محاربة الدروز في حوران مع عسكر ابراهيم باشا حتى انتقم من الدروز ونكل بهم تنكيلاً . واستبسل الموارنة في هذه المواقع فتولد من هنا الحقد بينهم وبين الدروز وتأتت عنها هذه الفتن في جبل لبنان : وساعدت الدولة العثمانية فيما بعد على اشعال جذوتها بقصد اضعاف اهل الجبل والتحكم بهم كما جرى فعلاً .

والا فقد قال جودت باشا وهو من اعظم رجال الدولة العثمانية في تاريخه الشهير (ص ٣٤٥ و ٣٥٠ و ٣٥٥) ما مؤداه بهذا الصدد: «كان اللبنانيون قبل سنة ١٨٤١ امة واحدة تجمعها الوطنية اللبنانية لا النزعة الطائفية : وقد انقسمت البلاد الى حزبين قويين لا دخل للدين فيهما من قيسي ويمني ثم يزبكي وجنبلاطي وصار يجمع الحزب الواحد منهما افراداً من كل الطوائف والحكم مشترك بينهما جميعاً على السواء : فتداخل ...»

بالاستانة في كل ما حدث من مثل هذه الامور الفظيعة .

ولما بلغ مسامع الدولة ما جرى في لبنان من هذه الحرب الاهلية الهائلة امرت وزيرها وجيهي باشا ان يهتم في اخماد نارها فاصدر اوامره الى رؤساء الاحزاب من الدروز والنصارى بان يكفوا عن القتال وان يحضروا لديه في المديرج لاجراء عقد الصلح فيما بينهم . فاذعن الجميع وحضر بعضهم اليه : وتلبية لامره كتبوا عقد الصلح لاجل القاء السلام ومنع الفتن وامضوه بين يديه وقد تهدد من لم يخضع بالتنكيل . فانفض الجمهور ورجع كل الى بيته وعاد الامان الى نصابه .

ثم أوفد الباب العالي شكيب افندي ناظر الخارجية الشهير الى لبنان بصفة مأمور فوق العادة للنظر في شؤونه . فلاقاه الى بتدين نميق باشا سر عسكر الجنود العثمانية في دمشق بالف جندي : ووافاه قائمقام الدروز وقائمقام النصارى : فامرهما باستدعاء اصحاب الاقطاعات في لبنان وبعض الاعيان من الفريقين فلم يحضر منهم الا القليل . ثم اصدر أمراً مشدداً بجمع السلاح من النصارى خاصةً بالقوة القاهرة : وعزل وجيهي باشا لوجود الشبهة عليه باظهار الانحراف مع الدروز في هذه الحرب الاهلية : واستبدل الامير احمد ارسلان باخيه الامير امين على قائمقامية الدروز : واقر قسمة البلاد كما

كانت قد تقررت جاعلاً الفصل بين قائمقامية الدروز وقائمقامية النصارى طريق دمشق العمومية : واعطى قائمقام الدروز نصف ساحل بيروت . فاعترض الامير حيذر قائمقام النصارى على ذلك : واظهر السكان عدم الرضى بهذه القسمة في السواحل لان معظمهم من النصارى : حتى تدخل قناصل الدول في امرها وفصلوا هذا الخلاف بان اتبعوا الى قائمقامية النصارى الساحل الشرقي والى قائمقامية الدروز الساحل الغربي وجعلوا الفاصل بينهما طريق دير القمر العمومية ‧ الا قريتي الشياح ووادي شحرور فقد اتبعوهما الى حكم مدينة بيروت حسماً للخلاف الذي استمر عليهما .

وقد رتب شكيب افندي لكل قائمقامية مجلساً او ديواناً مؤلفاً من اثني عشر عضواً من كل طائفة من طوائفه الست عضوين للنظر في دعاوي اهل البلاد والفصل فيها بينهم ووضع نظاماً خاصاً لحكومة الجبل في ٣٨ مادة وهو المعروف بنظام شكيب افندي ولم يكن للجبل قبله من نظام سوى وجدان حكامه . وقد اقر سفراء الدول العظمى والدولة العلية ايضاً هذا النظام ورسموا ان لا يقدر احد على حل مادة من مواده الا برضى كل الدول المتحابة التي صدقت عليه . وهكذا استتب الامان والسلام والراحة في جبل لبنان وتقرر على هذا

الشكل استقلاله النوعي تحت رعاية الدول الاوربية .

وقد طلب الامير حيذر اسماعيل قائمقام النصارى من بطريرك الموارنة ان يعين قاضيين من قبله احدهما في المجلس المختلط والاخر في الخارج . فعين الخوري يوحنا الحاج لرئاسة المجلس والخوري يوحنا حبيب للخارج (١) وقد توليا القضاء

(١) ان هذا الخوري يوحنا الحاج انما هو البطريرك يوحنا الحاج الذي خلف السعيد الذكر والطيب الاثار البطريرك بولس مسعد في ٢٨ نيسان سنة ١٨٩٠ : ومنذ تربع في دست البطريركية اغنى الطائفة والبلاد باعماله العظيمة التي لا تزال الى اليوم تحيي ذكره وتشيد بمدحه وتعظيمه على كل لسان من ابناء طائفته وغيرهم حتى كان يدعى بكل صواب بطريرك لبنان واللبنانيين عموماً على اختلاف نحلهم . وكان مقامه في بكركي قبلة كل احد والجميع يحجون اليه من كل جانب كفرض واجب عليهم . وقد الف بين القلوب جميعها بحكمته وحسن تدبيره واصالة رأيه ومحبته الابوية المقرونة بالحزم وصدق العزيمة حتى تهيبه الجميع واحبوه معاً حباً مخلصاً الى ان رقد بالرب في ٢٦ كانون الاول سنة ١٨٩٨ مملوءاً اياماً وحسنات . فبكاه لبنان كله بدموع غزيرة و كانت له مناحة عمومية فيه دلت على مقامه الرفيع في كل القلوب على اختلاف نزعاتها . وكان قبل البطريركية مطراناً على ابرشية بعلبك منذ ١٥ آب سنه ١٨٦١ فاغنى هذه الابرشية بالماديات والادبيات ومهد فيها سبل السلام والامان بين المشايخ الخوازنة والاهالي بحزمه وحكمته ومهابته بعد الثورة المشهورة التي تسبب بها سنة ١٨٥٩ رجال الدولة العثمانية اولاً في كسروان لالغاء المقاطعات وحكامها . ثم بنى الكنائس والمدارس التي اغنى ابرشيته بها .

بكل حكمة ودراية وعدل واستقامة الى سنة ١٨٦٠ حيث انقلب هذا النظام بعد الفتنة المشهورة بين الدروز والنصارى وأبدل بالنظام الحالي المشهور .

وكان الامير حيدر رجلاً حازماً وحاكماً عادلاً وحكيماً ورعاً : وقد تولى هذه القائمقامية بكل جدارة حتى استمال

واما الخوري يوحنا حبيب فهو صنو البطريرك المشار اليه ورفيق حياته منذ كانا طالبي علم في مدرسة عين ورقة الشهيرة في كسروان . ثم انصرف هذا الاخير بأمر البطريرك يوسف حبيش الى درس الفقه في طرابلس على نفقة الامير بشير الكبير فبرز فيه . ثم تعينا قاضيين معاً للنصارى كما وصفنا : ولهما في منصة العدل مقام رفيع واعمال باهرة لا تزال تذكر بكل حمد وثناء مدى الدهر . واعتنى الخوري يوحنا الحبيب بعد ذلك بتجديد جمعية المرسلين اللبنانيين : واشترى لهذه الغاية دير الكريم بكسروان من الارمن ووقفه عليها مع املاكه : وجمع اليه بعض كهنة الطائفة العلماء الاتقياء والف لهم قانوناً خاصاً . ثم صُيِّر مطراناً ولم يترك هذه الجمعية التي تجددت بعنايته ونمت نمواً بديعاً تحت رعايته بل لازمها طول حياته حتى رقد بالرب سنة ١٨٩٤ برائحة القداسة . واستمرت هذه الجمعية المباركة على نموها المتواصل وهي الى اليوم تزداد رونقاً وغيرة ورعاها الله بعين عنايته ذخراً روحانياً لهذه الطائفة . وكان المشار اليه من الكتبة المجيدين والفقهاء المشهورين وله كتاب ترجمة اللاهوت الادبي من اللاتينية للاب غوري اليسوعي وقد علق عليه نبذة في المواريث بحسب الشريعة الاسلامية واشتهر كتابه هذا شهرة لا تضارع في الشرق كله .

الجميع اليه . وقد مد الامان والسلام سرادقة على البلاد في عهده واستتبت الراحة في كل الانحاء : الى ان ادركته المنية سنة ١٨٥٤ في قرية صربا بكسروان . فشمل الاسف عليه كل لبنان وكانت له مناحة عظيمة . وقد نقلت رفاته الكريمة الى بكفيا حيث دفن بالاكرام الواجب في ضمن كنيسة الآباء اليسوعيين هناك .

فعين الباب العالي مكانه الامير بشيراً احمد اللمعي قائمقاماً على النصارى . وفي عهده كانت ثورة اهالي كسروان على المشايخ الخوازنة سنة ١٨٥٩ التي دبرتها الحكومة العثمانية توسلاً بها الى الغاء ولاية اصحاب المقاطعات الخاصة في لبنان . ثم وقعت فتنة سنة ١٨٦٠ المشهورة بين الدروز والنصارى في جنوبي الجبل فكان ما كان مما لا محل لذكره هنا : وقد انتهت بنظام لبنان الجديد وهو نظام سنة ١٨٦١ الحالي المعروف دون حاجة الى تعريفه :

الخلاصة

لقد ظهر مما اوضحناه واثبتناه حتى الان لكل ذي لب ان الموارنة سكان جبل لبنان الان انما هم سكانه الاصليون من قديم الدهر والبقية الباقية من الفينيقيين الكرام اصحاب هذه البلاد الحقيقيين الذين استفادت اسمها التاريخي والجغرافي منهم واشتهرت بهم على توالي الايام وتعاقب الدول الفاتحة لبلاد سورية . وممالك صور وصيدا وبيروت وجبيل خاصة اشهر عند كل ذي المام بالتاريخ القديم من ان توصف : ومدنيتها في تلك العصور النائية وصناعتها وتجارتها التي حملتها الى اقاصي البلاد المعروفة ونحلها التي هاجرت منها فعمرت قسماً من افريقية الغربية واوربة حتى اماريكة التي على ما يقال قد وجد فيها من آثارهم ما دل على وصولهم اليها في تلك الاحقاب كل ذلك مما لا ينكره غير المكابر وكل يوم يزيد شهرة عن يوم بما يكتشفه علماء العاديات من الادلة الراهنة وينشرونه على الملاء (١)

(١) طالع بين الكتب العربية خاصة كتاب تاريخ لبنان تأليف العلامة الاب مرتين اليسوعي المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٩ : والجزء

أجل ان هذه البلاد قد غُلبت على امرها كغيرها من بلاد سورية لانها كانت ميداناً للملوك والقواد الفاتحين من مصريين واشوريين وماديين ويونان ورومانيين وعرب وافرنج واتراك وتتر الى ان تملكتها اخيراً الدولة العثمانية التركية واستتب لها الامر فيها الى اليوم . الا ان هؤلاء الفينيقيين الذين ابوا ان يتنازلوا عن استقلالهم الذاتي ويخضعوا خضوعاً مطلقاً لهؤلاء الفاتحين وان يغادروا اوطانهم العزيزة عليهم لما لا يغرب عن ذي بصيرة من الاسباب المعقولة قد توغلوا جبال لبنان حيث تحصنوا بقدر الامكان وثبتوا على نكبات الزمان ثباته على الانواء وطوارق الحدثان محافظين على عنصرهم ووطنهم وعوائدهم وتقليداتهم الدينية خاصة بحيث لم يستطع ان يتغلب عليهم احد من الفاتحين في هذه الامور حتى ولا الديانة النصرانية : مع انها بدأت تمد أشعة نورها اولاً على

الاول من تاريخ سورية للعلامة المطران يوسف الدبس المطبوع في بيروت ايضاً سنة ١٨٩٣ : والمقالة النفيسة التي اثبتتها مجلة المقتطف الشهيرة في مصر جزء ٦ و٧ من المجلد ٥٠ اي في عددي حزيران وتموز سنة ١٩١٧ : وهي للكاتب التاريخي الواسع الاطلاع الدكتور فيليب حتي من جامعة كولمبيا بنيويورك : حيث تجدد ما كان من امر السوريين والفينيقيين وتجارتهم ومستعمراتهم وعلومهم ومدنيتهم الراقية منذ عهد السلوقيين الى ما بعد التاريخ المسيحي بمدة غير قليلة

سورية التي كانت في القرن السادس قد شملتها كلها فضلاً عن العالم المتمدن في تلك الايام الا جبل لبنان الذي مع كل ما بذله قسطنطين الكبير وبعض خلفائه والبطاركة والاساقفة والحكام من الجهد الجهيد بتحويلهم عن وثنيتهم الخاصة بهم قد استمروا مصرين عليها ومحافظين كل المحافظة على عوائدها السمجة دون ان تؤثر عليهم سيطرة المسيطرين ولا قداسة الدين المسيحي بوجه من الوجوه . وذلك مما يدل دلالة صريحة على شدة حرصهم على استقلالهم الذاتي الذي تحملوا لاجله من النكبات وشظف العيش ما يمكن كل احد ان يتصوره دون حاجة الى بيان بالنظر الى موقع بلادهم وطبيعته واكتنافه باعدائهم من كل جانب .

فهذه البقية الفينيقية التي بقيت على هذا الشكل في جبل لبنان او في جهة مخصوصة منه معروفة بها قد اهتدت الى النصرانية على ما يظهر منذ أواخر القرن السادس بواسطة رهبان القديس مارون اصحاب الدير المشهور هاتيك الايام على ضفاف نهر الاورنت (١) بجوار افامية القديمة (٢) في سورية الثانية : واعتنقوا هذا الدين القويم على مقتضى مذهب

(١) وهو المعروف اليوم بنهر العاصي
(٢) وهي الآن على ما يقال « رأس المضيق »

هؤلاء الرهبان الذين اشتهروا منذ اول نشأتهم بالانتصار للمجمع الخلقيدوني المقدس(١) وبالمناضلة حتى الدم عن تعاليمه الكاثوليكية ضد المنوفيزيين او اليعاقبة حتى اطلق عليهم تلك الاعصار اسم الخلقيدونيين وعلى كل اشياعهم فيما بعد اسم الموارنة نسبة الى القديس مارون الناسك او الى رهبانه هؤلاء .

***

وكان هؤلاء اللبنانيون الذين صاروا موارنة مستقلين نوعاً جهد المستطاع على عهد الرومانيين الذين اتخذوا بلادهم معقلاً في وجه العرب لصد غاراتهم المتواترة عن سورية ورتبوا فيه جنداً تحت راية بعض قوادهم عرف تلك الايام بالجند اللبناني (٢) : وقد خولوهم لذلك من الامتيازات ما لم يكن لغيرهم من بلاد سورية حتى يقوموا بهذه المهمة الموكولة اليهم بكل اجتهاد ونشاط واخلاص نية . وقد قاموا بذلك حق القيام حتى الفتح العربي الذي تم في بهرة القرن السابع حيث اندفع العرب على سورية كالسيل الجارف فلم يقوَ كل جنود

(١) وهو المجمع المسكوني الرابع
(٢) راجع تاريخ بروكوب ك ١ ف ١٢ وك ٢ ف ٨ وتاريخ ابيقفر السقولستي عن سنة ٨٣٥

مملكة الروم التي كانت قد دخلت في دور الشيخوخة على صدهم حتى تملكوها برمتها مع غيرها من البلاد المجاورة لها في مدة قليلة من الزمن . وكان مع ذلك لهؤلاء اللبنانيين شأن يذكر مع هؤلاء العرب كما ذكر المؤرخون المعتبرون من الروم والسريان والعرب مما يدل على حميتهم وشهامتهم واخلاصهم للروم واستقلالهم الذاتي الذي هو خلق بهم (١)

وقد يقال ان هذا الجند اللبناني الذي كان في دولة الروم لم يكن من اللبنانيين وانما كان من الروم انفسهم وقد احتلوا جبل لبنان وتحصنوا فيه بامر ملوكهم لهذه الغاية :

فالجواب على هذا الاعتراض الوجيه هو انه من الممكن ان يكون قسم من هذا الجند اجنبياً عن البلاد : لان ملوك الروم لم يكونوا يؤمنون لاهله ويطمئنون لهم يكلوا أليهم وحدهم هذه المهمة العظمى وينـاموا ملء عيونهم عنهم . ولكن أليس من المعقول ايضاً بالنظر الى ظروف هاتيك الايام واحوالها ان يرسل ملوك الروم شرذمة من جنودهم وعليها قواد محنكون من قوادهم فيضموا الى هذه الشرذمة

(١) راجع تاريخ القديس ثوفان الرومي : وكتاب فتوح البلدان للبلاذري المؤرخ العربي : وتاريخ ابن العبري السرياني وغيرهم من مؤرخي تلك العصور .

عدداً كبيراً من شبان البلاد وهم احق واخبر بطرق المدافعة واهل جبال اشداء وذوو فاقة للمعاش لضيق بلادهم وقحطها وقلة الرزق فيها ؟

لعمر الحق اننا لا نستطيع ان نرى اقل مانع من ذلك لا سيما وقد جرى مثله وعلى شكله تماماً بعد الفتح العربي اذ ارسل قسطنطين الثاني المعروف باللحياني ملك الروم في نحو سنة ٦٧٠ الى جبل لبنان جنداً من «المردين» او المردائيتي(١) فانضم اليهم الوطنيون والانباط والعبيد الاباق الخ حتى صاروا في مدة قصيرة الوفاً كثيرة تحصنوا في لبنان واخذوا يشنون الغارة على العرب في جواره ويضايقون المسلمين . وقد كان لهم معهم شأن يذكر حتى اضطر الخليفة معاوية الى كف الحصار عن قسطنطينية ومصالحة ملكها على مال يؤديه اليه بشرط ان يكف غزوات هؤلاء الجنود اللبنانيين . واضطر بعده الخليفة عبد الملك بن مروان الى تجديد هذا عهد الصلح مع الملك يستنيان المعروف بالاخرم على شرط ان يسحب جنود المردين من لبنان . وقد انخدع الملك المذكور وسحبهم في اثني عشر الفاً : فقال فيه ثوفان المؤرخ انه بسحبهم من

(١) كما دعاهم القديس ثوفان : وسماهم ابن العبري «مريديين» بصيغة النسبة والبلاذري «خيل الروم وعليهم قائد من قوادهم»

جبل لبنان قد هدم سداً من نحاس في وجه المملكة .

أفليس من المعقول اذن ان يكون الجند اللبناني قبل ذلك مؤلفاً على هذا الشكل اي من شرذمة من جنود الروم ومن جنود وطنيين ايضاً ؟

***

والظاهر ان هؤلاء اللبنانيين قد استمروا مستقلين في جبالهم بعد ذلك ايضاً : لانه من جهة لم يُذكر قط ان جبل لبنان او بلاد الموارنة منه على الاقل قد فتحه العرب فتحاً حربياً وولوا عليه الولاة منهم : الا ما كان منه على السواحل البحرية من طرابلس الى بيروت . ومن جهة اخرى قد رأيت اولاً ان بطريرك الموارنة في نحو القرن العاشر (١) قد فزع

(١) اي بعد خراب دير القديس مارون الذي كان على ضفاف العاصي في جوار افامية بتواتر الفتن من الاعراب وجور السلطان كما قال المسعودي في كتاب « التنبيه والاشراف »

وهذا البطريرك انما هو القديس يوحنا مارون بن اغاثون بن البديس او البيديوس الذي هو على ما يقال ابن اخت كارلوس الكبير ملك فرنسا (من سنة ٧٦٧ الى سنة ٨١٤) وهو البطريرك الاول لهذه الطائفة في جبل لبنان ومنه تبتدىء سلسلة بطاركتهم فيه . مع قطع النظر عمن تقدمه منهم ممن اقاموا في دير مار مارون الذي على ضفاف العاصي بقرب افاميه .

من جور المسلمين الى لبنان بين اولاده الموارنة وجعل سكناه في يانوح من جبة المنيطرة حيث كانت الديانة نامية مزهرة والامان سائداً (١) . ثم عند ما زحف الصليبيون على سورية في اواخر القرن الحادي عشر واخذ المسلمون يضطهدون النصارى بسبب ذلك قد فزع ايضاً الى جبل لبنان توما الكفرطابي اسقف كورة حلب الماروني (٢) من اضطهادهم واقام عند بطريركه وبين اخوانه الموارنة مدة طويلة بامان وراحة الى ان فتح الافرنج مدينة طرابلس سنة ١١١٠ . ثم اذ زحف الصليبيون بعد فتح انطاكية سنة ١٠٩٩ على اورشليم وبلغوا في زحفهم الى ما فوق مدينة طرابلس قد نزل الى ملاقاتهم والترحيب بهم من مشارف لبنان هؤلاء الموارنة وعرضوا خدماتهم عليهم واشتركوا معهم في حروبهم (٣) . فلو لم يكن الموارنة في ذلك العهد مستقلين في جبل لبنان بذاتهم أكان

(١) كما روى العلامة الدويهي في تاريخ المسلمين الذي لم يزل غير مشهور بالطبع ومنه نسخ عديدة في لبنان وخزانة الكتب الواتيكانية برومية والعمومية في باريس .

(٢) على ما روى هو عن نفسه في كتابه المعروف « بالمقالات العشر »

(٣) كما روى غليام اسقف صور في تاريخ الصليبيين وغيره ايضاً من مؤرخيهم المعتبرين : والعلامة الدويهي .

يا ترى يصح شيء من هذه الروايات التي تثبتها الآثار التاريخية المعتبرة ؟

اما على عهد تملك الصليبيين للاراضي المقدسة ولقسم كبير من سورية بما فيه سواحل لبنان وخاصة الجهة التي فيها الموارنة فليس من حاجة الى البرهان عن استقلالهم النوعي فيه وحسن احوالهم : لانهم امتزجوا على ما يظهر بهؤلاء الصليبيين كل الامتزاج ونالوا منهم كل كرامة ورعاية واشتركوا معهم في السراء والضراء حتى كانوا في كل مكان كأنهم منهم . ولهذا قد نموا و كثروا وتفرق قسم وافر منهم في البلاد حتى بلغوا القدس الشريف وملاؤا جزيرة قبرس ثم رودس منذ سنة ١٣١٠ مع فرسان مار يوحنا اورشليم الذين عرفوا فيما بعد بفرسان رودس ثم مالطة بعد فتح رودس سنة ١٥٢٣ مع هؤلاء الفرسان انفسهم الذين عرفوا ايضاً بفرسان مالطة منذ تملكوها (١)

***

اما وقد تقوى المسلمون على الصليبيين وخاصة الدولة

(١) راجع تاريخ العلامة الدويهي : وكتاب الدر المنظوم للعلامة البطريرك بولس مسعد : وكتاب تسريح الابصار للبحاثة الشهير الاب لامنس اليسوعي .

المصرية منهم منذ عهد صلاح الدين الايوبي (الذي كان آفة على هؤلاء الصليبيين في سورية وقد استرد منهم اورشليم سنة ١١٨٧ وقضى على مملكتهم فيها) ففي هذه الاحوال قد نال الموارنة من الضيم ما نال اخوانهم الصليبيين في كل الاماكن التي وقعت في يد المسلمين تدريجاً الا في جبل لبنان الذي بقي على حاله من الراحة والسكينة والاستقلال الداخلي الى ان تقلص ظل هؤلاء الصليبيين عن سورية كلها في مستهل القرن الرابع عشر :وقد لجأ هاتيك الايام الى جبل لبنان بعض الفرنجة الذين غلبوا على امرهم في بعض النواحي لانهم لم يستطيعوا حمل نير المسلمين الغالبين او العود الى اوروبة والهرب الى جزيرة قبرس مع الذين هربوا منهم فقبلهم الموارنة بينهم على الرحب والسعة (١)

وحاول المسلمون سنة ١٢٦٤ ان يفتحوا مدينة طرابلس فضايقهم الموارنة من الخارج عند حصارها : ولهذا عزموا على التنكيل اولاً بموارنة جبة بشراي وجوارها مما يلي هذه المدينة حتى يضعفوهم ويأمنوا شرهم : فدهقوا عليهم بغتة

(١) كما اشار البابا الاسكندر الرابع في احدى بطاقاته الى بطريركهم سمعان سنة ١٢٤٥ الى سنة ١٢٧٧ وذكره البابا بناديكتوس الرابع عشر في احدى خطبه ورسائله المشهورة : وغيره من المؤرخين المعتبرين

سنة ١٢٨٣ وقتلوا منهم ونهبوا قراهم واحرقوها ثم تركوهم وشأنهم . وبعد مدة اي في سنة ١٢٨٧ رجعوا الى محاصرة طرابلس ففتحوها بالقوة القاهرة : وكان اهل كسروان قد اتوا هذه المرة لنجدتها ولكنهم عادوا بالخيبة والفشل وحركوا ضغائن المسلمين عليهم حتى اخذوا منذ ذاك الحين يتحينون الفرص للانتقام منهم والتنكيل بهم كما كانوا قد فعلوا باخوانهم اهل جبة بشراي (١).

الا ان اهل كسروان قد تحسبوا لهؤلاء الاعداء وكانوا قد كثروا وعظمت شوكتهم بمن انحاز الى بلادهم من الافرنج الذين نجوا من المسلمين عند فتح بلادهم . ولذلك قد تحفزوا جميعاً لملاقاة اعدائهم الذين زحفوا عليهم سنة ١٢٩٢ ففتكوا بهم وهزموهم شرّ هزيمة (٢) : ثم في سنة ١٣٠٢ حيث تغلبوا عليهم ايضاً ونكلوا بهم (٣) . فتألب اذ ذاك عليهم المسلمون من كل جانب واخذوهم على غرة وضربوهم الضربة القاضية بكل قوتهم حتى كسروهم ودخلوا بلادهم عنوة فنهبوها

(١) راجع تاريخ العلامة الدويهي

(٢) راجع تاريخ بيروت لصالح بن يحيي : والعلامة الدريهي ايضاً

(٣) راجع تاريخ الدويهي : وتاريخ صالح بن يحيى عن رواية النواوي والصلاح الكتبي .

واحرقوها حتى تركوها قاعاً صفصفاً : ولم ينجُ من سيفهم الا الطوال العمر الذين تفرقوا ايدي سبا في البلاد . وقد تم ذلك في القسم الثاني من سنة ١٣٠٥ وخلا كسروان كله من السكان . وامر الملك الناصر محمد بن قلاوون تركمان الكورة ان ينزلوا في ساحله وهم الامراء آل عساف ليحافظوا عليه من الافرنج : وكان دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد وجسر المعاملتين تحت غزير (١)

* * *

وبعد ان استوثق الامر للمسلمين في كل سورية اخذ اكابرهم بالتزاحم على الحكم عليها او على بعض ايالاتها . وجرت لذلك حروب شتى بين الاحزاب مما شغلهم عن الموارنة الذين استكنوا في المواطن التي سلمت لهم في شمالي لبنان من نهر ابراهيم الى جبة بشراي في مشارف الجبل دون السواحل (٢) . فكان هذا الخلاف بين المسلمين رحمة بالموارنة

(١) راجع تاريخ العلامة الدويهي : وصالح بن يحيي : وكتاب اخبار الاعيان : وتاريخ الغرر الحسان : ومختصر تاريخ لبنان للشدياق انطونيوس ابي خطار الخ .

(٢) وفي هذا العصر كان مقام بطاركتهم واكثر اساقفتهم في بلاد جبيل تارة في يانوح واخرى في ميفوق وجوارها على ما جاء في الآثار وفي سلسلة هؤلاء البطاركة للعلامة الدويهي نفسه .

المساكين من فضل العناية الصمدانية : فانتهزوا هذه الفرصة لتدبير شؤونهم الداخلية وترتيبها على ما يوافق احوالهم في هاتيك الظروف الصعبة . وقد اهتم البطاركة والاساقفة بالاتفاق مع اعيانهم واقاموا لهم زعماء منهم سموهم مقدّمين لكل بلدة كبيرة وما جاورها من القرى الصغيرة مقدماً يرجع الجميع اليه في اختلافاتهم الزمنية ودعاويهم واقامة القسط والعدل بينهم (١) . وكان البطاركة يرسمون هؤلاء المقدمين شدايقة اي بالدرجات الصغار من درجات الكهنوت ليكون لهم التقدم في الكنيسة ايضاً على سائر العلمانيين الذين تحت سلطتهم . فتقررت على هذا الوجه وظيفة المقدمية وكانت تنتقل بالميراث الى الاعقاب دون اقل معارضة

وعلى تراخي الايام عظم امر هؤلاء المقدمين وظهر خاصة في احسن مجاليه في جبة بشراي لانها اخصب واغنى بقعة في بلاد الموارنة تلك الايام واكثرها سكاناً . وفي سنة ١٣٨٨ قد رمت الصدفة اليها بالملك الظاهر برقوق سلطان مصر وسورية بعد انكساره في حرب جرت له مع الناصري يلبغا وتربغا

(١) وذلك على نحو ما كان من قبل عندهم من قبل الصليبيين وفي عهدهم اذ كانوا يسمون زعماءهم هؤلاء « روسا » : طالع مذكرات بوغنوت بشأن نظام الاراضي التي اسسها الافرنج في سورية ص ٧٣ .

منطاش . فتوارى من وجه اعدائه متخفياً حتى بلغ الجبة حيث اضافه الشدياق يعقوب بن ايوب مقدم بشراي بكل اكرام : فاثبت له الملك الظاهر ولذريته من بعده المقدمية على كل الجبة بوثيقة كتبها له على صفيحة من نحاس (١) . فحكم هذا المقدم يعقوب بلاد الجبة بكل عدل واستقامة وحكمة وتودة حتى ملك الامان والسلام في ايام حكمه وعم كل البلاد فامها بعض النصارى من الجهات للتمتع بالراحة والحرية فيها (٢)

وتوفي المقدم يعقوب في خلال سنة ١٤٤٤ فخلفه في المقدمية على جبة بشراي اولاده بالتوارث . وقد حكموها نظيره بالاستقلال التام الى ان انقرضت ذريته سنة ١٥٤٧ بقتل آخر

(١) عن الدويهي وحمزة بن سباط . وعن الغرر الحسان . وكتاب اخبار الاعيان .

(٢) وذكر العلامة الدويهي : انه في سنة ١٤٤٠ ترك البطريرك يوحنا الجاجي كرسيه في دير سيدة ميفوق في اعالي بلاد جبيل مما يلي بلاد البترون وسار الى دير قنوبين الذي في وادي قديشا (اي الوادي المقدس) من ارض جبة بشراي واتخذه كرسياً له لكثرة ما كان من الامان والسلام في هذه الاقطاعة تحت حماية المقدم يعقوب واولاده . وكان في صحبة هذا البطريرك الاسقف شمعون من مشمش التي في اعالي بلاد جبيل . ومن ذاك الحين صار دير قنوبين المذكور كرسياً لبطاركة الطائفة المارونية .

احفاده المقدم عبد المنعم حنا . وقد تسببت بقتله ست الملوك اخذاً بثار زوجها كمال الدين بن عجرمة مقدم قيطو الذي كان في سنة ١٥١٩ قد طمع بالحكم على جبة بشراي اذ كان المقدم يوحنا هذا قاصراً : واذ بلغ اشده قتلـه في سنة ١٥٣٧ تخلصاً من طمعه

***

وفي سنة ١٥١٧ قد تم فتوح سورية للسلطان سليم العثماني على ما مشهور . واذ استتب له الامر فيها استدعى اليه أمراء البلدان وفي جملتهم امراء جنوبي لبنان من المسلمين وهم الامير عساف التركماني من كسروان والامير فخر الدين الاول ابن معن (١) من الشوف ؛ والامير جمال الدين التنوخي اليمني من الغرب . فولى الاول على بلاد كسروان وجبيل والثاني على بلاد الشوف والثالث على بلاد الغرب : وفرض على كل من هذه المقاطعات مبلغاً زهيداً من المال لخزينة السلطنة يُجمع من اهاليها بنسبة الاملاك والاعناق . وقد رحم بلاد كسروان كثيراً لقلة السكان فيه من بعد خرابه ففرض عليه سبعماية

(١) وفي تاريخ الدويهي انه الامير قرقماز بن يونس وانما الاصح ما رويناه هنا عن كتاب الغرر الحسان وعن كتاب تاريخ اخبار الاعيان بالاستناد الى تاريخ حمزة بن سباط .

سلطاني كل سنة (١) .

فخيم السلام والامان في عهد الامير عساف على بلاد كسروان واخذ الناس يؤمونه من كل جانب لما كان فيه من الراحة والرفق ؛ وقد رجع اليه جمهور من الموارنة من نواحي طرابلس وجرد بلاد جبيل ممن كانوا قد نزحوا عنه عند خرابه سنة ١٣٠٥ ومن سواهم : وكان في جملة من هاجر اليه من يانوح التي في جبة المنيطرة الشيخ حبيش بن موسى ابن عبدالله ميخائيل : فسكن في بلدة غزير (حيث كان امير البلاد) وله ولدان يوسف وسليمان . ولموضع ذكائهم وتهذيبهم قربهم الامير عساف اليه واتخذهم كتبة له ومدبرين لاموره في ادارة البلاد فاستأنس الموارنة بهم . وبعد وفاة الامير عساف سنة ١٥١٨ م استأثر بالولاية ابنه الامير قاتبيه بعد ان اغتال اخويه الامير حسن والامير حسين فنفى الشيخ سليمان والشيخ يوسف ولدي حبيش الى مصر لانهما كانا من حزب اخويه . ثم توفي هذا

(١) وهو عبارة عن ثلثي القرش الاسدي كما قال الدويهي . او عن الثلاثين غرشاً كما جاء في الغرر الحسان . وقد جاء في الفرمان السلطاني الذي تولى بمقتضاه الشيخ ابي نوفل الخازن على مقاطعة كسروان : ان مال هذه المقاطعة المفروض انما هو ثمانية وعشرون الف غرش ليس الا وهو بتاريخ ١٦٧١

الامير بلا عقب سنة ١٥٢٣ فتولى على هـذه الاقطاعة مكانه الامير منصور ابن اخيـه الامير حسن واسترجع الشيخين يوسف وسليمان حبيش من مصر واتخذهما مدبرين له كما كانا على عهد ابيه وجده . وقد عظم بهما على عهده شأن الموارنة في بلاد كسروان و كثرت مهاجرتهم اليه .

وكان الامير منصور ذا شجاعة وشهامة وعدل واستقامة وقد امتدت ولايته منذ نحو سنة ١٥٤٧ الى جبة بشراي (١) وقد بقي والياً نحو ستين سنة كانت كلها راحة وامان . واستلم الحكم بعده على هذه الولاية ابنه الامير محمد مدة عشر سنين ولم يكن أقل من والده حكمةً وشجاعةً وعدلاً . وقد استبقى على تدبيره المشايخ آل حبيش الى ان قتله غيـلة سنة ١٥٩٠ وهو بلا عقب يوسف باشا سيفـا والي طرابلس من الامراء

(١) ان امتداد ولاية هذا الامير التركماني الى جبة بشراي انما كان لانه بعد انقراض سلالة المقدم يعقوب سنة ١٥٤٧ كما رأيت اخذ اعيان هذه الجهة يتزاحمون على حكمها بحجة ما لهم من الصلة بسلالته ، وقد كثر التشايع والتحاسد بينهم حتى اضطروا اخيراً الى الالتجاء اولاً الى هذا الامير منصور ثم الى حكام طرابلس وغيرهم بكل وسيلة حتى يقروهم على المقدمية والحكم او يستبدلوا احدهم بالآخر لقاء مال يبذله لهم او يزيده على من سبقه . وهكذا ضعفت احوالهم ولكن بحيث لم تتغير طريقة الحكم بالاستقلال كما جرت عوائدهم .

آل سيفا التركمان في بلاد عكار : واختص لنفسه كل ميراث هؤلاء الامراء من ولاية واملاك بعد ان اغتال هـذا الامير الذي انقرضت به ذرية آل عساف وتروج بارملته سنة ١٥٩٣ ونكب المشايخ آل حبيش حتى لم يبـقَ منهم سوى ولدين لاذا بحمى الامير محمد بن جمال الدين في الشويفات وهما يونس وحبيش .

***

وكان في هذه الاثناء قـد ظهر المشايخ آل الخازن في كسروان وهم ممن نزحوا اليه من الموارنة من قريـة جاج في أعالي بلاد جبيل منذ سنة ١٥٤٥ . وقد اخفوا عندهم الامير فخر الدين المعني وأخاه الامير يونس بعـد قتل ابيهما الامير قرقماز حاكم بلاد الشوف اذ كانا قاصرين وربوهما عندهم تربية حسنة بين اولادهم الى ان بلغا اشدهما وراقت الاحوال فرجعا الى استلام ولاية ابيهما بلا منازع منذ سنة ١٥٨٥ . وقد تولى الحكم اكبرهما الامير فخر الدين الثاني وكان بطلاً هماماً وشهماً كريماً ذا عقل ثاقب ورأي صائب فاتخذ مربيه وكفيله الشيخ ابا صقر ابراهيم الخـازن مدبراً ومستشاراً له : واخاه الشيخ ابا صافي رباحاً دهقاناً لادارة املاكه وماليته .

فعند انقراض سلالة آل عساف من كسروان واستيلاء يوسف باشا سيفا على ولايتهم وميراثهم بدون حق انتهز الشيخ ابو صقر الفرصة وأخذ يزين للامير فخر الدين ان يزاحم ابن سيفا المذكور على حكم بلاد كسروان وجبيل ويسهل له ضم هذه الاقطاعة الى ولايته لانه احق بها بعد انقراض امرائها آل عساف من هذا المعتدي : حتى نهض في سنة ١٥٩٨ لمقاتلته . وكانت في خلال هذه السنة وقعة نهر الكلب بين الامير فخر الدين بن معن وبين يوسف باشا ابن سيفا بسبب حكم بلاد كسروان وكانت الكرة على ابن سيفا وقتل ابن اخيه الامير علي وتشتت جيشه . واما الامير فخر الدين فتولى حكم بيروت وكسروان سنة واحدة ثم تركها برضاه لابن سيفا وسار الى الشوف (١) والظاهر ان الامير فخر الدين لم يفلح اذ ذاك مع رجال الدولة الذين اجبروه على ترك هذه الاقطاعة وشأنها : ولكنه لم يسكت عنها بل اخذ يسعى بضمها الى ولايته متعهداً بتوريد مالها لخزينة الدولة . ولما تم له هذا الامر اعاد الكرة على ابن سيفا في خلال سنة ١٦٠٥ وكانت وقعة جونية بينهما فدارت الدائرة على ابن سيفا : فولى الامير فخر الدين من قبله على غزير ابن المسلماني وبقي هو في الشوف الى

(١) عن الدويهي حرفياً

ان ولى الوزير مراد باشا اذ كان في حلب سنة ١٦٠٧ على سنجقية صيدا وبيروت وغزير الامير علياً ابن الامير فخر الدين بوثيقة رسمية (١) .

وكان الشيخ ابو نادر ابن الشيخ صقر الخازن قد خلف والده في تدبير الامراء آل معن منذ سنة ١٦٠٠ ولم يكن اقل منه حكمة ودراية . وقد تولى ايضاً قيادة عساكرهم لانه كان بطلاً مغواراً اشتهرت شجاعته ودربته في الحرب حتى جلب النصر لمواليه في عدة مواقع شهيرة جاء ذكرها مع الثناء عليه في تاريخ الغرر الحسان وتاريخ ابن سباط . وكان الامراء آل معن يحبونه كثيراً ويجلون قدره لانهم خبروا اخلاصه وتفانيه في سبيل مجدهم في السراء والضراء وخصوصاً عند نكبة الامير فخر الدين واضطراره الى الهرب من وجه اعدائه الى بلاد تسكانة في ايتالية . فتولى اخوه الامير يونس الحكم مكانه في غيابه : واذ استتب له الامر اراد ان يكافئ الشيخ ابا نادر على اخلاصه فولاه على كسروان وسائر البلدان التابعة له : وقد ولى معه على هذه الاقطاعة مملوكه ذا الفقار لئلا يثير غضب المسلمين الذين كان معظم سكانها منهم بتولية نصراني عليهم .

(١) عن الدويهي

واذ رجع الامير فخر الدين من منفاه اقره وحده على ولاية كسروان . ثم استولى الامير على جبيل ثم على جبة بشراي وولاه مع عمه ابي صافي رباح عليهما ايضاً : وكان يتقدم في الحكم والنفوذ يوماً فيوماً . وقد قال فيه العلامة الدويهي معاصره عند ذكر وفاته سنة ١٦٤٧ انه « في اول تموز من هذه السنة كانت وفاة الشيخ ابي نادر ابن ابي صقر ابن الخازن مدبر الامير فخر الدين بن معن : تولى بلاد كسروان وجبيل والبترون وجبة بشراي والمرقب : وكان ذا غيرة على امور الدين فخلفه ولده الشيخ ابو نوفل نادر وزاد غيرة ومكارم على والده » .

***

وقد اشتهر الشيخ ابو نوفل برصانته وحكمته واصالة رأيه وهمته وشجاعته وشدة غيرته على الموارنة وسائر المسيحيين وقد استقل بالحكم على بلاد كسروان فمد عليه سرادق الامان وكان المتاولة قد اخذوا يمتدون في بلاد جبيل والبترون ويمدون سيطرتهم عليها ويضايقون الموارنة فيها حتى كثرت مهاجرتهم الى بلاد كسروان والمتن والشوف تحت رعاية آل معن الذين كانوا يميلون اليهم كل الميل ويستخلصونهم على

كل أحد (١) .

وقد تجددت في هذا العصر حماية الدولة الفرنساوية للموارنة بمقتضى الخط الشريف الصادر من لدن الملك لويس الرابع عشر سنة ١٦٤٩ . وفي سنة ١٦٥٩ قد وضع هذا الملك العظيم الشأن الشيخ ابا نوفل الخازن وذريته تحت حماية الدولة الفرنساوية العظمى وخولهم كل ما للفرنسيين المولودين في نفس فرنسة من الحقوق والانعامات . ثم في سنة ١٦٦٢ قد جعله قنصلاً لفرنسة في بيروت بوثيقة رسمية منه : وقد عرفه بهذه الوظيفة واثبتها له السلطان محمد الرابع بفرمان مؤرخ في سنة ١١٠٤ هـ (وهي سنة ١٦٦٢ م) . وفي سنة ١١٧١ قد اثبت السلطان الولاية على مقاطعات كسروان وبكفيا وغزير (كذا في الاصل) للشيخ ابي نوفل وذريته بفرمان عالٍ فاستتب له الامر على هذه المقاطعات بدون منازع واستقل بها هو وذريته الى سنة ١٨٦٠ كما هو مشهور : الا مقاطعة بكفيا التي ولى عليها الامير حيدر الشهابي الامراء آل ابي اللمع

---

(١) قال العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٣ واصفاً الامير فخر الدين بعد مقتله في الاستانة ما مؤداه « وفي ايام الامير فخر الدين ارتفعت رؤوس النصارى . . . . وكان اكثر عسكره منهم ومدبريه وخدمه من الموارنة » .

بطلب اهاليها ورضى المشايخ الحوازنة وجعلها اقطاعة لهم : وقد تنصر هؤلاء الامراء فيما بعد وصاروا موارنة . ومن ثم قد استوثق الامر للموارنة في هذا العصر في بلاد كسروان وفي جبة بشراي على الخصوص وحكموا ذاتهم بذاتهم مستقلين استقلالاً نوعياً دون ان يعارضهم احد في امورهم الدينية والمدنية .

***

على انه قد تولى حكم جبة بشراي في سنة ١٦٤١ رجل من الشوف يقال له المقدم زين الدين ابن الصواف بعد مقتل حاكمها الشيخ ابي الذيب حنا ابن الشماس جرجس الاهدني : وكان هذا اول حاكم على الجبة من غير الموارنة وقد أرفق مع ذلك برجل منهم في الحكم يقال له ابو عون الجميل (١) من بكفيا . فلم يهن ذلك على الشيخ ابي رزق البشعلاني الماروني (٢)

(١) جاء في نسخة تاريخ الدويهي المطبوعة في بيروت انه « ابو عون جمعة » كما اثبتناه في الطبعة الاولى من كتابنا هذا : الا اننا فهمنا من بعض الثقاة من اهل بكفيا انه « الجميل » كما اثبتناه هنا : وانما « جمعة » من تحريف النساخ : ثم راجعنا الان النسخ الخطية التي وصلت لدينا من تاريخ الدويهي فاذا هو فيها « ابو عون الغمه »

(٢) راجع بشأنه وشأن اولاده تاريخ الموارنة للعلامة الدويهي :

الذي نال بجاهه وحصافة عقله وحسن سياسته في هذا العصر من التقدم ونفوذ الكلمة ما جعل ولاة طرابلس يتخذونه مدبراً ومستشاراً لهم منذ سنة ١٦٤٤ فتقلب في هذه الوظيفة على حسب تقلب الولاة . واذ تربع فيها على عهد ولاية عمر باشا سنة ١٦٤٩ انتهز الفرصة فاسند الحكم على جبة بشراي الى اخيه الشيخ ابي صعب . الا انه في سنة ١٦٥١ قد عزله مصطفى بك الصهيوني مناظر اخيه الشيخ ابي رزق اذ تغلب عليه واخذ وظيفته وولى على جبة بشراي أبا شاهين علياً بن العجال من بشناتة

واذ رأى اهل الجبة ان اليد الاجنبية قد امتدت اليهم بحيث لم يستطيعوا ردها عنهم بسبب تضعضع احوالهم عمدوا الى مخابرة الشيخ سرحان ابي حماده من مشايخ المتاولة الذين في جوارهم في امر تولية واحد من عائلته عليهم بشرط ان لا يتعرض لهم في ثلاثة امور وهي الدين والعرض والدم (١) .

وتاريخ سورية للمطران يوسف الدبس المشهور . وكتاب سياحة دي روش في لبنان على عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا العظيم .

(١) ان هذه الامور الثلاثة التي ضن بها الموارنة على هذا الحاكم الاجنبي انما هي خلاصة معنى الاستقلال الذي كانوا يحرصون على سلامته كل الحرص ولا يطيقون ان يمس في اركانه هذه الثلاثة كما سنبينه فيما يلي .

فقدم لهم ابن عمه الشيخ احمد عيادة الذي قبل بذلك : وسعى الجميع لدى والي طرابلس محمد باشا الكبري فولاه على الجبة سنة ١٦٥٤ : فسار في الرعية مسير العدل والاستقامة . ولكن بعد سنتين قد عزله محمد اغا الطباخ والي طرابلس وولى مكانه المقدم فارس بن مراد ابن ابي اللمع من المتن . ثم نقله سنة ١٦٥٨ الى بلاد عكار وولى مكانه على الجبة المقدم قانبيه ابن الشاعر على يد الامير ملحم المعني واستوفى المال الشيخ ابو نوفل الخازن . واستمر الحال على ذلك الى سنة ١٦٧٤ : فارسل حسن باشا والي طرابلس اذ ذاك الى الجبة من قبله رجلاً يقال له ابراهيم اغا فتقرب اليه الشيخ ابو كرم بشاره الاهدني والشيخ ابو شديد غصيبي ابن كيروز البشراني وكانا صاحبي الكلمة النافذة عنده : واذ عاد ابراهيم اغا الى مولاه حسن باشا سنة ١٦٧٦ ولى على الجبة بايعازه الشيخ ابا كرم بشاره . وفي سنة ١٦٧٧ تولى على ايالة طرابلس محمد باشا الذي رفع الاضطهاد عن بيت حماده وارجع اليهم اقطاعاتهم وولى الشيخ احمد عيادة نفسه حكم جبة بشراي . والظاهر ان هذا الشيخ قد اراد هذه المرة ان يستبد في الرعية ويخلف الشرط الذي كان اشترطه اهل الجبة عليه حين رضوا بولايته عليهم فعارضه البطريرك اسطفانوس الدويهي اشد المعارضة . وفي سنة ١٦٨٣

هجر هذا البطريرك الجبة بسبب ذلك كما اخبر هو عن نفسه في تاريخ هذه السنة لاجئاً الى الامير ملحم المعني في دير القمر فاسكنه هذا في قرية مجدل معوش التي كانت كلها للموارنة(١) فاقام فيها سنتين . وحينئذ حضر اهل الجبة الى الامير برسائل الخضوع من المشايخ اولاد احمد عيادة وبها يقسمون ان لا يعودوا الى تغيير شروطهم معه فرجع البطريرك مع الوفد الى كرسيه في جبة بشراي بكل اكرام .

الا انه في اواسط سنة ١٦٩٢ قد ولى علي باشا والي ايالة طرابلس الشيخ ميخائيل بن نحلوس الاهدني على جبة بشراي وزاوية رشعين معاً . وهو ابن اخت الشيخ ابي كرم بشاره

---

(١) جاء في تاريخ سنة ١٦٥٩ من تاريخ العلامة الدويهي . ان البطريرك يوحنا مخلوف الاهدني قد اضطر ان يرحل في هذه السنة عن جبة بشراي الى بلاد الشوف لائذاً بحمى الامير فخر الدين المعني بسبب كثرة المظالم التي حلت بها من القشلاق ومن المقدم خاطر بن رعد الحصروني . فتلقاه الامير بكل حفاوة واكرام . واتفق قبل ذلك بمدة ان وقعت فتنة بين المسلمين سكان قرية مجدل معوش في الشوف كثرت فيها القتلى من الجانبين حتى اضطر الجميع اخيراً الى هجر قريتهم . فاشتراها منهم الامير علي ابن الامير فخر الدين باثني عشر الفاً وكلف النصارى بدفعها فدفعوها وتوطنوا هذه القرية . فنزل البطريرك بينهم وبنى له فيها كنيسة وداراً لسكناه واستمر هناك مدة غير قليلة .

المذكور آنفاً (١). وبعد مدة قد اغتاله رجل من المتاولة يقال له ابن الشقراني في الضنية فعادت الولاية على الجبة الى بيت احمد حماده (٢) واستمر من ذلك الحين حكمها بيد المتاولة الى منتصف القرن الثامن عشر. وقد سلكوا في الرعية مسلك العدل والانصاف مع المحافظة على استقلال الموارنة في امور الدين والعرض والدم على مقتضى الشروط السابق ذكرها: فملك السلام والامن في ربوعهم كل هذه المدة.

---

(١) يظهر ان هذا ابن نحلوس كان من الابطال المشهورين بدليل البيت الآتي من الاغاني الشعبية الزجلية التي وصلت الينا بالتواتر من هاتيك الايام وهو:

يحرس دينك يا نحلوس * حميت الضيعه بالدبوس
جامع رشعين هديته * وبزغرتا دقيت ناقوس

ومن ذاك الحين تملك اهل اهدن قرية زغرتا الشهيرة على ضفاف نهر رشعين في زاوية طرابلس.

(٢) والظاهر انهم عند اول رجوعهم الى حكم الجبة هذه المرة كانوا اشرس منهم في المرة الاولى: ويدل على ذلك حادثة كبيرهم اذ ذاك الشيخ عيسى مع البطريرك الدويهي على ما جاء في تاريخ سيرة حياته المنشورة في اول كتاب تاريخه المذكور مراراً: وقد انتصر له المشائخ آل الخازن الذين جاؤا برجال كسروان الى الجبة ليثأروا له مما حمل المتاولة ان يلجأوا اليه للنجاة منهم.

ولكن هؤلاء المتاولة لم يستطيعوا ان يغيروا طباعهم السيئة من حيث الاستبداد والجور مدةً طويلة بل عكف اولادهم من بعدهم منذ سنة ١٧٥٠ على الظلم والاعتساف والسلب والنهب والقتل حتى ضج الاهلون من ذلك واخذ مشايخ القرى من الموارنة يتآمرون على الثورة عليهم والتخلص من نيرهم القاسي. وفي سنة ١٧٥٩ نهضوا نهضة واحدة واصلوا المتاولة حرباً هائلة كانت بدايتها في اهدن حتى اخرجوهم من الجبة بقرع السيف واستولوا على املاكهم وبكاليكهم. وقد طاب ذلك لوالي طرابلس الذي كان يكره المتاولة كرهاً شديداً بسبب كثرة تعدياتهم في ايالته فاسند اهل الجبة في المواقع التي حصلت بعد ذلك بينهم وبين هؤلاء المتاولة: حتى ضعفوا في كل جبل لبنان ورحل القسم الاكبر منهم الى بلاد بعلبك. وكان آخر من ضربهم الضربة القاضية الشيخ سعد الخوري الماروني المشهور مدبر امور الامير يوسف الشهابي فزحف عليهم برجاله سنة ١٧٧٧ بامر الامير لانهم كانوا تسطوا على الامير بشير حيدر نائبه في جهات العاقوره. وقد نكل بهم الشيخ سعد تنكيلاً واسر مشايخهم وجاء بهم مصفدين الى مولاه.

اما مشايخ الجبة فمن بعد اخراج المتاولة منها قد اتفقوا

على قسمة البلاد فيما بينهم الى منطقات يحكم كل منهم منطقة منها كما كانت مقسمة على عهد المتاولة : فلم يعارضهم والي طرابلس بذلك اذ قد تعهدوا له بتقديم المال المفروض للخزينة على هذه البلاد . وفي سنه ١٧٦٤ قد تولى على كل جبل لبنان الامير منصور ابن الامير حيذر موسى الشهابي . واذ مثل مشايخ الجبة بين يديه اقرهم على حكم بلادهم بحسب ما اتفقوا عليه: فاستمروا على هذه الحال الى ان غيرها نظام لبنان الجديد سنة ١٨٦١ .

***

وكان فرع من عائلة بيت الرز الذين هاجروا من بقوفا التي بجوار اهدن في جبة بشراي الى قرية كفرحورا في زاوية رشعين قد تقدم منذ اواسط القرن السابع عشر عند مقدمي الزاوية من بني الشاعر : وقد عرف هذا الفرع فيما بعد بالمشايخ بني الظاهر من جدهم ابي شديد ظاهر . فهؤلاء قد اقتنوا املاكاً واسعة في ذلك الوادي الخصيب وعظم جاههم حتى استأنس بهم الموارنة وكثر عديدهم هناك بقدر ما كان يقل عدد بني الشاعر واتباعهم . واذ سنحت الفرصة لهؤلاء المشايخ آل الظاهر توسلوا بكل الوسائل لدى والي طرابلس حتى ضمنهم مال الزاوية واسند اليهم بالتالي الحكم عليها جميعها . فأحسنوا السير

والتصرف بكل استقامة وحكمة وكانت تنتقل الولاية على هذه المقاطعة بطريق التوارث الى احفادهم كالعادة : وكان الحكام يقرّونهم عليها لانهم لم يكونوا يتأخرون بدفع مالها المضروب ولم يكن لهم من مزاحم . وقد امتدت صولتهم على كل جوارهم ووقعت هيبتهم في القلوب خصوصاً في ايام احدهم الشيخ كنعان الظاهر البطل الشهير الذي حمى الزاوية بسيفه من تعديات المسلمين الى ان قتل في طرابلس شهيداً في خلال سنة ١٧٤١ (١) : وقد استمر حكم الزاوية التي صارت مأهولة كلها بالموارنة في يد هؤلاء المشايخ الكرام الذين كانوا عوناً للدين والدنيا الى ان الغي حكم المقاطعات بنظام سنة ١٨٦١ .

وفي نحو سنة ١٧٠٠ قد هاجر من قرية غوسطا في بلاد كسروان الخوري صالح مبارك بعائلته الى بلاد الشوف وسكن قرية رشميا: حيث كان الموارنة فكثر عديدهم . وكان احد اولاده المدعو عبدالله رجلاً هماماً وبطلاً مغواراً فابلى بلاء حسناً واسر أميرين من اليمنية في موقعة عين داره الشهيرة التي جرت سنة ١٧١١ بين الامير حيذر موسى الشهابي والي جبل لبنان وبين يوسف علم الدين اليمني مزاحمه . وبعد ان تم

(١) راجع تاريخ العلامة الدويهي لهذه السنة وما قبلها .

النصر للامير حيدر واستتب له الامر كافأ الشيخ عبدالله الخوري صالح مبارك المذكور باقطاعه قرية رشميا (١) . وقد تقدم من اولاده الشيخ سعد الخوري ثم ولده الشيخ غندور الخوري عند الامير يوسف الشهابي اذ تولى حكم جبل لبنان واشتهرا شهرة زائدة في شهامتهما وحسن تدبيرهما وسياستهما : فافادا الطائفة المارونية فوائد تذكر من كل وجه : وتولى الثاني منهما قنصلية فرنسة في بيروت بامر الملك لويس السادس عشر : وولاه الامير يوسف ايضاً على مجدل معوش ووادي الست وبحمدون وعين تراز في بلاد الشوف فكان خير معين لنصارى هاتيك الجهات : وبقيت هذه الولاية في عائلته الى ان الغيت بنظام سنة ١٨٦١ .

وفي سنة ١٧٧٣ قد ولى الامير يوسف الشهابي ايضاً على بلاد البترون الشيخ سمعان ابن الشيخ يعقوب البيطار من غوسطا واقطعها له ولذريته من بعده فاعتنى بتعميرها بعد خرابها وباخراج المتاولة منها . وكثرت على عهده مهاجرة الموارنة اليها من كل الجهات حتى صارت كلها تقريباً في مدة وجيزة مارونية وكثرت فيها الاديار والكنائس والمدارس بسبب

(١) وعبد الله هذا قد صار فيما بعد كاهناً وبقي على اسمه وهو جد فرع بني السعد من المشايخ آل الخوري في رشميا .

الامان الذي خيم عليها في عهده : وقد بقيت في يد ذريته الى نظام سنة ١٨٦١

وفي سنة ١٧٧١ قد اقطع الامير يوسف الشهابي ايضاً للشيخ رامح بن حيدر بن قيس الخازن قرية جاج وقرية ترتج وقرية لحفد وغيرها في صرود بلاد جبيل بقصد ان يحميها من تعديات المتاولة . فانتقل الشيخ المذكور بعائلته الى السكنى في سقي لحفد (١) واتى معه ببعض العيال من اهالي عشقوت وعجلتون والزوق من بلاد كسروان فاسكنهم في قرية جاج تعزيزاً للموارنة في تلك الناحية حتى حفظها من تعديات المتاولة . وبقيت هذه الاقطاعة تحت حكمه وحكم ذريته الى نظام ١٨٦١ . وكثر الموارنة هذه الايام في كل بلاد جبيل حتى صارت كلها لهم الا قسماً من وادي علمات ومن جبة المنيطرة حيث لم يزل لهؤلاء المتاولة بقية ضعيفة لا يعتد بها

وفي هذه السنة نفسها قد اسند الامير يوسف المشار اليه الحكم على اقطاعة الفتوح الى المشايخ آل الدحداح الذين كانوا من مدبريه وكتّابه . وكانت هذه الاقطاعة على عهدة بعض المشايخ المتاولة منذ عهد بعيد فأخذ الموارنة يتسربون اليها من

(١) وهي مزرعة متوسطة بين هذه القرى دعيت بهذا الاسم لغزارة مياهها وخصب ارضها .

كل ناحية ويتملكون فيها . وقد كثروا اولاً بسبب نفوذ الشيخ يوسف الدحداح عند الشيخ اسماعيل حمادة صاحب الفتوح : الذي دخل عنده اولاً بصفة كاتب وانتقل بعائلته من قرية العاقورة وسكن هذه المقاطعة منذ سنة ١٧٠٥ حيث وهب له الشيخ اسماعيل بعض العقارات الواسعة : ثم انتقل الى قرية عرامون في كسروان حيث توطن بتاتاً . وقد ضعف امر المتاولة في الفتوح بقدر ما تقوى العنصر الماروني حتى لم يبق من الاولين الا بعض البيوت في مزارع مخصوصة بهم . ومن ثم فمنذ ١٧٧١ قد صارت هذه الاقطاعة تحت حكم المشايخ الدحادحة الذين ساروا في الرعية سير العدل والانصاف وقد نالوا من النفوذ معظمه عند الامير يوسف والي الجبل(١) ثم عند الامير بشير الشهابي المعروف بالكبير . وقد بقيت هذه اقطاعة الفتوح على عهدتهم الى نظام سنة ١٨٦١ .

***

فكل لبيب يرى مما ذكرناه حتى الان ان الموارنة سكان جبل لبنان قدكانوا منذ القديم حتى اوائل القرن السادس عشر من القرون المسيحية مستقلين استقلالاً تاماً او على الاقل

(١) وقد انعم عليهم هذا الامير ايضاً لقاء خدماتهم الجليلة ببعض العقارات في ساحل بلاد جبيل حيث توطن قسم منهم في مزرعة « بلاط ».

نوعياً في البلاد التي سكنوها من جبل لبنان وحدهم فكانوا يحكمون ذاتهم بتمام الحرية في امورهم الدينية والزمنية على مقتضى شرائعهم المختصة بهم . وقد رتبوا كل امورهم ونصبوا حكامهم منهم ولهم تخصيصاً بالاتفاق مع بطريركهم واساقفتهم دون ان يعارضهم او يسيطر عليهم احد من الاجانب : الا ما نكبهم به بعض الغزاة موقتاً لمطمع او جر مغنم دون ان يستولي احد عليهم او يتحرش لامورهم الداخلية او لاحوالهم الخصوصية مما يتعلق على قولهم « بالدين والعرض والدم » . وفي هذه الكلمات الثلاث كما يرى المتأمل كل القصد من استقلالهم وهو ما كانوا في كل زمان حريصين عليه كل الحرص .

ومن بعد فتح الدولة العثمانية لسورية في الربع الاول من القرن السادس عشر وتولية الامراء المسلمين على الغرب والشوف وبلاد كسروان وجبيل كما رأيت قد استمر الموارنة على عوائدهم واستقلالهم الداخلي خاصة في جبة بشراي حيث لم يزعجهم احد حتى انقرضت سلالة مقدمي الجبة سنة ١٥٤٧ من ذرية الشدياق يعقوب بن ايوب . فتزاحم مشايخ الجبة واعيانها بعد ذلك على الحكم واضطر بعضهم ان يلجأ الى حكام طرابلس وبعضهم الى الامير منصور عساف في كسروان حتى

يسندوهم ضد معارضيهم في الولاية . وهكذا امتدت اليهم اليد الاجنبية ولكن دون ان تمس جوهر استقلالهم النوعي وحريتهم الذاتية خاصة من جهة الدين والعرض والدم . واستمروا على هذه الحال الى ان كانت سنة ١٦٤١ فتولى الحكم على جبة بشراي رجل اجنبي من الشوف ومعه رجل ماروني من بكفيا كما مرَّ بك آنفاً . واخذ الحكام منذ ذاك الحين يتوالون عليهم تارة منهم وتارة من الاجانب الى اواخر القرن السابع عشر ومن بعده الى منتصف القرن الثامن عشر قد استتب الامر في الجبة للمشايخ المتاولة الذين في اول امرهم قد سلكوا مع الموارنة مسلك الاستقامة في ادارة امورهم الخارجية دون ان يتعرضوا لهم في كل ما يتعلق بامورهم الداخلية اي بالدين والعرض والدم حسب ما اشترطوا عليهم يوم اتفقوا معهم على القبول بحكمهم في الجبة . اما وقد أخذ المشايخ المتاولة في آخر امرهم الطمع فيهم والاستبداد غير مكترثين للشروط التي عقدت مع آبائهم فقد هب اهل الجبة وهم اباة الضيم على بكرة ابيهم وطردوهم بقرع السيف كما رأيت وتولوا هم انفسهم شؤون انفسهم واختاروا من بينهم من ولوهم الحكم عليهم بالاستقلال وعادوا الى عوائدهم القديمة .

وكان المشايخ آل الخازن قد تولوا الحكم على بلاد كسروان

واجتمع عليهم الموارنة من كل ناحية فاحتلوه مكان سكانه المسلمين حتى صار كله لهم . واستولى المشايخ آل الظاهر ايضاً على زاوية رشعين في ضواحي طرابلس وعملوا على اجلاء المسلمين منها واسكان الموارنة مكانهم حتى صارت كلها لهم . وسلم الامير يوسف ابن الامير ملحم الشهابي بلاد البترون الى عهدة الشيخ سمعان البيطار الغوسطاوي وذريته بعد ان طرد منها المتاولة فحل الموارنة محلهم وصارت هذه البلاد تقريباً كلها لهم . وسلم هذا الامير ايضاً بعض القرى في اعالي بلاد جبيل الى عهدة الشيخ رامح الخازن بعد ان نكب المتاولة واجلاهم عنها ليحميها من تعدياتهم فعزز الموارنة فيها حتى صارت كلها لهم . وكذلك كل بلاد جبيل ما عدا وادي علمات وجبة المنيطرة حيث بقيت للمتاولة بقية ضعيفة مع ان اكثر املاكها قد صارت للموارنة . ثم سلم الامير المشار اليه ايضاً مقاطعة الفتوح بين بلاد كسروان وبلاد جبيل الى عهدة المشايخ آل الدحداح بعد ان تقلص ظل المتاولة عنها واشترى الموارنة املاكهم فيها وحلوا محلهم حتى صارت كلها لهم : الا بعض المزارع الصغيرة التي بقي فيها بعض البيوت من المتاولة ولكن تحت حكم الموارنة . وكان الامير حيدر موسى الشهابي في سنة ١٧١١ قد اقطع قريه رشميا في بلاد الشوف للمشايخ

بني الخوري صالح مبارك ثم وسع لهم هـذه الاقطاعة حفيده الامير يوسف اذ ولى مدبره الشيخ غندور الخوري على مجدل معوش ووادي الست وبحمدون وعين تراز التي لم تزل على ملك احفاده حتى الان : وصارت كل هذه الاقطاعات تقريباً للموارنة .

ومنذ اواسط القرن الثامن عشر اخذ بعض الامراء الشهابيين باعتناق الديانة المسيحية وقد تبعوا الموارنة وتبعهم في هذا السبيل بعض الامراء اللمعيين حكام قاطع بكفيا من بلاد كسروان وصاروا ايضاً موارنة . وتولى الامير بشير الشهابي المعروف بالكبير وهو ماروني من ولادته على كل جبل لبنان منذ ١٧٨٨ الى سنة ١٨٤٠ اذ عُزل ونُفي الى جزيرة مالطة ثم جاء الى الاستانة بعائلته وبطانته . ومن بعده تغيرت الاحوال في جبل لبنان مدة نحو عشرين سنة فقسم بامر الدولة العثمانية وموافقة دولة فرنسة وبعض الدول الاوربية الى ايالتين دعيت احداها قائمقامية النصارى وحدودها من طريق الشام العمومي ثم من طريق دير القمر العمومي في جهة ساحل بيروت الى آخر جبة بشراي وآخر الزاوية من الشمال ووُلي عليها حاكم ماروني وهو الامير حيذر ابي اللمع الشهير بانتخاب بطريرك الموارنة : ثم خلفه عليها بعد وفاته الامير

بشير اللمعي الذي حصلت على عهده فتنة سنة ١٨٦٠ الشهيرة بين الدروز والنصارى فانقضت بنظام لبنان الحالي المعروف . ودعيت الايالة الثانية (وهي اصغر من الاولى بكثير) قائمقامية الدروز وولي عليها الامير امين ارسلان . واقيم لكل من هاتين القائمقاميتين مجلس عمومي للادارة والقضاء مؤلف من اثني عشر عضواً من الطوائف اللبنانية الست بالتساوي مع قطع النظر عن التفاوت بينها من حيث العدد والاهمية : اي من كل طائفة عضوان تحت رعاية القائمقام . ووضع للجبل كله نظام مخصوص في ٣٨ مادة يعرف بنظام شكيب افندي للسير بمقتضاه على وجه الاستقلال النوعي . وذلك كله مع المحافظة على حقوق اصحاب المقاطعات التي لم تلغَ بتاتاً الا بنظام سنة ١٨٦١

* * *

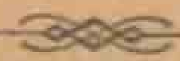
فمن هنا ترى ان الطائفة المارونية قد توصلت في بهرة القرن الثامن عشر بجدها وبواسطة نوابغ رجالها وحسن تدبيرهم الى ان تملكت بالاستقلال كل ما هو من حدود نهر الجعماني اي آخر حدود بلاد كسروان من القبلة الى آخر حدود زاوية رشعين وجبة بشراي اي من الشمال فضلاً عن امتدادها بكثرة في بلاد المتن والشوف وغرب بيروت واقليم جزين الذي صار

الان تقريباً كله للموارنة ايضاً . ولذلك ففي نظام لبنان الحالي منذ سنة ١٨٦١ قد تقرر اولاً ان يكون الحاكم العام الذي تنصبه الدولة العثمانية عليه بموافقة الدول الاوربية الكبرى علىٰ ما هو مشهور كاثوليكياً بسبب اهمية الطائفة المارونية الكاثوليكية فيه . ثانياً ان يكون للموارنة اربع مقاطعات فيه يتولى كل مقاطعة منها قائمقام ماروني : وهي مقاطعة البترون وتشمل زاوية رشعين وجبة بشراي وكل بلاد البترون ويتبعها اقطاعة الهرمل من ناحية بلاد بعلبك : ثم مقاطعة كسروان وهي تشمل بلاد جبيل والفتوح والقسم الذي كان على عهدة المشايخ الخوازنة من كسروان وحدوده من نهر الكلب ويتبعها اقطاعة شمسطار من ناحية بلاد بعلبك : ثم مقاطعة المتن وهي تشمل النصف الآخر الجنوبي من كسروان وكل بلاد المتن ويتبعها وادي العرائش الذي فوق زحلة . ثم اقليم جزين برأسه الى حدود صيدا . ذلك فضلاً عن اقطاعة دير القمر في وسط الشوف التي استثنيت من حكم قائمقامية الدروز وجعلت مديرية مستقلة تحت ادارة مأمور ماروني لها محكمة مارونية بحتة قائمة بذاتها .

وللموارنة ايضاً اربعة اعضاء في مجلس ادارة لبنان فيما ان للدروز ثلاثة اعضاء وللروم عضوين وللروم الكاثوليك عضواً

واحداً وللمتاولة عضواً واحداً وللمسلمين عضواً واحداً ايضاً وقد أجري ذلك رعاية للتوازن دون العدد والاهمية والا كان اصاب الموارنة سبعة او على الاقل ستة اعضاء في مجلس الادارة الذي جعل لذلك رئيسه على الدوام مارونياً على سبيل الترضية (١) .

فمن هنا تعرف اهمية الموارنة في جبل لبنان دون حاجة الى ذكر باقي الوظائف القضائية والادارية والعسكرية التي يتولونها : لان ذلك يمكن ان يُعرف بسهولة وهو ليس من موضوع كتابنا هذا .



(١) وقد ابيح للموارنة قبل هذه الحرب الاخيرة العامة بانتخاب عضو خامس لمجلس ادارة الجبل عن مديرية دير القمر المستقلة فصار اعضاؤهم به خمسة .

الخاتمة

ويجدر بنا الان ان نختم هذه الخلاصة بملاحظة مهمة جداً في موضوعنا هذا وهي مما يزيد براهيننا حتى الان عن استقلال الموارنة الداخلي في جبل لبنان قوة ورسوخاً .

قد رأيت ان موارنة الجبة عند ما اتفقوا مع الشيخ سرحان حماده المتوالي سنة ١٦٥٤ على تولية أحد ابناء عمه على جبة بشراي قد اشترطوا عليه « ان يتولى بلادهم كما يشاء ويعاقب المذنبين بما يشاء ولكنه لا يحق له ان يتداخل في ثلاثة امور — الدين — والعرض — والدم » . وقد قلنا غير مرة كما نقول الان ان هذه الامور الثلاثة التي حصروها في هذه الكلمات الثلاث وحرصوا عليها كل الحرص في كل زمان انما تدل على استقلالهم الذاتي الذي تمتعوا به على الدوام ولم يتنازلوا عنه في وقت من الاوقات سواء حكموا ذاتهم بذاتهم او تولى اجنبي عنهم في بعض الاحايين الحكم الزمني عليهم . واليك بيان ذلك :

اما الدين فقد قصدوا به الحرية الدينية في كل احكامه

وما يتعلق به من مثل انتخاب البطاركة وتنصيبهم واستعمال وظيفتهم بحسب قوانينهم بدون اقل معارضة ولا تدخل الحكومة الزمنية في شيء من ذلك : ثم اختيار هؤلاء للاساقفة وسيامتهم وتوليتهم على الشعب بمقتضى الرسوم البيعية : ثم اقامة الكهنة وتفويضهم في خدمة الشعب الروحية تحت سلطة الاساقفة : ثم بناء الكنائس والمدارس والاديار والمحابس على ايثارهم وبدون اقل حاجة الى استئذان الحكام : وكذلك حبس الاوقاف على هذه المعاهد الدينية تحت سلطة البطاركة والاساقفة وبتصديقهم وحدهم عليها واعتبارها شرعاً كذلك عند العموم متى كانت على هذا الشكل : ثم اقامة الشعائر الدينية علناً في الكنائس وخارجاً عنها على ايثارهم دون اقل معارضة : وتحديد المقابر وتكريسها والدفن فيها ودفن البطاركة والاساقفة والكهنة وبعض الاعيان من المحسنين في الكنائس والمعابد دون استئذان السلطة الحاكمة ولا حرج: لان كل ذلك ونظائره عندهم مما يتعلق بالدين والرؤساء الروحيين وله عندهم حدود وقوانين مرسومة يتقيدون بها دون غيرها ولا يتحملون تدخل احد من العلمانيين اياً كانوا بشأنها لانهم يعدون ذلك انتهاكاً لحريتهم الدينية التي يحرصون عليها حرصهم على دمائهم

وفوق ذلك فانهم كانوا يعدّون ايضاً بعض الاحكام الزمنية في داخليتهم من اختصاص رجال الدين : ولهذا لم يكن لحكامهم الزمنيين حق القضاء بينهم . ومن ثم لم يكن لهم مجالس ولادواوين ولا قضاة يرجعون اليهم في اختلافاتهم لانهم كانوا يحسبون البطاركة والاساقفة بمنزلة قضاة لهم ايضاً يقضون بينهم بحسب قوانين الذمة وروح الشريعة المسيحية العادلة . فاضطر لذلك البطاركة والمطارنة ان يضموا الى قوانينهم الكنسية قوانين مدنية بحتة مقتبسة من الشرائع الرومانية التي تناسب روح الديانة المسيحية ليقضوا بين الرعية على مقتضاها . فمن ذلك « كتاب الهدى » وهو مجموعة رسوم وقوانين كنسية ومدنية وضعه احد آباء الكنيسة المارونية باللغة السريانية من قبل القرن العاشر وترجمه الى اللغة العربية في منتصف القرن الحادي عشر احد اساقفة الموارنة المعروف بالمطران داود كما جاء في اول هذا الكتاب : وقد وصل الينا منه عدة نسخ خطية اقدمها عهداً النسخة المحفوظة الى الآن في خزانة الكتب الواتيكانية تحت عدد ١٣٣ من القسم السرياني نسخت سنة ١٧١٣ للاسكندر وهي سنة ١٤٠٢ للميلاد الرباني : وفي خزانة الكتب الملوكية في باريس نسخة اخرى منه نسخت على ما يظهر في القرن السادس عشر وهي

تحت عدد ٢٢٣ من القسم السرياني فضلاً عن نسخ عديدة له في جبل لبنان

ومن ذلك ايضاً « كتاب الناموس » وهو مجموعة رسوم وقوانين كالاول وقد وقعت لنا منه نسخة كتبت بالخط الكرشوني منذ سنة ١٥٥٠ وهي محفوظة في دير الكريم بكسروان للمرسلين اللبنانيين الموارنة : وقد قال ناسخها انه كتبها عن نسخة كانت محفوظة في الكرسي البطريركي بدير قنوبين كتبت منذ ثلاثمائة سنة من قبله اي سنة ١٢٥٠ . وقد اكد لنا بعضهم انه يوجد نسخة منه ايضاً في خزانة الكتب الملوكية في باريس . وهذا الكتاب يقسم الى قسمين فالقسم الاول « في القوانين والرسوم البيعية المحضة » وفيه اثنان وعشرون باباً : والقسم الثاني « في الامور العالمية والسياسية كالمأكول والمشروب والملبوس والمنازل والزواج وتحريم التسري (١) .

---

(١) واليك بيان ابوابه باباً باباً : « الباب ٢٣ في المآكل والملابس والصنائع : ٢٤ في الاملاك والزيجة : ٢٥ في تحريم التسري : ٢٦ في الهبة : ٢٧ في القرضة والرهن والضمان والكفالة : ٢٨ في العارية : ٢٩ في الوديعة : ٣٠ في الوكالة : ٣١ في الحرية والعبودية والقتل : ٣٢ في الحجر : ٣٣ في المبايعات وتوابعها : ٣٤ في الشركة : ٣٥ في الاكراه

وحسبنا هذان الكتابان في شرعهم الكنسي لاقامة برهاننا على ان السلطة الدينية انما كانت مرجعهم الوحيد في هذه الامور يتقاضون اليها وتقضي بينهم بالعدل والانصاف في جميع اختلافاتهم التي من هذا القبيل . فكانوا والحالة هذه يعدون ذلك من قبيل الدين والحرية الدينية بحيث لم يكن لهم من ثقة في غير رجال الدين وهم البطاركة والاساقفة ورجال الكهنوت الذين كان لهم المقام الاول بينهم وقد حفظوا كيانهم واستقلالهم على هذا الشكل حتى انهم كانوا يعدون خروجاً عن عوائدهم ومبادئهم الدينية اذا اضطروا ان يتقاضوا الى الاجانب او ان يقضي بينهم اجنبي عنهم وخاصة اذا كان من غير دينهم في اختلافاتهم الداخلية .

وعندنا على صحة ذلك براهين وضعية وأدلة تاريخية وآثار راهنة لا تقبل الرد عند اهل الحجى وذوي الانصاف . فهذه

والغصب : ٣٦ في الابنية وتوابعها : ٣٧ في الطرق والشوارع والازقة ومجاري المياه وانهار الضياع : ٣٨ في القرض : ٣٩ في الاقرار : ٤٠ في من يجد ضائعاً : ٤١ في الوصية والمال : ٤٢ في المواريث : ٤٣ في الشكوك : ٤٤ في الحكم ومن وضعه : ٤٥ في العتيقة والجديدة : ٤٦ في عقوبات الكفر : ٤٧ في القتل : ٤٨ في قصاص الزناء : ٤٩ في قصاص السرقة : ٥٠ في عدة جرائم : ٥١ في عدة امور : تمت الابواب » .

تواريخ الموارنة في جبل لبنان مستفاضة بذكر وفاة البطاركة واقامة خلفائهم : وكلها تصرح بان بعد موت البطريرك بتسعة ايام اجتمع الاساقفة واختاروا غيره بحسب قوانينهم وأقاموه بطريركاً مكانه . وكان الشعب كله يخضع لهذا البطريرك ويقدمون له الكرامة الواجبة دون اقل معارضة ولا احتياج الى شيء آخر سوى اختيار الاساقفة له وايلائه هذه الوظيفة بطريقة الرسامة الحافلة كما في رتب طقوسهم المعروفة ومن بعد ذلك كان البطريرك الجديد يسعى بالاتفاق مع اساقفته بطلب التثبيت المعتاد ودرع الرئاسة من لدن الحبر الاعظم بابا رومية . وكان مع ذلك يستعمل حقوق وظيفته في شعبه الى ان يأتي مرسوم التثبيت ولو تأخر مدات طويلة بسبب بعد الشقة وبعض المصاعب من البر والبحر التي كانت تحول دون ذلك .

هذا وليس من اثر تاريخي او غير تاريخي يدل اقل دلالة على تدخل الحكام الزمنيين سواء كانوا من الموارنة او غير الموارنة في هذا الامر المهم قبل فتح الدولة العثمانية او بعده . ومما يدعم ذلك برهان التواتر فان بطاركة الموارنة واساقفتهم لم يأخذوا قط فرماناً من الدولة العثمانية كسائر الطوائف المسيحية بمعرفتهم رسمياً منها وباقرارهم على وظيفتهم واستعمالهم حقوقها بوجه من الوجوه : اللهم الا ما ذكر العلامة الدويهي في

تاريخ سنة ١٥٥٠ من انه « عنـد ما قدم السلطان سليمان الى مدينة حلب حضر اليـه الراهب انطون الحصروني ابن الحاج فرحات (الذي صار فيما بعـد مطراناً على اهدن) وفي جملة المشتكين الطرابلسيين وكان يجيد التكلم باللغة التركية : فانعم عليه بخمسة مراسيم سلطانية تسجلت في طرابلس في ايام حسن بك مآلها . . . . ان لا يتعرض احد للنصارى لا في امور دينهم ولا في امر زواجهم وان ترمم الكنائس . وانفذ أمراً همايونياً الى قاضي طرابلس في ان لا يتعرض احـد لبطريرك الطائفة المارونية بدير قنوبين في امر من امور البطريركية وان تكون حقوق الطائفة المارونية و كرامتها مرعية بنوع خاص . وامر ان يعاقب العقاب الشديد كل من تجرأ على مخالفة ذلك : وكان هذا في اوائل ربيع الاول سنة ٩٥٥ ﻫ (وهي سنة ١٥٤٨ م) .

الا ان هذا كما يرى المتأمل اللبيب ليس فيه اقـل اشارة الى سعي البطريرك لدى السلطان لاجل معرفته وتثبيته كما في الفرمانات التي كانت ولم تزل تعطى الى بطاركة واساقفة الطوائف المسيحية الاخرى خارج لبنان : بل بالعكس فانه يأمر بعدم التعرض له في امر من امور البطريركية الخ مما يدل على معرفته بهذه الوظيفة ومعرفة حقوقه ورعايتها دون

ان يكلف الى طلب الفرمان المعتاد لامثاله في خارج جبـل لبنان .

ومما يدل على ذلك ايضاً ما رويناه سابقاً وهو محقق تاريخياً من ان كل البطاركة الكاثوليكيين من روم ملكيين وارمن وسريان قبل حصولهم على الفرمانات السلطانية بمعرفتهم مستقلين عن سلطة بطاركة الطوائف التي خرجوا منها اذ اتحـدوا مع كنيسة رومية كانوا يفزعون الى جبـل لبنان من اضطهاد خصومهم بواسطة الحكومة العثمانية حيث يقيمون بكل حرية وراحـة ويحافظون على مقامهم ويديرون طوائفهم بحسب وظيفتهم دون حاجـة الى فرمان : وكانوا اذا مات بطريرك يقيمون غـيره بحسب قوانينهم وعوائدهم دون ان يعارضهم احد . وقد استمروا على هذه الحال في جبل لبنان الى ان اخذت الدولة العثمانية بعد المساعي المهمـة والوسائط الفعالة تعرفهم وتقر باستقلالهم الديني عن الغير الكاثوليك وتعطيهم الفرمانات بذلك كغيرهم .

أفليس في هذا برهان كافٍ على صحة قولنا من جهة استقلال الموارنة في بلادهم واستقلال بطاركتهم واساقفتهم؟

ذلك فضلاً عن حريتهم التامة في بناء الكنائس والاديار والمحابس والمدارس حيث ارادوا وكيفما ارادوا في بلادهم

دون معارض ولا اقل حاجة الى استئذان السلطة الزمنية اية كانت : اذ يكفي لذلك ترخيص البطريرك او الاسقف في ابرشيته كما هو جارٍ عندهم على وتيرة واحدة حتى الان في كل جبل لبنان . مع ان هذا الامر لم يكن يصح لهم في خارج لبنان حيث يلزمهم كغيرهم من سائر الطوائف المسيحية ان يسعوا اولاً في طلب الرخصة اما من الاستانة او من السلطة المحلية حسب الاصول المرعية . وقد ذكر العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٧ ان بطريرك الموارنة موسى سعادة قد بنى في ارض شدرة التي في بلاد عكار خارج لبنان دير القديس جرجس (١) باجازة القاضي والامراء (اي حكام البلاد) : وهكذا كان يحصل كلما اراد الموارنة ان يبنوا كنيسة اومعهداً دينياً في الولايات التي خارج لبنان : اما في لبنان فقد كانوا على الدوام ولايزالون الى الان احراراً من هذا القبيل . أفليس هذا ايضاً من البراهين الدامغة على استقلالهم الداخلي في بلادهم وفي كل الاماكن التي سكنوها من جبل لبنان ؟ وهذا الان كافٍ من جهة حريتهم الدينية التامة وفيه غنىً ان شاء الله لذوي الالباب .

---

(١) وهذا القديس هو الذي يدعوه العرب « ابو بلوطه » بسبب شجرة البلوط الملوكية التي كانت قدام باب ديره (الدويهي)

اما من جهة السلطة القضائية التي كانت تحسب عندهم من قبيل الدينيات وكان يستعملها البطاركة والاساقفة عليهم ويقضون بحسبها بينهم بكل حق كأنها كانت تليهم دون غيرهم ولا احدٌ يعارضهم بها فلنا على ذلك ايضاً براهين عملية راهنة من اوراق وصكوك واحكام قديمة العهود ومحفوظة في عدة بيوت قديمة من بيوتات الموارنة : وقد جمع منها المثلث الرحمات علامة عصره البطريرك بولس مسعد السعيد الذكر والطيب الاثار شيئاً كثيراً في خزانة الكرسي البطريركي الماروني بجبل لبنان اطلعنا نحن بذاتنا على عدد عديد منها هناك وعند بعض العائلات مما لا وصول لنا اليه الان . ولا نظن ان من يقف على هذه العجالة يرتاب في صدق قولنا وهو لو تأمل قليلاً بعين البصيرة النقادة نتيجة طبيعية عن الحقائق الراهنة التي رويناها حتى الان .

ومما يدل على ان سلطة القضاء كانت بيد اهل الكهنوت عند الموارنة ان الامير بشير الشهابي الكبير لما استتب له الامر في الحكم على جبل لبنان قد كلف المطران جبرائيل الناصري الماروني ان يعتني بسماع دعاوي الموارنة والفصل فيها بالعدل والانصاف : وكان قاضياً دواراً يقصد قرى الموارنة تباعاً ليقيم في كل قرية مدة فيسمع كل دعاوي اهاليها التي كانت

ترفع اليه ويحكم بها وكان حكمه مبرماً وللقوم ملء الثقة في معارفه وصحة ضميره ثم عند ما تولى الامير حيدر اسماعيل ابي اللمع الحكم على قائمقامية النصارى بعد الامير بشير الكبير كما مر بك الكلام قد طلب من بطريرك الموارنة ان يعين له كاهنين ليتوليا القضاء بين الناس فقدم له الخوري يوحنا الحاج والخوري يوحنا حبيب وهو عين احدهما لهذه الوظيفة في المجلس الذي الفه عنده بحسب النظام الجديد والآخر خارج المجلس يقيم حيثما شاء ويسمع دعاوي الموارنة التي تقدم له رأساً تسهيلاً على الاهالي . ثم قد بقي الحال على هذا المنوال بعد نظام سنه ١٨٦١ وتشكيل المحاكم بمقتضاه : فكان المتصرفون رعاية لهذه العادة يطلبون من البطريرك بعض المتفقهين فيعينونهم قضاةً في قائمقاميات الموارنة : واستمرت هذه العادة الى ان خالفها رستم باشا المتصرف الثالث لجبل لبنان في اواخر مدة حكمه . فلو لم تكن سلطة القضاء عند الموارنة من قديم الدهر بيد بطاركتهم واساقفتهم كما قلنا مراراً أفكان من سبيل الى رعاية هذه العادة عندهم بعد وضع نظام جبل لبنان الاول والثاني ؟ وحسب الان في ما يتعلق باستقلالهم وحريتهم الدينية وما كان يدخل عندهم تحت لفظة « الدين » .

اما « العرض » في عرف اهل جبل لبنان (وربما كان في عرف اهل سورية ايضاً) فانما هو كل ما له علاقة بحريم الرجل من اهل بيته وذوي قرابته من حيث الطهارة والعفاف والصيانة عن الابتذال : ويدخل فيه الزواج الشرعي بحسب مذهبه الديني وكل ما يتعلق به من هذا القبيل في ضمن حدود اللياقة والادب والعوائد المألوفة . ومن ثم فكل ما يعارض ذلك من مثل انتهاك حرمة النساء والزنا . وكل ما هو غير حلال في هذا الباب يدخل في شرطهم بعدم التعرض له والتدخل به .

وقد جرت العادة عندهم من قديم الدهر حتى الان ان يتعاطى الفصل في هذه الامور رجال الاكليروس بحسب اهمية المسائل التي تعرض سواء كانت من قبيل ما يدخل في الشرائع والحدود الدينية فيحكمون فيها حكمهم بحسب قواعد الضمير المستقيم وروح الدين المسيحي الكاثوليكي : او من قبيل التراضي على وجه المصالحة بين اصحاب الشأن منعاً للخلاف وابطالاً للاحقاد والضغائن التي من شأنها ان تؤدي الى ما لا تحمد عقباه من الخراب . وحينئذٍ يمكن ان يتدخل في الامر مع الكهنة اوجه القرية التي يحدث فيها شيء من ذلك فيسوونه بالحكمة والمحبة الاخوية ويصلحون ذات

البين بين المختلفين بالتي هي احسن : والا رجعوا فيه الى الاسقف او الى البطريرك او الى من يفوضانهم بذلك فينظرون فيه بالطرق القانونية ويحكمون بالحق لمن يليه وينفذون الحكم بما لهم من السلطة الدينية كالحرم والقطع من شركة المؤمنين والمنع من دخول الكنيسة واستنزال غضب الله ونقمته على المخالفين الخ . وكان ذلك امضى سلاح وافعل قصاص يرهبونه ويؤثر عليهم اشد التأثير .

وكان الموارنة على قلة الحوادث التي كانت تحصل عندهم من هذا الوجه وهم أهل دين وتقوى وحرص على الاداب المسيحية يستنكفون من تدخل السلطة المدنية وخاصة اذا كانت أجنبية عنهم في امورهم هذه الداخلية صوناً لكرامتهم واستقلالهم الذاتي وحريتهم في احوالهم الدينية التي كانوا يعدون ذلك منها : لان حكم المسيحي في هذا الامر الجوهري جداً لصيانة العائلات والبيوت غير حكم الغير المسيحي الذي يجهل روح الانجيل المقدس كما لا يغرب عن ذي بصيرة .

ذلك واما « الدم » فالمراد به عندهم كل ما يتعلق بالخصومات التي قد تقع فيما بينهم مما يفضي الى سفك الدم كالجرح والخدش والتشويه في بعض الاعضاء كقطع اليد او الرجل وقلع العين وصلم الاذن وجدع الانف حتى القتل بتاتاً

ولما كان مثل هذه الحوادث اذا لم تنته بالمصالحة لا بد لفصلها بالمحاكمة من قاضٍ يسمعها ويحكم بها بالعدل والانصاف ولم يكن بين الموارنة في لبنان من سلطة قضائية معروفة الا عند البطاركة والأساقفة او من يفوضونهم بذلك ولم يكن يمكنهم بالنظر الى استمساكهم باستقلالهم الداخلي وحرصهم عليه ان يلجأوا الى المحاكم الاسلامية في الولايات التي بجوارهم : كل ذلك حدا بهم الى استثناء هذا الامر المهم من سلطة الحاكم الزمني الذي يتولى ادارتهم بقولهم « والدم » اي ان لا يتدخل في امر الدم بينهم ليكون مرجعهم فيه الى بطاركتهم واساقفتهم الذين هم قضاتهم الطبيعيون في كل هذه الامور بمنزلة رؤساء أو آباء هذه العائلة المارونية يديرونهم بالحكمة والمحبة ويقومون المعوج منهم ويسددون اعمالهم نحو السعادة الزمنية والسعادة الابدية معاً أي في الروحيات والزمنيات .

وهذا القدر كافٍ ان شاء الله في هذا الباب : وبه على ما نرى نعم السبيل الى الصواب .

ذيل اول

في رد بعض الاعتراضات

الواردة في كتاب « سورية الغد »

لقد ظهر لكل ذي بصيرة مما اثبتناه في هذه العجالة اصل الطائفة المارونية في جبل لبنان العريق في القدم ونزوعها على الدوام الى الاستقلال الذاتي والداخلي الذي حافظت به جهد المستطاع على كيانها وتقاليدها وعوائدها منذ اول نشأتها الى الآن : اي في حالتي وثنيتها ونصرانيتها على رغم اختلاف الدول على سورية من عهد الاشوريين الى هذا العهد عهد الدولة العثمانية الحالي .

ولم يصح مثل ذلك لغيرها من العناصر المختلفة التي نشأت معها في سورية واستوطنتها . لان هذه العناصر قد ذابت وأدغمت بالفاتحين خصوصاً من العرب المسلمين الذين بعد فتح سورية منذ اواخر النصف الاول من القرن السابع قد ادخلوا السواد الاعظم من اهلها في دينهم واكرهوهم على اتخاذ لغتهم العربية لغة لهم في كل معاملاتهم ومسامراتهم حتى صارت وحدها لغتهم العادية الدارجة في كل امورهم فنسوا كل

النسيان لغات اجدادهم الاصلية وتبرأوا منها بحيث صاروا يعدون انفسهم بكل فخر من العرب العرباء وينكرون اصلهم الارامي وغير الارامي بتاتاً

ولا ننكر ان جمهوراً من السوريين قد بقوا نصارى وتحملوا في سبيل ذلك من الضيق والذل والشدائد ما لا يحيط به الوصف واستمروا مع ذلك محافظين كل المحافظة على مذاهبهم وطقوسهم وعوائدهم : وقد تقدم منهم نوابغ مشهورون في دولة العرب . الا انهم كطوائف لم يكن لهم من رابطة تربطهم الا رابطة الدين والمذهب والطقس : ولذلك لم يحافظوا او لم يستطيعوا ان يحافظوا على استقلالهم الذاتي حتى ولا من جهة الدين بوجه من الوجوه كما حافظ موارنة جبل لبنان على ذلك بكل حرص وفي كل دهر : لان لهم رابطة العنصرية والوطنية فضلاً عن الدين والمذهب والطقس . وهذه تواريخ اولئك وتواريخ هؤلاء خير دليل على صحة قضيتنا هذه : واذا انكروا قولنا هذا فليأتونا ببينة على صحة مثله عندهم . ولا نخالهم فاعلين لان وقائع الحال تعارضهم كما لا يغرب عن كل ذي المام بتواريخ الكنائس المسيحية في بلاد سورية .

ولا يعارض ذلك ما قاله صاحب كتاب « سورية الغد » بعد ان انكر الاستقلال مطلقاً على جبل لبنان حيث كتب ما

مؤداه حرفياً : « اما الاستقلال الذي تمتع به لبنان قبل سنة ١٨٦٠ فلم يكن الا وهمياً لا يختلف عما كان يتمتع به اكثر الولايات السورية من ذلك : فان دولة العباسيين لم تكد تبلغ نهاية القرن الثاني لتأسيسها حتى تجزأت الى دول صغيرة مستقلة لم تلبث ان اتسعت نطاقاً بما ضمت اليها من البلدان الجديدة التي كان يسمح لها باستقلال داخلي لقاء جزية تؤدى سنوياً يتعهد بها امراء تلك البلدان الذين كانوا يتحكمون بها ... فانت ترى ان لبنان قد تعاقب عليه كل الدول التي امتلكت سورية فناله ما نال سائر اقسامها من طريقة الحكم الداخلي التي كان قوامها ان يتولى ادارة البلاد اقطاعيون خاضعون بدورهم لامير او اثنين تعينهما الدولة المالكة . وقد كان عليه ما عليها من الجزية والضرائب بيد انه كان اقل حظاً بحكامه الذين كانوا دائماً من الاجانب : في حين ان حكام سائر الاقسام السورية انما كانوا من بنيها واهل دينها وشعبها . فقد كان الدروز وهم يكادون لا يبلغون ثلاثين الفاً متحكمين بلبنان واهله الذين كان عددهم ٢٥٠ الفاً : فحكمه بنو معن الى فخر الدين باسم الدروز ومعونتهم : ثم خلفهم الامراء الشهابيون وهم دخلاء عليه من حاصبيا فحكموه حتى الامير بشير وكانوا مسلمين : ثم الامراء آل ابي اللمع الذين كانوا دروزاً الى عهد قريب » اه

فكل من تبصر في كلامه هذا وجده في الحقيقة يناقض بعضه بعضاً من وجوه عديدة : فوصفه استقلال لبنان بالوهمي لانه لا يختلف على قوله عما كان يتمتع به اكثر الولايات السورية من الاستقلال الى آخر ما شرحه من ذلك لا يتفق بعضه مع بعض : على اننا كما يرى المتأمل البصير لم ندع اكثر من ذلك مما لا يصح وصفه بالوهمي وهو ما كنا ننشده ونطمع به قبلاً من الاستقلال الداخلي الذي لم يكن لفئة نصرانية في كل بلاد سورية مثله او اقل منه : بحيث عندما كان يحصل لبعض هذه الفئات من الاضطهاد ما لم يكن لها قِبَل باحتماله كانت تلجأ الى الموارنة بجبل لبنان حيث تنجو من الضيم وتتمتع بتمام حريتها الدينية بينهم دون ان ينالها احد بسوء : وقد قال صاحب هذا الكتاب نفسه في الفصل الثالث والثلاثين منه بهذا المعنى (بعد ان خبط خبط العشواء في اصل الموارنة وديانتهم وعددهم مما لا نحب ان نتعرض له لانه ليس من موضوع كتابنا) ما مؤداه :

« وفي كل حال فالموارنة قد هاجروا تدريجاً من السواحل متوقلين لبنان حيث الفوا في امد قريب طائفة متكاتفة ومهمة : وقد اتخذوا حصونه الطبيعية كمعاقل حمتهم من استعباد العرب الحقيقي . فان بسالتهم من جهة وحل بلادهم ووعورتها

من جهة اخرى كل ذلك جعل العرب الذين فتحوا المسكونة يحجمون عن منازلتهم لانهم لم يروا فيه من الفائدة ما يوازي الخسائر التي يتجشمونها في سبيل فتحه : ولذلك اكتفى الخلفاء في دمشق بوضع جزية خفيفة عليهم — واذا ارتاب احد في امر هذه الجزية فان الشواهد الكثيرة على ذلك تقنعهُ — ونحن نكتفي منها بشهادة ديونيس وابن العبري اللذين يخبران انه « في سنة ٧٤٥ اذن الخليفة مروان للخلقيدونيين ان ينتخبوا ابن قنبرة الحاراني بطريركاً عليهم وانه قد سير معه عسكراً ليضطهد الموارنة .... وانه (اي الخليفة مروان) قد اجبر الموارنة على دفع اربعة آلاف دينار غرامة الخ (١)

---

(١) يظهر ان مؤلف كتاب سورية الغد عندما رأى ضعف حجته في نكران استقلال الموارنة اللبنانيين في بلادهم لجأ الى التمويه والمغالطات المنطقية : فتراه هنا بينما يتكلم عنهم في جبل لبنان وعن بسالتهم ووعورة جبلهم الذي اتخذوه حصناً منيعاً احتموا به من استعباد العرب لهم كما استعبدوا غيرهم من النصارى تراه من جهة اخرى لاجل قيام حجته بان خلفاء دمشق قد تركوهم وشأنهم مكتفين بضرب جزية صغيرة عليهم يتكلم عن الموارنة الذين كانوا خارج جبل لبنان وهم كما يرى المتامل خارجون عن الموضوع ولكي يوهم قراءه ان لديه شواهد تاريخية شتى على صحة قوله هذا قال بكل لباقة انه انما يكتفي من ذلك بشهادة ديونيس وابن العبري وقد اتى بهما مقتضبتين لئلا يظهر منهما ما يخالف برهانه وهما

« وعند بلوغ الصليبيين الى الارض المقدسة قد وجدوا في الموارنة اصدقاء مخلصين وشجعاناً : وقد اخبر بعض المؤرخين ان اربعين الف مقاتل من هذه الطائفة قد انجدوا الصليبيين في حصار اورشليم : وانهم في كل عهد الصليبية قد

في الحقيقة حجة لنا عليه ولذلك فاننا نوردهما هنا على حقيقتهما . قال ابن العبري عن ديونيس التلمحري بطريرك اليعاقبة المشهور (مقالة ١٠ ق ٢٢) ما ترجمته عن الاصل السرياني حرفياً « في هذا الزمان (اي نحو سنة ٧٤٦) اباح مروان ملك العرب للخلقيدونيين فاقاموا ثوفيليطا بن قنبرة من حران بطريركاً عليهم . وكان هذا صائغ الملك مروان : فاخذ من مروان امراً وعسكراً لاجل اضطهاد الموارنة . ولما اتى الى دير مارون (الذي في جهة افامية على ضفاف العاصي) اخذ يضايقهم لكي يقبلوا مذهب مكسيموس ... ولما تضايق الرهبان من شدة التعذيب وعدوا بانهم في الغد يوافقونه . وكان معه راهب شيخ كان يحبه فدخل عليهم ذلك الراهب واتى الى كنيستهم وضرب بيده على مائدة الخلاص قائلاً — انك في الغد تتقدس ايها المذبح النجس — وفي تلك الساعة ... مات . فتألم ابن قنبرة جداً وجزع واراد ان يحمل الميت ويذهب فلم يدعه الرهبان حذراً من ان يقال انهم هم الذين قتلوه : فتركه لهم ومضى دون ان يقضي لبانته منهم . وبقي الموارنة كما هم اليوم (اي في القرن التاسع حيث كتب التلمحري) يسمون لانفسهم بطريركاً واساقفة من ديرهم ... ثم ان ابن قنبرة اتى الى منبج (وهي هيرابوليس) وضايق الخلقيدونيين (اي الموارنة) الذين هناك ... ثم وشى بهم الى مروان فغرمهم اربعة آلاف دينار وقد جرى فيهم ما كان قد جرى في حلب . اخيراً اقبل اندراوس الماروني

اخلصوا النيـة لهؤلاء الصليبيين وكانوا لهم على الدوام خير عضد . ومن المحقق ايضاً ان هذه الطائفة المارونية قـد بقيت على الاقل منذ القرن الثـالث عشر متمسكة كل التمسك بعرى الايمان الروماني الكاثوليكي : وان وجودها انمـا كان تعزية وملاذاً لكل نصارى سورية الذين عند اشتداد الاضطهادات حتى يستحيل عليهم السكن في السواحل او في الداخلية كانوا يفزعون الى لبنان حيث كان يتلقاهم الموارنة بكل ترحاب وكرم اخلاق » اه

فمن كلامه هذا يظهر لكل ذي لبّ ان استقلال الموارنة في جبل لبنان كما بيناه لم يكن وهمياً كما زعم اولاً بل فعلياً وقـد عصمهم دهراً من اضطهادات الاجانب . وخاصة من من استعباد المسلمين حتى كانوا على الدوام موئلاً وملاذاً لمن كانوا يلجأون اليهم من النصارى المضطهدين والمنكوبـين في خارج هذا الحصن الحصين . وحسبنا هذا مهما يكن من امر الجزية الخفيفة التي يزعم ان الخلفـاء في دمشق قـد فرضوها

واستحصل امراً من الملك وبنى للموارنـة كنيسة في منبج .... » هذه هي الرواية التي يستند اليها صاحبنا وكل لبيب يرى ان ليس فيهـا اقل اثر لموارنة جبل لبنان فيستخف ببرهانه ويقيس عليه كل براهينـه في هذا الكتاب .

عليهم مما لم يبرهنه فعلاً بل توهماً لخلطه بين موارنة جبل لبنان والموارنة الذين كانوا خارجه : وكانوا كثيري العدد في كل جهات سورية منذ الفتح العربي الى نحو القرن العاشر على ما رأيت .

***

ذلك واما قوله في الفقرة الاولى التي ذكرناهـا آنفاً بان حكام جبل لبنان انمـا كانوا من الاجانب في حين ان حكام سائر الاقسام السورية كانوا من بنيها واهل دينها وشعبها فهو لا ينطبق على الحقيقة من عدة وجوه . وقـد رأيت الخلاف من الشواهد الكثيرة الراهنة التي اثبتناها في كتابنا هذا على قلة ما بين ايدينا من المراجع المعتبرة . ونحن لم ننكر قط ان حكام الايالات التي كان لبنان او بلاد الموارنة منه داخلاً في ضمن نطاقها انما كانوا من المسلمين : الا اننا قد بيّنا مع ذلك باستفاضة ان هؤلاء الحكام الاجانب لم يكونوا يمدون يدهم الى الموارنة في لبنان بشيء ممـا يمس استقلالهم الداخلي او يضايقونهم بامر مما يتعلق بحريتهم او مما ينـاقض عوائدهم وتقاليدهم الدينية والزمنية . على ان ما يظهر من امتـداد سلطة الحكام الاجانب اليهم من بعد استيلاء الدولة العثمانيـة على سورية بمدة لم يكن الا عرضياً : لان هؤلاء الحكام الذين

كانوا يسيطرون على جبل لبنان في خلال هذه المدات الاخيرة كانوا على ما يظهر يحترمون استقلال الموارنة الداخلي في كل امر ولا يولون على الاقطاعات المارونية الا من اعيانهم . و كانوا يتخذون من نوابغهم الكثيري العدد في كل عصر رجال مشورتهم وتدبيرهم وسياستهم ويعطونهم من المقام والنفوذ ما يقوون معه على حفظ جانب طائفتهم و كرامتها وحريتها واستقلالها وحرمتها حتى امتدت اخيراً في كل انحاء جبل لبنان وتملكت معظمه ومدت عليه سيطرتها .

اما قوله بان الدروز على قلة عددهم كانوا متحكمين بلبنان واهله على كثرة عددهم : وان الامراء بني معن قد حكموه باسم الدروز ومعونتهم الى الامير فخر الدين : فخلفهم الامراء الشهابيون في حكمه الى الامير بشير وهم مسلمون اجانب عنه : ثم الامراء آل ابي اللمع الذين كانوا دروزاً الى عهد قريب : فكل ذلك اما عن جهل تاريخ البلاد او بالاحرى من باب السفسطات المذمومة في كل كاتب رصين .

والصحيح ان الدروز لم يحكموا قط جبل لبنان . وقد رأيت ان هؤلاء الامراء لم يمتد نطاق حكمهم الى كل لبنان الا على عهد الامير فخر الدين الاخير منذ اوائل القرن السابع عشر بعد انقراض الامراء آل عساف اصحاب كسروان وتغلبه

على يوسف باشا سيفا الذي حل محلهم فيه بدهائه . ولم يكن هذا الامير الكبير آخر آل معن بل قام بعده اخوه الامير يونس فالامير ملحم فالامير احمد الذي انقرضت به سلالة آل معن سنة ١٦٩٧ . وقد رأيت ما كان لهؤلاء الامراء من الصلة مع الموارنة وخصوصاً مع المشايخ آل الخازن وكيف كان اكثر رجالهم من الموارنة بشهادة العلامة الدويهي المعاصر التي ذكرناها في محلها . وقد اتى بعدهم انسباؤهم الامراء الشهابيون وهم ايضاً من المسلمين فخلوا محلهم وحكموا جبل لبنان وسواه نظيرهم واتخذوا الموارنة عوناً لهم في كل امورهم وزادوا في تعزيزهم حتى ملكوهم اكثر المقاطعات في جبل لبنان وقد صاروا اخيراً موارنة الى ان تولى حكم جبل لبنان منهم الامير بشير المعروف بالكبير (وهو ماروني من ولادته) منذ سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٨٤٠ . فتولى الحكم بعده على قائمقامية الموارنة الامير حيدر ابي اللمع الماروني الشهير وخلفه ابن عمه الامير بشير احمد ابي اللمع الماروني ايضاً الى سنة ١٨٦٠ . فهذه هي الحقيقة التاريخية الراهنة أوجزناها هنا جهدنا ليرى كل منصف الفرق البليغ بينها وبين كلام صاحب كتاب سورية الغد .

اما ان الامراء آل معن انما كانوا مسلمين بحتاً فبيانه :

اولاً مما جاء في كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان المطبوع في بيروت للشيخ طنوس الشدياق حيث ذكر سلاسل نسب اكثر البيوت التي اشتهرت في لبنان من قديم الزمان فقد قال في الصفحة ١٦١ منه ما مؤداه « الفصل العشرون — في نسبة الامراء المعنيين الاسلام — » وفي فهرست هذا الكتاب حيث يظهر تقسيم ابوابه بنوع صريح فبعد ان ذكر اولاً باب نسبة اعيان النصارى الموارنة من امراء ومشايخ : ثم باب نسبة اعيان الدروز من امراء ومشايخ : اتى الى باب نسبة اعيان الاسلام والمتاولة من امراء ومشايخ : وذكر في هذه الفئة « نسبة الامراء المعنيين » (١)

---

(١) قد جاء في كتاب اخبار الاعيان اخذاً عن ابن سباط من مؤرخي المسلمين في القرن السادس عشر وعن غيره : ان هؤلاء الامراء آل معن انما يرجعون الى الامير معن الايوبي العربي من قبيلة ربيعة الفرس وايوب جدهم الذي ينتسبون اليه كان بطلاً مغواراً وله احد عشر ولداً من الشجعان المعدودين فرحل بهم عن قومه لضغائن وقعت بينهم وبينه الى الجزيرة الفراتية حيث تكاثرت عشيرته واشتهرت بالايوبية . وانفرد منهم بقومه رجل اسمه ربيعة فجاء الى نواحي حلب حيث توفي وخلفه ابنه الامير معن الذي نحن بصدده . وفي سنة ١١١٩ ارسل الامير غازي امير الترك الامير معناً الايوبي لمحاربة الافرنج في انطاكية : فلاقاهم الملك بلدوين الفرنساوي الى جبل اللكام بعساكره واسرف فيهم قتلاً واسراً

ثانياً مما جاء في سيرة حياة الامير فخر الدين المعني الاخير في كتاب اخبار الاعيان السابق ذكره (ص٢٥٧ و٢٩٩) من

فانهزم الامير معن بعشيرته الى طغتكين صاحب دمشق وهو في الديار الحلبية : واذ رجع من قتال الافرنج الى دمشق امر الامير معناً الذي كان معه ان يقوم بعشيرته الى البقاع ومنها الى لبنان حيث يتحصن في الجهة المشرفة على الساحل لاجل شن الغارة على الافرنج فيه : واجرى له الاقامات الوافرة . فنهض الامير معن بعشيرته الى بلاد الشوف الذي كان قفراً من السكان ونزل في صحراء بعقلين وجعل مودة مع الامراء التنوخيين امراء بلاد الغرب من لبنان وكان زعيمهم الامير بحتر المشهور فمال الى الامير معن واتخذه حليفاً له وعضداً على الافرنج : ثم ارسل اليه اناساً من جماعته فبنوا له ولخاصته منازل للسكن . فرأى المنازل خيراً من المضارب التي كان يسكنها هو وقومه في تلك الجبال وصار يحث الجميع على البناء حتى كثرت المنازل المبنية بالحجارة في الشوف . وما شاع ذلك في جواره حتى صار يقصده الناس من البلدان التي كان يستولي عليها الافرنج في حوران وبلاد دمشق وحلب وجوار لبنان واطرافه واجتمع عليه جمع غفير ضووا تحت حكمه فبقي اميراً عليهم مدة ثلاثين سنة . وهو اصل الامراء آل معن في جبل لبنان . وخلفه ابنه الامير يونس الذي جاء في آخر مدته الامراء الشهابيون الى وادي التيم وحاربوا الافرنج حتى ازاحوهم عنها واستوطنوها سنة ١١٦١ : فتقرب الامير يونس اليهم وعقد بينه وبين الامير منقذ زعيمهم عهد مودة ومحالفة زادت توثيقاً بتبادل الزواج بين الاسرتين حتى صارتا كأنهما واحدة . ولهذا فلما انقرضت سلالة آل معن في لبنان قام مكانها بحق الميراث الامراء آل شهاب وعرف

ان هذا الامير قد سعى مراراً في طلب امرية الحج لاحد اولاده وقد نالها . وقد جاء ايضاً فيه (ص٢٥٧) انه لما وشي به خصومه لدى السلطان بانه تغلب على بلاد حوران وعجلون وغيرها وانه حاصر دمشق بقصد الاستيلاء عليها حتى امر السلطان وزيره الحافظ ان يقوم بالعساكر للانتقام منه واستئصال آل معن من جبل لبنان اخذ هذا الامير يتحفز للهرب لانه لم يرد ان يقاتل عساكر الدولة . ومن ثم قد حصن خواصه في قلعتي بانياس وشقيف ارنون وابقى معه امرأة واحدة من نسائه . الى ان قال بعد ذلك (ص٢٦١) وكان الحاج كيوان قد استأجر مركباً فرنساوياً بخمسمائة غرش واخذ يلح على الامير فخر الدين بالسفر الى ايطالية فأبى : والتمس الحاج كيوان منه ان يسمح له باستحضار نسائه وامتعته من شقيف نيحا فامره باحضارهن . ولما حضرن انزلهن الى المركب ثم عرض السفر على الامير فاذعن وانزل زوجته بنت ظافر وصرف السكان الى دير القمر للقيام بخدمة اخيه ووضع زوجته بنت الامير علي سيفا في قلعة شقيف نيحا الخ —

فمن هذه الروايات التاريخية يظهر جلياً ان الامير

لهم اهل البلاد ثم الدولة هذا الحق واسندت اليهم الولاية على كل المقاطعات التي كانت اخيراً لآل معن .

فخر الدين انما كان مسلماً لا شك في اسلامه والا لما صح له بوجه من الوجوه ان يتطلب امرية الحج لاولاده وهي لا تعطى الا للمسلمين كما لا يغرب : ثم لما صح ان يكون عنده زوجات متعددة في آن واحد : لان الدروز ولو حل الطلاق في مذهبهم فلا يحل عندهم تعدد الزوجات مطلقاً كما هو مشهور .

ثالثاً ويؤيد ذلك انه اذ نقل آل معن سكناهم الى دير القمر وبنوا فيها دارهم التي لا تزال آثارها الى الان قد بنوا بجانبها جامعاً للصلاة وهو معروف الى الان بجامع بيت معن . والدروز لا يبنون جوامع ولا يصلون فيها كالمسلمين ولكنهم يقيمون محلات على المشارف البعيدة عن السكان يسمونها « خلوات » فيجتمع اليها في اوقات مخصوصة « عقالهم » ويعقدون فيها جلسات سرية لا يعرف احد ما يجري فيها الا العقال المأذون لهم بحضورها : واما جهالهم (على ما يقولون) فليس عليهم في شريعتهم من فرض بالصلاة .

رابعاً ومما يؤيد ذلك ايضاً امتداد حكمهم خاصة من ايام الامير فخر الدين الاخير الى عدة ولايات اسلامية في خارج لبنان كبيروت وصيدا وصور وبلاد عجلون وحوران وبلاد عكار حتى حلب : مما لم يكن يصح لهم لو لم يكونوا مسلمين بحتاً لا سيما والمزاحمون على تلك الولايات من المسلمين

كانوا هاتيك الايام اكثر من ان يعدوا وقد وقعت لهم معهم حروب شتى هائلة كان النصر فيها غالباً لآل معن كما هو مذكور في تواريخهم . فلو لم يكن هؤلاء الامراء من المسلمين العريقين في الاسلام لما صح ان يحاربوا المسلمين ويزاحموهم على الولايات ويستبدوا في حكمهم بالمسلمين كما كان روح الحكم في ذاك العهد . والمسلمون كما هو مشهور متعصبون لذويهم اشد التعصب ويكرهون الدروز اكثر من النصارى لانهم (اي الدروز) من الفرق الباطنية المرذولة عندهم (١)

(١) ان الدروز فرقة باطنية من الفرق الاسلامية كانت تعرف عند اول نشأتها بالفاطمية لان الحاكم بامر الله ابا علي المنصور ابن العزيز بالله وهو السادس من الملوك الفاطميين في مصر انما هو قاعدة مذهب الدروز . فهذا بعد ان تولى الملك سنة ٩٩٧ م قد بلغ منه الغرور ان يدعي لنفسه الالوهية وكان يرسل دعاة من قبله الى الشامات وما بين النهرين يدعون الناس الى دينه هذا : واذ ذاك دعي الحاكم بامره . وكان من دعاته رجل عجمي يقال له محمد بن اسماعيل الدرزي (وهو الذي يسمونه في كتبهم « نشتكين ») فهذا ارسله الحاكم الى بر الشام فنزل في وادي التيم بالقرب من جبل الشيخ حيث اخذ ينادي بألوهية الحاكم المذكور . وكان من اقواله — ان نفس آدم جازت الى علي بن ابي طالب ومنه الى اسلاف الحاكم متقمصة من واحد الى اخر حتى انتهت اليه وهو حاكم الكون الخ — ومن هنا اصل مذهب التقمص عندهم . ويظهر ان دعوته هذه قد صادفت ارضاً جيدة في قلوب اهل الشيعة الذين يؤلهون علياً على ما هو مشهور .

فلا يطيقون ان يتولى احد منهم على المسلمين او ان يحاربهم على الولاية ويستبد بهم .

ومن المعقول جداً انه لو كان الامراء المعنيون من الدروز لما كان هؤلاء عند انقراض سلالة آل معن بوفاة الامير احمد سنة ١٦٩٧ صبروا على انتقال الولاية منهم ولو على بلاد الشوف الى الامراء الشهابيين وهم باقرار صاحبنا من المسلمين

ثم قتل محمد الدرزي سنة ١٠١٩ في موقعة مع التتر بعد ان اشتهرت هذه الشيعة باسمه هناك . وكان عند الحاكم رجل اخر من دعاته اسمه حمزة بن علي بن احمد وهو عجمي ايضاً ويعرف عندهم « بالهادي » فارسله الحاكم اليهم ليتم عمل محمد الدرزي فيهم . وقد زاد حمزة هذا عليه بان جعل نفسه نائباً للحاكم بامره والدروز يبالغون في اكرامه . وهم يسمون انفسهم موحدين ويريدون بذلك انهم قائمون بتوحيد الحاكم

فمن هنا ترى ان الدروز انما نشأوا اولاً في وادي التيم بالقرب من جبل الشيخ (الذي هو جبل حرمون القديم على ما يقال) في بهرة النصف الاول من القرن الحادي عشر . ولما استولى الافرنج على بلادهم طفروا الى الجبال التي تجاورهم ومنها جبل لبنان : فتوطنوا في نواحي المتن والشوف خاصة تحت حماية الامراء المعنيين الذين احتضنوهم ليعمروا البلاد بهم ويكونوا نجدة لهم في الملمات : ولهذا كانوا يراعونهم في امور مذهبهم وعوائدهم ولا يتطلبون منهم الا الاخلاص لهم وهم كانوا راضين بذلك تمام الرضى . اما اهل المتن منهم فانهم قد تركوا لانفسهم وتولى الحكم عليهم اناس منهم كانوا يدعونهم هم ايضاً « مقدمين » نظير الموارنة وقد

ومن الاجانب عن جبل لبنان : وقد كان اذ ذاك بين الدروز في بلاد الشوف والمتن والغرب جمهور من الاعيان امراء ومقدمين ومشايخ (١) بيدَ انهم لم يكونوا على مايظهر ليطمعوا

عقدوا محالفة بينهم وبين الكسروانيين فحاربوا معاً وذادوا عن حياضهم بكل عزم وشجاعة الى ان تغلب المسلمون عليهم جميعاً سنة ١٣٠٥ التي تم فيها خراب كسروان المشهور ·

(١) قد كان اذ ذاك في غرب بيروت من جنوب لبنان عدة امراء من آل علم الدين التنوخيين · وعدة امراء ايضاً من آل ارسلان : والفريقان (على ما قال صاحب كتاب اخبار الاعيان المذكور غير مرة) من الدروز وكلاهما على ما يتحصل من سلسلة نسب كل منهما هناك يرجعان الى اصل واحد اي الى الملك النعمان بن المنذر المعروف بابن ماء السماء اللخمي ملك الحيرة المشهور · وقد جاء في سلسلة نسب الامراء آل ارسلان انه كان للملك النعمان ولد اسمه المنذر يلقب بالمغرور : وكان لهذا الاخير عدة اولاد اكبرهم اسمه عون (او عوف) كما في سلسلة آل تنوخ) فولد عون او عوف مسعوداً وهو المعروف في كلتا السلسلتين بقحطان : وولد لقحطان المنذر وهو في كلتيهما تنوخ : وولد لتنوخ بركات والد مالك الذي رزق خمسة اولاد اصغرهم يدعى ارسلان وهو جد هؤلاء الامراء على قولهم · ومن اولاد تنوخ ايضاً جهر الذي منه يتسلسل الامراء التنوخيون الذين انقرضوا في سنة ١٦٣٣ ولم يبقَ منهم الا فرع واحد وهو فرع اولاد علم الدين الذي في سنة ١٣٠١ انفصل عن قومه لخلاف وقع بينه وبينهم في الغرض لانه انحاز الى الحزب اليمني وهم انما كانوا من القيسيين · وكان التنوخيون كلهم في الاصل نصارى : ولما ظهر

في الحكم مكان الامراء آل معن حتى ولا على بلادهم هذه التي كان قد كثر عديدهم فيها : لانهم كانوا عارفين بحقوقهم من

الاسلام رحلت قبيلة من قبائل العرب المتحالفة من نواحي البحرين وهم بهراء وتنوخ وتغلب الى البرية التي بين حلب ومعرة النعمان بن بشير الانصاري : وارتفع مقام قحطان في تلك القبيلة لانه يرجع الى النعمان ملك الحيرة وولد له هناك تنوخ فكان اميراً على الجميع وهو جد هؤلاء التنوخيين والارسلانيين ·

وذكر ابن العبري المؤرخ الشهير في تاريخه السرياني المطبوع في اوروبا : بتاريخ سنة ١٠٩٠ اليونانية (اي سنة ٧٧٩ م) ما ترجمته حرفياً : — في هذه السنة جاء المهدي (الخليفة العباسي) الى حلب فخرج للقائه التنوخيون الذين حوالي حلب يسكنون الخيام وهم يركبون الخيل ببزّة حسنة : فقيل له ان هؤلاء كلهم نصارى فاستشاط غيظاً واكرههم على الاسلام فاسلموا وهم نحو خمسة آلاف رجل : اما النساء فنجونَ · وقد استشهد رجل فاضل اسمه « ليث » — وقال صاحب كتاب اخبار الاعيان في قصتهم « انهم انتقلوا الى الجبل الاعلى وعمروا فيه قرى ومزارع وفي ذات يوم تعرض لبعض حريمهم المشد الذي ولاه عليهم والي حلب فوثب عليه رجل منهم اسمه « نبا » فقتله وفرَّ بعياله الى لبنان وعمر له قرية فيه سميت « برج نبا » (وهي واقعة شمالي مدينة زحله) ولما طلبه نائب حلب من عشيرته خافوا ورحلوا قاصدين موضع نبا · وسنة ٨٢٠ اتى الامير تنوخ الملقب بالمنذر بعشيرة نبا ومعه تلك القبيلة وبعض امرائها وكانوا عشر طوائف فوجههم نبا الى الديار الخالية من السكان · فتوطن الامير تنوخ حصن سرحمور وتفرق الباقون في البلاد وكان الامير تنوخ

هذا القبيل اكثر من صاحب كتاب سورية الغد الذي اراد ان

يحكم بينهم وبنوه من بعده وجاء مثل هذه الحكاية بعينها في تاريخ الامراء آل ارسلان من كتاب اخبار الاعيان نفسه مما يدل على وحدة هاتين الاسرتين التي اشرنا اليها آنفاً.

ويظهر ان من هذه القبائل التنوخية التي رحلت من الجبل الاعلى الى لبنان قبيلة بني فوارس ومنها الامراء آل ابي اللمع كما جاء في سلسلة نسبهم في الكتاب المذكور وكان جدهم المكنى بابي اللمع يقطن كفرسلوان في المتن واشتهر منهم المقدم فارس الذي تولى حكم جبة بشراي سنة ١٦٥٦ ثم حكم بلاد عكار. وقاتلوا مع الامير حيذر الشهابي في موقعة عين دارة فابلوا بلاء حسناً سنة ١٧١١ ولذلك اطلق هذا الامير عليهم لقب الامراء. ثم صاروا نصارى موارنة وتولى منهم الامير حيذر اسماعيل ابي اللمع حكم قائمقامية النصارى منذ سنة ١٨٤٣ على ما ذكرنا في محله من هذا الكتاب.

وكان ايضاً من اعيان الدروز المشهورين المشايخ آل جان بولاد او جنبلاط الذين اصلهم من الاكراد الايوبيين. وفي سنة ١٦٣٠ جاء احدهم المدعو جانبولاد بن سعيد بولده رباح من حلب الى بيروت بعد ان نكبت الدولة اسرتهم: فدعاه الامير فخر الدين المعني الى بلاده حيث اسكنه اولاً في مزرعة الشوف لما كان يعلم من قدر عائلته. وكان الشيخ ابو نادر الخازن مديراً للامير فخر الدين فابرم عهد المودة مع المذكورين. وقد تزوج حفيد جانبولاد المدعو علياً بابنة الشيخ قبلان القاضي التنوخي كبير مشايخ الشوف لارتفاع نسب علي وعلو مقامه: ولما توفي الشيخ قبلان المذكور سنة ١٧١٢ بلا عقب اتفق اكابر الشوف ان يكون صهره علي

يجعلهم على قلة عددهم حكاماً على جبل لبنان واهله مع كثرة عددهم.

ولهذا قال العلامة الدويهي في تاريخ هذه السنة وهو على نوع ما شاهد عيان انه « لما توفي الامير احمد المعني سنة ١٦٩٧ وانقرضت به سلالة آل معن اجتمع اعيان بلاد الشوف من امراء ومقدمين ومشايخ فاختاروا الامير بشيراً الشهابي ليتولى الحكم مكانه: وكان باقياً على الامير احمد من المال المفروض بعد ضبط تركته ستون كيساً لحسين باشا والي صيدا وستون كيساً غيرها لمطبخ السلطان: فتكفل هؤلاء الاعيان بدفع المال الباقي لحسين باشا بشرط ان يصرّف الامير بشيراً منتخبهم بالولاية على الاقطاعات التي كانت لابن معن: فصرّفه الوالي بذلك وارسل الى الباب العالي يخبره بالامر فورد في اواخر السنة المذكورة الامر من الباب العالي بان يكون الامير حيذر بن موسى الشهابي محافظاً على المقاطعات التي كانت بيد الامير احمد بن معن لانه ابن ابنته: وان يكون الامير

رئيساً عليهم مكانه فولاه الامير حيذر الشهابي على مقاطعات الشوف فسلك مسلك العدل والرحمة في الرعية واستمال الناس اليه وكثرت خدامه واعوانه من جميع الطوائف وصار شيخ المشايخ: ولكن من تحت يد الامراء الشهابيين حكام البلاد.

بشير وكيله في الحكم لانه كان قاصراً ابن اثنتي عشرة سنة لا غير . فوقع الامر بيد الحاج ارسلان باشا عند رجوعه من امارة الحج وكان حسين باشا قد نقل من صيدا الى مصر وجُعل ثابتاً فيها : فاحتج الحاج ارسلان عن الامير بشير انه كفوء للوظيفة ولا يليق غيره لها وقد قام برضى اعيان المقاطعات فوردت في اوائل شوال البراءة من الوزير ناطقة بتخويله محافظة كل المقاطعات التي كانت بيد ابن معن » .

فلينظر هنا المنصفون بعين التجرد عن كل غرض وليحكموا بالصواب في قيمة كلام صاحب كتاب سورية الغد من جهة قوله ان الدروز وعددهم يكاد يبلغ الثلاثين الفاً كانوا يحكمون على جبل لبنان واهله الذين يبلغون المئتين والخمسين الفاً عداً : وان الامراء المعنيين انما كانوا منهم وقد حكموا باسمهم ومعونتهم : الى آخر ما قال في هذه الفقرة ليقلل من اهمية الطائفة المارونية في جبل لبنان ومن قيمة استقلالها الداخلي الذي قد اثبتناه فيما مضى باستفاضة .

ذيل آخر

في رد افتراء صاحب كتاب

« سورية الغد »

على الامير بشير الشهابي المعروف بالكبير

ان صاحب كتاب « سورية الغد » لما كان مدفوعاً بسوء النية الى التطاول عمداً على رجل ملأ عصره في لبنان وسورية ومصر والاستانة من المفاخر والفضائل الباهرة لم يرَ ان يتقيد بالحقائق التاريخية الراهنة . ومن ثم اخذ يقذف من مخيلته ما يوافق غرضه الملتوي ومآربه الخفية التي ينم بها روح كتابه هذا . وهذا الرجل انما هو الامير بشير قاسم عمر الشهابي المعروف بالكبير .

ونحن في هذا الرد نثبت اولاً كلامه بحروفه : ثم نثبت بعده روايات التاريخ الحقيقي بالصدد نفسه حتى يتضح لذي عينين الفرق العظيم بين الافتراء والحقيقة : تاركين الحكم في ذلك لذوي الانصاف .

* * *

ان صاحبنا هذا قد استهل كلامه في الفصل الذي عقده « عن الامير بشير الثاني » (وهو الاول من الباب الثاني عشر من كتابه المذكور) بقاعدة عمومية وطأ بها للكلام في الموضوع : وهو يعدها راهنة لا نزاع فيها ولو كانت غير معقولة : فقال ما ترجمته .

« ان امراء لبنان كانوا يستمدون ولايتهم من الحكومة العثمانية بواسطة ممثليها في سورية : بمعنى انهم لم يكن يحق لهم حتى ولا الرجوع الى الباب العالي رأساً كما كان يحق لعامة السوريين ان يلجأوا اليه كلما كانوا غير راضين عن حكامهم . »

مع ان الواقع انما هو غير ذلك : وحسبنا من الامثلة العديدة التي تثبت العكس ان نذكر القارئ بما كان من مراجعات الباب العالي بخصوص تنصيب خلف للامير احمد المعني سنة ١٦٩٧ : ثم ان نذكر له حادثة اخرى من هذا القبيل اقرب الى هذا العهد نقتضبها عن التاريخ الاكبر للامير حيدر الشهابي وعن كتاب اخبار الاعيان : وكلاهما معاصران ومدققان في الروايات التي يثبتانها : وهي انه في نحو سنة ١٧٥٥ لما رأى الامير ملحم ابن الامير حيدر الاول (١)

(١) وهو والد الامير يوسف الآتي ذكره في هذا الذيل

ان اخويه الامير احمد والامير منصور بعد ان تنازل لهما عن الحكم لم يحفظا له ذماماً انكاد منهما واستدعى اليه الامير قاسماً ابن اخيه (١) (وكان قد وقع خلاف شديد بينه وبين عميه المذكورين) وبث له ما بقلبه منهما : ثم اوعز اليه ان يتوجه الى الاستانة في طلب الولاية على جبل الشوف لعمه الامير ملحم ولاولاده من بعده وعلى بلاد جبيل لنفسه ولاولاده من بعده ايضاً : وجعل الشيخ منصوراً الشدياق مديراً له فرضي الامير قاسم بذلك وفي سنه ١٧٥٨ زوده الامير ملحم بكتاب وصاة الى صديقه مصطفى باشا القواس في الاستانة ليسعفه في نيل هذه الامنية فاتاها ونزل ضيفاً عليه بكل اكرام ثم اخذ مصطفى باشا يسعى سعيه في هذا السبيل وما كاد يعده بالنجاح حتى توفي السلطان عثمان وخلفه السلطان مصطفى : فغير رجال الدولة وعزل مصطفى باشا القواس من وظيفته . واذ اضطر هذا ان يغادر الاستانة اوصى بعض اصحابه بالامير قاسم الذي بعد ان مكث مدة هناك دون فائدة قفل عائداً الى دمشق ثم الى لبنان . وكان الامير ملحم قد مات في غضون ذلك فصالح الامير قاسم عميه الامير احمد والامير منصوراً . وفي نحو ١٧٦٢ رجع مصطفى باشا القواس الى وظيفته في الاستانة

(١) وهو والد الامير بشير الكبير الذي نحن بصدده

فارسل فرماناً الى نعمان باشا والي صيدا بتولية الامير قاسم على جبل الشوف وتوابعه .

وهذا الآن كافٍ في بطلان هذه القاعدة الموهومة والغير المعقولة كما يرى اللبيب : وسيأتي من ذلك امثلة اخرى اوضح من الحادثتين المذكورتين في ما يلي من سياق التاريخ في قضية الامير يوسف والامير بشير الشهابيين . وحسبنا الان ان يعلم القارئ ان نظام الدولة العثمانية في ذاك العصر كان غيره في الاعصار المتأخرة بسبب بعد الشقة وصعوبة المواصلات واستبداد ولاة الايالات الذين مع هذا لم يكونوا ليجسروا ان يعرفوا حاكماً على لبنان الا من كان من اصحاب الحقوق المقررة بفرمانات سلطانية . بيد انهم كانوا ينتصرون لاحدهم على الآخر بحسب الفائدة المالية التي كانوا يتطلبونها او الاغراض الخصوصية: مما لا يمكن ان يسمى في الحقيقة تولية على البلاد لأن حق الولاية انما هو عندهم مكتسب بالميراث كما لا يند عن كل ذي بصيرة والمام في تاريخ ذاك العصر .

***

ثم اردف صاحبنا هذه الفقرة بقوله :

«في سنة ١٧٨٨ كان حاكماً على عكاء احمد باشا الجزار المشهور بالظلم والقسوة . وهو الذي قاوم بونابرت سنة ١٧٩٨ .

فهذا ولى الحكم على جبل لبنان للامير يوسف شهاب فكان يحكمه تحت رعاية صاحب عكاء الذي ما لبث ان تغير عليه بغتةً واقسم ان يعزله : اما الامير فاذ شعر بذلك اوفد اليه الرسل بالهدايا النفيسة حتى استرضاه فوعده الباشا اخيراً ان لا يسمي مكانه الا من يقدمه هو» .

هذا ما رواه صاحبنا وهو يخالف كل المخالفة للحقيقة التاريخية الراهنة التي انما هي كما يلي ملخصة عن تواريخ ذاك العصر الحقيقية :

تاريخ الامير يوسف شهاب واحمد باشا الجزار

ان الامير يوسف هذا انما هو أكبر أولاد الامير ملحم عم الامير قاسم المذكور آنفاً : وقد كان عندما توفي والده سنة ١٧٦١ قاصراً عن درجة الرشد . فاختار قبل وفاته وصياً عليه وعلى اخوته الشيخ سعد الخوري صالح الماروني من رشميا ولما وقع الخلاف بين عميه الامير احمد والامير منصور على الولاية واراد كل منهما ان يستقل بها انحاز الامير يوسف الى عمه الامير احمد : ثم اضطر ان يهرب باخوته الى راشيا التي خارج لبنان بعد انتصار الامير منصور على اخيه ومصادرة املاكهم جميعاً . فتدخل بعض الاعيان في مصالحة الامير يوسف مع عمه هذا واتوا به الى دير القمر : فتلقاه عمه بالرضى

ولكنه لم يشأ ان يرد اليه والى اخوته أملاكهم المحجوزة .
فكتم الامير يوسف غيظه وخرج وهو وابن عمه الامير قاسم الى بشامون حيث انزله هذا الامير عنده على الرحب والسعة ولما كان الشيخ سعد الخوري قد بذل كل الوسائل مع الامير منصور لاسترجاع املاك الامراء القصر دون فائدة اخذ يدس الدسائس عليه ويثير الاحزاب : وقد تحالف مع بعض زعماء الدروز في الشوف على نصرة الامير يوسف . وبعد اتخاذ التدابير اللازمة اوعز الى الامير يوسف سرًا ان يلاقيه الى قب الياس ليهبطا معاً الى دمشق : فغادر الامير بشامون بحجة انه ذاهب الى الصيد : ثم هبط هو والشيخ سعد الى دمشق فنزل الامير على واليها عثمان بك وطلب منه المعونة على عمه الامير منصور . فارسله الوالي الى ولده محمد باشا والي طرابلس بكتاب وصاة ليوليه على بلاد جبيل . فذهب الامير اليه : وهذا صدع بالامر والبسه خلعة الولاية على بلاد جبيل والبترون في سنة ١٧٦٣ وكان عمر الامير اذ ذاك ست عشرة سنة . وقد جرى له في هاتين الاقطاعتين امور كثيرة ومواقع عديدة مع المتاولة الذين كانوا قد استبدوا بهما حتى اضعفهم واضطر معظمهم الى المهاجرة واسكن الموارنة مكانهم واتخذ منهم اعواناً ومدبرين واطلق يدهم فيها كما ذكرنا غير

مرة في ما سلف . وكان حزبه ينمو في بلاد الشوف خاصةً حتى خافه عمه الامير منصور واضطر ان يتنازل له اخيراً عن الولاية على لبنان كله : فجمع اعيان البلاد وصرح امامهم بتنازله الى ابن اخيه الامير يوسف بحجة ضعف جسمه عن القيام باعباء الولاية . فسر الجميع بذلك ورفعت العرائض الى عثمان باشا والي دمشق وكان يحب الامير يوسف حباً جماً : فراقه كثيراً وكتب الى ولده درويش باشا والي صيدا ان يوجه خلعة الولاية اليه فلم يتباطأ بارسالها وكان ذلك سنة ١٧٧٠ : فاستتب الامر لهُ على لبنان من طرابلس الى ظاهر صيدا .

وفي هذه السنة نفسها قدم على الامير يوسف رجل بشناقي الاصل اسمه احمد الجزار هارباً من علي بك والي مصر : فرحب به الامير وابقاه عنده في دير القمر اياماً بكل اكرام ثم بعث به الى بيروت التي كانت داخلة في حكمه ليقيم فيها ورتب له نفقة كافية من جركها . فاقام فيها احمد الجزار مدة ثم ذهب الى دمشق حيث دخل في خدمة واليها عثمان باشا.

وفيها ثار متاولة جبل عامل على درويش باشا والي صيدا فاستنجد الامير يوسف عليهم وانتصر للمتاولة ظاهر العمر الشهير صاحب عكا : ووقعت مناوشات كثيرة بين الفريقين انتهت بكسرة درويش باشا والامير لان مشايخ الدروز قد

خذلوه لغرض في نفوسهم . فهرب درويش باشا الى دمشق واستولى ظاهر العمر عنوة على صيدا . واذ بلغت اخبار هذه الحوادث الاستانة صدر الامر السلطاني الى الامير يوسف ان يقوم بعساكره اللبنانية لطرد ظاهر العمر واتباعه المتاولة من صيدا : فلبى الامر وجمع عليه جيشاً لجباً من لبنان وبعد مناوشات كثيرة تم النصر للامير على ظاهر العمر فسر السلطان به وانعم عليه بترك مال البلاد سنة (١) . وقد جرى بعد ذلك حروب كثيرة بين الامير وظاهر العمر انتهت بعقد صلح تامة

(١) وفي هـذه الحادثة التاريخية برهان متين كما يرى المتأمل على بطلان ما زعم صاحب كتاب « سورية الغد » من حيث انكاره اتصال حكام جبل لبنان بالاستانة راساً على ما مرَّ بك آنفاً . ويظهر ايضاً ان حكام جبل لبنان انما كانوا مستقلين احراراً : فكان السلطان يخولهم حق الولاية بوثيقة من لدنه لهم ولذريتهم من بعدهم بحيث يقومون بجمع المال المفروض على البلاد لخزينة السلطنة ويقدمونه في اوقاته : كما جرى اولاً لآل معن ثم لآل شهاب الذين حلوا محلهم بعد انقراضهم وقد تولوا مكانهم بفرمان سلطاني لاولهم الامير بشير ابن اخت الامير احمد المعني . ولم يكن لولاة الايالات التي بجوار لبنان من حق بتنصيب الولاة على هذا الجبل المستقل استقلالاً نوعياً : بل ربما استعان الباب العالي بحكام لبنان ورجاله على تأديبهم كما جرى هذه المرة . وانما كانت صلة حكام لبنان بهم من جهة تقاضي مال الخزينة السلطانية منهم وبهذه الحجة كان لهم بعض السيطرة عليهم : وهذا سيزيد ظهوراً مما يلي .

بينهما وصحبة صادقة .

وكان في هذه الحوادث مع الامير يوسف مدبر والي دمشق بقسم من عسكره وفي صحبته احمدبك الجزار المذكور آنفاً . فرأى الامير سنة ١٧٧٢ ان يجعل هذا الاخير متسلماً اي مديراً لمدينة بيروت من قبله وان يبقي عنده عسكر المغاربة ليحافظ عليها من جهة البحر : مع ان مدبر والي دمشق قد حذره من الجزار وغدره . فلم تطل المدة حتى وقع المحذور وعصي الجزار على الامير في بيروت بعد ان حصنها تحصيناً منيعاً وملأها بالمؤونة والذخائر مما اضطره ان يستنجد على اخراجه منها بظاهر العمر ويحاصره من البر والبحر زهاء اربعة اشهر . فسلم الجزار اخيراً على يد ظاهر العمر على شرط ان يخرج هو ورجاله من بيروت احراراً : فرضي الامير بهذا الشرط وخرج المذكور بهم واقام واياهم في عكاء . وفي قلبه حزازات على الامير .

وفي سنة ١٧٧٦ توصل الجزار بدهائه الى ان ينصَّب من قبل الدولة والياً على صيدا : فقدم اليها باسم احمد باشا الجزار . واذ بلغ الامير يوسف هذا الخبر الغير المنتظر اضطرب له جداً واوجس خيفة من نقمته : بيد انه رأى من الحكمة ان يبادره باللين : فارسل اليه كتاب تهنئة بالمنصب الجديد في

غاية اللطف وشفعه بهدايا نفيسة : فاجابه الجزار متودداً وذكر له سابق معروفه وصداقته . ومع ذلك لم يطمئن قلب الامير له فبث ما في قلبه الى الوزير حسن باشا الذي كان قد اتى من الاستانة بامر السلطان على الاسطول العثماني لينكل بظاهر العمر الخائن : وكان الامير قد تقرب اليه واتخذه صديقاً وعوناً له عند الحاجة . فاجابه الوزير — كن آمناً مطمئناً اذ لا بد لي من ان اسقيه كاس الردى متى فرغت من تدبير الاقطار الشامية — ثم دفع الامير الى حسن باشا المبلغ الذي كان قد وعده به وقدره مئة الف غرش فكتب له الوزير صك ابراء ووجه اليه الخلعة المعتادة على جبل الشوف وتوابعه وعلى بيروت والبقاع : وكتب له عهداً بأن ليس لوالي صيدا عليه سوى قبض المال الاميري المقرر سنوياً لخزينة الدولة . وبعد مدة همّ الوزير بالعود على اسطوله الى الاستانة .

فخلا الجوّ لاحمد باشا الجزار واظهر للامير ما كان كامناً في صدره من الضغينة : فنهض اولاً بعسكره الى بيروت واستولى عليها عنوةً وكف يد الامير عنها وضبط كل ما فيها من املاك الامراء الشهابيين : واخذ يطالب الامير يوسف بمال الجبل عن ثلاث سنوات بدعوى انه متأخر عنده لخزينة الدولة غير معتبر ما كان من المخالصة بينه وبين الوزير حسن

باشا . واذ رأى الامير ان الجزار باشر بالانتقام كتب الى حسن باشا يستغيث به عليه : فادركه الرسول في جزيرة قبرس يستعد للسفر : فعاد الوزير ببعض سفنه الى بيروت وطرد منها الجزار ونهاه عن المخالفة وطيب قلب الامير يوسف ووعده انه بوصوله الى الاستانة يسعى بعزل الجزار عن ولاية صيدا . فسار الجزار الى صيدا بحراً ورجع عسكره اليها براً وسافر ايضاً حسن باشا الى الاستانة .

وكان عسكر الجبل كامناً لعسكر الجزار على طريق صيدا : فحصلت بين الفريقين مناوشة تغلب فيها عسكر الجزار : فقتل واسر جمهوراً من عسكر الجبل واتى بالاسرى مكبلين الى الجزار واخبره بما كان . واذ بلغ الامير امر هذه الحادثة خاف سوء المغبة : وارسل الى الجزار يسترضيه ويعتذر له بان ما وقع مع عسكره انما كان بدون علمه : والتمس منه اطلاق الاسرى واعداً اياه بفدية مالية قدرها مائة الف غرش فاجاب الجزار الى ذلك طامعاً بالمال الذي كان يفضله طبعاً على كل شيء : وارسل فوراً مدبره باربعمائة فارس لتقاضي هذا المبلغ : فاضطرب الامير من ذلك وتوسل الى المدبر ان يصرف العسكر لئلا يقع بينهم وبين اهل البلاد ما لا تحمد عقباه . فصرف المدبر الخيالة ووزع الامير هذا المال على البلاد كالعادة

واذ ابى الامراء اللمعيون دفع ما فرضه عليهم واظهروا العصيان اوعز الامير الى مدبر الجزار ان يتوجه الى بيروت للانتقام منهم بقطع اشجارهم فيها . فتوجه المذكور و كتب الى الجزار ان يرسل اليه فرقة من العسكر لهذه الغاية: فارسلها اليه واستولى بواسطتها على بيروت . ثم وجه هذا العسكر الى نواحي بعلبك فصادر ما للامير واللبنانيين من الاملاك في البقاع لقاء المبلغ الذي كان اتفق عليه معه . واذ ذاك صالح الامير الامراء اللمعيين وعقد الجميع النية على محاربة عسكر الجزار لاجل اخراجه من البقاع : ووقعت بين الفريقين عدة مناوشات دارت فيها الدوائر على اللبنانيين.

وفي سنة ١٧٧٨ نهض على الامير يوسف اخواه الامير سيد احمد والامير افندي وكانا خصمين لدودين له بسبب الولاية: وقد كثر حزبهما واشتد اللجاج . وبما ان الظروف لم تكن مناسبة له اذ ذاك تظاهر بحب العزلة وذهب بمن كان يعتمد عليهم من خاصته الى غزير . وفي غضون ذلك قام المشايخ بنو علوان الدروز في الشوف على ابن عمهم الشيخ ظاهر فقتلوه بسبب ميله الى المشايخ العمادية خصومهم. فنهض الامير من غزير الى الباروك في قلب الشوف للاقتصاص منهم : واذ علموا بقدومه فروا من وجهه الى عكاء لائذين

بأحمد باشا الجزار وقد طلبوا منه ان ينجدهم على الامير ووعدوه ان يملكوه البلاد . فسر الجزار بهذه الفرصة وامدهم بعسكره فنهضوا به الى صيدا ووقعت عدة مناوشات بينهم وبين رجال الامير الذي حسب لذلك الف حساب ورأى من الحكمة ان يتنازل لاخويه عن الحكم . فعاد الى الباروك واستدعى اليه اكابر البلاد وخلع نفسه امامهم عن ولاية الشوف وسلمها برضاه لاخويه معاً حذراً من سوء المغبة : وهما اقطعاه بدورها بلاد كسروان واسقطا عنه مالها الاميري تاركين اياه له كمعاش . وكتب الامير يوسف الى الجزار يخبره بذلك وعاد الى غزير فارسل الجزار خلعة الولاية الى اخويه المذكورين عن طيبة خاطر : وهما حضرا بعيالهما الى دير القمر وتقلدا زمام الولاية مكان اخيهما.

وكان هذان الاميران يكرهان اخيهما الامير يوسف ويرهبانه معاً : فلم يرعيا له ذماماً بل ارسلا الجباة في طلب المال الاميري من اقطاعته فغضب الامير وطردهم : واذ بلغهما ذلك استشاطا غيظاً ونهضا بالعسكر الى بعبدا تهديداً له وارهاباً . اما الامير يوسف فلم يصبر على الضيم والذل بل اخذ يستعد لملاقاتهم واستنجد عليهم باصحابه آل مرعب في عكار وآل رعد في الضنية : فوافوه برجالهم واجتمعوا برجاله

في المعاملتين تحت غزير مستعدين كلهم اجمعين للقتال : واذ علم اخواه بذلك جزعا منه واستنجدا بالجزار فامدهما بعساكره ليطردا اخاهما من البلاد . وبلغ الامير يوسف ما حصل فنهض برجاله الى جبيل واخذ اخاه الامير حيدر الذي كان حاكماً فيها وكان موالياً له : ثم قام الى بسكنتا ومنها الى بعقلين : فكتب اخواه الى الجزار يخبرانه بامره ويظهران الخوف منه . ورأى الجزار ان الامير يوسف اكثر نفوذاً واقداماً من اخويه وان اهل البلاد اميل اليه واكثر رغبة له فارسل يخابره سراً بامر اعادته الى الولاية اذا كان يتعهد له باموال وافرة . واذ تعهد الامير بمائة الف غرش ارسل الجزار اليه خلعة الولاية دون ان يراعي اخويه.ففر حينئذ اخواه الى المتن حذراً من الغائلة وفرقا العساكر عنهما واخذا يسعيان باسترضاء اخيهما الذي لم يبطئ ان رضي عنهما واستدعاهما اليه وجعلهما مدبرين لحكومته .

الا ان هذين الاخوين العقوقين قد استمرا في الباطن على غيهما : ولما سنحت الفرصة تآمرا عليه مع خصومه من آل جنبلاط واحزابهم واتفقوا جميعاً على خلعه وسمل عينيه وقتل مدبره الشيخ سعد الخوري الذي كان يده اليمنى في كل أمر ليتخلصا من مزاحمته . فبلغ الامير يوسف أمر هذه المؤامرة

وتدابيرها بكل دقائقها فاستعد لها ووضع كميناً من المغاربة في طريق المتآمرين . واذ أقبلوا برجالهم الى دير القمر برز لهم الكمين فانخلعت قلوبهم وولوا الادبار وقبض المغاربة على الامير أفندي وساقوه الى ما بين يدي أخيه فقتله بيده فوراً لشدة غيظه منه ثم كتب الى أقاربه يعتذر لهم عن قتله بيده .

اما الامير سيد احمد فقد فرّ من ايدي المغاربة الى المختارة وطفق يهيج الناس على اخيه الامير يوسف فاجتمع اليه بواسطة آل جنبلاط والمشايخ العمادية جم غفير . واذ بلغ الامير يوسف ذلك خشي سوء العواقب وفر من دير القمر الى الجزار في عكا وطلب منه النجدة واعداً اياه بثلاثمائة الف قرش لقاء ذلك . فانجده الجزار بجيش جرار وعليه مملوكه سليم باشا : وقد زحفوا جميعاً الى صيدا حيث وافى الامير جمهور من رجال حزبه ثم خيموا في صحراء علمان . وجاء الامير سيد احمد بعساكره واحلافه فدارت رحى الحرب في عدة مواقع استقر النصر فيها للامير يوسف وتشتت حزب اخيه الذي انتهى بالهرب الى قب الياس لاجئاً الى محمد باشا العظم والي دمشق . فولاه هذا على وادي التيم والبقاع وارسل له خلعة وعسكراً . وجرت له هناك امور كثيرة ادت به اخيراً الى طلب وساطة عمه الامير على ليصلحه مع اخيه الامير يوسف.

وكان للامير علي كلمة نافذة عليه فقبل شفاعته ورفع الحجز عن املاك اخيه المذكور وامره ان يستكن في الشويفات .

وجرى بعد ذلك امور شتى نشأ عنها خلاف كبير بين الامير اسماعيل الشهابي صاحب راشيا ومرجعيون وبين الامير يوسف ابن اخته : فاشار الشيخ قاسم جنبلاط على الامير اسماعيل ان يتقدم الى الجزار بطلب الولاية على لبنان متعهداً بدفع ثلاثمائة الف غرش . فكتب الى الجزار بذلك وهذا استدعاه اليه ووعده باجابة سوءله بشرط ان يكون احد الامراء الشهابين اللبنانيين شريكاً معه في الولاية (١) فرضي

(١) من هذا يظهر جلياً لكل لبيب صحة ما قلناه في الحاشية السابقة من انه لم يكن للجزار ولا لغيره من الولاة سلطة او اقل حق بان ينصبوا اياً كان حاكماً على لبنان : وانما كانوا يعترفون ويقرون على الولاية من تغلب على اقرانه من اصحاب الحق الشرعي والمكتسب من لدن السلطان : وكانوا ينصرونه عند الحاجة على مزاحميه ويتقاضون من وراء ذلك الاموال الطائلة ويعدون سيطرتهم عليه لشدة احتياجه اليهم : لان الرجوع في هذه الامور الى الاستانة كان صعباً جداً لبعد المواصلات وتعذرها غالباً فيكتفون باسترضاء هوءلاء الولاة العثمانيين المفوضين بتقاضي مال الجبل من حكامه وايصاله الى الخزينة وليس الا . ولهذا كان الامراء غالباً يسترضون اعيان البلاد اولاً ويتنازلون احدهم للاخر عن الولاية ثم يطلبون من والي صيدا له الخلعة وهذا يعطيها دون معارضة وهي كاستعراف له لاجل مال الخزينة فقط .

الامير اسماعيل بهذا الشرط وكاتب الشيخ قاسم جنبلاط الامير سيد احمد بهذا الامر : فاجابه بالرضى شاكراً همته واخلاصه . ثم عرضا للجزار ما توقع وكفل له الشيخ قاسم المبلغ المطلوب . اما الجزار فانه قد أخر الجواب وكتب سراً الى الامير يوسف يخبره ويخيره بين ان يقوم هو بدفع هذا المبلغ او يتنازل عن الولاية لاخيه وخاله . فجمع الامير اعوانه ومستشاريه للمداولة في الامر واندس الشيخ قاسم جنبلاط بينهم وهو يظهر الاخلاص للامير فكان العامل الاكبر في اغرائه على رفض طلب الجزار وعلى محاربته . فقر الرأي على ذلك واستعد الامير للحرب وارسل الجزار عساكره لهذه الغاية وجرت بين الفريقين عدة مواقع انتهت بفوز اللبنانيين الذين اسرفوا بالنهب والسلب في بلاد الجزار .

فاغتاظ الشيخ قاسم من هذا الفوز لانه جاء على خلاف الخطة التي كان قد رسمها : ثم اخذ يحتال على الانسحاب بقومه واحزابه من معسكر الامير الذي اخذ اذ ذاك يتحسب للغوائل حتى تشتت رأيه وضعفت همته . وحدث من جراء ذلك امور افضت بالامير الى الهرب من وجه الجزار الى بلاد عكار حيث اقام مستكناً على احسن كرامة .

وحينئذٍ ارسل الجزار خلعة الولاية حسب وعده الى

الامير سيد احمد والامير اسماعيل اللذين شرعا من اول الامر يهتمان بجمع الثلاثمئة الف من اهل البلاد فوق المال الاميري لوالي عكاء المذكور . فثار اهل البلاد لطمعهم بالاميرين ورفضوا دفع هذه العلاوة : فكتب الاميران للجزار في ذلك وكان الامير يوسف قد كتب اليه من عكار يستعطفه فاوعز الجزار الى الشيخ سعد الخوري ان يستدعيه الى لبنان ويؤكد له عطفه عليه ورضاه : فكتب الشيخ سعد الى الامير فلم يطمئن باله . واذ علم الجزار بما كان من هذا القبيل امر الشيخ سعد ان يراجعه وكتب هو اليه مع رئيس كتابه الشيخ الياس اده الماروني الشهير . فحمل الشيخ الياس الكتابين الى الامير وهو في صافيتا وأخذ يؤكد لهُ رضي الجزار عنه حتى اقنعهُ . فقام الامير يجد السير بمن معه حتى بلغ قرية حبالين في اواسط بلاد جبيل وكتب منها الى مدبره الشيخ سعد يستعلم عن حقيقة الامر . وكان الجزار مقيماً اذ ذاك في بيروت فألح على الشيخ سعد ان يأتي بالامير اليه وجدد له عهد الامان . فجاء الامير بايعاز الشيخ سعد الى بيروت بعد ان صرف من معه من الرجال الى جوارها ليرى ما يتم له مع الجزار المشهور بغدره : ثم دخل رابط الجأش على الجزار فتلقاه بالترحاب ومجالي الاكرام وبعد ساعة زمان ركبا البحر معاً الى عكاء

ووافاهما اليها الشيخ سعد برجاله براً .

اما الامير سيد احمد والامير اسماعيل الواليان فاذ بلغهما خبر قدوم الامير يوسف الى بيروت جزعا جداً من العواقب : ولكنهما ما لبثا ان ارتاحا بالاً عند ما بلغهما ان الجزار قد سافر به الى عكاء بحراً . وحينئذٍ كتبا اليه يغريانه على اهلاكه متعهدين له بخمساية الف قرش : فاجابهما الجزار مورياً ومؤكداً لهما انه لا ينقض عهده معهما .

ولما وصل الشيخ سعد الى عكاء وقابل الامير يوسف اتفقا على ان يتعهد هذا للجزار باداء مبلغ الف الف قرش في خلال ثلاثة اشهر اذا انجز وعده بارجاع الولاية على لبنان اليه . فرضي الجزار بذلك وألبس الامير خلعة الولاية وعززه بالعساكر الكافية وصرفه وقد أبقى عنده الشيخ سعد رهناً على هذا المبلغ . فنهض الامير بالعساكر من عكاء ظافراً : واذ وصل الى دير القمر القى القبض على خاله الامير اسماعيل واودعه السجن : وهرب الامير سيد احمد من وجهه الى نواحي المتن حيث توارى مدة .

وكان الامير بشير ابن الامير قاسم عمر الشهابي موالياً في هذه الامور للامير سيد احمد فهرب هو ايضاً من وجه الامير يوسف الى نواحي حوران : وكان اخوه الاكبر الامير حسن

موالياً للامير يوسف فتشفع فيه عنـده حتى استرضاه عنه وجعله من خواصه .

واستوثق الامر في لبنان للامير يوسف حتى سنة ١٧٨٨ الا انه قد بقي عليه من المال الذي كان قد تعهد به للجزار مئة وخمسون الف قرش فابى ان يسدده اياها . ولذلك وقعت الفتنة بينهما وجمع الجزار العساكر ووجهها مع مملوكه سليم باشا الى خان حاصبيا تهديداً للامير : بيد انه في هذه الغضون قد ثار مماليك الجزار عليه وحضروا جميعاً الى سليم باشا المذكور وهو من زعمائهم : وهذا كاتب الامير يوسف بالامر فوراً فعاهده على التضافر : فنهض سليم باشا بالعساكر الى صيـدا واتفق مع زميله سليمان باشا مملوك الجزار ايضاً وعامله فيها على انتزاع الولاية من الجزار . وبعد ابرام العهد كتبا الى الولاة ووجها الخلع اليهم باسمهما : فلما وصلت خلعتهما الى الامير يوسف زاد سروراً وتلقى رسلهما بالحفاوة والاكرام وكتب اليهما يشدد عزيمتهما ويعدهما بالمعونة . ثم زحف سليم باشا وسليمان باشا وسائر المماليك بالعساكر على عكاء فحاصروها : ولكن احمد باشا الجزار كان قد تأهب لقتالهم فداهمهم بعساكره وشتت شملهم وابتسم له ثغر النصر عليهم ففر سليمان باشا بنفر من رجاله الى دير القمر .

وقد تفرغ الجزار بعد ذلك للانتقام من الامير يوسف لانه علم بمحالفته مع مماليكه وتنشيطهم على قتاله وخلعه . فارسل العساكر عليه من كل ناحية وجمع الامير ايضاً عساكره ووقع بين الفريقين عدة مواقع هائلة كان الفوز في اكثرها لعساكر الجزار . فانتهز الفرصة الامير بشير ابن الامير سيد احمد ولجأ الى متسلم بيروت يستوسطه في طلب الولاية من الجزار مكان عمه الامير يوسف . واذ علم والده بذلك (وكان الامير يوسف قد سمل عينيه وامره ان يسكن في اعبيه) اسرع فارسل سائر اولاده الى بيروت خوفاً من نقمة اخيه . اما متسلم بيروت فكتب في امر المذكورين الى الجزار الذي أرسل يستدعيهم اليه واذ وجدهم قاصرين لم يرَ ان يسند الولاية اليهم لصغر سنهم ولكنه اكرمهم وطيب خاطرهم .

ورأى الامير يوسف ان الدهر قد قلب له ظهر المجن فاستصوب اعتزال الولاية وصرف سليمان باشا والهوارة من عنده ونقل اهل بيته الى المتن . ثم جمع اكابر البلاد عنده في دير القمر وذكر لهم عجزه عن القيام بحق الولاية لما بينه وبين الجزار من الضغائن ومن المشاحنات التي قد تفضي الى خراب البلاد : ثم اطلق لهم الحرية ليختاروا والياً غيره على لبنان من الامراء الشهابيين اللبنانيين دون غيرهم لان هذه الولاية انما

تحق لهم وحدهم .

وهذا ما جاء في تاريخ ولاية الامير يوسف الشهابي على جبل لبنان وما جرى له مع احمد باشا الجزار لخصناه ببعض التصرف ولكن بكل تدقيق عن كتاب اخبار الاعيان الموصوف آنفاً . وقد وصلنا الى تاريخ سنة ١٧٨٨ التي استهل بها صاحب كتاب « سورية الغد » كلامه عن الجزار وتولية الامير يوسف فيها على جبل لبنان ثم تغيره عليه وعزله ثم وعده له بان لا يولي مكانه الا من يختاره هو من اقاربه : مما لا ينطبق بوجه من الوجوه على الحقيقة كما رأيت . وحسبنا الآن في هذا الموضوع وقد حان ان نأتي على

تاريخ الامير بشير الثاني المعروف بالكبير

قال صاحبنا مؤلف كتاب « سورية الغد » بُعيد الفقرة السابقة من كلامه بهذا الصدد ما مؤداه حرفياً :

« وكان الامير يوسف قد اعتنى باخوين فقيرين يتيمين تربطهما قرابة بعيدة باسرته : فرباهما تحت حمايته : اسم احدهما بشير والآخر حسن شهاب . وكان الاول قد بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة واظهر من النجابة والاخلاص ما جعل الامير يوسف يختاره خليفة له في منصبه لظنه ان ليس هناك

ما يخيفه من فتى ليس له من سند سواه في البلاد التي كانت كلها من حزبه بحيث يسهل عليه ان يقنعه في الوقت المناسب باعتزال هذا المنصب وتركه له »

« اما بشير فلم يكد يقف بحضرة الجزار حتى اعلن له انه لكي يقوى على تنفيذ اوامره والاخلاص له في اتمام ارادته لا بد من ان يستقل في الحكم دون اقل سيطرة أجنبية او اشراف عليه : وان وجود الامير يوسف في لبنان انما يكون على الدوام سبباً للفوضى . . فسر الجزار من مصادفته في هذا الطماح نفساً شقيقة لنفسه الامارة بالسوء وأناله فوراً كل ما طلب منه . فعاد بشير الى لبنان وكله آمال بتحقيق أمانيه ومطامعه حتى انه لم يرضَ ان يقابل المحسن اليه بل اكرهه على مهاجرة لبنان بتاتاً : ثم اكثر من الدسائس حتى الجأه ان يهرب الى عكاء حيث اقنع الجزار بشنقه » اه

الى هنا ما اختلقه صاحبنا من الترهات بهذا الشأن وهي ليست اقل من غيرها تلفيقاً وافتراء . ودونك ما جاء في التاريخ الحقيقي الراهن بهذا الموضوع عينه ننقله حرفياً بكل امانة عن كتاب أخبار الاعيان في جبل لبنان وهو كافٍ لتكذيبه من كل وجه .

روى صاحب هذا التاريخ النفيس بعد ان تكلم عن

تنازل الامير يوسف عن الولاية سنة ١٧٨٨ واعطى الحرية للاعيان ان ينتخبوا من الامراء الشهابيين اللبنانيين من يتولى على جبل لبنان مكانه قال ما حكايته :

« فاختاروا الامير بشير ابن الامير قاسم عمر لانه كان اميراً جليلا وفتىً نبيلاً ذا سطوة ومهابة وشهامة ونجابة تميل الناس اليه ويلوح منه اللطافة والايناس : وكان الجزار يميل اليه كل الميل ويرغب ان يجعله والياً وله معه الدسائس والرسائل بهذا الشأن :وكان بين الامير بشير والفئة الجنبلاطية محالفة وعهود . فاحضره الامير يوسف واشار اليه بان يتوجه الى الجزار ويتوشح بخلعة الولاية على البلاد . قيل انه لما قال له الامير يوسف ازل يا ابني الى عكاء وتولَّ مكاني اجابه معتذراً قائلاً اني اخاف ان ازل ابنك واطلع ابن الجزار . ثم توجه الى عكاء في شهر ايلول وعمره اذ ذاك احدى وعشرون سنة » .

« ولما اقبل على الجزار استقبله بالترحاب وقلده الولاية على جبل الشوف وكسروان وخلع عليه واصحبه بالف عسكري من المغاربة والارنؤوط وحثه على طرد الامير يوسف من البلاد وامره ان يأخذ معه اولاد الامير سيداحمد آمنين . فلما وصل الامير بالعسكر الى صيدا ومعه الامراء

المذكورون نهض الامير يوسف من دير القمر الى بيصور ومعه اخوه الامير حيذر والامير حيذر احمد والامير حسن علي والامير اسعد سليمان وبعض المناصب . ثم نهض الامير من صيدا الى دير القمر فلاقاه الشيخ قاسم جنبلاط والشيخ عبد السلام العماد زعيما الجنبلاطية والعمادية وبعض وجوه البلاد . وبلغ الامير يوسف ذلك فنهض من بيصور الى عاليه ثم الى حمانا ثم الى المتين . وحينئذٍ ورد امر للامير من الجزار ان يطرد الامير يوسف من جميع البلاد : فبعث الامير يخبر الامير يوسف بذلك طالباً منه ان يقوم الى جرد كسروان : فقام الى بسكنتا ومنها الى وطاء الجوز . ثم نهض الامير بالعسكر الى بوارش : وحينئذٍ ارسل المتينيون الى الامير يوسف يستدعونه اليهم متعهدين له انهم يطردون الامير من الولاية : فاغتر ونهض راجعاً الى المتن . فنهض الامير من بوارش الى المجدل وعند وصوله قدم اليه اكثر المتينيين . فارسل الى الامير يوسف ان يقوم الى بلاد جبيل والا اضطر الى طرده من البلاد عنفاً حسب أمر الجزار . حينئذ نهض الامير يوسف بمن معه الى جرد كسروان ثم الى العاقورة . فنهض الامير بعسكره الى وطاء الجوز : ونهض الامير يوسف من العاقورة الى لحفد : فنهض الامير الى العاقورة

وهو يحذره ».

« حينئذ عرضت مناصب البلاد الى الجزار ان الامير بشيراً اتفق مع الامير يوسف : فغضب الجزار جداً وجهز عسكراً : اما الامير فارسل يطلب عسكراً من الجزار . ولما رأى الامير يوسف الحاح الامير عليه جمع المشايخ الحمادية ومشايخ جبة بشراي برجالهم وارسلهم مع عسكره الى وادي الميحان يمنعون الامير وعسكره من العبور . فكمنوا له هناك وعند ما تبطن سباق عسكر الامير ذاك الوادي اندفقت عليهم الرجال اندفاق السيل فانكسر عسكر الجزار وار كن الى الفرار وقتل منه نحو مئة رجل . حينئذ حمل الامير عليهم كالرئبال وجرد سيفه وهجم بالعسكر : فانكسر عسكر الامير يوسف كسرة عظيمة وقتل منه الشيخ ابو دعيبس جنبلاط والشيخ يوسف بولس الدويهي شيخ اهدن وخلق كثير . وفر الامير يوسف بمن معه الى اهدن وارسل الامير اسعد صاحب حاصبيا الى ابراهيم باشا والي دمشق طالباً منه ان يأذن له بالاقامة في بلاده آمناً » اه .

فانظر يا رعاك الله البون العظيم بين هذه الرواية التاريخية الصحيحة وبين تلك الرواية الملفقة التي لا اثر للحقيقة فيها . ونحن والحق يقال لا ندري كيف لم يخجل صاحبها من اثباتها

على هذا الشكل في كتاب اراد ان يزفه خاصةً الى الامة الفرنساوية الكريمة ليقفها بكل اخلاص (كما يدعي) على احوال سورية وشعوبها ونحلها وسياستها ومرافقها : فكتبه بلغتها البديعة وطبعه في عاصمتها الجميلة فصادف من الاقبال ما لم يكن ليخطر له على بال حتى اعاد طبعه مراراً .

* * *

ذلك واما قوله ان الامير هو الذي اعتنى بتربية ولدين يتيمين فقيرين تربطهما وشائج قرابة بعيدة بعائلته اسم احدهما بشير والآخر حسن الخ : فهذا ايضاً أبعد عن الحقيقة مما سلف بمراحل . لان هذين الاميرين الصغيرين انما هما نجلا الامير قاسم ابن الامير عمر ابن الامير حيدر الشهابي الاول : ووالدتهما هي ابنة الامير منصور ابن الامير حيدر المشار اليه : واخو جدهما لامه هو الامير مراد ابي اللمع اشهر الامراء اللمعيين في عصره : ولموضع محبة الامير حيدر الاول له قد تزوج بوالدته لتمكين علائق المحبة بينه وبينه بهذه النسابة فرزق منها الامير عمر جد الامير بشير الذي نحن بصدده . واما الامير يوسف فانما هو ابن الامير ملحم ابن الامير حيدر الاول : فهو اذن ابن عم والد الامير بشير ووالدته لحاً . أفيمكن بعد هذا ان يقال بصواب ان هذين الاميرين الصغيرين كانت تربطهما

قرابة بعيدة بعائلة الامير يوسف ؟ وهــل يصدق قوله ايضاً انهما كانا فقيرين يتيمين بمعنى انهما كانا مهملين ليس لهما من يعتني بهما ؟ فليحكم المنصفون !

اجل ان الامير قاسماً والدهما قــد توفي سنة ١٧٦٨ وكان للامير حسن نحو ثلاث سنوات وللامير بشير نحو ثلاثة اشهر من العمر : بيد ان هذا الامير الصالح كان قبل وفاته قد اختار وصياً لولديه هذين القاصرين الشيخ منصور الشدياق ووكلهما مع والدتهما اليه ليعني بتربيتهما تربية مسيحية (١). وبعد سنة

---

(١) ومن تاريخ حياة الامير قاسم هذا انه كان (على ما قال صاحب تاريخ اخبار الاعيان ص ٥٩) « مهاباً جليلاً محموداً لا يخشى المخاطر : وانه كان طيب السريرة كريم الاخلاق لين العريكة » والا فانه كان قادراً ان ينازع عميه الامير احمد والامير منصوراً على الولاية لا سيا وقد نال بها فرماناً من لدن الباب العالي وامراً الى نعمان باشا والي صيدا ليلبسه خلعة الولاية على جبل لبنان سنة ١٧٦١ كما مرَّ بك آنفاً . بيد انه لما كان قد مات عمه الامير ملحم الذي كان يحرضه على ذلك وكان عماه الواليان معاً اذ ذاك على لبنان قد كاتباه في امر الصلح والانضمام اليهما قبل ان يأتيه هذا الفرمان بنحو ستة اشهر فرضي وابرم معهما عهداً وثيقاً على حفظ الولاء قد رأى هذا الامير الجليل ان يقوم بعهده مع عميه المشار اليهما ليعطيهما برهاناً دامغاً على اخلاص النية معهما . قال صاحب كتاب اخبار الاعيان (ص ٣٨٨) بهذا الشأن ما حكايته حرفياً « فارسل الامير قاسم ذلك الفرمان الى عميه المذكورين وكتب اليهما قائلاً : اني لم ازل مقيماً

على عهد كما ولهذا بعثت اليكما هــذا الفرمان واني جانح عن حب الولاية حباً بكما . . . » (وعن الكتاب المذكور ايضاً) انه « في سنة ١٧٦٢ ازوجه عمه الامير منصور من ابنته ليقربه اليه فولد منهـا الامير حسن والامير بشير الملقب بالكبير الذي لم يقم مثله في بيت شهاب وفي سنة ١٧٦٤ نصر البطريرك يوسف اسطفان الغوسطاوي الماروني الامير قاسم عمر : وسنة ١٧٦٥ ولد للامير قاسم عمر الامير حسن . . . وسنة ١٧٦٨ ولد للامير قاسم عمر ولد سماه بشيراً وبعد ثلاثة اشهر ونصف توفي الامير قاسم عن اربعين سنة وله ولدان الامير حسن والامير بشير » . وكان قد تولى على البقاع ثم سكن في قرية عين دارة ثم نقل الى بشامون حيث نزل ضيفاً عليه الامير يوسف ابن عمه عندما كان مغضوباً عليــه من عمه الامير منصور كما رأيت في محله . (وعن الكتاب نفسه) « فاستوطن بشامون نحو اربع سنين ثم انتقل منها الى بيروت حيث اقام اياماً ثم نهض من بيروت الى غزير التي كانت من اقطاعه فاقام فيها نحو سنتين وفيها توفي » . وقد ذكرنا عن هذا الامير كل هذه التحف التاريخية لانها مما يبين اصل الامير بشير الكريم اثباتاً لما ذكرنا في المتن . الا ان صاحب كتاب اخبار الاعيان الذي ذكر هنا ان الامير بشيراً قد ولد في سنة ١٧٦٨ قــال في محل آخر من كتابه هذا (ص ٥٩ حيث اثبت سلسلة آل شهاب) ما حكايتــه حرفياً « وسنة ١٧٦٧ ولد للامير قاسم عمر الامير بشير الذي لم يقم مثله في بني الشهاب : وسنة ١٧٦٨ توفي الامــير قاسم عمر في غزير ودفن في مدفن بني الصاف وعمره اربعون سنة » : وهو خلاف في التاريخ لا يعتد به لسهولة توفيقه .

يوسف اسطفان وصياً عليهما الشيخ بطرس نوفل الخازن صديقه لما كان يعهد فيه من الفضل والفضيلة وحصافة العقل : فاعتنى بتربيتهما خير عناية (١).

فمن اين يا ترى اتانا صاحب كتاب « سورية الغد » بهذه

(١) ان هذه الرواية قد تلقيناها بالتواتر عن السعيد الذكر البطريرك يوحنا الحاج عن طيب الاثار البطريرك بولس مسعد سالفه الكثير الولع بالتنقيب عن هذه الدقائق التاريخية . وكان رحمه الله يقول مراراً ان الامير بشيراً كان كلما سنحت الفرصة يسأل باهتمام عن شجرة السنديان العظيمة التي لا تزال الى الآن امام بيت الشيخ بطرس نوفل في القليعات : وكان يوصي بالحرص عليها لجمال منظرها وموقعها ولانه قضى شطراً بديعاً من حياته تحت ظلها . ومن الغريب انه لم يظهر في هذا الكتاب كتاب اخبار الاعيان ولا في سواه من تواريخ ذلك العصر التي بين ايدينا من ذكر للامير حسن واخيه الامير بشير الا عندما بلغا اشدهما ودخلا في عالم السياسة : فكان الامير حسن موالياً للامير يوسف والامير بشير موالياً للامير سيد احمد مزاحمه على الولاية . ولما تغلب الامير يوسف على اخيه هذا سنة ١٧٨٥ واخذ ينتقم من احزابه قد فرّ الامير بشير مع الامير سيد احمد الى حوران . ثم قال صاحب كتاب اخبار الاعيان بعد هذه الرواية (ص ٤١٦) ما حكايته « اما الامير حسن فتوسط امر الصلح بين اخيه الامير بشير والامير (يوسف) لانه كان من حلفاء الامير سيد احمد فجعله من خواصه » : ثم صار الصمت عنه الى ان تنازل الامير يوسف عن الولاية خوفاً من الجزار واطلق الحرية لاعيان البلاد لينتخبوا لهم والياً مكانه : فوقع اختيارهم على الامير بشير كما رأيت »

الحكاية اي ان الامير يوسف هو الذي اعتنى بتربية هذين اليتيمين الفقيرين اللذين هما الامير بشير والامير حسن وعلى اي شيء استند في زعمه هذا ؟

انه لقد استند على ما يظهر الى غرض سيء قام في دماغه وهو التحامل على هذا الامير الخطير من كل وجه . ومن ثم فلكي يصح له ان ينعته باللؤم والخبث والرياء ونكران الجميل قد ابتكر هذه الرواية وجعل الامير يوسف اكبر محسن اليه بعد الله منذ نشأته يتيماً فقيراً خاملاً مهملاً من كل احد الى ان اوصله الى الولاية على جبل لبنان اذ قدمه الى الجزار ليجعله بتمام رضاه والياً مكانه الى ميعاد قريب . واذ تربع هذا الوغد اللئيم (على رأيه) في دست الولاية قد جازى هذا المحسن العظيم على احسانه بان اخذ يدس الدسائس ويستعمل جميع الوسائل الشيطانية حتى توصل الى اهلاكه .

ونحن والحق يقال لا يمكننا ان نرى من سبب لكل هذا التحامل على هذا الرجل العظيم الشأن الذي من اعجاب اهل عصره به قد لقبوه بالكبير الا لكونه كان مارونياً وهو الذي جعله يرى كل حسناته سيئات وفضائله عيوباً .

فصح به قول الشاعر :

« قد ينكر الفم طعم الماء عن سقم — وتنكر العين ضوء الشمس عن رمد »

فلم يستنكف والحالة هذه من ابتكار الروايات عنه على ما يوافق غرضه هذا. مع ان هذا الامير الخطير قد وصفه مؤرخو عصره الصادقون الذين كتبوا عن حوادث سورية ولبنان باجمل الاوصاف ولقبوه بالكبير اجلالاً لقدره. وانا نحن حباً بالايجاز نكتفي بايراد ما ذكره عن وصفه من الجهة الطبيعية والنفسية صاحب كتاب اخبار الاعيان معاصره عند ذكر وفاته في آخر سلسلة الامراء آل شهاب قال (ص ٦٤) ما حكايته:

« وكان اشقر اللون معتدل القامة طويل اللحية نحيفاً اقنى الانف طويله اشهل العينين جامعاً كامل الصفات الحميدة فكان عاقلاً عادلاً حليماً شجاعاً فاضلاً كريماً ديناً مهاباً شهماً يقظاً فطناً صادقاً رزيناً حزوماً جباراً فتاكاً صبوراً غيوراً ».

***

ولقد كان هذا كافياً لكم افواه حساده المفترين عليه بعد اكثر من قرن مضى: ولكننا مع هذا لم نرَ بدّاً من رد كل التهم التي رماه بها عن كيد صاحب كتاب «سورية الغد» بياناً للحقيقة وزيادة للفائدة فنقول رداً على قوله — بان الامير بشيراً هذا قد اكثر من الدسائس حول الامير يوسف حتى اضطره ان يهرب الى عكاء حيث اقنع الجزار بشنقه — انه

بعد خروج الامير يوسف من لبنان وسكناه في بعض قرى دمشق باذن واليها ابراهيم باشا على ما رأيت قد رجع الامير بشير ادراجه من لحفد الى دير القمر واخذ يصادر اصحاب الامير يوسف تخلصاً من دسائسهم ومكرهم. وفي اثناء ذلك كتب الشيخ غندور ابن الشيخ سعد الخوري (الذي اتخذه الامير يوسف مدبراً له مكان والده) الى محمد القاضي ان يتوجه الى عكاء لاجل استعطاف خاطر الجزار على الامير يوسف: واذ ذهب المذكور لاتمام هذه الرسالة قتله الجزار. وقد بقي الامير يوسف متربصاً في قرية منين من قرى دمشق الى ان رجع واليها ابراهيم باشا من الحج فكتب الى درويش باشا والي طرابلس ان يولي الامير يوسف على بلاد جبيل. فذهب الامير بهذه الرسالة الى طرابلس وحال وصوله اليها ولاه المذكور على هذه الاقطاعة فجاءها فوراً ليستولي عليها. واذ بلغ الجزار هذا الامر استشاط غيظاً وارسل عسكراً الى حرج بيروت وكتب الى الامير بشير ان يقوم بذلك العسكر الى بلاد جبيل لطرد الامير يوسف منها: فاستنكف الامير ان يقوم لمطاردته بنفسه ولهذا ارسل اخاه الامير حسناً بذلك العسكر وعند ما علم الامير يوسف بزحفه عليه فرّ الى كرك بعلبك ومنها الى الزبدانة: فرجع الامير حسن بالعسكر

دون ان يتابعه . وقد علم الامير يوسف ان الجزار لا يزال ناقماً عليه فصرف رجاله عنه وابقى عنده الشيخ فارساً الشدياق مدبراً له (١) مكان الشيخ غندور الذي كان قد تخفى في نواحي الضنية : ثم ارسله الى دمشق ليمهد له العقبات وسار هو بمن معه الى حوران . وبعد عود الشيخ فارس اليه بلا فائدة كتب الامير يوسف الى الجزار يسترضيه عنه ويطلب منه الامان ويستأذنه بالحضور الى عكاء : فاجابه الجزار بالايجاب متلطفاً معه : وحينئذٍ نهض الامير بجماعته مسروراً ومعه اخوه الامير حيذر وساروا جميعاً الى عكاء . ولما دخل

(١) ان هذا الشيخ انما هو عم صاحب كتاب اخبار الاعيان الذي نعتمد هنا على رواياته : وكان بطلاً شجاعاً وذا عقل رفيع معاً : وكان هو واخوه الشيخ يوسف محازبين للامير يوسف في السراء والضراء . ومما يروى عن الشيخ فارس انه لما هرب الامير يوسف من لبنان بعد موقعة وادي الميحان اضطر ان يمر ببلاد بعلبك فارسل اليه صاحبها الامير جهجاه الحرفوش ان يتحول عن بلاده او يقاتله . فارتبك الامير واصحابه بالجواب الا الشيخ فارس فقد استأذن الامير يوسف وشتم الرسول وضربه بدبوس من حديد كان بيده قائلاً له : عد الى مولاك وقل له بل الامير يوسف يأمرك ان تقوم انت من البلاد او يداهمك برجاله لاجل هذه الاهانة . واذ بلغ الامير جهجاه هذا الجواب خاف وفر الى بلاد الشوف واجتاز الامير يوسف البلاد برجاله آمناً . وقد حارب الشيخ فارس ايضاً الامير بشيراً في مواقع شتى مستبسلاً .

الامير على الجزار ربط في عنقه منديل الخضوع فاعطاه الجزار الامان وانزله باكرام في المدينة وعين له العلائف .

ولم يكن ذلك على ما يظهر عن اخلاص نية من الجزار ولكنه رأى ان يتجاوز موقتاً عن حقده عليه ويكتم غيظه ويتغلب على طبعه المنتقم الغدار ليستفيد من وجود هذا الامير عنده باستنزاف المال من لبنان . ولهذا فبعد خمسة اشهر صارت المساعي بان يعيد الجزار الامير يوسف والياً على البلاد على شرط ان يتعهد هذا الاخير للاول بستمائة الف غرش يدفعها سنوياً ويرهن عنده على ذلك ابنه الامير حسيناً ومدبره الشيخ غندور الخوري . فقبل الامير بكل ذلك وارسل حالاً الى الضنية يستدعي اليه الشيخ غندوراً : ولما حضر الى عكاء استقبله الجزار بالترحاب . وفي سنة ١٧٩٠ انعم الجزار على الامير يوسف بخلعة الولاية فارسل الشيخ غندور كتب البشائر بذلك الى مناصب البلاد .

جرت كل هذه الامور والامير بشير لم يحرك ساكناً ضد الامير يوسف بعد اخراجه من جبل لبنان حسب اوامر الجزار المشددة : ولا يمكن ان يقدّر بصواب انه لم يكن عالماً بحركات الامير يوسف ومساعيه : ولكنه ترك التقادير تجري في اعنتها وانصرف الى تحصيل الاموال المضروبة على اهل البلاد وكانت

قد بلغت مبلغاً وافراً بسبب مطامع الجزار وشدة مزاحمة الامراء على الولاية مما كان يضطرهم الى اكثار الرشوة وتعبئة العساكر . وقد حصّل من ذلك قسماً كبيراً وسدده الى الجزار الذي الجأه اذ ذاك الى هذه الحيلة للاستزادة من المال : فاسند الولاية الى الامير يوسف كما رأيت ولكنه في الباطن لم يكن يقصد ان يعيده اليها فعلاً ولهذا أخره عنده ليكمل طبخته . واذ بلغ اهل البلاد هذا الامر فرحوا لظنهم ان هذه الضرائب ستخفف عنهم وتمردوا على جباتها الذين اذ تحققوا هذا الانقلاب الفجائي اضطروا ان ينسحبوا من البلاد : وانسحب ايضاً الامير بشير الى نيحا عند صديقه الشيخ قاسم جنبلاط فجاء الى دير القمر الامير حيذر ملحم اخو الامير يوسف والامير قعدان ابن اخيه نائبين عنه وحضر بعض مناصب البلاد ينتظرون قدومه وذهب بعضهم لملاقاته .

ثم توجه الامير بشير الى عكاء فاستقبله الجزار بالرضى وعرض عليه الزيادة التي كان قد تعهد بها الامير يوسف : واذ قبل ان يتحملها انعم عليه حالاً بخلعة الولاية وامر فوراً بالقاء القبض على الامير يوسف وعلى اخيه الامير حيذر وعلى كل الذين كانوا معه من الاوجه وحبسهم وساب امتعتهم وسلاحهم ثم امر الامير بشيراً ان يتوجه حالاً بالعساكر الى دير القمر :

فابى ان يخرج من عكاء قبل ان يعفو الجزار عن الامراء جميعاً او على الاقل عن الامير حيذر اخي الامير يوسف وعن الامير حسين ولده فعفا عنهما فقط اجابة لسؤله وركب الجميع الى دير القمر . وفيما هم في الطريق التقوا بالقادمين لملاقاة الامير يوسف من حزبه وهم لا يدرون بهذا الانقلاب الفجائي : فالقى الامير القبض عليهم وبعدما اخذ اسلحتهم وخيلهم اطلق سبيل بعضهم وصرفهم وبقي مواصلاً السير . وعلم الامير حيذر والامير قعدان بجلية الخبر فاركنا الى الفرار بحزب الامير يوسف من دير القمر . واذ وصل اليها الامير بشير ظافراً واستتب له الامر أرسل حالاً الجباة الى البلاد لاجل تحصيل الاموال مع الزيادة التي تسبب بها الامير يوسف . فاضطرب الناس ورحل قسم منهم الى بلاد حوران : فكتب الامير الى الجزار يخبره برحيلهم لعله يخفف الضرائب : فامره بان يرسل العسكر في اثرهم ويرجعهم قسراً الى مواطنهم ففعل : ثم صرف قسماً كبيراً من عسكر الجزار واخذ بتشدد في جمع الاموال المطلوبة حتى جمع بعضها وارسله الى الجزار .

فكل هذه الاحداث قد اورثت البلاد ضيماً وقلقاً عاماً : فانتهز حزب الامير يوسف هذه الفرصة وعقدوا مؤامرة في المتن على طرد الامير بشير من البلاد وتنصيب الامير حيذر

اخي الامير يوسف والامير قعدان ابن اخيه واليين معاً مكانه وقد تحالفوا على ذلك وكتبوا الى سائر المناصب والاعيان بما قرروه من هذا القبيل : ثم نهضوا جميعاً برأي واحد وطردوا جباة الامير من البلاد . فاستدعى الامير بعض المناصب ممن يميلون اليه وجمع الرجال ونهض بهم الى عين دارة عازماً على الاقتصاص من المتآمرين الذين كانوا اصل هذه الحركة . ثم ارسل الامير حيذر احمد بخمسين نفراً الى كفرسلوان للتنكيل ببني حاطوم الدروز : فثار اهل القرية في وجهه واستنفروا اهل المتن فهبوا جميعاً لمحاربته وحاصروه في القرية وسلبوا جماعته بعد ان قتلوا منهم ثلاثة انفار : فرجع الامير حيذر المذكور برجاله الى عين دارة . واذ رأى الامير بشير ان الامر قد استفحل وان اهل المتن قد تجمعوا جميعاً في حمانا وان الامير حيذر ملحم اخا الامير يوسف قد سار الى قرية اعبيه واتحد مع ابن اخيه الامير قعدان واجتمع اليهما بعض المشايخ النكدية والعمادية رأى من الحكمة ان يعود بجماعته الى دير القمر قبل ان يسبقه اليها رجال الثورة . ثم كتب الى الجزار يخبره بهذه الحركة ناسباً اياها الى دسائس الامير يوسف لانها انما كانت مدبرة من حزبه ومن اخيه وابن اخيه :وطلب منه عسكراً لقصاص المذنبين . وكان الجزار اذ ذاك في طريق

الحج فارسل اليه نائبه كتاب الامير واسرع في ارسال الف عسكري من الارنؤوط الى حرج بيروت لهذه الغاية . فهرب الامير حيذر ملحم الى العبادية واتفق مع اهل المتن على المقاومة ونهض بالامراء اللمعيين ورجالهم الى الساحل . وارسل الامير بشير الامير حيذر احمد الى الحدث ببعض الرجال لينضموا الى عسكر الجزار : فجرت عدة مواقع هائلة بين الفريقين دارت فيها الدائرة على اهل المتن فولوا الادبار بعد ان هلك منهم خلق كثير .

ولما وقف الجزار وهو في المزاريب التي على طريق الحج على كتاب الامير بشير تحركت فيه ثائرة الغضب على الامير يوسف وكتب على الفور الى نائبه في عكاء يأمره بشنقه وشنق مدبره الشيخ غندور من دون مراجعة وصرف الرسول : ثم همد غضبه وندم على التسرع باصدار هذا الامر : فكتب الى نائبه مع رسول آخر بالغاء امره الاول والابقاء على الامير ومدبره . فجد الرسول في السير حتى وصل الى عكاء قبل تنفيذ الامر الاول :وعرف بهذا الامر الثاني رجل يقال له ابن السكروج وكان عدواً لدوداً للشيخ غندور فتوسل الى النائب ان يكتمه وينفذ الامر الاول . فعمل النائب باشارته وجر الامير ومدبره الى المشنقة فشنق الاول : ولما اراد ان

يشنق الثاني وجده قد مات من الوهم : وكان عمر الامير يوسف اربعين سنة .

واذ عاد الجزار من الحج وعلم بما كان تأسف جداً وأمر بقتل ابن السكروج الذي تسبب باخفاء امره الثاني حتى تنفذ امره الاول بالامير ومدبره المذكورين . اما الامير بشير فاضطرب جداً لهذه الحادثة وكتب الى الجزار يلتمس منه اطلاق جماعة الامير يوسف المسجونين وتكفل بتقديم خمسين الف غرش غرامة عنهم : فاجابه الى ذلك واطلقهم فحضروا الى دير القمر ودفعوا المبلغ للامير فقدمه الى الجزار وكان ذلك سنة ١٧٩٠ .

هذه هي الرواية الصحيحة عن نهاية حياة الامير يوسف بعد عزله من الولاية وتنصيب الامير بشير عمر مكانه . وكل منصف يرى ان هذا الامير الفتى بعد اسناد الولاية اليه قد تصرف مع الامير يوسف تصرف الشهم الكريم الاخلاق لا تصرف الطماع اللئيم او المغتصب الظالم والولد العقوق الذي يسيء الى مربيه والمحسن اليه كما اراد ان يصوره صاحب كتاب سورية الغد جزافاً . لا سيما وانهُ في هاتيك الظروف والاحوال لم يكن يمكنه او يمكن ان يُطلب منه افضل مما عمل من رعاية كرامة سلفه ونسيبه الذي مع معرفته لحقد الجزار

وجوره ولؤم طباعه وغدره وصلابة عوده ومطامعه التي لا تُشبع واستبداده ومع خوفه الشديد منه بعد ان وافق مماليكه على خلعه وقتله حتى اضطر ان يتنازل عن الولاية لئلا يخلعه عنها قهراً ويبالغ في الانتقام منه مع كل ذلك قد انخدع لمطامعه بالولاية وظن ان الجزار لا يتأخر عن ارجاعه اليها متى اغراه بالمال الكثير . فكان ما كان مما علمت حتى الان : وانما تأسف الجزار على التسرع بقتله لا لانه كان يحبه او يعتبره بل لانه كان يود ان يبقيه عنده ليتخذه مرة بعد اخرى كسبيل لتخويف امير البلاد فيضطر ان يزيد له في البذل ولو حمل اهل البلاد ما لا قبل لهم في حمله كما جرى هذه المرة .

***

ثم اردف صاحب كتاب سورية الغد تحامله السابق ببيانه على الامير بشير الكبير بافتراء آخر أبعد عن الحقيقة مما تقدمه فقال ما مؤداه :

« ولم يطل العهد على استبداد الامير بشير بالحكم وشدة اعتسافه حتى ثار الشعب عليه : فاضطر ان يلجأ الى بيروت مع حليفه وصديقه العظيم الشيخ بشير جنبلاط زعيم الدروز يومئذ فقبض الجزار عليهما واعتقلهما في سجن عكاء وسمى الامير

قعدان والامير حيذر شهاب حاكين على لبنان . بيد ان هذين الاميرين قد اساءا التدبير حتى سادت الفوضى وتأتى عنها ثورة جديدة في البلاد . فانتهز الدروز هذه الفرصة للسعي في سبيل خلاص السجينين المذكورين : وبواسطة التقادم النفيسة قد حملوا الجزار على الافراج عنهما واعادة الامير بشير الى الولاية على لبنان ومع هذا لم يستطع هذه المرة ايضاً ان يحتفظ بالحكم مدة طويلة : لان الجزار لم يلبث ان عزله واقام مكانه اولاد الامير يوسف ثم اشركه في الحكم معهما . فاتفق الامير مع اولاد المحسن اليه على ان يحكموا هم شمالي لبنان ويحكم هو جنوبيه : وقد قام بشير بعهده هذا وبرَّ بيمينه ريثما تم له تدبير المكيدة لاهلاك شركائه في الحكم على ما يضمن له النجاح . فقضى والحالة هذه اربع سنين يترقب الفرص بذاهب الصبر ليقضي اوطاره ويشبع جشعه من الاستقلال بالحكم والاستبداد بلبنان واللبنانيين . وكان اشد من أثار احقاده وملأ قلبه حسداً وسخطاً رجل اكتسب شهرة عظيمة كسفت شهرته عند ممثلي الباب العالي وعند السوريين على العموم واللبنانيين على الخصوص : وهذا الرجل انما هو جرجس باز الماروني المدبر الخاص لامور الامراء اولاد يوسف شهاب شركاء الامير بشير في الحكم : وهو موضع ثقتهم المدرب الذي

اظهر من الحنكة في تدبير الامور وتصريفها ما كان يعزّز كل يوم مقام اسياده الامراء وسلطتهم ويحول دون مطامع بشير ومراميه الاشعبية . اما الامير بشير فلكي يظهر نفسه ارفع من ان يتدنس بوصمة ما قد دفع اخاه الامير حسناً للعمل على التخلص منه بمكيدة شيطانية . وكان هذا الامير مقيماً في شمالي لبنان فاثار الاهالي اولاً على اخي جرجس باز المدعو عبد الاحد ودفعهم الى قتله ونهب بيته واملاكه : ثم هاجم على اولاد الامير يوسف انفسهم : وكان بشير في اثناء ذلك يهتم في اهلاك جرجس باز فارسل اليه من خنقهُ في نفس قصره ثم خنق صديقه يوسف الترك واستولى على املاك الجميع . ولم يقف عند هذا الحد بل امر بشركائه في الحكم اولاد المحسن اليه المنكودي الحظ فمثلوا امامه مكبلين بالقيود وبعد ان اذاقهم كل ضروب الذل والهوان سمل عيونهم بحديد محمى » اه .

هذا ما ابتكره صاحبنا المذكور من بنات افكاره على ما يوافق غرضه الملتوي ومراميه المنحرفة : وقد لوثه ببعض الحقائق تلويثاً شأن الشاعر القصصي الذي يعرك الوقائع التاريخية على هواه ويدوف بها ما يعجب من التخيلات المؤثرة التي تصل الى العواطف الرقيقة عن غير طريق العقل فينال

منها مراده بلا جدال . ولكن قد فاته ان هذا المقام ليس مقام شعر وخيال بل مقام قسط وميزان لا يقبل فيه الكلام الملقى على عواهنه ولا يصح الا الصحيح الصريح الناصع الذي هو عند ارباب الحجى واهل الذوق السليم ابهى وأطيب من كل الزخارف الخيالية مهما بولغ في تدبيجها وتنميقها .

ودونك الان الحقيقة التاريخية في هذا الموضوع ملخصة عن اصدق المصادر التي لا ريب فيها :

قد رأيت فيما سلف بيانه هنا ان الامير بشيراً عندما جدد الجزار له الولاية على لبنان لاخر مرة واعتقل عنده في عكاء الامير يوسف واخاه الامير حيذر وولده الامير حسين قد بذل كل الوسائل في خلاصهم من الاعتقال ولم يشأ ان يخرج من عكاء بعساكر الجزار حتى فاز ببعض أمنيته من جهة اطلاق سراح الامير حيذر والامير حسين المذكورين وأتى بهما في صحبته الى دير القمر : وكيف ان الامير حيذر هذا بالاتفاق مع الامير قعدان ابن اخيه الامير محمد قد تسببا بالثورة على الامير بشير وهاجا حزب الامير يوسف عليه وتطلبا الولاية على الجبل مكانه الى آخر ماكان مما انتهى بقتل الامير يوسف ومدبره الشيخ غندور الخوري .

ومن ثم فانت ترى انه من بعد مقتل الامير يوسف لم تخمد نيران الثورة بل زادت ضراماً . فان اهل المتن قد زادوا اعتصاباً ولم يكفوا عن الحرب : وقد تظاهر بالعصيان معهم اهل الغرب والشحار والجرد حتى اهل دير القمر فقد ثاروا على عسكر المغاربة الذين كانوا عند الامير بشير لاجل حمايته وقتلوا منهم خمسة عشر نفراً . فخاف الامير من الغوائل ولم يشأ ان يُصلي حرباً مع اهل البلاد وهو في دير القمر : فقام بعسكر المغاربة الى صيدا وقام معه المشايخ آل جنبلاط الذين لم يشتركوا بالثورة وكان زعيمهم الشيخ قاسم جنبلاط الشهير . وبعد بلوغهم صيدا كتب الامير الى الجزار باشتداد الثورة في الجبل وانه نزح بعسكر المغاربة الى صيدا : فكتب الجزار الى عسكر الارنؤوط الذين في حرج بيروت ان يحضروا هم ايضاً الى صيدا : وفيما هم آتون اليها اجابة للامر كمن لهم المشايخ النكدية برجالهم عند الدامور فقتلوا منهم مئتي رجل وغنموا اسلابهم . واذ بلغ الجزار ذلك امر قائدي عسكره في صيدا والبقاع ان يزحفا معاً بالعساكر من الساحل والجبل على المتن لاجل الانتقام من اهلها العصاة : فقام الامير بشير بالعسكر نحو بيروت . واذ شعر اهل الغربين والشحار بهم لاقوهم الى ارض اليابس بجوار صحراء الشويفات واصلوهم الحرب

فانكسر اهل البلاد وقتل منهم عشرون رجلاً : وظل الامير سائراً بالعسكر الى حرج بيروت حيث وافاه بعض اقاربه ومعهم بعض المشايخ الغير الموافقين على الثورة .

اما اهل المتن فاذ بلغهم خبر الحملة عليهم من الساحل والجبل استعدوا لها واتفقوا برأي واحد مع سائر اهل البلاد على قتال عساكر الجزار . فارسلوا فريقاً من رجال الثورة الى العبادية لمحاربة العساكر التي في حرج بيروت تحت امرة الامير قعدان محمد: وفريقاً آخر الى قب الياس لمقاتلة العساكر التي في البقاع تحت امرة الامير حيدر ملحم . فداهم الفريق الاول عساكر الجزار في ناحية حرج بيروت وهزموهم الى المدينة : فردهم الامير بشير وهجم بهم على اهل الثورة حتى كسرهم الى الشويفات حيث وافاهم الامير قعدان من ناحية اعبيه بنجدة من العبادية والنكدية . ولما رأى الامير بشير كثرة عديدهم انسحب بالعسكر الى ناحية رأس بيروت حذراً منهم . واما الفريق الاخر الذي زحف مع الامير حيدر الى البقاع فقد انضم اليه امراء حاصبيا برجالهم : وكان والي دمشق قد ارسل بأمر الجزار نجدة الى عسكر البقاع فلاقى اهل زحلة هذه النجدة وارجعوها على اعقابها فطلب قائدها من دمشق نجدة اخرى . وكان الامراء اللمعيون قد ارسلوا

نجدة من اللبنانيين الى زحلة فاستثقل اهلها وطأة هذه النجدة وغادروها الى المتن : فعلم عسكر الشام بذلك وداهموا زحلة ففر منها اللبنانيون اذ رأوا ما كان من خذل اهل زحلة لهم : فدخلها العسكر بلا قتال وامعن في السلب والحريق . وزحف بعد ذلك عسكر دمشق الى تعنايل حيث تألب عليهم رجال الثورة من كل ناحية وكسروهم شر كسرة حتى اضطروهم ان ينسحبوا الى قب الياس وقد ثبتوا على مطاردتهم حتى هزموهم الى دمشق وغنموا كثيراً من ذخائرهم . ولم يجسر عسكر الجزار ان ينازلهم القتال لما رأى من كثرة عددهم واستبسالهم فعادوا الى المتن سالمين غانمين . وكان قد وقع عدة مناوشات بين الثوار وعسكر الارنؤوط في سواحل بيروت دارت بها الدوائر عليه وقتل منه خلق كثير وانسحب من سلم منه الى صيدا ومعه الامير حسن . واما الامير بشير فانه لما رأى ما كان من تغلب رجال الثورة قد انسحب هو ايضاً برجاله الى صيدا بحراً تحاشياً للقتال وكان معه خمسماية فارس والفا راجل. وقد اقام في صيدا هو واخوه الامير حسن والامير اسعديونس والامير حيذر احمد والامير مراد ابي اللمع والشيخ قاسم والشيخ خطار جنبلاط ينتظرون عود الجزار من الحج لانه كان في هذه الاثناء قد ذهب اليه .

وأما الامير حيذر ملحم والامير قعدان ابن اخيه وهما زعيما هذه الثورة فقد توجها الى دير القمر واستدعيا اليهما جميع المناصب والاعيان وبعد المداولة تم الاتفاق بينهم جميعاً على دوام مقاومة الجزار او ينصب على الولاية الاميرين المشار اليهما .

وفي اوائل سنة ١٧٩١ رجع الجزار من الحج فلاقاه الامير بشير الى المزاريب ومعه الامير مراد ابي اللمع والشيخ خطار جنبلاط : وبسط له كل ما تم في غيابه : فطيب الجزار خاطره واخذه في صحبته الى دمشق . وبلغ اهل البلاد خبر قدوم الجزار الى دمشق ومعه الامير بشير فاسرعوا الى رفع عرائض الطاعة اليه ملتمسين رضاه ومعتذرين عمّا فرط : وقد صرحوا له مع ذلك بأنهم لا يستطيعون دفع الضرائب القديمة ولا قبول الامير بشير والياً عليهم بل الامير حيذر ملحم وابن اخيه الامير قعدان .

اما الجزار فزاد غيظاً منهم وكان جوابه ان انعم فوراً بالولاية على الامير بشير وعززه بعسكر لجب لقمع الثورة في لبنان . فزحف الامير بالعسكر وكانت له عدة مواقع مع اللبنانيين دارت في اكثرها الدوائر على عسكر الجزار دون ان ينال منهم منالاً . واذ قطعوا الامل من الظفر كتبوا

الى الجزار بما كان فامر السر عسكر ان يعود بالعساكر الى عكا : فعاد بهم ومعه الامير بشير واخوه الامير حسن والشيخ قاسم جنبلاط : واذ بلغوا عكا امر الجزار الامير بشيراً ان يقيم في صيدا واخاه الامير حسناً في بيروت ورتب لهما ولعيالهما النفقات اللازمة : ثم امر ايضاً بمنع تصدير الاقوات الى الجبل .

ورأى اعيان البلاد ان الجزار لا يلويه شيءٌ عنهم غير المال وقد اصبح الجبل فوضى بسبب تمرد رجال الثورة وانعكافهم على النهب والسلب واصابة الطرق فكتبوا اليه في طلب الصفح ثانية وتولية الامير حيذر والامير قعدان متعهدين بتأدية الاموال الاميرية حسب العادة واربعة الاف كيس علاوة عليها مقسطة على ست سنوات . فلان الجزار هذه المرة وطلب ان يرسل اليه اربعة من الاعيان : فلم يجسر ان يمثل بين يديه الا اثنان خوفاً من غدره : فسألهما عن كمية الاموال التي جمعها الامير بشير من الجبل وعن سبب العصيان فقالا « لا نعلم » فصرفهما بلا فائدة . ثم ارسل الاميران اليه ثلاثة آخرين اصلب عوداً واشد تعصباً لهما : فلم يشأ الجزار ان يدخل معهم في البحث بل ابتدرهم بالحديث قائلاً : « اني شفقة على الرعايا قد كففت الحرب : بيد اني قد انفقت اموالاً طائلة

على العساكر بسبب عصيان اهل البلاد فاذا دفعها الاميران فوق ما تعهدا به ارسلت اليهما خلعة الولاية » . وقد رضي الاميران بدفع هذه القيمة ايضاً : فارسل الجزار يطلبها منهما فوراً مع التقادم المعتادة من الخيل والصك بالاربعة الاف كيساً قبل ذهابه الى الحج . واذ ارسلا الخيل والصك والعشرين الف غرش من اصل الخمسين ارسل الجزار لهما الخلع وامر بحجز الامير بشير في صيدا واخيه الامير حسن في بيروت ويرفع حجز الاقوات عن الجبل ثم سار الى الحج .

وارسل الاميران بعد ذلك الى والي طرابلس في طلب خلعة الولاية على بلاد جبيل ايضاً فارسلها لهما كالعادة . واذ استتب الامر لهما اخذا بجمع الاموال من البلاد بصرامة وقبضا على وكيل الامير بشير فشنقاه بعد ان حاسباه على ما كان قد جمعه من المال : ثم زادا على الاموال المضروبة نصف مال وغرشين في جزية كل انسان ليسددا مطالب الجزار : وقد سدداها الى وكيله في دمشق قبل عوده من الحج .

وفي سنة ١٧٩٢ تمرد اهل البلاد على الاميرين لسوء سياستهما وتعصب الاعيان عليهما ومنعوا دفع الاموال المضروبة لانها كثرت على عاتق الشعب . فخاف الاميران سوء العاقبة واضطرا ان يصالحا اعيان البلاد على شروط موافقة

كتبت بها وثيقة امضاها الفريقان . فانتهز هذه الفرصة الشيخ جرجس باز ابي شاكر الديراني الماروني مدبر الامراء حسين وسعد الدين وسليم اولاد الامير يوسف (وهم من الموارنة) وتوسط مع الاميرين في طلب تخليهما عن ولاية بلاد جبيل الى اسياده الامراء المذكورين : فتخليا لهم عنها على شرط ان يدفعوا لهما كل سنة خمسة وسبعين الف غرش : وعلى هذا الوجه اخذ الشيخ جرجس يسعى بطلب خلعة الولاية لهم على هذه البلاد من والي طرابلس حسب العادة الى ان فاز بها . وكان الشيخ جرجس هذا متوقد الذكاء صادق النظر بعيد المرمى كثير الاقدام : فاخذ ينتهز الفرص ليستميل مناصب البلاد اليه بكل وسيلة حسنة حتى تألبوا عليه وعلى اسياده واستهانوا بالاميرين حيدر وقعدان الواليين فعجزا عن ادارة ولايتهما وعن تحصيل اموالها .

وفي سنة ١٧٩٣ أشار على الاميرين المذكورين بعض المقربين اليهما ان يخرجا من هذا المأزق بتنازلهما عن الولاية الى الامراء اولاد الامير يوسف : فاستصوبا هذا الرأي واستدعيا سراً اليهما الشيخ جرجس باز وكاشفاه بالامر : ثم طلبا اليه ان يسعى هو مع الجزار بطلب الولاية لمواليه : فارسل فوراً اخاه الشيخ عبد الاحد الى عكا ومعه مئة الف غرش

ليقدمها للجزار في طلب خلعة الولاية لاولاد الامير يوسف =
فاجابه الجزار الى ذلك عن طيبة خاطر .

وعلى اثر تولي هؤلاء الامراء على كل البلاد وقع خلاف بينهم وبين الشيخ قاسم جنبلاط والاميرين فارس ومنصور اللمعيين . فاجتمع كل هؤلاء في الشوف واستدعوا اليهم الامير حسن علي واظهروا التمرد حتى كادت الثورة تعم البلاد فتحسب الشيخ جرجس باز والامراء للامر وبذلوا الجهد لمصالحة المذكورين فرجعت المياه الى مجاريها . على انه قد قام بعد ذلك الشيخ حسن واخوه الشيخ بشير ولدا الشيخ قاسم جنبلاط على الشيخ ابي قاسم واخيه الشيخ حمد نجم وقتلاهما ونهبا املاكهما لضغائن سابقة بين الفريقين . فارسل الامراء الولاة بسبب ذلك الامير قعدان ابن عمهم ومعه الشيخ جرجس باز مدبرهم لمطاردتهما بالف فارس من عسكر الجزار واجتمع اليهم المشايخ النكدية والعمادية وجم غفير من رجال البلاد للاخذ بثار القتيلين . فهرب الغريمان من وجههم ولجأ احدهما الشيخ بشير الى قبيلة بني صخر في حوران . فنهب الامير قعدان وعساكره كل مختصات بيت جنبلاط وصادر املاكهم واحرق داري الشيخين حسن وبشير في بعذران . وقد نال آل جنبلاط ولفيفهم من الضيم والظلم بسبب ذلك ما نات

كواهلهم تحته : ومع هذا فقد انتهز الفرصة الشيخ جرجس باز والامراء وعرضوا ما كان من امر هذه الحركة للجزار على ايثارهم ناسبين اثارتها الى الامير بشير واخيه الامير حسن بقصد تأخير جمع الاموال الاميرية لظنهم ان الجزار يقضي بقتل الاميرين المذكورين اللذين كانا معتقلين عنده كما فعل من قبل بالامير يوسف . ولكن الجزار اكتفى بان طلب اليه الامير بشيراً من صيدا والامير حسناً من بيروت ووضعهما في الناصرة وسافر هو الى الحج ولدى عوده منه لاقياه الى المزاريب وحضرا معه الى دمشق حيث وافاهما من حوران الشيخ بشير جنبلاط .

وفي هذه الاثناء أساء اولاد الامير يوسف الادارة حتى ضج الجبل منهم واتفق رأي الاكثرين على طلب الامير بشير والياً على الجبل مكانهم . فرفعوا العرائض بذلك الى الجزار في دمشق الشام الذي لبى حالاً طلبهم والبس الامير بشيراً خلعة الولاية وعزه بعسكر من عساكره وارسله الى الجبل . واذ علم الامراء بما كان جمعوا احزابهم ورجالهم من كل ناحية ووقعت بين الفريقين مناوشات كثيرة انتهت بانتصار الامير بشير . فامن اولاً اهل المتن وردهم الى اوطانهم بسلام: وصالح الامراء اللمعيين والامير حيدر ملحم والامير قعدان ابن اخيه

الذين كانا قد تسببا بالثورة الاولى عليه : وقد استقبل الجميع برحابة صدر وبشاشة ومكنهم من املاكهم وتناسى كل ما كان قد حصل منهم بحقه مما يدل على كرم اخلاقه وحلمه عند المقدرة : وهكذا استتب له الامر وأخذ يجمع الاموال المتأخرة من اهل البلاد بلا معارضة .

وفي سنة ١٧٩٤ وشى السر عسكر وقواد عساكر الجزار الذين كانوا مع الامير بشير بدسيسة الشيخ جرجس باز وبعض مريدي اولاد الامير يوسف الى سيدهم على الامير بشير نفسه بانه قد جمع اموالاً طائلة من البلاد ولم يرسل اليه شيئاً منها وانه لم يدفع لهم العلائف الى غير ذلك مما اوغر صدر الجزار على الامير فأمر السر عسكر فوراً بالقبض عليه وعلى اخيه الامير حسن وعلى الشيخ بشير جنبلاط واحضارهم الى عكاء : وكتب الى اولاد الامير يوسف ان يحضروا اليه من جبيل ليوليهم على البلاد فصدع السر عسكر بالامر واعتقل المذكورين وارسلهم الى عكاء وارسل امر الجزار الى اولاد الامير يوسف : فحضر الامير حسين واخوه الامير سعد الدين الى ساحل بيروت وطلبا خلعة الولاية على الجبل فارسلها اليهما . وعاد الامير سعد الدين الى جبيل ومعه الشيخ فرنسيس باز مدبراً وتوجه الامير حسين الى دير القمر ومعه الشيخ جرجس

باز : وقد اخذوا يسومون حزب الامير بشير من الحيف والظلم ما لا يطاق حتى نهض الشيخ حسن جنبلاط والمشائخ العمادية واحزابهم واستدعوا اليهم الامير عباس اسعد الشهابي واظهروا العصيان . فجمع الامير حسين اقاربه واعيان البلاد الى دير القمر وكتب للجزار يخبره بابتداء الثورة وينسبها الى دسائس الامير بشير واخيه الامير حسن وامر بسجنهما مكبلين بالحديد : وارسل الى الامير حسين عسكراً كبيراً مع المنلا اسماعيل فانتقم من مناوئيه واخمد نيران الثورة .

وفي سنة ١٧٩٥ عندما رجع الجزار من الحج تقدم اليه من اعيان الجبل شكاوى عديدة من ظلم الاميرين وجرجس باز : فامر حالاً باطلاق سراح الامير بشير والامير حسن من السجن ورد اليهما خيلهما ومختصاتهما واتفق معهما على ان يدفعا له مبلغ ثمانمائة الف غرش صاغ مقسطة على ست عشرة سنة وخلع عليهما خلعة الولاية وابقى عنده رهناً على ذلك زوجة الامير حسن وابنه الامير ابراهيم وزوجة الامير بشير وولديه وزوجة الشيخ بشير جنبلاط . فتوجه الامير بشير ومن معه بعسكر جرار من عند الجزار الى الجبل ليستولي على الولاية : وجرت مواقع شتى بينهُ وبين خصومه انتهت بانتصاره وهزيمة الامراء اولاد الامير يوسف ومدبرهم الشيخ جرجس باز من

وجهه الى عكار : واستتب له الامر وقد صادر املاكهم وجمع الاموال المفروضة وارسلها الى الجزار فاطلق زوجة الامير خليلاً وزوجة اخيه الامير حسن .

وحوالى سنة ١٧٩٦ اذ رجع خليل باشا والي طرابلس من الحج وعلم بما كان من طرد اولاد الامير يوسف من لبنان وتولي الامير بشير مكانهم على كل البلاد حتى بلاد جبيل التي كان مرجعها اليه اغتاظ من هذا التعدي على حقوقه . وكان الامير سليم اصغر اولاد الامير يوسف في طرابلس فاستدعاه اليه فوراً والبسه خلعة الولاية على بلاد جبيل وارسل معه عسكراً ليمكنه من هذه الولاية : فوقع بينهم وبين الامير حسن ورجاله وعساكر الجزار مناوشات كثيرة دارت فيها الدائرة على عسكر طرابلس والامير سليم . وبلغ عبدالله باشا والي الشام ذلك فلم يهن عليه و كتب الى ولده خليل باشا ان يرسل اولاد الامير يوسف الى البقاع ليرسل اليهم عسكراً لمحاربة الامير بشير . فجاء الامراء المذكورون الى زحلة وارسل عبدالله باشا المنلا اسماعيل لنجدتهم بعساكره : وعلم الامير بشير بالامر فجمع رجال لبنان وعساكر الجزار ولاقاهم الى البقاع وبعد مواقع عديدة انكسر المنلا اسماعيل وقتل من جنوده خلق كثير : وهرب الامراء من زحلة الى بعلبك

فدمشق ورجع الامير بشير منصوراً الى دير القمر حيث صرف عساكر الجزار الى عكاء .

واذ حان وقت سفر والي دمشق الى الحج ارسل الامراء الى حماة ليقيموا فيها فابقوا مدبرهم جرجس باز في دمشق وتوجهوا اليها حيث اجريت لهم العلائف بامر الوالي . اما الجزار الذي كان نهماً للمال فانه قد كتب الى اولاد الامير يوسف يستدعيهم الى عكاء بكل تودد : فعادوا الى دمشق بحجة انهم يريدون ان يلاقوا عبدالله باشا عند عوده من الحج ثم اتفقوا مع مدبرهم جرجس باز وساروا معاً الى عكاء فرحب بهم الجزار واجرى عليهم النفقات . فاضطرب الامير بشير لذلك وكتب الى الجزار يستطلع جلية الامر فاجابه بما يريح البال مظهراً نحوه تمام الرضى . فجمع الامير المال المتفق عليه من اهل البلاد وارسله الى الجزار وفرض ضريبة جديدة عليهم تسدد المال الباقي مما كان قد تعهد به له في مدى ست عشرة سنة : فاستقامت الاحوال وهجعت القلاقل .

وفي سنة ١٧٩٨ تغير الجزار على الامير بشير بدسائس الشيخ جرجس باز ومواليهِ في عكاء فعزله بحجة انه كان موالياً للفرنساويين واسند الولاية على لبنان مكانه الى اولاد الامير يوسف فكتبوا الى احزابهم يبشرونهم بذلك . ولكن

قدبلغ الجزار في هذه الاثناء قدوم الفرنساويين الى الاسكندرية فحسب للامر الف حساب وعدل عن هذا العزل والتنصيب وارسال الامراء بالعسكر لاستلام زمام الولاية . وفي سنة ١٧٩٩ قدمت مراكب الانكليز الى عكاء لحمايتها من القوة الفرنساوية الزاحفة عليها براً : واذ حاصرها نابوليون بونابرت بجيشه فرح النصارى فرحاً شديداً : ووقع الرعب في قلوب الدروز فاجتمعوا في اعبيه ليروا ماذا يعملون وتحالفوا على مقاومة الفرنساويين والامير معاً .

وكتب الجزار الى الامير بشير يطلب منه نجدة فارسل يعتذر اليه بعدم طاعة اهل البلاد له بعد ان بلغهم خبر تولية اولاد الامير يوسف على لبنان فغضب الجزار لهذا الجواب . وكان بعض الدروز قد نهضوا الى البقاع ليقطعوا طريق عكاء على النصارى : فصادفوا قافلة من بكفيا تحمل خمراً الى الفرنساويين فنكلوا بهم وضبطوا الخمر . وبلغ الخبر الى الامراء اللمعيين اصحاب المتن وقاطع بكفيا من كسروان فارسلوا الى الدروز ان يرجعوا ما سلبوه الى اصحابه :واذ ابوا الاذعان ارسل الامراء اللمعيون رجالهم الى البقاع للاقتصاص من المذكورين فنهبوا قراهم هناك . وكانت النجدات تأتي الى عكاء من دمشق ومن كل صوب لمساعدة الجزار حتى كثر

عديدهم .

وكتب نابوليون بونابرت الى الامير بشير يطلب منه نجدة فخاف الامير من الغوائل وتجاوز عن الجواب لما كان يرى في الامر من الصعوبة . ثم كتب له ثانية يعاتبه على عدم المجاوبة فوقع هذا الكتاب في يد متسلم صيدا فارسله الى الجزار الذي اذ وقف عليه راق خاطره على الامير وارسل هو ايضاً يطلب المساعدة فجاوبه الامير معتذراً كالاول فازداد الجزار غيظاً منه وكتم حقده عليه . (١)

واذ رفع بونابرت الحصار عن عكاء وعاد ادراجه من

---

(١) هذا كل ما رواه صاحب تاريخ اخبار الاعيان في حادثة بونابرت والامير بشير عند محاصرة الاول لمدينة عكاء : وهو موافق تمام الموافقة لما ذكره الامير حيذر الشهابي في تاريخه المشهور وكلاهما شاهد عيان فاين هذا من قول صاحب كتاب «سورية الغد» بهذا الموضوع (ص٦٠٧) وهذه ترجمته بالحرف الواحد ليقابل المنصفون بين كلامه والحقيقة : «لما حاصر بونابرت مدينة عكاء فبدلاً من ان يهتم الامير بشير بسوق اللبنانيين الى نجدة هذا المنقذ قد افهمه انه سيكون من جهته متى تم له فتح هذه المدينة : وكان من جهة اخرى يكثر للجزار من التأكيدات على الخلاصة العميق له» .

هذا ما نفثه من السم الذي ظنه قتالاً حتى صور للفرنساويين هذا الامير الماروني كمخادع مراوغ لهم على هذا الشكل .

سورية خاف الامير بشير والنصارى من انتقام الجزار . فرأى الامير ان يحتاط للامر بان كتب الى القبطان سميث قائد الاسطول الانكليزي جواباً لطيفاً على كتاب كان قد ارسله هذا القائد اليه قبل مدة : وبعث به مع رسول حكيم يعرف دخائل الامور ومخارجها . فاستقبل القائد هذا الرسول بكل ترحاب : وعرض الرسول بين يديه ما حمله اياه الامير لساناً فطيب القائد خاطر الامير ووعد بان يزيل ما بينه وبين الجزار من الخلاف والضغينة . وبعد مدة توجه القائد الى عكاء وحدّث الجزار بامر الامير فأبى ان يرضى عنهُ كل الاباءة حتى اغتاظ القائد من عناده وتركه غاضباً وسافر الى الاسكندرية : ومنها كتب الى الصدر الاعظم يخبره بما كان ويطلب منهُ المحافظة على الامير بشير ومنع الجزار عن ايصال الاذية اليه وابقاءه والياً كما كان على جبل لبنان .

ولما علم الجزار بسفر العمارة الانجليزية الى الاسكندرية ارسل عساكره الى صيدا ليمكن اولاد الامير يوسف من الولاية على الجبل . فاستدعى الامير بشير اليه مناصب البلاد وجدد المحالفة بينه وبينهم على مقاومة عساكر الجزار . وفي اثناء ذلك قدم يوسف باشا ضياء الصدر الاعظم بالجيوش العثمانية الى حلب فارسل الامير اليه كتاباً وهدية من الخيل

الجياد مع الشيخ حسون ورد والشيخ حنا الدحداح : فلاقياه الى قره مرط وقدما له ذلك واستعطفا خاطره على الامير وسألاه ردع الجزار عن المظالم في لبنان فتلقاهما الصدر الاعظم بالرضى ثم صرفهما واعداً باجابة سؤلهما . وعند وصول هذا الوزير الى حماة ارسل الامير اليه مئة الف غرش : فكتب اليه بعد دخوله دمشق يطيب خاطره ويأمره بارسال الف غرارة من القمح والشعير : واذ ارسلها انعم عليه الصدر الاعظم بخلع الولاية على جبل لبنان ووادي التيم وبلاد بعلبك وبلاد البقاع وبلاد المتاولة مؤكداً له ان يبقى والياً دائماً عليها جميعاً بامر الدولة وان لا يكون للوزراء عليه من سلطة وان يكون ايراد اموالها من يده الى خزينة الدولة رأساً كما كان في عهد الامراء المعنيين (١) . ثم امره بجمع المال المرتب على هذه الولايات فأخذ الامير بتوزيعه وجمعه كالعادة . فانتهز الفرصة احزاب اولاد الامير يوسف ونهضوا عليه بقصد احداث ثورة وهم على

(١) يتحصل من قوله هذا ان امر الولاية على جبل لبنان انما كان اكثر استقلالاً منه على عهد احمد باشا الجزار وهؤلاء الامراء الذين كانوا على عهده وقد دفع بهم التزاحم وعدم الاتفاق الى ان يكونوا العوبة بيده كما رأيت . وقد انقضى ذلك بهلاكه : وعاد الجبل الى احسن مما كان فيه من الاستقلال على عهد الامراء المعنيين .

متقين من ان الجزار يأخذ بيدهم : فاستنجد الامير والي دمشق الذي ارسل اليه مئتي فارس : وكتب الى اخيه الامير حسن فجاءه برجال كسروان وجبيل :وجمع هو رجاله وناهض الثائرين حتى شتت شملهم : فطلبوا من الجزار عسكراً لمقاومة الامير فارسله اليهم . وحينئذٍ طلب الامير نجدة اخرى من والي دمشق فامر هذا المنلا اسماعيل ان ينهض بالف فارس الى البقاع لمناصرته لانه انما صار معدوداً من رجال الدولة : واذ بلغ المنلا بعسكره الى قب الياس بعث الى رؤساء عساكر الجزار يأمرهم بالرجوع عن مقاومة الامير فخضعوا وعادوا الى حاصبيا وانفرط عقد رجال الثورة .

ولما بلغ الجزار ما كان اشتد غضبه على الامير ولم يلتفت الى اوامر الصدر الاعظم بل البس حالاً خلعة الولاية للامير حسين والامير سعد الدين ولدي الامير يوسف وابقى عنده اخاهما الامير سليماً رهينة وارسلهما بستة آلاف فارس واربعة آلاف راجل . فسار الامير حسين بالخيالة الى البقاع ومعه مدبره جرجس باز وسار الامير سعد الدين بالرجالة الى اقليم الخروب ومعه مدبره عبد الاحد باز والمشائخ والنكدية ونزل في عانوت .

والظاهر ان الجزار لم يتصرف هذا التصرف مع الامير

الا بعد ان اقنع والي دمشق بالتخلي عنه : ولهذا فاذ طلب الامير هذه المرة نجدة من والي دمشق ابى ان ينجده وطلب ايضاً من المنلا اسماعيل ان يوافيه بعساكره فلم يلتفت اليه بل سار بهم من البقاع الى الزبدانة ومنها الى حماة . ثم استنفر رجال البلاد فلم يلبوه وتخلف عنه الامراء اللمعيون حتى حار في امره واضطر ان يهرب من وجه خصومه الى كسروان حيث وافاه اخوه الامير حسن من بلاد جبيل . وقد جاءه كتاب من القبطان سميث قائد الاسطول الانكليزي في البحر المتوسط يقول فيه — بلغني في بيروت عزل الجزار لك من الولاية فتوجهت فوراً الى غزة لاطلب من الصدر الاعظم ابطال هذا العزل وارجاعك اليها فكن مطمئناً وقد ابقيت لك مركباً في بيروت لعلك تحتاج اليه — وكتب الصدر الاعظم من غزة الى والي دمشق يأمره بان يعزز الامير بشيراً في ولايته . فارسل الوالي نطاقة الى الامير بها يتهدد مناصب البلاد والرعايا لخروجهم عليه وقبولهم الامير حسيناً والامير سعد الدين واليين مكانه مع انه هو المنصَّب من قبل الصدر الاعظم . ولما كان الامير غير واثق باخلاص نية والي دمشق الذي كان قد خذله ورأى من جهة اخرى في ارسال هذا الامر اليه استخفافاً نهض من كسروان هو وذووه الى بلاد جبيل

ونزل في راس كيفا التي في زاوية طرابلس وارسل يلتمس من والي طرابلس خلعة الولاية على بلاد جبيل لعله يحتمي بذلك من خصومه فاجابه الوالي الى طلبه .

اما الامير حسين فانه بقي على مطاردة الامير بشير واخيه قصد التنكيل بهما : فنهض من حمانا الى بسكنتا وبعد ان نهبهما سار الى كسروان ونهب اكثر قراها ثم سار الى البترون . واذ رأى الامير بشير عناده في مطاردته هرب من وجهه ليلاً بقومه الى الهرمل ومنها الى بعلبك قاصداً بلاد حوران : وفيما هو في بعلبك جاءه كتاب من عبدالله باشا والي دمشق بان يرجع الى بلاد جبيل ومع هذا الكتاب اوامر الى ولاة عكار وصافيتا ووادي راويد والضنية ان يسعفوه بكل ما يلزمه وامر الى المتلا اسماعيل ان ينجده هو ايضاً بعسكره . ولما استوثق من هذه الاوامر قفل راجعاً حتى بلغ الزبدانية فوصله كتاب من القبطان سميث يطلبه الى غزة على مركب ارسله خصيصاً الى طرابلس ليقابل الصدر الاعظم حينئذٍ كتب الامير الى عبدالله باشا يخبره بالامر ويطلب منه توصية باخيه الامير حسن ومن معه الى اصحاب المقاطعات . وبعد ان دبر الامير اموره وامور ذويه ركب البحر ومعه مدبره الشيخ سلوم الدحداح وعشرون رجلاً من حاشيته وبقي الامير حسن

بمن معه في رأس كيفا وكان ذلك في اوائل سنة ١٨٠٠ .

اما الامير حسين فلما بلغه ان الامير حسناً مقيم مع ذويه في رأس كيفا نهض بمن معه من العسكر لمطاردته حتى بلغ اميون ففر الامير حسن بحواشيه من وجهه الى بلاد عكار ثم الى صافيتا : وبقوة ما كان بيده من اوامر والي دمشق الى ولاة هاتيك البلاد قد تلقوه حيثما حل بكل ترحاب واعزاز واكرموا ضيافته : واذ علم الامير حسين بهرب الامير حسن وذويه رجع بعسكره الى بيروت وذهب هو ومدبره الشيخ جرجس باز الى دير القمر وطلب من الجزار ان يستدعي عساكره الى عكاء ففعل ولكنه ابقى منهم ثلاثمائة ذهبوا مع الامير سعد الدين الى جبيل ليعززوا مقامه . وما استتب الامر للاميرين المذكورين في الجبل كله حتى اخذا ينتقمان من حزب الامير بشير وينكلان بهم : وقد انصرفا الى جمع المال مرة ثانية وفرضاه على بلاد جبيل مضعفاً .

اما الامير بشير فانه سار بمن معه في البحر حتى بلغوا الى مينا الاسكندرية حيث كان ينتظره القبطان سميث فتلقاه بكل حفاوة واعزاز : ثم قدمه الى الصدر الاعظم الذي كان قد جاء الاسكندرية : فاستقبله ايضاً بالاكرام واعجب بذكائه وطيب خاطره ووعده باتمام كل رغائبه . وبعد مدة

استأذن الامير بالعود الى وطنه فأذن له وحمله القبطان سميث على احد مراكبه وسار به الى سورية : واذ بلغوا بيروت نزل قنصل الانكليز الى البحر للسلام على القبطان فاخبر الامير بكل ما كان بعد سفره من لبنان وان اخاه الامير حسناً لم يزل بمن معه في نواحي الشمال . فكتب الامير الى اخيه يخبره بكل ما جرى له في سفرته وانه متوجه الى قبرس ليقيم فيها مدة الى ان تصطلح الاحوال . ومن الغد حمله القبطان سميث الى قبرس فانزله في هذه الجزيرة واعتنى به احسن عناية حتى نوله كل ما فيه راحته وقد اقام ثمة زهاء ستة اشهر بكل كرامة (١) وكانت ترد اليه الرسائل تترى من اعيان البلاد الذين حافظوا على ولائه : وورد اليه كتاب من اخيه وكتاب من الشيخ بشير جنبلاط وكلاهما يبسطان له ما قاساه في غيابه من الضيم : فتكدر الامير من هذه الاخبار وعرضها جميعها على القبطان سميث فلم يكن اقل كدراً منه ولكنه اخذ يتلطف به ويهون الامور عليه . وبعد برهة وجيزة استدعاه للسفر معه فلبى الدعوة وركب هو وحاشيته في مركب القبطان

(١) والظاهر ان القبطان سميث هذا قد كلف احد المصورين من معيته فصور الامير بشيراً بكل عناية لاعجابه به : ونظن ان صوره المعروفة الى الان قد أخذت عنها .

نفسه الى الاسكندرية : ولكن الريح قد ظل يلعب بهم حتى اوصلهم الى بلاد المغرب ومنها عادوا الى الاسكندرية بعد ان صرفوا نحو شهرين يتقلبون بين مخاطر البحار . واذ بلغوا الاسكندرية بلغهم ان الفرنساويين فتحوا مصر وهزموا الصدر الاعظم نحو العريش وشتتوا شمل عساكره : فالحّ الامير اذ ذاك على القبطان سميث ان يأذن له بالعود الى بلاده ليقيم مع اخيه في بلاد عكار : فاذن له القبطان واركبه مركباً من مراكبه بعد ان ودعه بكل اكرام . فاقلع بهم الى قبرس ثم الى طرابلس وكانت الريح هذه المرة مواتية لهم : فنزل عند النهر البارد وكتب لاخيه يخبره بقدومه ويطلب منه معدات السفر الى عكار . فجاءه اخوه والشيخ بشير جنبلاط بذلك وركبوا جميعاً الى وادي راويد ونزلوا في الحصن عند واليها علي بك الاسعد على الرحب والسعة . وشاع خبر قدومه في لبنان واقامته مع اخيه وقومه في بلاد عكار فاخذ اعيان البلاد يراسلونه سراً لانهم كانوا قد تعبوا كثيراً من حكم الامراء الجائر ومدبرهم الشيخ جرجس باز .

وكان هؤلاء الامراء الولاة قد اظهروا العجز عن اداء المال المطلوب منهم للجزار فوجد عليهم وارسل الف فارس من الدالاتية الى البقاع لاجل تحصيل هذا المال : فتحسبوا للامر

وارسل جرجس باز اخاه عبد الاحد الى الجزار ليدفع له عشرين الف غرش من اصل المطلوب ويسكن غضبه ويلتمس منه سحب الفرسان من البقاع . فصرفه الجزار من وجهه دون ان يجيب سوأله : والحّ بطلب المال كله وطلب علاوة عليه ثلاثمائة غرارة من القمح والف راس من الغنم وثلاثمائة من البقر وثلاثمائة قنطار من البارود . فاضطر الامراء ان يبعثوا الى البلاد بالجباة ليجمعوا هذا المطلوب كله . فهاج هذا العمل اهل البلاد وطرد المتنيون اولئك الجباة وتحفزوا للثورة لو لم يستدرك الامر الشيخ جرجس باز وبعض الاعيان ويسكنوا هاتيك الحركة . ومع ذلك لم يكف الامراء عن طلب المال بل عملوا على تحصيله بالقوة مالين ومالاً آخر ونصف مال ليسددوا به مطلوب الجزار ويشبعوا جشعه . فزاد البلاد هياجاً واخذوا يسعون في ارجاع الامير بشير الى الولاية وقد اوفدوا اليه ثلاثمائة من الاعيان الى الحصن فاستقبلهم برحابة صدره : واذ استوثق منهم وعرف روح اهل البلاد نهض هو واخوه معهم بمن معهما وجدوا في السير حتى بلغوا اكروان فارسل الامير الى اهل البلاد اعلاماً بقدومه ليكونوا مستعدين للعمل .

واذ بلغ الامراء الولاة كل هذه الامور اضطربوا جداً

وارسلوا مدبرهم جرجس باز الى الجزار فبسط له كل ما توقع من هذا القبيل وطلب منه عسكراً لمطاردة الامير بشير وقمع الثورة المداهمة : فامده بالفي مقاتل من الارنؤوط ووعده بارسال مدد آخر من الخيالة .

وقدم الامير بشير برجاله الى حمانا في المتن فلاقته الجماهير بالحماسة والاهازيج الحربية واطلاق البارود حتى كان يوم قدومه يوماً مشهوداً : واقبل عليه بعض الامراء اللمعيين ومناصب البلاد وتحالفوا جميعاً حتى صاروا يداً واحدة . حينئذ نهض الامير باصحابه الى الباروك ومنها الى كفرنبرخ : وقدم الشيخ جرجس باز بالارنؤوط الى دير القمر . وبلغ الامير ان عسكر البقاع متوجه الى صيدا فارسل عليه الشيخ بشير جنبلاط بخمسمائة مقاتل فصدموهم عند نهر الحمام واسرفوا فيهم قتلاً ونهباً وهزموا من بقي منهم الى نواحي صيدا : فالتقى بهم القره محمد وهو قاصد دير القمر بعسكره : واذ بلغه ما حل بهم من رجال الامير قفل راجعاً الى صيدا . اما الامير فزحف باصحابه الى بعقلين وهناك اصلح ذات البين بين الاحزاب حتى ترك اولاد الامير يوسف بلا صديق . ولكي يمنع سفك الدماء ارسل المشائخ العمادية الى جرجس باز ليعلنوه ان يخرج بالارنؤوط من دير القمر وانه بعدما يصرفهم عنه

يجرى الصلح بين الامير بشير واولاده الامير يوسف على ان يكون الامير حاكماً على البلاد والامراء المذكورون على بلاد جبيل . فارتضى جرجس باز بذلك . ومن الغد نهض الامير حسين بالارنؤوط الى ساحل بيروت واقبل الامير بشير الى دير القمر وارسل اخاه الامير حسناً برجال الغرب الى الشويفات لملاقاة الامير حسين وجرجس باز كدليل على المسألة . لكن جرجس باز عند ما دنا من صحراء الشويفات نكل بوعده وعدل عما كان قد عول عليه وظل سائراً بالعسكر الى حرج بيروت وطلب نجدة من الجزار فامده باربعة آلاف مقاتل من عسكره . واذ رأى الامير بشير ما كان من نكث جرجس باز للعهد ابقى الشيخ بشيراً في دير القمر ومعه بعض العمادية ونهض بباقي الرجال الى الغرب : وبعد ان ترك مع اخيه الف مقاتل في الشويفات سار بمن بقي معه الى ناحية عاريا . وقد حصلت مناوشات كثيرة بين رجال الامير وعساكر الجزار كانت الحرب فيها سجالاً . وكان في جملة من قتل في هذه المناوشات صديق حميم للشيخ جرجس باز يقال له الشيخ جهجاه العماد : فحزن عليه كثيراً ويئس من التغلب على الامير بشير فاخذ يراسل في طلب تجديد عهد الصلح على ما كان قد تم الاتفاق عليه اولاً : وقد تعهد اذا رضي الامير بذلك ان

يترك سيف الجزار ويأتي بالامراء اولاد الامير يوسف اليه ولا يطلب لهما سوى الولاية على بلاد جبيل . فرضي الامير بهذا العهد لانه لم يكن ميالاً للحرب وسفك الدماء : وكتب به هو واخوه وثيقة معززة بالقسم وسلمها للرسول . ولما اطمأن جرجس باز على مقام مواليه عمل على التخلص من الجزار وعساكره واستفرغ كل دهائه حتى صرفهم عنه وارجعهم الى سيدهم بكل سكينة . وهكذا انتهت هذه الثورة وفرح اهل البلاد بهذه الصلح فرحاً لا يوصف . ولما تحقق الجزار ذلك الاتحاد كاد يتمزق غيظاً واستدعى عسكره من حدود الجبل ووزعه على ايالته وبقي متربصاً للظروف : واخذ الامير بشير ينتهز الفرص ليتقرب من الجزار .

وفي هذه الاثناء اتفق الامير عباس شهاب مع الشيخ فارس العماد واقاربه فطلبوا له الولاية من قبل الجزار الذي لم يتباطأ في اجابة سؤلهم حالاً . ولما علم الشيخ بشير جنبلاط بما كان اتفق هو ايضاً مع الامير قعدان والامير سلمان سيد احمد شهاب على ان يقدما هما ايضاً الى الجزار في طلب الولاية للامير سلمان فطلباها وتعهد الجميع له بمبلغ مئتين وخمسين الف غرش . فقبل الجزار ايضاً وكان قصده ان يوقع الخلاف في الجبل بين الاحزاب ليستبد بهم كالاول فجاء الامر على هواه : ولهذا

وعد الاميرين المذكورين بخلعة الولاية ولكنه اسندها الى
الامير عباس وانفذ معه عسكراً الى صيدا وامراً الى سليمان
باشا واليها ان يتولى هو بنفسه قيادة العسكر . وبعث
بالشيخ فارس العماد الى البقاع ومعه الفرسان . واذ علم الامير
قعدان والامير سلمان بذلك نهضا الى السمقانية ومعهما الشيخ
بشير جنبلاط : فاجتمع عليهم رجال الشوف والنكدية .
وقام الامير عباس بمن معه الى دير القمر ولاقاه اليها من ناحية
البقاع الشيخ فارس العماد بفرسان الجزار : ففر الامير سلمان
ببعض الجنبلاطية والنكدية الى جبيل حيث اتفق مع اولاد
الامير يوسف على المقاومة . واما الامير قعدان والشيخ
جنبلاط فقصد ناحية المتن حيث اجتمعا بالامير بشير .

ونهض الامير عباس بعساكره من دير القمر الى ساحل
بيروت وارسل الامير حسناً بقسم منه الى جبيل لطرد الامراء
المذكورين منها . فانتهز الامير بشير هذه الفرصة واوعز الى الامير
قعدان والشيخ بشير ان يتوجها برجاله الى دير القمر ويمتلكاها :
وكتب الى الامراء في جبيل والى الشيخ جرجس باز ان
يوافوه بمن معهم الى المتن : وهكذا حصل . وقد ارسل شرذمة
من الرجال الى مضيق نهر الكلب لصد عسكر الجزار عندما
يرجع من جبيل . وحينئذٍ ندم الامير عباس على مغادرة

دير القمر ونهض بسليمان باشا وعسكره الى الباروك . ووقعت
مناوشات بينه وبين الامير بشير اهمها عند خان مراد حيث
انكسر عسكر الجزار والامير عباس وانهزموا الى مكسة
ومنها الى المرج : فتبعهم الامير بشير برجاله الى قب الياس
وبقي مطاردهم حتى تم له النصر وعاد الى حمانا . وقد كتب
الامير عباس الى الجزار بكل ما كان وشكا من قواد العساكر
انهم ارتشوا من الامير بشير : وشكا ايضاً سليمان باشا قائد
العسكر من الامير عباس انه لم يقدم لهم العلائف . فكتب
الجزار الى سليمان باشا ان يعود بالعسكر الى عكاء والى الامير
عباس ان يذهب بمن معه الى حاصبيا فصدع الجميع بالامر .
وعاد الامير بشير الى دير القمر ومعه الشيخ جرجس باز .

وفي سنة ١٨٠٣ كان الجزار منهمكاً بالحرب مع اهل
نابلس الذين انتصروا على عساكره ونكلوا بها : فاضطر ان
يجمع كل العساكر من اطراف البلاد لمقاتلتهم وان يصرف
وجهه عن لبنان . الا ان العمادية الذين هربوا الى وادي التيم
طلبوا من الجزار امراً الى الامير حسن علي بالقيام معهم لطرد
الامير بشير : فاجابهم الى ذلك و كتب الى هذا الامير والى
سائر اليزبكية ان يقوموا معاً لهذه الغاية : فاتفقوا جميعاً على
محاربة الامير بشير . وقام الشيخ ابو قبلان العماد برجاله الى

الباروك والامير حسن الى عيتات : واجتمع اليزبكية في الجرد والغرب الاعلى . واذ بلغ الامير بشيراً ذلك نهض لملاقاتهم برجاله واجتمع اليه كل الاحزاب حتى الامراء اللمعيون ووجوه المتن والتلاحقة وسلموا له : وكتبوا عهوداً بينهم انهم لا يقبلون والياً عليهم الا الامير بشيراً وتقدموا بذلك الى الجزار . وحينئذٍ تشتت شمل خصومه ايدي سبا لما رأوا من اقبال اهل البلاد عليه : وراقت له الاحوال فكتب الى سليمان باشا يتوسطه باسترضاء الجزار عنه . فاستنهز هذا فرصة وجود الجزار بين بطانته وحدثه بامر الامير وقدم اليه الكتاب الذي كتبه له : واخذ من كان بحضرته يثنون على الامير بكل معنى : حتى تساهل الجزار معهم بامره . فكتبوا له ليرسل معتمداً من قبله لاجل المخابرة بالامر . فارسل الامير كاتبه الشيخ يوسف الدحداح فتلقاه الجزار بالقبول واخذ يعدد له ذنوب الامير قائلاً " اين الفرنساويون الذين كان يتكل عليهم ؟ اين القبطان سميث الذي مرّده عليّ ؟ اين الصدر الاعظم ؟ كل هؤلاء وغيرهم قد بددهم سعد الجزار وخيب كل مساعي مولاك واتكاله عليهم حتى اضطر اخيراً ان يرجع الى هنا . ولكنني قد تجاوزت عن كل ما مضى وصفحت عنه فليكن طيب القلب والخاطر وسوف يرى مني

ما يرضيه " ثم كتب اليه كتاباً لطيفاً مع رسوله : وكتب سليمان باشا له ايضاً ان يرسل التقادم المعتادة فترسل اليه خلعة الولاية .

وكل يرى بادنى تبصر ان الجزار الموصوف بحب الانتقام وصلابة القلب وشدة الاستبداد لم يكن ليتناسى ذنوب الامير بشير ويتجاوز عنها بهذه السهولة ويعامله مثل هذه المعاملة التي لا تصدر الا عن كرم اخلاق ممتاز لم يكن له من محل في فطرته السافلة الا مكرهاً . لانه رأى ان هذا الامير قد تفوق على اقرانه من الامراء الشهابيين اصحاب حق الولاية الشرعية على لبنان وتغلب عليهم جميعاً بحذقه وحزمه وحسن تدبيره : وقد اتفقت جميع الاحزاب عليه وتحالفوا على ان لا يقبلوا والياً سواه واستعدوا للثورة والحرب دون ذلك : فرأى من الحكمة ان يلين له ويستجلبه اليه بهذه المعاملة الحسنة طمعاً بالمال وراحة البال وعدم التعرض للفشل

اما الامير بشير فبحسب اشارة سليمان باشا قد ارسل التقادم المعتادة الى الجزار فلم يتباطأ هذا بارسال خلعة الولاية اليه : الا انه قد استثنى منها اقليم جزين وبرجا وكتب اليه ان يهدم جونيه وان لا يسمح بان يباع فيها شيء ما : وفرض عليه مئة الف غرش يدفعها في خلال اربعة اشهر وبعد مرورها

يدفع خمسة وعشرين الف غرش وعشرة آلاف غرش عن بلاد جبيل في كل شهر .

وفي سنة ١٨٠٤ هلك الجزار وارتاح الناس من شره ومطامعه : وابتسم للامير بشير خاصةً ثغر السعد : وبحسن درايته وفطانته وحزمه قد عزز مركزه أيما تعزيز حتى قطع امل كل مزاحم له من الامراء الشهابيين كالامير عباس والامير سليمان اللذين كانا مقيمين في عكاء للسعي وراء هذه الغاية ومن ورائهما حزب اليزبكية : فاضطر كل هؤلاء ان يخضعوا للامير ويستعطفوه بكل وسيلة حتى رضي عنهم . وقد جرت له امور كثيرة مع الوزراء وولاة الامور نجح فيها جميعها نجاحاً باهراً حتى نال المقام الاول عندهم وسوّى معهم كل الامور التي كان وقع الخلاف عليها منذ عهد الجزار . ومن اراد الوقوف على ذلك عليه ان يطالعه في كتاب اخبار الاعيان وفي تاريخ الامير حيذر الشهابي المطبوع في مصر سنة ١٩٠٠ : اما نحن فلا نرى مجالاً للاسهاب في هذه العجالة التي توخينا فيها منتهى الايجاز على قدر ما يسمح موضوع هذا الرد تزييفاً لاقوال المفترين .

ومما ذكرناه حتى الآن من قصة هذا الامير الكبير مع الجزار واولاد الامير يوسف خاصة يرى كل منصف لبيب شدة

تحامل صاحب كتاب سورية الغد عليه حتى انه لكي يزيد افتراءهُ قوة قد اكثر من القول بانهم « اولاد المحسن اليه » : مع ان الامير يوسف على ما بيناه سابقاً لا يصح بوجه من الوجوه ان يعدّ محسناً الى الامير بشير : بل اذا امعنا النظر يمكننا ان نقول بالاحرى ان الامير بشيراً قد احسن الى الامير يوسف واولاده واقاربه الادنين فجازوه جزاء سنمار : كما يرى كل من يتتبع هذا الموجز من تواريخ المذكورين وبه غنىً .

***

بقي علينا الآن ان نورد خبر مقتل الشيخ جرجس باز واخيه الشيخ عبدالاحد ونكبة اولاد الامير يوسف فنقول : قال الامير حيذر الشهابي (١) المؤرخ المشهور في تاريخه

(١) هو الامير حيذر ابن الامير احمد ابن الامير حيذر الاول : فكان والحالة هذه ابن عم الامير يوسف الشهير لحاً ومحازباً له . وكان قد خطب ابنته للامير سعد الدين احد اولاد الامير يوسف المذكور : ولكنه بعد نكبة اولاد الامير يوسف التي نحن بصددها قد ابطل هذه الخطبة وأزوجها من الامير امين ابن الامير بشير الكبير كما روى هو نفسه في تاريخه هذا (ص ٩٠٩) . فهو اذن شاهد عيان لكل هذه الحوادث التي نرويها عنه : واقرب الناس الى المروية عنهم : فكلامه في امرهم اكبر حجة كما لا يغرب .

المعروف « بكتاب الغرر الحسان في تواريخ حوادث الازمان» في الجزء الثالث منه الذي عنوانه « الروض النضير في ولاية الامير بشير قاسم الكبير » (ص ٩٠٦ و٩٠٧ من طبعة مصر سنة ١٩٠٠) ما حكايته بهذا الصدد :

ان اولاد الامير يوسف كانوا قاصرين في السن والرأي : وكان جرجس باز مدبراً لهم بصفته خادم في القول ومخدوم في العمل : لانهم كانوا تحت امره في كل ما يفعلون : وكانوا لا يصدرون امراً الا باذنه حتى في ملابسهم وتنزهاتهم وغلمانهم وخيلهم وسلاحهم ونفقاتهم : ولم يكن في ايديهم امر ولا نهي حتى ولا خاتم يختمون به ما يكتب باسمائهم من رقاع الديوان : لان اختامهم كانت بيد جرجس باز يكتب ويختم كما يشاء بغير اذن منهم ولا علم لهم : فكان لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . وكان هذا الرجل حاذقاً كريم النفس واليد سهل الاخلاق طيب الحديث يأخذ لقاؤه بقلوب الناس فيميلون اليه . . . . وكان متلافاً يستهلك الاموال غير محتفل بها في الشدة والرخاء : وكان للناس طمع في سعة صدره حتى انه ربما أُهدي اليه فرس او ثوب فيتناوله بعض حاشيته قبل ان يراه ثم يخبره به فيقول له « بارك الله لك فيه » . وكان طروباً يحب الملاهي والغناء فلا يخلو محله من منشد الا نادراً . وكان فيه تيه واقدام فلا يبالي

في امر ولا يراعي جانب من يراعي جانبه : وكان كثير الاصدقاء والاعداء . وكان اخوه عبد الاحد يقرب منه في هذه الصفات : الا انه لم يكن يجاريه في النباهة . وكان مسرفاً منعماً كثير البذخ في الملابس حتى كان يستبدل في اليوم الواحد خمس حلل كاملة مع العمامة فما يليها . وطابت لهما الايام زماناً طويلاً وعظمت منزلتهما وكان لهما دولة زاهرة نضيرة : ومال اليهما كثير من عمد البلاد . ولم يكن للامير بشير حرمة عندهما وكان كثير من الامور يجري على غير رضاه ولم يتمكن من دفعها فكان يضمر لهما السوء » اه .

فمن هذا الوصف الذي وصف به هذا المؤرخ الثقة اولاد الامير يوسف ومدبرهم جرجس باز واخاه عبد الاحد وهو معاصر وموالٍ لهم واقرب الناس اليهم يرى كل لبيب انهم انما كانوا على الدوام خطراً عظيماً على الامير بشير واخيه الامير حسن . لان جرجس باز واخاه عبد الاحد اللذين كانا بدهائهما قد استوليا على زمام الاحكام وسيطرا على كل جبل لبنان حتى صارا مرجعاً لكل اصحاب الاغراض والمآرب : فيقضيان ويمضيان في كل امر على ايثارهما دون حساب لاحد : قد خوّفا الامير بشيراً على مقامه ومركزه حتى صار يرى انه متى شاء جرجس باز ان يثير اهل البلاد عليه فيعزله من منصبه ويولي

مكانه اولاد الامير يوسف ليزيد اثرةً واستبداداً كان قديراً
على تنفيذ مآربه فيه . ولم يكن الامير لينسى ما اوصله اليه
من الاذى والحيف والاضطهاد على عهد الجزار عندما سعى
بتولية اولاد الامير يوسف مكانه : وجعله طريداً شريداً
لا يستقر له ولا لاخيه ومريديه قرار في ديار : وقد سعى به
ايضاً عند الجزار مراراً لاجل قتله والتخلص منه على ما رأيت :
ونكث اخيراً معه العهد الذي عاهده عليه من ترك الحرب
وحقن الدماء بحيث يبقى الامير لاولاد الامير يوسف الولاية
على بلاد جبيل عند ما التقى بعسكر الجزار وظن انه صار
يمكنه التغلب على الامير وطرده من لبنان بالسيف . كل ذلك
وسواه من مثله كان يجعل الامير منكَّد العيش مشغول البال
كثير الحذر حتى لم يعد يلتذ بشيء مما كان له من المقام والسلطان .

و كان الامير بشير قد امر بطلب اخيه الامير حسن ان
يعاد المسح على بلاد كسروان لاجل زيادة المال عليه بنسبة ما
بلغ من العمران . فلجأ مشائخه الى جرجس باز وقدموا له خمسين
الف غرش على سبيل الهدية لكي يبطل هذا الامر فابطله :
وهذا مما زاد الامير حسن حنقاً عليه فاضمر له الشر . وفي ذات
يوم اجتمع باخيه الامير بشير في دير القمر وجرى بينهما
حديث جرجس باز واخيه عبد الاحد فشكا كل منهما للآخر

سوء تصرف المذكورين وجورهما والاستئثار بحكم البلاد
حتى سيطرا عليه دون اقل حساب لاحد . واخذ الامير حسن
يحرض اخاه على التخلص منهما حتى اتفقا معاً على اغتيالهما
واطلعا الشيخ بشيراً الجنبلاطي على السر فوافقهما عليه .
ورجع الامير حسن الى مقره في غزير وشرع يتخذ التدابير
اللازمة لقتل عبد الاحد الذي كان ملازماً اولاد الامير يوسف
في جبيل . واخذ الامير بشير يدبر على قتل جرجس باز الذي
كان مقيماً معه في دير القمر : وقد تم اغتيالهما في يوم واحد
حسب الاتفاق وهو اليوم الخامس عشر من شهر ايار سنة
١٨٠٨ : وامر بعد ذلك بان تسمل عيون اولاد الامير يوسف
وتصادر املاكهم . فكان كل ما امر به وهكذا تخلص من
خصومه ومزاحميه واستتب له الامر في كل جبل لبنان .

ولا ينكر ان مثل هذا العمل يعد في ايامنا من افظع
الاعمال بالنظر الى تغير الظروف والاحوال : وهو والحق
يقال فظيع بذاته ولا يخلو من الفظاعة مهما اختلفت عليه الظروف
المخففة للجرم على رأي علماء القانون والذمة . بيد ان حكم
هاتيك الايام هو غيره في هذه الايام بحيث لا يمكننا اذا
اردنا الانصاف ان نحكم الآن على هذا العمل حكماً عدلاً
في تسويغه او تسفيهه الا اذا بحثنا بحثاً نعماً في ظروف الزمان

والمكان واخلاق اهل ذاك العصر وعوائدهم . وهذا امر واسع جداً تضيق عن استيعابه هذه العجالة : ونحن هنا لسنا في موقف اللاهوتي الحريص على مبادئه السامية لنحكم حكماً لاهوتياً صارماً في مثل هذا العمل : بل في موقف المؤرخ السياسي الذي يرى لمثل هذه الاعمال من المسوغات ما لا يراه ولا يسلم به ذاك . فضلاً عن ان هذه الخطة في العمل قد جرى عليها في الازمنة الغابرة جمهور من الحكام العظام عند كل الامم بلا تثريب ولا حرج : حتى صار من اخص مبادئ السياسة عندهم ان من الحكمة ازالة كل عقبة من طريقهم اية كانت مما يحول دون اغراضهم ويهدد مقاماتهم : وهذا الامير يوسف الشهابي الذي يعظم قدره صاحب كتاب « سورية الغد » وله عندنا نحن اللبنانيين الذكر الحميد والاثار المشكورة قد ارتكب ما هو افظع من هذه الاعمال في سبيل صيانة مقامه وتعزيز مركزه في حكم جبل لبنان :فانه قد قتل اخاه الامير افندي بيده وخاله الامير بشيراً :وسجن خاله الامير اسماعيل ثم قتله في السجن خنقاً : وسمل عيني اخيه الامير سيد احمد وعيني الشيخ محمد القاضي الذي قطع لسانه ايضاً وعيني الشيخ عبدالله مالك نائب الامير محمد الشهابي حاكم راشيا ثم قتله في السجن : لان هؤلاء انما كانوا عقبة في سبيل نفوذه

وخطراً على سلامة مركزه (١) .

* * *

وهذه بالجملة هي حقيقة الروايات التاريخية مما يتعلق بولاية الامير يوسف الشهابي واولاده والامير بشير الكبير على جبل لبنان حتى سنة ١٨٠٨ التي تم فيها مقتل الشيخ جرجس باز واخيه عبد الاحد ونكبة اولاد الامير يوسف وتنحيتهم عن الحكم والمزاحمة عليه حتى استوثق الحكم للامير بشير وحده وامتدت هيبته وسيطرته على كل البلاد .

وقد ظهر لكل ذي لب وذوق سليم ما كان من تحامل صاحب كتاب « سورية الغد » على هذا الامير العظيم القدر مما دل دلالة صريحة على سوء نيته وجعل كل كلامه فيه غير ذي وزن وقيمة عند ذوي الانصاف : و كفانا مؤونة الرد على كل ما زنّه بعد ذلك به ولو كان افظع مما سلف .

فلا عجب والحالة هذه اذا افترى ايضاً عليه بقوله — انه مذ استقل بالحكم في لبنان دون منازع قد تسبب بزيادة ثقل النير العثماني على الجبل بما اوقره من مضاعفة الاموال الاميرية واموال الاعناق ومن تسخير الاهالي وارهاقهم بصنوف الضرائب والتكاليف الطائلة وانواع السلب الممقوت ارضاء

(١) راجع كتاب اخبار الاعيان وكتاب الغرر الحسان .

لمناصريه من الباشاوات وسداً لنفقاته الشخصية التي كانت على ازدياد مستمر : فضلاً عن ان القصر الذي شاده في بيت الدين قد استنفد من المال ما عجزت عنه خزينته فقام به الشعب اضطراراً . وانه كان يستند في حكمه تارةً الى باشاوات عكاء واخرى الى خصومهم : ويستخدم لمآربه تارةً النصارى وتارةً الدروز مثيراً بينهم الاحقاد القتالة والعداء الدائم (١) وانه منذ استولى ابراهيم باشا المصري الشهير على سورية اظهر الامير التمرد على سلطان العثمانيين منحازاً الى الاقوى : فاضحى لابراهيم باشا اطوع من بنانه ووقف نفسه على تنفيذ اوامره حتى على اللبنانيين مرؤوسيه وبني وطنه في زعمه . فاثقلهم بالضرائب الباهظة واوجب عليهم الخدمة العسكرية الاجبارية التي لم يألفها اللبنانيون من قبل (٢) : ثم حرمهم مما كانوا

(١) كل هذا لا اثر له من الحقيقة ومن راجع التواريخ الراهنة التي فيها ذكر هذه الفترة من تاريخ لبنان يرى العكس ويعلم ما في ذلك من التحامل وسوء القصد .

(٢) والحقيقة ان ابراهيم باشا هو الذي طلب العسكر النظامي من الدروز فقط بنسبة واحد من سبعة : وكان قد طلب قبلاً من الامير ان يجند له منهم الف واربعمائة رجل فاعتذر الامير عنهم ان ليس عندهم هذا العدد وتوسط معه ان يكتفي بنصفه وكان قد اكتفى به لو لم يشعر بروح التمرد فيهم (راجع كتاب اخبار الاعيان) .

يتمتعون به من الامتيازات والانعامات التي كانت تحق لهم . فمن ذلك ان ابراهيم باشا الفاتح المصري كان قد وزع على اللبنانيين اربعين الف بندقية (١) جزاء محاربتهم دروز حوران مع عسكره (وقد استعملوها فيما بعد ضده) واعلن في الوقت نفسه بفرمان ان الضرائب الاميرية والفردية سوف لا تحصل منهم الا مرة واحدة في السنة على قدر ما كان محدداً عليهم من السلطان محمود . فلم يحافظ الامير بشير على ذلك بل اخذ بتحصيل الضرائب زائدة عن القياس بطرق غير مشروعة حتى انه كان يلزم الاحياء بدفع الضرائب عن الاموات والحاضرين في القرية عن الغائبين والقرى الغنية عن القرى الفقيرة . فثار ثائر اللبنانيين عليه وعلى ابراهيم باشا ايضاً وهبوا لمناوأتهم تحت قيادة الكونت أوفروا الافرنسي (٢) : وقد اتحد معهم

(١) والحقيقة هي ان ابراهيم باشا طلب من الامير بشير اربعة آلاف مقاتل من نصارى لبنان وامر ان يسلمهم اسلحة مؤبدة لهم ولذريتهم ويوجههم مع ولده الامير خليل الى حاصبيا لقتال الدروز الذين كانوا قد تمردوا عليه وكسروا عسكره مراراً ونكلوا به لانه لم يكن معتاداً على الكر والفر في ارض الوعر (عن اخبار الاعيان ايضاً)

(٢) لم نسمع قط ان هذا الكونت الافرنسي او غيره من الاجانب تولى رئاسة هذه الثورة او غيرها في لبنان . والدولة الفرنسوية كانت موالية اذ ذاك لصاحب مصر ولولده ابراهيم باشا فاتح سورية . وكلما جاء

على ذلك متاولة بلاد بعلبك تحت رئاسة الامير خنجر الحرفوش : مما اضطر الامير ان يلجأ الى سياسته المألوفة : فأثار الدروز على النصارى والمتاولة واعداً اياهم باعفائهم من الخدمة العسكرية والضرائب . فاسرف الدروز في نصارى جنوبي لبنان نهباً وسلباً وقتلاً :وقد اوقع ابرهيم باشا بنصارى كسروان وبعد تذليلهم نفى سبعة من امرائهم الى السودان » (انتهى كلام المفتري)

والخلاصة بعد ما عدد ما شاء وشاء له الهوى من الاعمال الفظيعة على الشكل الذي اوحاه اليه قصده السيء فيه دون ان يعثر بشيء يستوجب له الثناء وحسن الذكر منذ تولى على

ذكره من هذا القبيل في تاريخ اخبار الاعيان الذي نعتمده (لان كاتبه شاهد عيان) « هو ان بعض الافرنج كانت تشدد عزائم رجال الثورة اللبنانية وتخبرهم باتفاق الدول الاربع النمساوية والانكليزية والمسكوبية والبروسياوية مع الدولة العثمانية على استخلاص سورية الثانية من يد عزيز مصر : وكانوا يأتون اليهم الى الحرش ويحرضونهم على الدولة المصرية ويشددونهم ويحققون لهم قدوم مراكب حربية لاسعافهم ويقدمون لهم قليلاً من البارود والرصاص » (انتهى كلام هذا المؤرخ) فليتأمل القارىء اللبيب بالفرق بين الحقيقة والافتراء وليثق ان كل ما رواه صاحب كتاب « سورية الغد » مما يتعلق بالامير بشير هو من هذا القبيل . ومن اراد ان يتبع ذلك بالتدقيق الوافي فليراجع هذا الكتاب وكتاب تاريخ الامير حيذر المذكور مراراً هنا .

جبل لبنان الى ان غادره مضطراً سنة ١٨٤٠ لم يستنكف من ان يتهمه بدينه افظع التهم اذ قال فيه دون ضمير ولا حياء : « انه بعد رجوعه الى الدين المسيحي لم يخجل من ان يبني جامعاً في دير القمر حيث كان يتوضأ ويصلي جهاراً وبعد خروجه من الجامع كان يذهب الى الكنيسة لسماع القداس ومنها الى دار الحريم حيث كان يتلقاه نساؤه العديدات من الجركس : بحيث لم يكن يكتفي بالاستهزاء بالناس بل كان يتلاعب على هذا الشكل بالله وبانبيائه » اه

ولما كان الرد على مثل هذه السفاسف والافتراءات يخرج بنا عن حد الايجاز الذي توخيناه في هذه العجالة وكانت تواريخ جبل لبنان في ذاك الزمان مما وصل الينا عن الثقات وشهود العيان كلها تتكفل بدحض هذه الاقوال من بابها وبتبيان فضل هذا الامير الكبير الذي في الحقيقة قد عزز استقلال جبل لبنان بكل معنىً حتى خلد لنفسه ذكراً عظيماً مقروناً بالحمد والثناء في قلوب ابنائه وقد توارثه الصغار عن الكبار بالتواتر الى اليوم بحيث لم يرضَ اهل عصره من اعيان القوم وعامتهم عنه بديلاً حتى بعد مغادرته له وحجزه مع اولاده عنه في الاستانة لذلك رأينا ان نتجاوز عنه لئلا يطول الشرح فيمل المطالع :وان نحيل من اراد المزيد والوقوف على

دقائق هذه الامور الى هاتيك المصادر والمواطن التي اخذنا عنها هذه الحقائق فيرى الغث من السمين والحقيقة من المين ويحكم نظيرنا على هذا المفتري بسوء النية وتوخي التضليل لغرض في نفسه اجارنا الله من ذلك .

بيد انه لما كانت مسئلة تهمته بدينه من الفظاعة بمكان وكان التاريخ المكتوب لا يفي بالمطلوب لانه لم يتعرض لهذا الموضوع راينا من الواجب ان نتولى رد هذا الافتراء الشنيع بمنتهى الايجاز فنقول :

ان الامير بشيراً الكبير قد ولد نصرانياً مارونياً وتربى منذ نشأته تربية مسيحية صرفاً كما اثبتناه غير مرة . ولم يسمع قط انه هو الذي بنى الجامع في دير القمر : وانما الذي بناه هو الامير فخر الدين المعني الذي اتخذ بلدة دير القمر مركزاً لحكمه وبنى فيها داره المشهورة الى الآن باسمه وبجانبها هذا الجامع : وقد توارثها الامراء آل شهاب مع الحكم على جبل لبنان عن المعنيين بعد انقراضهم كما رأيت . اما الامير بشير الكبير فانه بعد ان استتب له الامر في جبل لبنان قد بنى دار سكنه وسراياه المشهورة الى اليوم في بيت الدين : ولم يُقم هناك جامعاً بل كنيسة شهيرة حتى الآن على اسم القديس مارون المعظم ابي الطائفة المارونية .

ولم يسمع قط لا من معاصريه ولا من سواهم انه كان متزوجاً باكثر من حليلة واحدة ولا انه كان له سراري يتمتع بهنَّ على طريقة المسلمين التي تأباها النصرانية كل الاباءة كما لا يعزب عن احد : بل المشهور عنه انه كان شديد التعفف الى حد المبالغة حتى انه لم يكن يملأ نظره من امرأة قط وقد ذهب تعففه من هذا القبيل مذهب المثل : وانه كان تقياً ورعاً متديناً للغاية حتى انه كان يتخذ بعض الكهنة المعروفين بالعلم والتقوى من الطائفة المارونية كمرشدين ملازمين له ولاولاده لاجل قضاء الواجبات الدينية والاسترشاد عند اللزوم . ومن المأثور عن العلامة الشهير البطريرك بولس مسعد الذي كان في اول امره كاتب اسرار المثلث الرحمات البطريرك يوسف حبيش ان الامير بشيراً عندما زاره هذا البطريرك ومعه كاتب اسراره المشار اليه في بيت الدين ركع امامه وقبل يده بكل احترام كعادة النصارى : ثم قام هو بنفسه في خدمته فحمل منديل التنشيف واصرَّ كل الاصرار على سكب الماء على يدي السيد البطريرك راكعاً ليغتسل من وعثاء السفر : (١) وقد اكبر

---

(١) كانت العادة المألوفة في لبنان انه عند قدوم ضيف كريم من سفر يأتي الخدم بعد مراسيم السلام بادوات الغسيل الى بهو الاستقبال بكل احتفاء فيغسل الضيف الكريم يديه ووجهه قبل الاخذ بالحادثة .

جميع الحضور تواضعه واخلاص خضوعه واحترامه البليغ لرئيس دينه الاعلى . وهذه الشهادة التي سمعتها انا باذني من البطريرك مسعد لا سبيل لتكذيبها وراويها شاهد عيان من اصدق الناس واطهرهم ذيلاً كما هو مشهور . وقال هذا الشاهد المعتبر انه اذ اراد البطريرك الحبيشي ان يداول الامير في بعض الامور التي تتعلق بسلطته الدينية في جملتها سيامة مطران على ابرشية طرابلس خوف حصول المشاكل من قبل بعض الخواص اجابه الامير بكل اخلاص — اعمل يا سيدي كما ترتئي ولا تراعِ غير ذمتك وجانب الله وخير الطائفة فانت وحدك رئيسها وابوها والمسئول عنها امام الديان العادل فلا يشاركك احد ولا يزعجك مزعج ولو كان احد اولادي (١) : وليس علينا جميعاً الا الخضوع لك والتسليم بكل ما تعمله مما تراه بحكمتك آئلاً لمجد الله وخير الطائفة العزيزة — وقد اقام البطريرك في ضيافته ثلاثة ايام على اجل كرامة وكان كل يوم يشهد قداسه ويتناول القربان الاقدس من يده بكل خشوع واخبات .

(١) كان عند الامير امين ابن الامير بشير كاهن من عائلة خضير طامح الى هذه الابرشية وكان هذا الامير يلح على البطريرك بسيامته عليها وهو لا يرى انه موافق لها والى ذلك يرمي الامير بشير بقوله هذا .

ومما يؤثر ايضاً عن الثقات ان الامير بشير عند ما ذهب الى الاستانة في اواخر سنة ١٨٤١ قد جاهر بنصرانيته غير هياب ولا طماع يؤثر مجد الناس على مجد الله . فنزل هو ورجاله في الدار المعدة له في ارناؤط كوي وانزل حرمه في دار الخواجا الياس حوا الحلبي الماروني الشهير : وطلب بكل صراحة ان يتمم واجباته الدينية في كنيسة الارمن الكاثوليك في غلطه حيث دفن في آخر سنة ١٨٥٠ بكل اكرام و كان ولاة الامور في الاستانة يغرونه على الاسلام بارجاعه الى الحكم في جبل لبنان مع حق الميراث لذريته : فرفض هذه الوعود بكل شجاعة ولم يغره شيء من مجد الدنيا بل جاهر كل المجاهرة بتمسكه بنصرانيته : (١) واذ يئسوا منه لصلابة

(١) ذكر صاحب كتاب اخبار الاعيان (ص ٦٢١) « انه بعد وصول الامير بحاشيته الى الاستانة دعاه رؤوف باشا الصدر الاعظم ورفعت باشا مشير الخارجية الى الباب العالي وارسل له الصدر الاعظم خيولاً مزينة لركوبه مع اولاده . حينئذٍ سأل ارباب الديوان الصدر هل يجوز ان نقوم للامير في السلام اجابهم لا نقوم له . فركب الامير واولاده تلك الخيول ولما دخلوا الديوان قام الصدر الاعظم للامير اجلالاً له : فنهض جميع الجلاس الكبراء والعلماء فحياه الصدر الاعظم بالسلام واجلسه مجلس العظماء فتهيبه الجميع متعجبين مما كان . ثم استأذنه الامير بالذهاب فاذن له وامره ان يرسل حندته اليه : فانصرف يسلم على مشير الخارجية

عوده مالوا على اولاده بمثل هذا الاغراء : فاسلم منهم الامير امين ظناً منه انه يقوى بعد ذلك على استرضاء والده العظيم الشأن عنه . وبعد ان جاهر باسلامه طلب مقابلة الامير الكبير ليعتذر له فابى مقابلته بكل مرارة نفس وقال قوله المأثور — اذهبوا قولوا لهذا الغرّ انه لن يقابلني لا في هذه الدنيا ولا في الاخرة — وبالواقع لم يعد يقابله قط حتى* ادركته المنية قبل والده البار بمدة وجيزة .

وبالجملة حسبنا وصف الشيخ طنوس الشدياق المؤرخ الشهير في كتابه المذكور مراراً (ص ٦٤) لهذا الامير العظيم وهو معاصر له انه : كان « عاقلاً عادلاً حليماً شجاعاً فاضلا كريماً — ديناً — مهاباً شهماً يقظاً صادقاً رزيناً » وكفى به رداً على صاحب كتاب « سورية الغد » من كل وجه والسلام على من اتبع الهدى .

***

ذلك ولقد اتسع بنا الموضوع رغم ما توخيناه من الايجاز في هذا الذيل : فسبيلنا الآن ان نستخلص من ذلك نتيجة

فقال بعض كبراء الديوان للصدر الاعظم سائلاً لماذا نهضتم للامير بعد ان امرتم بعدم القيام فاجابه ان في هذا الرجل قوة انهضتني ضد ارادتي فاني لم رَ في حياتي هيبة في رجل مثل هذا فان كل ما قيل عنه فهو صدق » اه.

مهمة في موضوع هذا الكتاب مما يتعلق باستقلال لبنان الداخلي في هذه المدة لئلا يذهب كل هذا العناء سدى فنقول :

ان كل من طالع هذه النبذة بامعان نظر يرى لا محالة ان عمال الدولة العثمانية لم يكونوا ليتعرضوا لاهل جبل لبنان من اية طبقة كانوا في امورهم الادارية او في احكامهم القضائية اقل تعرض حتى ولا في حروبهم الاهلية الا بقدر ما كان يطلب منهم حكامه الوطنيون الشرعيون او مزاحموهم من آل شهاب اللبنانيين اصحاب الحق في تولي شؤونه لنصرة فريق على الآخر . وكان اللبنانيون يقاتلون عساكر الدولة الذين كان الولاة في جوارهم يرسلونهم عليهم لمثل هذه الغاية بكل عزم وبسالة وحرية كاناس يذودون عن حياضهم . وعند ما كانت عساكر الدولة تنكسر مع الحزب الذي تناصره ويُقتل منها العدد الوافر حتى تضطر الى الانسحاب وترجع على اعقابها لم يكن هؤلاء الولاة يطالبون اللبنانيين المنتصرين بذنب او غرامة كرعايا للدولة ثاروا على عسكرها ونكلوا به : بل كانوا يتركونهم وشأنهم بدون حساب ويزيدون في رعايتهم واسترضائهم وينوّلونهم كل مطاليبهم بالحسنى : وكانوا بالجملة يعاملونهم كاناس نهضوا بالسلاح ليحافظوا على حقوقهم الداخلية فتحرشت لهم عساكر الدولة بأمر ولاتها دون حق

ولا اذن من الباب العالي بل لقاء شيء من المال كان يدفعه لهم طلاب الولايـة على جبل لبنان من اصحاب الحقوق الشرعية عليه : اعني كأمودين فقط .

ولم يكن اللبنانيون عند وقوع الظلم عليهم من ولاتهم الشرعيين يشكون ظلامتهم الى الولاة المسيطرين على نوعٍ ما على ولاتهم من اوجه غير مشروعة : بل كانوا يتمردون على ولاتهم ويثورون عليهم ويمتنعون عن دفع مطاليبهم من الاموال التي كانوا يتقاضونها منهم عند الحاجة ويناصرون خصومهم من مزاحميهم عليهم حتى يعتدلوا معهم او يزحزحوهم عن الولاية ولو خسروا كل شيء حتى الدم . وهذا عنـدنا من اقوى ادلة الاستقلال الداخلي كما لا يغرب عن ذي بصيرة من ذوي الانصاف .

وحسبنا بالجملة شهادة رجل من اكبر رجال الدولة واشهرهم على هذا الاستقلال الذي كان يتمتع به جبل لبنان قبل سنة اربعين : الا وهو جودت باشا الوزير التركي : فقد قال في تاريخه المشهور بهذا الصدد ما حكايته : (ص ٣٤٩ وما يليها)

« ان الامير حيدر الشهابي (١٧٠٧—١٧٣٢) حصـل في حكومة الجبل على الاستقلال التام ومن ضمنها البقـاع .

وكان امراء الجبل في ادارتهم الداخلية مستقلين فلا يقدر احد من حكام الدولة ان يتداخل في امورهم الداخلية : حتى ان اهل الجناية الذين كانوا يلجأون اليهم لخوفهم من الولاة يأمنون على انفسهم : وذلك لانه كان من الاصول المرعيـة عندهم وجوب صيـانة من يهرب اليهم ويحتمي بهم فكان الولاة لذلك لا يقدرون على استرداده . » اه

وبهذا القدر غنىً لذوي الالباب ان شاء الله تعالى .

ملحق

في بعض الشهادات المعتبرة

التي اقتبسناها من اقوال بعض اقطاب الفرنسيين وغيرهم مما يلامس موضوعنا

ان للمرحومين المأسوف عليهم كثيراً الشيخ فيليب واخيـه الشيخ فريد قعدان الخازن شهيدي الدين والوطن تغمدهما الله بعميم رحمته ورضوانه كتاباً جليل القدر مشهوراً بالطبع في ثلاثة مجلدات عنوانه « مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنـة ١٨٤٠ الى سنة ١٩١٠ » وهي السنة التي طبع فيها هذا الكتاب بمطبعة

« الصبر » في جونية بجبل لبنان .

وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب ان المشار اليهما كانا قد وضعا « لمحة تاريخية عنوانها – استمرار استقلال لبنان التشريعي والقضائي منذ الفتح العثماني سنة ١٥١٦ ايداها باقوال المؤرخين المحققين وتصريحات اساطين ساسة الدول في الغرب وممثليها في الشرق . »

وقد قالا ايضاً رحمهما الله رحمة واسعة ما حكايته في وضع كتابهما هذا : « ولقد نشدنا فوجدنا ضالتنا هذه في الكتابين الاصفر لفرنسا والازرق لانكلترة المنشورين في تلك الازمنة المشؤومة اخذاً لهاتيك الخطوب من مظانها . بيد انه قبل بلوغ الغاية من ادراك هذه المنشودة ساق الينا حسن الحد كتاب – معاهدات الباب العالي لجامعه البارون دي تستا – اودع الجزء الثالث والسادس منه ما جل قدراً من منتقيات كتب قناصل الدول المشار اليهنّ ورجال سياستهنّ ومن مفاوضات هؤلاء الباب العالي بين سنة ١٨٤٠ الى ١٨٦١ في مسائل سورية ولبنان . . . فصدرنا كتابنا هذا بتعريب ما جاء في الجزء الثالث (من كتاب دي تستا) ثم اضفنا اليه الرسائل المخطوطة مما له علاقة بمادة موضوعنا . . . فاثبتناها بحرفيتها مشيرين في آخر كل محرَّر الى مأخذه ما خلا المحررات المعرَّبة

عن مجموعة دي تستا السابقة الذكر فان كل محرر خال من من اسنادٍ هو منقول عنها . »

وقد راجعنا هذه المجموعة النفيسة بامعان فاقتبسنا مما اثبت فيها عدة شواهد تلامس موضوعنا وهي ذات قيمة لا ينكرها الا المكابر : وقد آثرنا ان نثبتها في هذا الملحق لمزيد الفائدة بحسب تعريبها عن الجزء الاول من هذه مجموعة المحررات السياسية مع ذكر العدد والصفحة منه تسهيلاً للمراجعة . ودونك ما وجدنا من ذلك :

عدد ١ – من تقرير المسيو بازيلي قنصل روسية في بيروت الى المسيو بوتينيف مندوب روسية في الاستانة بتاريخ ١١ حزيران سنة ١٨٤٠ :

« لقد لفحت سموم الفتنة في لبنان من جراء اصدار ابراهيم باشا امره بتجريد الموارنة من اسلحتهم رغماً من توالي نصائح الامير بشير له بتحامي جمعها لانه كان يتوقع سوء مغبة ركوب هذه المخاطرة الغير المؤاتية . لامراء ان استشفت قبائل الجبل اخوان الحرب من وراء جمع اسلحتهم . . . فانه منذ ثلاث سنوات بعد ان توفق ابراهيم باشا لنزع السلاح بالخديعة من الجبليين جرى توزيع سبعة آلاف بندقية على الموارنة حصولاً على مساعدتهم في المسألة الحورانية : وقد جاءت

اليوم الحكومة تطلب بشدة استعادة هذه الاسلحة ... وكما ان انضمام اللبنانيين الى جيش ابراهيم باشا في سنة ١٨٣٢ قد جر معه خضوع كل سورية فلا يبعد ان ثورتهم اليوم ستؤول الى طرد المصريين نهائياً من هذه البلاد الا اذا أخمدت نارها حالاً بالتساهل مع اهالي الجبل المذكورين واعطائهم ضمانات في المستقبل» (راجع كتاب مجموعة المحررات مج ١ عدد ٤ ص ٥)

عدد ٢ ـ ترجمة كتاب المسيو غيزو وزير خارجية فرنسة الى المسيو بوجاد قنصلها في بيروت بتاريخ ٦ شباط سنة ١٨٤١ (عن كتاب «لبنان وسورية سنة ١٨٤٥ ـ ١٨٦٠» تأليف المسيو بوجاد نفسه ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣)

«لست اجهل الاضرار التي لحقت بنفوذنا السياسي في سورية عموماً واهالي لبنان الكاثوليك خصوصاً من جراء الحوادث التي انتابت القطعة السورية. ولكن كان الطالع من الطبيعي توقيع هذه النتيجة لكني ارى بسرور ان رغماً من الاسباب العرضية التي كان باستطاعتها اضعاف اميال هؤلاء السكان القديمة الى فرنسا ظلوا ثابتين على العهد بوجه عام ولم تنقص ثقتهم في اهتمامنا بهم الذي نثابر عليه. ونحن نفقه وجوب حفظ هذه العواطف ونبرهن لهم على انه يمكنهم ويجب عليهم ان يعتمدوا على صداقة فرنسا ومساعدتها لهم. ولذلك

سنبذل كل ما بطاقتنا تحقيقاً لهذه الغاية: ومن ثم فحكومة الملك لا تقصر عنايتها على اصلاح حالة الموارنة الحاضرة بل تتجاوز الى ايلائهم طمأنينة في المستقبل.» (مجموعة عدد ٢٥ ص ٤٩ و٥٠)

عدد ٣ ـ فقرة من تقرير الكولونيل روز قنصل انكلترة العام في بيروت بتاريخ اول تشرين الاول سنة ١٨٤١ (عن الكتاب الازرق الانكليزي الصادر في سنة ١٨٤٣)

«ان الموارنة مستسلمون نفساً وجسداً الى فرنسة ... وعليه فلم يبقَ لانكلترة ان تختار في الامر بل آمسى من المتحتم عليها عضد الدروز.» (١) (مجموعة عدد ٤٣ ص ٧٣)

---

(١) كان في هذه الاثناء رجل من الانجليز يقال له المستر ريشار وود ترجماناً لسفارة دولة انكلترا في الاستانة وكان كاثوليكي المذهب. فاوفده اللورد بونسونبي سفير هذه الدولة الى لبنان لاثارة أهاليه على ابراهيم باشا والدولة المصرية. فجاء اليه بحجة درس اللغة العربية واستوطن غزير حيث اخذ يدرس هذه اللغة على الخوري ارسانيوس الفاخوري الشهير. ولم تمضِ عليه مدة طويلة حتى تقرب من بطريرك الموارنة واعيان طائفته في كسروان واخذ من ثم يدس دسائسه ضد ابراهيم باشا منتهزاً نفور الاهالي منه بسبب ما ضرب عليهم من الضرائب والسخرة والخدمة العسكرية. ثم انه لاجل مزاحمة نفوذ فرنسا في لبنان وتقرير نفوذ دولته اخذ بالاتفاق مع قنصلها في بيروت يبذل مجهوده في استمالة بطريرك

عدد ٤ — فقرة من تعليمات المسيو ستراتفورد كانين سفير انكلترة في الاستانة الى المسيو بيزاني ترجمان السفارة الاول بتاريخ ٩ شباط سنة ١٨٤٢ :

« وفي الوقت نفسة اتصل بنا ان السر عسكر المشار اليه

الموارنة وترغيبه في ترك علاقات فرنسا القديمة العهود والانحياز الى دولة انجلترا : وقد ابدى له كل استعداد لبذل جهد الحماية والمساعدات فوق ما كانت تبذله فرنسا نحو الموارنة . ولما لم يفلح بمثل هذه المواعيد لجأ الى الوعيد فتهدد البطريرك والموارنة بكل شر اذا لم يذعنوا لنصائحه وقال (كما روى لنا المثلث الرحمات البطريرك يوحنا الحاج المعاصر لهذه الحوادث) انه لا بد لدولته ان تأخذ لها حزباً في لبنان لتقرير نفوذها : وهو بصفة كونه كاثوليكياً اراد ان يضم اليها الموارنة لما يرى من الخير العظيم لهم من وراء ذلك : والا فهو مضطر ان يتخذ الدروز فيندم الموارنة اذ يرونها تعضدهم عليهم وتذللهم لهم وفرنسا يدها مغلولة عنهم . وكل ذلك لم يجدِ نفعاً كما يشهد هذا التقرير الذي حصل على اثر فشل هذه المساعي . ومما رواه البطريرك الحاج ان البطريرك يوسف حبيش الذي كانت هذه المخابرات معه قد اجاب المستر وود بعد الالحاحات والترغيبات من كل جنس انه عبثاً يحاول الفوز بهذا الامر : لان حب فرنسا جارٍ مع الدم في عروق كل ماروني . وهب انك قدرت ان تقنعني فطائفتي ترجمني متى شعرت مني بهذا الاخلاف . فاجابه المستر وود : انكم ستعضون بنانكم ندماً حين لا ينفع الندم ... وتركه وذهب الى الدروز فتلقوا اقتراحه بكل سرور . . ومن هنا بدأ شر الدروز وما كان من الفتن بينهم وبين الموارنة كما هو مشهور .

(مصطفى باشا) عين باشا مسلماً مكان الامراء الشهابيين عاهداً اليه بالسلطة المختصة بهم وهو اليوم في دير القمر بصفة والٍ على لبنان مما لم يسبق له مثيل : وذلك مناقض للوعود المسجلة وخارق للامتيازات المقررة منذ عدة قرون ... فحباً بتلافي هذه الاخطار وما يتوقع حدوثه يرى اصدقاء الباب العالي المخلصون وجوب الفات نظره الى هذه المسألة الخطيرة وقد اخذوا على ذواتهم الاّ ينتقدوا اقدام دولة السرعسكر على تعيين والٍ مسلم على لبنان مما لم يسبق له نظير ولو كانت الظروف تجيز لهم الاحتجاج على هذا العمل : فعسى ان لا يكونوا تجاوزوا حد ثقتهم في حكمة الباب العالي ودرايته اذا ما عالنوه تيقنهم ان التدبير الحالي هو وقتي وانه سيأمر قريباً باتخاذ الوسائل العاجلة لاعادة تنظيم حكومة جبل لبنان المحلية على اس ثابت وفقاً لامتيازات شعوبه القديمة والعهود المعطاة لهم » (مجموعة عد ٤٨ ص ٧٩ و٨٠ و٨١)

عد ٥ ـ وايضاً من تعليمات السفير المشار اليه الى ترجمان هذه السفارة عينه بتاريخ ٣١ آب سنة ١٨٤٢ :

« ويخيل لي ان كل الاراء في هذه المسألة دائرة على محور واحد . وعلى كل يجل رغائب حكومة جلالة الملكة ان تتوطد سلطة السلطان الشرعية ضماناً لاهالي لبنان للتمتع براحة

مستديمة وادارة حسنة مؤسسة على ركن امتيازاته القديمة . وهذه الرغبة قد اوحاها اليها ليس فقط العاطفتان الدينية والانسانية بل البر بالعهود الملزمة كل حكومة بانجازها والاهتمام بمصالح بلاد مصيرها الحالي ملقى معظمه على عاتقها. »
(مجموعة عدد ٥٨ ص ١٠٢)

عدد ٦ ـ ومن تعليمات هذا السفير ايضاً الى المستر بيزاني نفسه في ٤ شباط سنة ١٨٤٣

« ان بلاد جبيل قوامه سبعة اقضية كلها داخلة في نطاق الجبل : وكان الامراء الشهابيون يديرون شؤونه منذ سنوات عديدة وظل داخلاً في حكمهم الى ان عين الامير بشير قاسم السابق (سنة ١٨٤١) واستمر كذلك الى ما بعد فصله اي الى ان طلب ممثلو الدول الخمس اعادة امتيازات لبنان القديمة الى ما كانت عليه . » (مجموعة عدد ٦٥ ص ١١٥ و١١٦)

عدد ٧ ـ وفي رسالة البارون دي بوركنه سفير فرنسا بالاستانة الى المسيو غيزو وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٧ شباط سنة ١٨٤٣

« يا حضرة الوزير

« افدت دولتكم في ذيل كتابي السابق اني وطدت العزيمة على عضد رصفائي لابلاغ الباب العالي اننا نعد سلخ

قضاء جبيل عن البلاد الخاضعة للامير حيدر خرقاً ظاهراً لما تعهد به في نطاقته المؤرخة في ٧ كانون الاول الفائت وسؤاله الرجوع عاجلاً عن هذا التدبير . وكان حازم افندي قد عرف رأيي عن السؤالات التى القاها عليه المسيو كور باسمي ولقد اتخذت تجاه رصفائي والباب العالي في هذا الحادث موقفاً تقدمت فيه الجميع لان المسألة محصورة بالشؤون المسيحية البحتة وبلاد جبيل مأهول بالموارنة دون سواهم . فرأيت انه يحق لنا رفع صوتنا ما استطعنا انتصاراً لهؤلاء المسيحيين المذكورين المراد حرمانهم بحجج واهية وتعليلات فارغة من فوائد طريقة الحكم التي تمكنا بساعينا من اعادتها الى الجبل. »
(مجموعة عدد ٦٦ ص ١١٦)

عدد ٨ ـ وفي جواب المسيو غيزو المشار اليه الى البارون دي بوركنه بتاريخ ٢٤ شباط سنة ١٨٤٣ مايلي بهذا الشأن نفسه :

« حضرة البارون »

« علمت بسرور ان السير ستراتفورد كانين اشترك دون صعوبة في امدادك الذي طلبته الى رصفائك احتجاجاً على فصل اسعد باشا قضاء جبيل عن الاراضي التابعة لحكم الامير حيذر اثناء قسمته البلاد بين القائمقامين المنتخبين لحكومة الجبل . بيد انه ولو استفيد من رسالتكم الاخيرة ان الامال

حية بعدم احجام الباب العالي عن اجابة طلبكم بهذا الصدد لا ارى بداً من توجيه اهتمامكم اليه خاصة اذ ان صالح الجبل وراحته يقفان بوضع جميع المسيحيين تحت ادارة امير ماروني كيفما كان تقسيم الجبل الاداري قبلاً . فمن اللازم الضروري ان لا يكون للحكومة التركية ادنى سلطة عليهم مباشرة . »

(مجموعة عدد ٦٧ ص ١١٩)

عدد ٩ ـ ومن رسالة البارون دي بوركنه الى المسيو غيزو ايضاً في ١٦ اذار سنة ١٨٤٣ :

« ان الباب العالي قد عدل عن تولية مندوب تركي خاص على بلاد جبيل وعول على اعادة هذه المقاطعات الى تحت حكم احد الاميرين الذي تكون اغلبية سكانها من مذهبه اي الى الامير حيذر لان كل متوطنيها موارنة ... وقد استقر رأي الباب العالي على عدم استيفاء ضريبة خاصة من مقاطعات جبيل القديمة وانما تؤدي نصيبها من الاموال المفروضة على سائر الجبل . فاذا كان مجموع الجزية وقدرها ٣٥٠٠ كيس قد شمل سابقاً المال المقرر على بلاد جبيل (وهي مسئلة يجب ايضاحها في محلها) فلا يستوفي من الجبل بارة زيادة عن الثلاثة آلاف والخمسمائة كيس المذكور بدل الحاق جبيل بالبلاد الخاضعة للامير حيذر . » (مجموعة عدد ٦٩ ص ١٢١)

عدد ١٠ ـ وفي تعليمات السير كانين الى المسيو بيزاني في ٩ كانون الثاني سنة ١٨٤٤

« ومع تسليمي ان السلطة العليا — وهي المرجع الاخير في وجوب السهر على توكيد اركان الراحة ـ ارى انه يتعذر انكار حق اللبنانيين الثابت بادارة شؤونهم الداخلية على يد ولاتهم الوطنيين والفائدة التي تحصل عن تقليل اسباب حدوث نزاع جديد ـ ما استطيع الى ذلك سبيلاً ـ بين هؤلاء مأموري الباب العالي الغرباء عن الجبل المختلفين عن اهله جنسية وديانة . » (مجموعة عدد ٧٢ ص ١٢٤)

عدد ١١ ـ وجاء في نطاقة شفاهية تلاها تراجمة سفارات الدول الخمس على مسامع خارجية الباب العالي بتاريخ ٨ شباط سنة ١٨٤٥ :

« فالامر الاول (وهو القبول ضمناً بجميع مقترحات الباب العالي على علاتها) رغماً عن كونه من اشهى متمنياتنا واعز رغائبنا بدون شك يتعذر علينا لسوء الحظ القبول به لخلوه من شرط اضافي يخيل لنا انه ضروري لازم لتطبيقه على استقلال ادارة جبل لبنان الذي اتخذ اساساً للتدبيرات السابقة . ومن المحال ايضاً ان نقبل بسلطة والي صيدا المحددة له في المذكرة او بطريقة اخرى تمس قاعدة استقلال الجبل ادارياً . »

(مجموعة عدد ١٠١ ص ١٦٩ ـ ١٧٠)

عدد ١٢ ـ وفي رسالة المسيو بوتنفال الى المسيو غيزو في ١٦ شباط سنة ١٨٤٥ :

« يا حضرة الوزير

« ان الباب العالي قد حقق ما انتظرته منه فان الديوان استأنف عمله واذا لم يخطئ ظني انه بارساله الى سفراء الدول الخمس النطاقة الرسمية التي اتشرف بارسال ترجمتها اليك في طيه ـ فقد اعلن فيها الباب العالي انه : « لما كان ممثلو الدول قد اوجبوا عليه الاستقلال باستعمال سلطته العليا عرض على السلطان طريقة الحكم الاكثر انصافاً والاجدر باعادة الامن الى نصابه في جبل لبنان : وانه لما كان هذا المشروع قد اثار بعض الارتياب في افكار ممثلي الدول فهو يتعجل بابلاغهم الايضاحات الكافلة ازالتها وحملهم على القبول به : وانه لم يدُر قط في بال نظار جلالة السلطان مس استقلال جبل لبنان الاداري واقطاعاته وامتيازاته المحلية : بل جل المقصود ضمان حل المشاكل وفصل الدعاوي التي يتعذر حلها بطريقة اخرى بصورة نهائية على يد مشير صيدا فيما لو حدث خلاف بين الامتين . » (مجموعة عدد ١٠٣ ص ١٧٣)

عدد ١٣ ـ من خطاب الكونت دي مونتالامبر في مجلس

الاعيان الفرنساوي بتاريخ ١٥ تموز سنة ١٨٤٥ :

« لا يخفاكم انه يوجد هناك امتان احداهما وهي الاكثر عدداً قواما الموارنة وهم مسيحيون محالفون لفرنسا خاصة من عهد القديس لويس على ما يؤكدون وقد وضعوا في الازمنة الاخيرة تحت حماية فرنسا دون غيرها : وقوام الاخرى الدروز وهم اقل عدداً لكنهم اشد ميلاً للحرب واكثر همجية فيسيئون استعمال فروسيتهم بارتكاب الفظائع . . . » الى ان قال بعد وصف الكوائن التي حصلت هذه السنة في لبنان بين الدروز والنصارى ما مؤداه :

« فما هي الغاية التي نسعى اليها هناك ؟ هي حماية امة كاثوليكية يتراوح عددها بين ٤٠٠ الى ٥٠٠ الف نسمة تقريباً (ضجة ضعيفة في المجلس) فهذه الامة الكاثوليكية كانت طبعاً تحت حماية الدولة الكاثوليكية الاولى في الغرب ولم يشاركها احد فيها كما هو مشهور . فنشأ عن ذلك كما بسطت التمازج المجيد الذي يشهد لكم به جميع الذين زاروا الشرق وفي مقدمتهم معتمدو حكومتنا في الخارج بحيث ان كل كاثوليكي شرقي يعد ذاته كفرنساوي وكاحد رعايا فرنسا » . (مجموعة عدد ١١٤ ص ١٩١)

عدد ١٤ ـ من خطاب المسيو ملفيل في مجلس النواب

الفرنساوي في ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦ :

« ان اهالي جبل لبنان المسيحيين الذين حفظتهم العناية الربانية فيه كاحتجاج دائم على الهمجية التي تحيط بهم لم يكونوا قط تحت حكم الباب العالي مباشرة ولم يكن له عليهم سوى سيادة اسمية ... » الى ان قال : « لانكم عند ما عدتم الى الانخراط في سلك الاتفاق الاوربي ماذا فعلتم ؟ انكم تركتم حقوقاً ورثتموها عن تقاليد متقادمة العهد وتمتعتم بها بموجب معاهدات خطية يتصل تاريخها بالقديس لويس ما تخلت عنها الحكومة قط في زمن من الازمان » (مجموعة عدد ١٢٩ ص ٢٤٢ وص ٢٥٠)

عدد ١٥ ـ ومن خطاب المسيو دي لامرتين في مجلس النواب في ١٦ حزيران سنة ١٨٤٦

« طالعوا اقوال فولنـه الذي قضى سنتين بين الموارنة النشيطين المنكودي الحظ فيمثل لكم اسمى الفضائل التي كانت تجمل المسيحيين الاولين مجسمة في شخص اجمل طائفة وانبلها واجرأها ويريكم الشعب الماروني كابدع امة في الشرق يمكن ان تلقح بها شجرة الامة المسيحية .... ومع ذلك قد سمعتم امس واول امس حضرة وزير الخارجية يسألنا السكوت عن مسئلة سورية ... وقد سُئلناه امس واليوم عن الموارنة

الباسلين ولا ذنب لهم الا لكونهم وضعوا آمالهم فيكم ونادوا مستغيثين ومدوا اذرعهم الى فرنسا متوسلين . فهذا هو الشعب الذي سئلتم اليوم السكوت عن امره . » (مجموعة مج ١ عدد ١٣١ ص ٢٦٦)

عدد ١٦ ـ من خطاب الكونت دي كاترباربـ في مجلس النواب في ٦ كانون الثاني سنة ١٨٤٧ :

« ان المفاوضات بهـذه المسألة (مسألة لبنان والموارنة) جارية منذ بضع سنوات . واذا كنا نجهل نتائجها فلأن حضرة الوزير يزعم ان اذاعتها قبل اوانهـا تضر بمصالح الموارنة . فانا لا اقبل هـذه الحجة ... فهل تتنازلون عن سياسة متقادمة العهد انتجها شارلمان وتابعـها القديس لويس وفرنسيس الاول وهنري الرابع ولويس الرابع عشر ونابوليون ؟ (مجموعة عدد ١٣٢ ص ٢٧٢) .

عدد ١٧ ـ من خطاب المسيو بيليو بمناسبـة نفقات سفارات فرنسا في الصيف من السنة نفسها

« اذا كنتم تودون ان تظهروا حقيقة بمظهر المدافعين عن الدين الكاثوليكي كان عليكم ان لا تذهبوا الى الصين بل الى سوريا حيث يوجد شعب محب لفرنسا اعتمد عليها في كل آن وكلما انشبت الكوارث فيه مخالبها لا يستغيث الا بها . »

(مجموعة مج ١ عدد ١٣٣ ص ٢٧٣)

عدد ١٨ ـ من بيان المسيو بول دارو في مجلس النواب في ٣ تموز سنة ١٨٤٧ :

« اعاد الخطيب ما كان يردده المسيو تيز ووزير الخارجية منذ خمس سنوات على مسامع النواب في كل فصل من فصول جلسات الندوة وهو : ان لبنان يوشك ان يبدل حكمه الاقطاعي المماثل لحكم القرون المتوسطة بحكومة مناسبة للتمدن العصري . » (مجموعة مج ١ عدد ١٣٦ ص ٢٧٤)

عدد ١٩ ـ ومن خطاب الكونت دي كاترباب جواباً على البيان المذكور آنفاً

« يا حضرة النواب : لا يوجد لهذه الحالة سوى علاج واحد وهو اعادة امارة لبنان المسيحية الى ما كانت عليه مع دفعها للباب العالي الجزية واعترافها بسيادته الاسمية ...

كلا فما كنتم لترضوا بابادة هذا الشعب المسيحي وقد بقي وحده مدة ٨ قرون مستقلاً حرًا في وسط السلطنة العثمانية في مهد الديانة المسيحية في الاماكن التي لا يمكن ان يخطو المرء فيها خطوة واحدة دون ان يدوس على عظام الفرنسويين ورفاتهم (مجموعة عدد ١٧٣ ص ٢٧٦)

عدد ٢٠ ـ من جواب المسيو ملفيل على البيان المذكور آنفاً في مجلس النواب .

« ان الاتراك بالغائهم الحكم الاقطاعي في جبل لبنان يهدمون في الوقت ذاته ما بقي من اركان الحرية ويجهزون على كافليها الوحيدين ويهلكون الوسطاء الضعفاء الذين كانوا يحولون دون انزال موظفي الاتراك المستبدين المرتشين ظلمهم في الاهلين العزل من السلاح ومن كل وسائل الدفاع »

(مجموعة مج ١ عدد ١٨٣ ص ٢٨١)

عدد ٢١ ـ ومن خطاب للمسيو كريميو النائب الاسرائيلي في مجلس النواب عينه

« اتسكتون والامر متعلق بمسيحيي لبنان ؟ ومن هم هؤلاء المسيحيون ؟ انما هم اخوانكم منذ قرون في المذهب بل في السلاح وساحات الوغى : فقد وجدتموهم في كل الظروف . فالقديس لويس وجدهم من قبل ونابوليون كذلك . فكيف لم يحصل مسيحيو لبنان منكم امام هذين الاسمين الا على اهتمام عقيم ؟ » (مجموعة عدد ١٣٩ ص ٢٨٥) .

ملحق آخر

في بعض ما حصل من التدابير

في سبيل استقلال لبنان الكبير

منذ اشتبكت الدول الكبرى بالحرب العمومية الهائلة في اوائل النصف الثاني من عام ١٩١٤ واشتركت فيها الدولة العثمانية الى جانب الهمج اعداء الانسانية الذين تسببوا بخرابها الذريع على ما هو مشهور اخذ اللبنانيون المنبثون في كل انحاء المعمور حيث لم تغل ايديهم وتكم افواههم يد الظالمين يتحدثون بل اهتمام فيما بينهم بامر مصير وطنهم العزيز فيما لو صحت الامال وانتصرت الامة الفرنسية الباسلة وحلفاؤها على اولئك الطغاة الذين روعوا العالم اجمع بما ساموه من الرزايا والفظائع .

وكانت النفوس واجفة والقلوب مضطربة اشد الاضطراب لان الحرب كانت سجالاً وكان اهل التقى يضرعون الى الله بكل حرارة على الدوام لاجل كف يد غضبه عن البشرية ونصر الحق على الباطل . واكثرهم يعتقدون في باطنهم ان فرنسة ستخرج باذن الله من هذه المعامع والمجازر التي لم يسبق

لها نظير ظافرة هي وحلفاؤها الكرام لانها من جهة مظلومة والله على الباغي ومن جهة اخرى محبة للانسانية ونصيرة في كل اين وآن للمظلومين من قديم الزمان فلا يصلح الدنيا بعد هذا الخراب سواها والله شفوق رحيم متى اراد ان يرضى عن العالم ويكف عنه يد الغضب الثقيلة يقيض له لا محالة بحكمته السامية من هو اجدر باصلاح ما افسدته الزوبعة التي سمح بها وبما سببت من الخراب .

وعلى هذا الاعتقاد كان اللبنانيون كغيرهم من الامم المظلومة يشتغلون آناء الليل واطراف النهار في مايعود بالسعادة بعد ذاك الظلم وهذه الحرب الضروس على وطنهم العزيز من كل وجه متى وضعت الحرب اوزارها . وقد تفرقوا في هذا السبيل احزاباً وكل حزب يرى السعادة من وجه . ولكنهم كانوا يرمون باجمعهم الى غرض واحد وهو استقلال لبنان بعد توسيع نطاقه حتى يصير كافياً لاهله بكل معنىً . غير انهم قد اختلفوا في امر هذا الاستقلال فمنهم من كانوا يطلبونه تاماً مطلقاً دون اقل سيطرة اجنبية ايا كانت . ومنهم من يتطلبونه نوعياً او داخلياً تاماً تحت رعاية احدى الدول الكبرى او حمايتها او سيطرتها او مساعدتها الى غير ذلك من الكلام الذي كان يفسره كل فريق على ايثاره . والذين على هذا الشكل

منهم من كان يطلب دولة فرنسا : ومنهم دولة انكلترا : وآخرون دولة الولايات المتحدة الاماريكية : وغيرهم دولة سورية العربية المستقلة وهومطالب جمهور كبير من السوريين : وهذاما كان ينفر منه ويحاربه اكثر الاحزاب اللبنانية اوكلهم الا حزب ضعيف منهم لاغراض ذاتية او لجر مغنم خصوصي دون التفات الى المصلحة العمومية

فنحن كنا من اول الامر على وجوب استقلال لبنان بعد توسيع نطاقه تحت رعاية دولة فرنسة الكريمة والمحبوبة وقد تحدثنا بهذا المعنى مع حضرة صاحب السعادة المسيو جورج بيكو الذي كان قنصل فرنسة العام في سورية وقد خرج من بيروت الى مصر يوم شهرت الدولة التركية الحرب مع المانيا على فرنسا وحلفائها . وفي اوائل سنة ١٩١٥ اجتمعنا به في مصر القاهرة مرارًا وتحدثنا ملياً في امر بلادنا ومساعدته في ابان الحرب ثم في امر مصيره وقد اتفقنا على خطة مثلى وعد بمتابعتها لانها اوفق الخطط في سبيل مصلحة الوطن العزيز في الحال والاستقبال . وقد ذهب الى باريس لاجل الاشتغال مع اولي الشان توصلاً الى هذه الغايات النبيلة . وكان بعد ذلك ما كان من هذا القبيل مما لاحاجة لذكره في هذه العجالة .

واذ تقررت الامور على ما يرام وتم الاتفاق بين دولتي

فرنسا وبريطانيا العظمى في امر مصير سورية ولبنان منذ اوائل سنة ١٩١٦ وهو المشهور باتفاق سايكس بيكو وقد اذيع ذلك رسمياً في باريس بحفلة حافلة عقدت في ردهة اللجنة البرلمانية للشؤون الخارجية في ٢٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٩١٧ . بحيث لم يبق من مجال للتقولات والتأويلات من جهة تفويض وطننا العزيز الى عناية فرنسة المحبوبة بعد النصر المبين كمأمول الامم المظلومة : قد اقترح علينا صديقنا الهمام المسيو شكري غانم رئيس اللجنة السورية المركزية في باريس ان نقول كلمتنا للبنانيين في المهاجر بهذا الشأن بمقالة تنشر في جريدة « المستقبل » لسان حال هذه اللجنة لعلها تأخذ مفعولها من العقول وتوفق بين الاحزاب اللبنانية وتعمل على توحيد الكلمة لاجل السعي في سبيل المصلحة الحقيقية بالطرق المفيدة فعلاً . فلبينا طلبه عن طيب خاطر و كتبنا مقالتنا المشهورة « في مستقبل لبنان المقرر » فنشرها في جريدته الغراء المشار اليها . وقد ترجمت ونشرت بالافرنسية ايضاً في بعض جرائدهم فصادفت استحسان ذوي الشأن وكان لها صدى حسن عند اكثر اللبنانيين في كل انحاء المهاجر . وهي كما يلي :

مستقبل لبنان المقرر

منذ اوائل سنة ١٩١٥ قد اخذت المسألة اللبنانية دوراً جديداً قبل اوانها : فشرع اللبنانيون في كل اطراف المعمور يفكرون في ما تأول اليه حالة لبنانهم العزيز من الحكم بعد هذه الحرب الضروس : اذا صح اخراجه مع كل سورية من حكم الاتراك الظالم بانتصار الحلفاء المأمول على الالمان وانصارهم .

الا ان سكان هذا الجبل المبارك واهل جواره المقيمين لم يكن همهم اذ ذاك الا في دفع الارزاء والمظالم التي نالتهم من ظلم الاتراك واسيادهم الهمج واحتمال كل ضروب الحيف التي حلت بهم حتى القتل والنفي والمجاعة الذريعة التي فتكت حتى الان باكثر من ثلثيهم على ما هو مقرر عن ثقة . ولم يكن لهم قِبَل وهم عزل في درء هذه المصائب بالقوة وقد احكم ظلامهم حصرهم من كل ناحية وتحكموا بهم حتى ادركوا منهم كل مأرب من هذا القبيل على ما هو مشهور .

الا ان اولئك الطغاة لم يستطيعوا مع ذلك ان يؤثروا اقل تأثير على عواطفهم وميولهم الباطنية وآمالهم المغروسة والجارية مجرى الدم في عروقهم من جهة حبهم لفرنسا الشريفة وانتظارهم الفرج العاجل من لدنها : الا وهي امهم الرؤوم التي لم يتعودوا من قديم الدهر ان يطلبوا وينالوا الخير من سواها . ولهذا كانت انظارهم وقلوبهم تتلفت ليل نهار نحو البحار حتى اذا رأوا بعض الصور الوهمية التي تكونها الغيوم عادةً في آخر مرمى النظر

ظنوها اساطيل الفرنساويين المظفرة مسرعة لانقاذهم : فهللوا وكبروا وطارت نفوسهم اليها من شدة الفرح فلا يعتمون ان يتحققوا ما كانوا به من الاحلام فيتولاهم اليأس الشديد بسنة رد الفعل . وقد شهدنا نحن بنفسنا مثل هذه الروايات المؤثرة اذ كنا هناك بعد دخول تركيا الحرب الى آخر سنة ١٩١٤ حيث سهلت لنا العناية الصمدانية العود الى مقرنا هذا . وقد نجا بعد ذلك اشخاص عديدون من مخالب الموت بطرق شتى وكلهم كانوا يروون لنا مثل هذه الرواية الشعرية المؤثرة على نمط واحد: ولا تزال تبلغنا الاخبار تترى بهذا المعنى .

فهذه بمنتهى الايجاز حالة اللبنانيين المقيمين في هذا الجبل التاعس على الضيم والشقاء ، وهم حتى الان فريسة الموت الاصفر الذي لا يزال يفتك بهم فتكاً ذريعاً حتى كاد يفنيهم لاجل حبهم القديم لفرنسا وميلهم المستديم اليها الذي ينظر اليه الاتراك بعين الغضب والغدر والكيد : مما يحملهم على مثل هذا الانتقام الفادح . وقد اشتهر قولهم لهؤلاء اللبنانيين المساكين بمنتهى التهكم والشماتة — اين الفرنساويون الذين جعلتم كل اتكالكم عليهم ؟ فليأتوا لخلاصكم ان كانوا قادرين . . . ولكن هبوا انهم فازوا في هذه الحرب وهو محال فاننا عازمون اذ ذاك الا نسلمهم البلاد الا خراباً يباباً . فما تكون فائدتهم من الصخور والاراضي البور ؟ وما فائدتكم انتم بعد الفناء ؟ . . .

فهؤلاء في نظرنا هم اولى اللبنانيين في تقرير مصيرهم بعد ان تضع الحرب اوزارها واختيار الطريقة المثلى لحكم بلادهم في المستقبل اذا خيروا . وكلامهم وعواطفهم واميالهم اولى بالاعتبار متى انتصر باذن الله الحلفاء الكرام على الهمج الطغام ووضعوا اغراضهم الشريفة من جهة تحرير الشعوب الضعيفة موضع العمل .

هذا ونحن لا ننكر مثل هـذا الحق على اللبنانيين الذين في خارج لبنان ممن لم يشعروا باثقال هذه الحرب الشعواء الا الماماً بقدر ما يصل اليهم من اخبارها المزعجة : غير اننا نقول ان اول ما يقضي بـه عليهم واجب الوطنية انما هو بذل كل مـا في وسعهم لاجل تخفيف هذه الويلات عن اخوانهم الثاوين في ظلال الموت من كل الطرق التي لو قصدوا باخلاص نية واجتهدوا الاجتهاد الجدي المطلوب لما فاتهم ادراك بعضها : والا فيكون لهم مجال واسع للعذر تجاه ضمائرهم ولدى اقرانهم الذين يعيشون بينهم واهل وطنهم البائسين المساكين ·

ولكننا مع شديد الاسف لم نرَ حتى الان شيئاً من ذلك الا القليل الذي لا يذكر في جانب هذه المصائب : وكان الاولى بالذين يدعون حب الوطن والحنان اليه والشفقة عليه والحق بالتحكم في امر مصيره لاجل سعادة اهله في المستقبل الموهوم ان يصرفوا جل همهم وعنايتهم الى هـذه الغاية القريبة · كما يصنع جميع الامم الراقية بالنظر الى المنكوبين من ابناء جلدتهم الذين عضهم ناب الدهر واناخ عليهم بكلكله بسبب هذه الحرب الغاشمة · وبعد ان يقدموا الادلة العملية على مثل هذه العواطف الشريفة اسوة باهل الفضل والشهامة الذين بين ظهرانيهم لا بأس من ان ينصرفوا الى الغاية القصوى وهي السعي الحثيث لهاتيك السعادة البعيدة : اي النظر اولاً في تحسين مرافق اهل البلاد التي يحبونها على ما يبلغ بهم الى زيادة التهذيب والرقي · ثم في العوائق الحقيقية الداخلية التي كانت تحول حتى الان دون فلاحها ومتى ادركوا الداء تداركوه بالدواء الشافي شأن الطبيب الحكيم الذي يهمه اولاً حفظ حياة مريضه فيبذل جهده في سبيل انعاشه وتقويته على مكافحة المرض حتى يبلغ الى الحياة التامة التي يرى بها سعادته الحقيقية ·

ولكن ما لنا الان ولهذا الموضوع الواسع الذي تضيق دونه هـذه العجالة وهو عنـد اهل الذكاء والذوق السليم من باب تحصيل الحاصل · فسبيلنا اذاً ان نقصر كلامنا على الموضوع الرائج هذه الايام فانه اوقع في الاذهان واقرب الى الفائدة · وانمـا قد شط بنا القلم في ذاك المعنى الاليم لشجيٍّ في النفس منه ووجد مذيب في القلب طارت منه شرارة الى هذا القرطاس فكادت تحرقه ·

* * *

لقد وردت الينا الكتب تترى منذ اوائل هـذه الحرب ولم تزل ترد الينا من بعض اللبنانيين الاعزاء في جميع انحاء المعمور بالسؤال عن الخطة المثلى التي نرى من الواجب تحديها بالنظر الى مصير لبنان الوطن المحبوب بعد انتصار الحلفاء المطلوب وانقاذ سورية من نير الاتراك الظالم وتحريرها من سيطرتهم الاستبدادية · فكنا نجاوب الجميع بكل صراحة بما معناه : ان ما يوافق اللبنانيين انما هو :

اولاً توسيع حدود هذا الجبل من البر والبحر حتى تصبح كل مرافقه كافية لسكانه من كل وجه · لان ارضه من جهة قد ضاقت على اهـله الكثيري العدد حتى تكاد لا تكفيه مداخيلها مع شدة الاقتصاد الا مدة شهرين او ثلاثة على الاكثر · وهذا مما دفع باكثرهم الى المهاجرة حتى صار الذين منهم في خارجه اكثر من المقيمين فيه · ومع هذا لم يزل ضيقاً على هؤلاء : ولولا ما يرد اليهم من المدد المالي كل سنة من ذويهم الذين في المهجر لزادت حالتهم سوءا وهجروه هم ايضاً نظير اخوانهم : حتى لا يبقى فيـه غير النزر القليل من اصحاب البيوتات والاملاك الواسعة (وهم اقل من ان يذكروا) والذين لهم موانع طبيعية تحول بينهم وبين المهاجرة

وشاهد ذلك قريب المتناول فان سكان هذا الجبل بعد دخول تركيا في الحرب قد انقطع عنهم هذا المورد المالي من الخارج وحصرتهم تركيا الظالمة في جبالهم بالقوة القاهرة فمات اكثرهم جوعاً في الحقول المجدبة وعلى الطرقات ومات العجز منهم في بيوتهم · حتى ان قرى كثيرة قد خوت وخلت من سكانها فصارت مأوى لسباع الوحش التي وجدت قرىً ضافياً من جثث هولاء المساكين الذين لم يبقَ من يواريهم الثرى بعد الموت ·

فمن الضروري إذن الاحتياط لهذه الحالة في السراء والضراء اذا اريد انصافهم بحجة رفع الحيف والظلم عن الشعوب الضعيفة · والا فلا معنى للحرية التي ينشدونها ولا للحكم الذاتي بالاستقلال الذي يتطلبه بعضهم ·

ومن المعلوم ان حول هـذا الجبل من كل جهة سهول واسعة من اخصب اراضي الدنيا كسهول بعلبك والبقاع وغيرها مما يحسب بكل صواب من لبنان جغرافياً · وهي تكاد تكون مهملة بسبب قلة سكانها واليد العاملة فيها بحيث ان الكيلومتر المربع منها يقسم على عشرة او خمسة عشر شخصاً على الاكثر من سكانها بالنسبة الحسابية · مع ان كل جبل لبنان بحدوده الحالية وبما فيـه من نجود ووهاد وصخور واراضي مجدبة لا تصلح للاستثمار بوجه من الوجوه يقسم فيه الكيلومتر المربع على اكثر من مئة شخص بالنسبة الى عدد سكانه · ومن ثم فليس له مثيل في كل المعمور من هذا القبيل ، وهـذا منتهى الظلم الذي يجب ان يطلب كشفه عنهم قبل كل شيء اذا كان لهم حق بالحياة فيه ·

ثانياً المحافظة على حقوقهم وامتيازاتهم التي لهم مذ الدهر وقد تحورت بدستورهم الخاص الذي وضع لهم بعد شدة سنة ١٨٦٠ بمعرفة الدول الكبرى وضمانتها لسلامته وصيانته · وهذه ايضاً يجب تنقيحها وتحويرها على ما يوافق مقتضى الحال في هذه الايام والظروف التي لا بد من حدوثها

بعد هذه الحرب بحيث يكون هـذا النظام الجديد باعثاً على رقيهم في معارج الحضارة الحقة بنسبة سائر الامم المتمدنة على قدر مـا تسمح به احوالهم واهليتهم : ومنتجاً للوفاق والالفة والولاء الدائم بينهم وبين جيرانهم من كل جانب :

وهذا لا يتم لهم على ما نعتقد الا بعناية احدى الدول الكبرى : ونرى بعين العقل المجردة عن الهوى ان هذه الدولة المطلوبة لهذه الغاية انمـا هي الدولة بل الامة الفرنساوية الشريفة باسرها كيفما تقلبت عليها الاحوال والظروف ، فهي وحدها التي لهـا عطف خصوصي عليهم من قديم الدهر وبينها وبينهم علائق تاريخية راهنة ولدت بين الفريقين عوامل مودة تكاد تكون طبيعية : بحيث لا يعتورها امر من الامور الخارجية ايا كانت ولا تمحوها صروف الايام : بل هي ثابتة على الدوام ثبوت اللحم والدم فيهم وفي اولادهم الى ما شاء الله · امـا من جهة هذه الامة الكريمة فمن قبيل المروءة والشهامة وشرف النفس ومكارم الاخلاق مما لا يسمح لها ان تهمل شعباً ضعيفاً لاذ بجماها : ورضيت هي ان تتخذه تحت ظل حمايتها فبذلت له رفدها وعونها على الدوام من كل وجه : حتى حافظت على كيانه وصار على نوع ما كانه ميراث لها عزيز لديها : وقد عرفت لهـا هذه المزية عند الجميع · واما من جهتنا فمن قبيل الواجب الشرعي ومعرفة الجميل الذي ولد فينا من كبيرنا الى صغيرنا هـذا الميل الشديد وهذه المحبة الراسخة والصلة الطبيعية بمصدر حياتنا المعنوية التي بلغت بنا الى هذا الحد من الثبات وعزة الجانب في كل اين وآن ·

فهذه اذن هي دون غيرها الامة التي يجب ان ننظر اليها بعين الامل وننتظر منها مثل هذه العناية حتى تنولنا كل هذه المرافق المطلوبة وتحافظ على كياننا وحريتنا وتسير بنا في سبيل الرقي الحقيقي المبتغى · لانهـا هي

وحدها التي رمقتنا حتى الآن بعين عنايتها في الشدة والرخاء وعذتنا بافاويق حضارتها البديعة وبذلت كل ما يمكن بذله في لبنان وخارجه لاجل مد حمايتها على كل لبناني لجأ اليها عند مسيس الحاجة . ولنا على صحة ذلك شواهد راهنة من قديم وحديث نضرب عن ذكرها صفحاً لشهرتها ولان ليس لها من محل في هذه العجالة .

فمن الواجب اذاً على كل لبناني يهمه امر وطنه وسعادته في كل حال ان يتوخى هذا الامر المهم من فرنسا الام المحبوبة ويستلم لها بكليته وينظر اليها نظر من ليس له امل بسواها . وهي اذ ذاك تسعى سعيها الموفق لاجل تنويل وطنه مثل هذه المرافق الضرورية لحياته الحسنة من الاوجه الراهنة التي تبلغ بها وبه الى هذه الغاية الحميدة بلا محالة .

فهذا كان رأينا على الدوام في هذا الموضوع . وقد جاوبنا كل الذين سألونا عنه في كل مكان وزمان مشافهة او كتابة بهذا المعنى نفسه : ولم ننفك ولن ننفك عنه مدى الدهر لاننا نراه اوفق لخير الوطن ومصلحته الحقيقية الدائمة من كل وجه . وقد بثثنا به ايضاً لذوي الشأن ممن اسعدنا الحظ بالوصول اليهم من رجال فرنسا الكرام منذ اول الامر : فتلقوه بكل ارتياح قبل ان توضع هذه المسألة على بساط البحث ووعدونا خيراً في امر تحقيقه دون سواه عند الاقتضاء .

***

ولقد تضاربت بعد ذلك الآراء وكثر التفرق والشغب بين الجاليه السورية في كل انحاء المهجر . فاتفق السوريون واللبنانيون معاً في بعض المحال عن خطة سوية عمومية توفق بين مطالب الفريقين . واختلفوا في محال أخرى وكان كل فريق منهم يرمي الى غرض متباين في الظاهر متلائم في المعنى . فكانت خطة الاولين اقرب الى الصواب لانها جمعت الكلمة

ووحدت السعي الى الغاية المقصودة بحيث ينال كل فريق في آخر الامر ما يلائم قومه بحسب ظروفهم واحوالهم الخاصة ولكن تحت حماية فرنسا ورعاياتها (١)

وانفرد نفر قليل من اللبنانيين برأي مبتسر وخطة مختلفة بعض الاختلاف من حيث طلب الاستقلال المطلق تحت ضمانة جميع الدول الكبرى بالاشتراك فلا يكون لدولة منها من حق ممتاز عليهم دون الاخرى وقد اسمع هؤلاء ايضاً صوتهم بما رفعوه من التقارير والمذكرات بهذا المعنى الى الحلفاء والمحايدين : وهم يدعون اعتباطاً انهم انما يطالبون بذلك بلسان كل اللبنانيين قاطبة في كل انحاء المعمور : مع ان واقع الحال يكذب دعواهم هذه . وتحت يدنا الآن شواهد جمة راهنة ممن يعارضهم في رأيهم هذا نقتصر منها على ايراد خطة الجمعيات دون الافراد المهمين الذين شافهونا وكاتبونا مراراً بهذا المعنى نفسه وهم كثيرو العدد من كل مقام وطبقة حذراً من الاطالة المملة :

فمن كتاب ورد الينا من رئيس جمعية « النهضة اللبنانية » في الولايات المتحدة بتاريخ ٢٣ آب سنة ١٩١٧ قوله بعد كلام طويل بالحرف الواحد « فيا سيدي انني كتبت الى المنسنيور فارس في باريس والى المطران نعمة الله كرم في رومية والى نجيب مكرزل في باريس وكنت ابرقت الى

(١) بعد كتابة هذه السطور وقفنا في العدد ٩٤ من جريدة « المستقبل » الغراء التي تصدر في باريس وهو بتاريخ ١٠ فبراير من هذه السنة على « بيان المسيو شكري غانم » صديقنا الشهير الغيور جدا على وطنه ومقامه في عالم الادب والسياسة اشهر من ان يعرف : وفيه بعد مقدمة بديعة له بهذا المعنى « نظام الجمعية السورية المركزية » التي كان من اهم مؤسسيها في عاصمة الافرنسيين وهو الآن رئيسها المفضال : فوجدنا بكل سرور خطتها المثلى من هذا القبيل . وهي ذات قول وعمل وفقها الله الى كل خير

المسيو « ريبو » باسم النهضة اللبنانية — التي لي الشرف بان اكون رئيسها الدئم واعضاؤها سبعة آلاف في الولايات المتحدة وخمسة وعشرون الفاً في العالم الجديد — كنت ابرقت اليه يوم عقد مؤتمر الحلفاء ابسط مطالب اللبنانيين وانهم يطلبون « الاستقلال التام تحت رعاية فرنسا » وانا الآن كاتب اليكم بقلم غمسته في سويداء القلب لاتوسل اليكم ان تسعوا في مصر وفي باريس وفي رومية لانالة لبنان — استقلاله التام تحت رعاية فرنسا — »

ذلك فضلاً عما جاء في كتاب سابق ورد لنا منه بتاريخ ٩ تموز من السنة نفسها به يقول ما حكايته الحرفية « قرأت كتابكم الاخير لمن ادعوه الجذوة وهو الاب فرنسيس واكيم ... ولما كان الحلفاء كلهم على مبدأ تحرير العناصر والشعوب الصغيرة — واللبنانيون منها — وجب علينا الاتحاد على الاستقلال دون سواه تحت « رعاية فرنسا » فنكون تحررنا وخدمنا الدولة المحسنة الينا النصيرة » اه

ثم من كتاب آخر ورد الينا من صاحب جريدة الشعب في نيويرك (وهي لسان حال جمعية سورية لبنانية هناك) بتاريخ ١٣ تشرين الاول سنة ١٩١٧ ما مؤداه حرفياً « اطلعني سيادة المفضال الخوراسقف خيرالله اسطفان على كتاب سيادتكم الجامع الشامل بشأن مستقبل اللبنانيين عموماً ... فوقع مني موقع الارتياح لانه ينطبق كل الانطباق على خطة جريدة الشعب . وقد عقدت فصولاً كثيرة في هذا الموضوع اثبت فيها ... ان لا سبيل لنجاتنا من مظالم الترك وتحريرنا من نيرهم الثقيل بغير مساعدة فرنسا المحبوبة التي حمتنا في الماضي وهي اليوم عازمة على انقاذنا وحمايتنا بالرغم عن نهوضها باثقل اعباء الحرب الاوربية ... ومن غريب الاتفاق ان كل ما ذكرتموه سيادتكم في كتابكم ذكرته في كتاباتي واشرت

الى المنافع التي نحصل عليها من حصولنا على الاستقلال النوعي الواسع « تحت حماية فرنسا المحبوبة » ... وافهمت اخواني انه يجب عليهم ان يكونوا واثقين بفرنسا وغير معولين على المضللين المتاجرين بهم المسودين صحيفتهم في عينها » اه

ثم من كتاب آخر ورد الينا ايضاً بتاريخ ٢ كانون الثاني اول السنة الجارية من جمعية « النهضة اللبنانية » بسان باولو في البرازيل ما يلي حرفياً بعد المقدمة « نعرض ان غاية هذه الجمعية كما تعلمون — استقلال لبنان ضمن حدوده الاصلية تحت حماية فرنسا — وهذه الغاية يقتضي ادراكها توحيد كلمة اللبنانيين بتوحيد كلمة جمعياتهم العديدة وتوسيع مساعيها واعمالها المستمرة ... ولاجل توحيد الكلمة والمساعي والاعمال وادراك هذه الغاية ... رأينا من الضروري عقد مؤتمر لبناني تشترك فيه كل نواب جمعياتنا ليضع خطة للعمل المشترك .. » اه

فهذه نتف مما ورد الينا من سائر الجهات وكلها ترمي الى غاية واحدة تخالف في جوهرها رأي هذا الفريق الشاذ فاين ذلك من دعواه بان كل اللبنانيين انما هم على رأيه وانه انما يتكلم بلسانهم وبالنيابة عنهم ؟

***

ومع هذا لم يبقَ مجال للجدال وقد قطعت جهيزة قول كل خطيب . نزيد بذلك ما تقرر مبدئياً ونهائياً في امر مصير سورية ولبنان بعد تحريرهما من النير التركي الثقيل بين الدولتين المتفقتين اتفاقاً حبياً وثيقاً المتحالفتين على الخير رحمة بالانسانية المظلومة نريد بهما فرنسا الشريفة وبريطانيا العظمى الماشيتين بكل فخر كتفاً الى كتف في هذه الحرب الشعواء حرب تحرير الامم من ربقات الاستبداد والاستعباد المذموم . وقد صُرّح به واذيع على رؤوس الملأ حتى لم يدع مجالاً للقال والقيل في الحفلة التاريخية العظيمة

الشأن التي عقدت في ردهة اللجنة البرلمانية للشؤون الخارجية في باريس البديعة عند الساعة السادسة من مساء الاحد الواقع في ٢٣ دسمبر (كانون الاول) ختام السنة المنصرمة . على ما جاء باستفاضة في العدد ٩١ من جريدة « المستقبل » الغراء الذي صدر في ١٠ يناير (كانون الثاني) من هذه السنة الجارية : وذهب صداه بين سمع الارض وبصرها .

ونحن نأتي هنا على سبيل الذكرى بفقرات من ذلك التصريح العظيم الشأن مما يلامس موضوعنا لاجل صحة البرهان والاستنتاج المنطقي الرائع :

فقد قال السر مارك سايكس مندوب الحكومة الانكليزية الى الحكومة الفرنساوية المفوض بانجاز المهام السياسية المتعلقة بالمسألة السورية في خطابه الذي القاه في هذه الحفلة الرسمية مصرحاً تصريحاً ليس بعده من ريب لمستريب ما حكايته :

« اولاً — ان بريطانيا العظمى وفرنسا متفقتان تمام الاتفاق في سياستهما بما يتعلق بالبلدان غير التركية في السلطنة العثمانية

« ثانياً — لا خلاف بين الدولتين ولا تناقض . . . »

ثم استتلى قائلاً

« فالبند الاول والثاني (وهما المذكوران آنفاً) يضعان حداً للاعتقاد الشائع بين الاحزاب التي تميل الى انكلترا وبين الاحزاب التي تميل الى فرنسا » .

الى ان قال

« وحالة الامور الحاضرة تنطبق في الجملة على الرغائب السورية التي تعود في مجموعها — ولست اتردد في هذا القول — الى حكم يقدر الشعب معه على استثمار البلاد بسلام فتكون له مدنية خاصة به ولا

يكون مع ذلك عرضة للظالمين في حالتيه السياسية والاقتصادية »

الى ان قال

« ولنفرض ان الحلفاء خلصوا سورية ولم يكن الشعب على وفاق — واعني بذلك قواد الشعب المفكرين — فماذا يكون حينئذٍ ؟ سينبسط عليكم اذا لم تتحدوا ظل حكم تجبرون على قبوله . ومثل هذا الحكم ليس له طول امد حكم غير مرغوب فيه ولا استقرار له . واني ارى سورية حينئذٍ سائرة في سبيل الحياة وعليها حكومة لا تصلح لها يتناولها الاضطراب الداخلي والفتن »

الى ان قال وقوله هذا فصل الخطاب

« ثم يجب ان تنتظروا من فرنسا ان تأتيكم بالمساعدة التي لا غنى للشعب المظلوم عنها . وهو في حاجة اليها كي يقدر على السير بنفسه في طريق الحياة . وينبغي ان تتطلبوا ضمانات من الدول المتمدنة في العالم لئلا تخضعوا مرة اخرى لحكم الاتراك الذي صار بكم الى الفقر والى الشقاق » اه

أفليس في هذه التصريحات الوسمية جل مطلب اللبنانيين من حيث استقلال لبنان التام تحت رعاية فرنسا ؟ ثم اليس فيه من التحريض على الالفة والاتفاق بين العناصر السورية ما لم يذر محلاً للتباين والتشاكس والتنافر ؟ بل اليس فيه ما يدعو الى التضامن والتكاتف وتوحيد القول والعمل توصلاً الى الغاية الحميدة التي تقصدها هاتان الدولتان العظيمتان فينا لنرقى في مراقي الحضارة ونبلغ شأو الامم المتمدنة بعد ان نتخلص من الظلم والضغط والاستبداد وننبذ اسباب الشقاق المذموم ونوثق اواخي التآخي المجرد عن كل عامل من عوامل التعصب المشؤوم ونتفق على مبادئ الديموقراطية الحقة ؟ ان ذلك كله يستدعي لنا مهذبين ماهرين

يشذبون من اخلاقنــا كل فرع مضر مما يؤثر على نمونا الادبي ويقلل من ازهارنا الجميلة وثمارنا الطيبة حتى نصير اهلاً للقيام بذاتنا · اما اذا تركتنا وشأننا ونحن على هذه الحال فلا سبيل الى الفلاح · وبدلاً من ان نترقى في بستان الحضارة فاننــا نرجع القهقرى حتى نصل الى آخر دركات الجهل كما لا يغرب عن ذي بصيرة ·

فلا نخدعنَّ انفسنا ولنتق الله في الحكم على حالتنا ولنكن مخلصين نحو قومنا ووطننا المحبوب ونحو بنينا واحفــادنا الى ما شاء الله · ولنقبل الدواء الشافي بكل طيبة خاطر اذا اردنا ان نستفيــد من هذه الظروف الحسنة النادرة المطلوبة ونبلغ الى الحياة الطيبة التي لا يعتورها من اعتلال · اما اذا لم تنجع فينا هذه النصائح وبقينا على ما نحن عليــه من الدعوى والخلاف فانه سينبسط علينا (كما قال السر مارك سايكس) ظل حكم نُكره على قبوله ولا ندري متى يصح لنــا ان نستبدله بسواه مما يوافق امانينا ·

اجل ان السر مارك سايكس لم يأت على حدة على ذكر استقلال لبنان وتوسيع حدوده كما هو غرض كل لبناني في العموم : ولكنه بتصريحه هذا عن ترك دولته العظمى امر تدبير سورية بجملتها الى دولة فرنسا المحبوبة قد قال كل شيء من هــذا القبيل تضميناً : لان المقام لم يكن ليسمح له بالتفصيل · وقــد ترك ذلك الى حكمة فرنسا وارادتها دون ان يقترح عليها اقل اقتراح مما يلامس طريقة التصرف والتدبير · وهذا ما يقضي به الذوق السليم كما يرى المتأمل ·

وليس من منكر ان لبنان انمــا هو جزء من سورية ممتاز من قديم الدهر باستقلاله النوعي عنهــا · ففي تركه امر تدبير سورية الى فرنسا وحدها قد ترك لها الحرية ايضاً في امر تدبير لبنان على مــا تراه اوفق

واصلح لاهله ورقيهم المبتغى · ونحن نعلم حق العلم عن ثقة تامة ان لفرنسا الكريمة عطفاً خاصاً واهتماماً ممتازاً اونية صالحــة جداً في امر لبنان واللبنانيين · وان في عزمها الاكيد ان تعمل بكل مــا اوتيت من الحق والقوة لاجل المحافظة على امتيازات لبنان واستقلاله بعد توسيع منطقة حدوده على ما يضمن له الحرية التامة والسعادة الدائمة في مستقبل الحين بما هو اوسع وارسخ مما نتصور ونتمنى · وقد صرَّح لنا ولغيرنا مراراً بذلك حضرة المسيو جورج بيكو المعتمد الفرنساوي الاعلى الذي عهد اليه منذ الآن تدبير هذه الامور المهمة في حينها بحيث لم يبق من مجال للريب ·

ومما يجب الانتباه اليه انه اذا لم تتولَّ امر تدبير سورية ولبنان دولة كبرى كالدولة الفرنساوية الشريفة وتدبر شؤونهما بما اوتيت من الحق والحكمة والعطف القديم العهود عليهما فمن ذا الذي يبلغ باللبنانيين خاصة الى ما يتمنونه ويتوقون اليه ويتطلبونه من هــذا القبيل ؟ واي امل لهم بتحقيق آمالهم والحصول على امانيهم هذه الشريفة وهم بذاتهم غير قادرين على اقل شيء من ذلك ؟ ومن يا ترى يذود عن حقوقهم وامتيازاتهم وحدودهم واستقلالهم المطلوب في مستقبل الحين ويسد حاجتهم القصوى الى كل اسباب الرقي والحضارة من مالية وفنية حتى يتمتعوا بهذا الاستقلال المنشود على هذا الوجه المقصود ؟

ان فرنسا التي اشتهرت من قديم الدهر بحب الانسانية : وسنَّت للعالم شريعة الحرية والمساواة : وبذلت مجاناً كل مجهودها في سبيل رقي الامم على مــا هو معروف عند كل احد : واختصت اللبنانيين بعطفها وحمايتها طول الامد : وحافظت على صلاتها وتقاليدها التاريخية الراسخة نحوهم في كل الآونة بعزم لا يني وحمية لا تكل ولا تمل : كما تثبت تواريخها وتواريخنا الراهنة لهي احق واولى بثقتنا وتعليق كل آمالنا عليها :

وان ننتظر منها دون سواها تحقيق مثل هذه الاماني وان نلقي انفسنا بين ايديها كأم رؤوم تعطف على بنيها عطفاً طبيعياً بكل حنان وتتوخى سعادتهم الحقيقية من حيث لا يدرون وتعنى حق العناية بتنويلهم اياها من وجوه لا يدركونها ولا يحلمون بها .

ولنرجع الآن الى ما كنا بصدده

ومن بعد خطبة السر مارك سايكس المشار اليه نهض حضرة المسيو « جان غو » الناظر المفوض اليه تمثيل الحكومة الفرنساوية في هذه الحفلة عينها وقال ما مؤداه بكل دقة :

« انه ليسرني ان اؤكد لكم — برخصة من وزير خارجية الجمهورية — بعد النصائح التي سمعتموها من فم السر مارك سايكس ممثل الامة الحليفة — ان فرنسا وانكلتره متفقتان تمام الاتفاق على تحرير الشعوب غير التركية من النير التركي في آسيا الصغرى : مهما كانت اديان هذه الشعوب واجناسها : وعلى تهيئتها لمستقبل احسن من ماضيها »

« وقد صممت الدولتان الحليفتان — بعد طرح كل فكرة ترمي الى السيطرة الاستعمارية — على هداية الشعوب التي تتكلم العربية وغيرها من اللغات والساكنة في الربوع التي تمتد من الجبال الاناضولية الى بحر الهند : وعلى السير بها في طريق الاستقلال بالحكم وفي سبيل الحضارة — مع احترام العقائد الدينية وحقوق الوطنيات »

وستعمل كل من الدولتين في منطقة نفوذها . وسيكون الدور الذي ستمثله فرنسا وانكلترا دور الدليل لتحسين المستقبل ودور الحكم بين الجماعات الدينية والجنسية . والاولى (اي فرنسا) مستعدة للقيام بهذا الدور في الشمال . والثانية في الجنوب »

« اننا نرغب في ان يحيط مواطنوكم كلهم علماً بهذا الاتفاق الولائي

المعقود بين الدولتين الحرتين الكبيرتين حتى يقدروه حق قدره ولا سبيل الى تحقيق مستقبل مجيد — وقد اهلتكم اليه عذاباتكم الماضية وثقتكم بمصائر وطنكم — الا بالاتفاق ونبذ الشقاق الناتج عن حكم الاتراك » اه

فمن هذه التصريحات الرسمية يرى كل لبيب ان قد قضي الامر بحيث لم يبقَ من مجال للتباين والجدال والتحزب والاختلاف . فان الذين سيحررونا من نير الاتراك بقواتهم ومجهوداتهم وعنايتهم الفعلية قد اتفقوا تمام الاتفاق منذ الآن على منطقة نفوذ كل فريق منهم وعلى الخطة التي يتبعونها ويبدأون على وضعها موضع العمل . فاصاب فرنسا من ذلك منطقة سورية ولبنان وهي قد صرحت تصريحاً ليس بعده من ريب انها « قد طرحت كل فكرة ترمي الى السيطرة الاستعمارية » وانها « ستسير باهل هذه البلاد في طريق الاستقلال وسبيل الحضارة مع احترام العقائد الدينية وحقوق الوطنيات » وانها « ستمثل في هذا الامر عندهم دور الدليل لتحسين المستقبل ودور الحكَم بين الجماعات الدينية والجنسية »

فيظهر باقل تبصر لكل لبيب منزه عن الهوى من هذه التصريحات وخاصة من قوله « احترام العقائد الدينية وحقوق الوطنيات » : ان لبنان الوطن العزيز على اهله للغاية — ومعظمهم من النصارى — لا يمكن الا ان يكون ممتازاً عن سواه . وله دستور خاص به مستقل عن غيره على اقصى ما يكون من السعة بالنسبة الى احوال اهله واستعدادهم : بحيث يمكنه ان يسير بهم سيراً حثيثاً في طريق الاستقلال في الحكم وفي سبيل الحضارة على ما هو مفهوم ومقصود من هذه الفقرة عينها من هذا الخطاب النفيس .

وهذا عين ما صرّح به لنا ولسوانا مراراً حضرة المعتمد الفرنساوي الاعلى المشار اليه آنفاً بتوكيد لا يحتمل التأويل

ويؤيد ذلك ما صرّح به حضرة المسيو ستيفن بيشون وزير خارجية فرنسا بعد هذه الحفلة باربعة ايام في مجلس النواب · على ما جاء في الجريدة الرسمية التي صدرت في ٢٧ دسمبر سنة ١٩١٧ · فقد قال اعزه الله :

« ان في هذه السياسة التي تقضي باعتبار حقوق الوطنيات شرفاً لتقاليدنا وتاريخنا · وهي تنطبق في اعتقادنا على الشعوب الارمنية والسورية واللبنانية كما تعم كل الشعوب التي لها حق بعطفنا ومساعدتنا · ويجب جعلها من الامكان في حالة تقدر معها ان تدبر مصيرها بنفسها »

« ولا يجهل احد حقوق فرنسا التاريخية ولا الدور الذي لعبته في تحرير سورية التي من شأنها ان تدركها المسرة اكثر من كل بلاد اخرى · لانها من هذه المسألة في موقف خاص تؤيده المعاهدات التي لا سر فيها وهي تخول لها حق انهاض شعب علق آماله عليها وارتبط باعظم تقاليدها مجداً في الماضي » اه ·

فليتبحر كل لبناني وليتدبر بعين البصيرة مجرداً عن الهوى هذا الكلام ليرى في طياته ما يغذي آماله ويحقق امانيه من كل وجه : وليدعو للحلفاء بالنصر المبين العاجل من صميم القلب حتى تصح هذه المواعيد بجذافيرها

***

وها قد تقرر اذن مبدئياً ونهائياً تحرير سورية ولبنان من كل سيطرة واستبداد : ومنحها الاستقلال التام الذي يسير بكل منهما الى السعادة الراهنة والحضارة الراقية والسلام الدائم تحت رعاية الدولة الفرنساوية المحبوبة مبدعة الديموقراطية والحرية الذاتية في العالم التمدن : نصرها الله على اعدائها وبلغها اقصى مناها من الحياة بالعز والفخر والصولة والاقتدار مدى الادهار ·

وهنا يجدر بنا ان نختم هذه العجالة بالكلام العسجدي البديع الذي وجهه حضرة المسيو فرنكلان بويون : وزير البعثات الى الخارج سابقاً ورئيس لجنة الامور الخارجية في مجلس النواب الافرنسي ورئيس اللجنة البرلمانية المهتمة بالشؤون الخارجية الذي لا يجهل احد مقامه في عالم السياسة : من الخطاب الذي فاه به في هذه الحفلة عينها ملتفتاً الى السوريين الحاضرين فيها · فقال لهم عن قلب كله اخلاص وغيرة على مصالحهم :

« كنتم على خلاف فيما مضى ايها السادة : وربما انتم الآن على خلاف ايضاً · الا فاعلموا ان لا قدرة لكم على شيء الا اذا صنعتم كما صنعنا اي اذا اتفقتم · · · لا سبيل لنا الان الى اضاعة الوقت في التشاكس والتباغض · ان ذلك لجريمة من افظع الجرائم تجاه الوطن · ووراءكم موتاكم وشهداؤكم وامامكم من يثقون بكم وينتظرونكم · انا اعلم الناس بحبكم لذويكم · فاتحدوا لتحرير سورية من نير الاتراك الشنيع · » اه

***

ومن بعد هذا وذاك قد انقضى دور حب الوطن بالكلام الذي أُعطي السوريون واللبنانيون شطراً كبيراً من مواهبه وقد وفوا الموضوع حتى الآن حقه · وحان ان يبتدىء دور العمل لانه (كما قال الشاعر الحكيم)

« لا يصدق القول حتى يصدق العمل »

وما احسن ما قاله حضرة المسيو « بول كلودل » سفير الدولة الافرنسية في البرازيل في احدى خطبه الموجهة الى السوريين واللبنانيين في الحفلات الشائقة التي اقاموها في ريودي جانيرو وسان باولو احتفاء بوفد الجمعية السورية المركزية في باريس الذي بعثت به الى العالم الجديد لاجل السعي في توحيد الكلمة وتنشيط حركة التطوع في الفرقة الشرقية الفرنساوية بين الجالية السورية واللبنانية · فقد قال اعزه الله بعد ما صرح بحسن نيات

فرنسا في امر تحرير وطنهم ومصيره واستقلاله على ما هو مطلوب الجميع (كما روت جريدة «القتاة» الغراء التي تصدر هناك في عدد ١٣ اكتوبر سنة ١٩١٧) قال :-

«غير ان هناك امراً لا بد منه وهو لا يخفى عليكم . وما هذا الامر الا اقامتكم الدليل الصريح على رغبتكم في جعل بلادكم مستقلة بحيث لا يبقى السعي الى تحقيق امنيتكم موكولاً الى الامة التي تستنجدون بها وحدها والى فئة قليلة العدد بينكم»

«انه لا يجدر بكم الوقوف موقف الامل دون العمل . والعمل يقضي بالتضحية من كل وجه . والامر لا يتقاضاكم فوق ما تستطيعون . ولكنه يتقاضاكم ما يجب على كل امة تريد الاستقلال . فان بينكم شباناً قادرين على القتال واغنياء يسعهم بذل المال فلا تكونوا بما اوتيتم من الشباب والمال باخلين»

«ان فرنسا ترغب في انقاذكم من يد الاتراك ظالميكم : وفي انالتكم الاستقلال . فكونوا لها في السعي عوناً اذا كنتم في استقلال بلادكم راغبين . . . كونوا متفقين متضامنين في العمل على تصيير بلادكم مستقلة تلقوا من الامة الفرنساوية عون الصديق المنزه عن كل مطمع» اه

وهذا خير ما تختم به هذه العجالة الى السوريين عامة واللبنانيين خاصة - والله الموفق الى كل خير وصواب والهادي الى حسن الختام بمنه وكرمه .

وكتبها عن مصر في ٢٠ ابريل (نيسان) سنة ١٩١٨

المطران

يوسف دريان

ثم قد تعطف الله سبحانه وتعالى على البشرية الرازحة تحت اوزار هاتيك الحرب الشعواء المنهوكة بارزائها وويلاتها الفادحة فشاء بعظيم رحمته وسامي حكمته ان يخرجها من ذاك الضيق الشامل . فالقى من ثم الرعب في قلوب الالمان الهمج وشركائهم المغرورين وضللهم حتى افسد عليهم طرقهم الحربية فعادت عليهم بالوبال . واخذ بيد صفيه العظيم المرشال فوش (بعد ان تولى باجماع الراي قيادة جيوش الحلفاء العامة في ميادين الفخار) يدحر اولئك الاعداء الاشداء وقد كادوا يقتحمون باريس عاصمة الفرنسيس العظمى حتى ضيق عليهم المخارج وسد في وجوههم المهارب فاضطروا ان يسلموا له صاغرين ويقروا بضعفهم واندحارهم غير مكابرين ويلتمسوا بكل الحاح وضع الهدنة بما شاء هذا الظافر العظيم من الشروط لاجل معاطاة امر الصلح على ما يوافق مصلحة فرنسة الظافرة مع حلفائها الكرام . وهكذا انقضت هذه الحرب الضروس باذن الله في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ وتنفس العالم اجمع بعد ان كاد يختنق بعوامل الكروب والاهوال وحمد الله على حسن الختام .

فانتفض اذ ذاك اللبنانيون الذين كانوا قد ناؤوا تحت اثقال ظلامهم فيه وثووا في ظلال الموت من جورهم واذا

بنور عظيم قد اشرق عليهم من البر والبحر وخيم الامان سرادقة على ربوعهم تحت ظل الراية المثلثة الالوان الظافرة ذات المجد الاثيل والرمز الجميل الى الحرية والاخاء والمساواة مما بذرت من قديم الدهر حيثما نشرت بكل فخر . فهلل الناس وكبروا وكادوا يطيرون من شدة الفرح ولا يصدقون بهذه النعمة الجلى نعمة الفرج الشامل وهرعوا زرافات لملاقاة منقذيهم من مخالب الموت كانهم خارجون من القبور . واذ رآهم الفرنساويون الكرام على هذه الحال بعد الاحتلال اسرعوا اولاً لاغاثة منكوبيهم الكثار بكسي عريهم واشباع اجوافهم اليابسة من شدة الجوع وانعاش نفوسهم وامساك رمقهم في اجسادهم ومعالجة امراضهم وجمع الايتام منهم الى مآوي منظمة تنظيماً حسناً حتى اعادوا الحياة الى البلاد من كل وجه جهد الاستطاعة . .

ثم انهم اعادوا حكومة جبل لبنان الى ما كانت عليه قبل الحرب بحسب نظامه فجمعوا اعضاء مجلس ادارته السابقين ومكنوهم من مزاولة وظيفتهم ونظموا الدوائر والمحاكم والجندرمة تحت رعايتهم بحسب خططهم المقررة سابقاً .

واذ استتب الامر على هذا المنوال اخذ اهل البلاد يفكرون في مصيرهم بعد تقلص ظل الترك عنهم . وكان مؤتمر

الصلح العام في فرسايل بقرب باريس عاصمة الفرنسيس البديعة قد اقر على تشكيل عصبة الامم المشهورة التي من قوانينها تخويل الحرية للامم الصغيرة الضعيفة بانتداب دولة من دول اوربا الكبرى لمساعدتها على تنظيم امورها في سبيل الاستقلال الذي يحق لها بحسب احوالها المادية والمعنوية . فنهض لذلك جميع اللبنانيين على اختلاف نزعاتهم وطوائفهم ومذاهبهم وطلبوا الى مجلس ادارتهم ان يختار وفداً من ذوي المكانة مؤلفاً من جميع الطوائف اللبنانية ومفوضاً بحمل امانيهم الى مؤتمر الصلح الاسمي وعرض مطاليبهم عليه وبسط حقوقهم لديه . فانتدب مجلسهم هذا الموقر الوفد المطلوب وقد وقع اختياره لهذه الغاية النبيلة على كل من حضرة داود بك عمون رئيساً لهذا الوفد واميل افندي اده وعبدالله بك الخوري سعاده ونجيب بك عبدالملك وعبد الحليم افندي حجار اعضاء له : وطلبوا الى السلطة الافرنسية المحتلة ان تصدق على هذا الانتداب وتسهل السفر لهذا الوفد اللبناني الجليل الى فرنسة لاجل القيام بالمهمة المنتدب لها . فاجابت هذه السلطة الشريفة سؤلهم بكل ارتياح واوصلت هذا الوفد الى باريس حيث مهدت له السبيل ايضاً ان يقف في ١٣ شباط (فبراير) من سنة ١٩١٩ المنصرمة امام مجلس ذاك المؤتمر الاعلى في فرسايل

ويبسط مطاليب اللبنانيين منتدبيه وامانيهم لديه .

وكان ذاك المجلس العظيم مجلس مؤتمر الصلح الغام مؤلفاً من عشرة اعضاء من اعظم رجال دول الحلفاء الكرام على ما هو مشهور تحت رئاسة المسيو كليمانصو رئيس الوزارة الافرنسية العظيم الشأن . فمثل اعضاء الوفد اللبناني امامهم وجلسوا جميعاً في المحل المعد لهم . ثم نهض رئيسهم داود بك عمون وبسط باللغة الافرنسية اماني اللبنانيين ومطاليبهم المعقولة بكل جراءة وفصاحة وهذه ترجمتها بكل تدقيق :

ياسيدي الرئيس

ايها السادة

ان وفدنا انما هو موكل من قبل المجلس الكبير لادارة جبل لبنان الذي هو بمثابة مجلس نواب وطني منتخب على آساس دموقراطية بتصويت كل الامة اللبنانية مما يجعل له تمام الحق بتعيين هذا الوفد الذي انا رئيسه ولي الشرف ان اتكلم باسمه لارفع الى مؤتمر الصلح مطالب الشعب اللبناني .

ان جبل لبنان قد كان على الدوام مستقلاً استقلالاً نوعياً وقد حافظ على استقلاله هذا على عهد العرب والترك والمصريين حتى ان هذا الاستقلال كان له بعض الاحيان صبغة الاستقلال التام وكانت دولة الاتراك نفسها تعترف به . وقد اقرت اوربا بعد حوادث ١٨٦٠ هذا الاستقلال النوعي واعطته بضمانتها بمعاهدة ١٨٦١ و ١٨٦٤ شكلاً وقوة خاصة ضمن حدود مقررة بحيث لم يكن يربطه بتركيا غير رابطة التابعية . اما الان وقد

سقطت حكومة الباب العالي فلبنان اصبح مستقلاً بحكومته الوطنية ومجلس نوابه المنتخب ومن ثم فهو يطلب مع الموافقة على استقلاله التام استرجاع حدوده التاريخية والطبيعية التي سلبها الاتراك منه ظلماً . واما الاراضي التي تضمها هذه الحدود فانما هي من لزوميات وجودنا لانه بدونها لا يكون لنا لا تجارة ولا زراعة وتظل شعوبنا مضطرة الى المهاجرة : ويكفي ان تقفل هذه الاراضي بوجهنا بداعي احتياطات ادارية حتى يقضى علينا بالموت جوعاً كما جرى بالفعل مدة هذه الحرب . هذا فضلاً عن ان الاكثرية المطلقة التي تسكن هذه الاراضي تطلب هي ايضاً الانضمام الى لبنان وقد اودعت امانيها في عرائض تقدمت الى الحكومة الافرنسية .

فبمنحنا هذه الاراضي يكون المؤتمر قد عمل عملاً عادلاً تعويضياً ومطابقاً معاً لمبدأ ارادة الشعوب .

ان جبل لبنان قد اكتسب مدة هذه الحرب فضلاً عن الماضي ما يستوجب له عطف الحلفاء وذلك باشتراكه الفعلي فيها : واشتراكه هذا ولئن كان قليلاً لم يخلُ من الاهمية — فمنذ ابتداء الحرب لم يخشَ اللبنانيون ان يجاهروا بشجاعة بميلهم الى فرنسا والحلفاء رغماً عن النكبات الشديدة التي كانت تتهددهم بسبب عزلتهم — وقد تقدموا بالالوف ليخدموا المبدأ السامي العام في ساحات الحرب الاوربية . انما الظروف الخصوصية وقتئذٍ والتأكيدات التي أعطوها بانه ربما استخدموا في بلادهم للمدافعة عن هذا المبدأ حالت دون وضع مشروعهم هذا موضع العمل . ومع ذلك فقد انضم قسم منهم الى اخوانهم في المهجر واسرعوا الى التطوع افراداً منخرطين في الجيش الافرنسي ثم في الجيش الاميركي .

وقد تألفت ايضاً منهم وحدات خاصة كان لها نصيب في تحرير البلاد

واشتركت باسمها فعلاً وبصفة رسمية في هذه الحرب .

ولا احد يجهل الضحايا التي بذلها لبنان بسبب انضمامه منذ اول الامر الى الحلفاء . فقد ذهب اكثر من نصف سكانه ضحية النفي والشنق والمجاعة المنظمة مما اوقعه الاتراك بهم . فاذا راعينا النسبة كان لبنان من البلدان التي تحملت من الضيم اكثر من سواها بسبب الخطة التي سلكها والتي حافظ عليها الى النهاية .

هذا ولما كانت حكومة جبل لبنان قد استنارت بالاختبار وعلمت ان البلاد لم تتخطَ مكانها في سيرها مدة نصف قرن بسبب تعدد اصحاب النفوذ وتزاحمهم وادركت الضرر العظيم الذي يتأتى للبلاد من جراء ذلك من حيث الاتحاد المطلوب ومكارم الاخلاق : عولت ان تجتنب في المستقبل غلطة الماضي . واذ كانت عالمة بعدم كفاءة البلاد على الخصوص في بدء امرها ان ترتقي بنفسها بدون مال ولا اخصائيين رأت ان تطلب مساعدة دولة عظمى وهذه لا يمكن ان تكون غير فرنسا لان مبادئها الحرة وتقاليدها العهيدة والاحسانات التي غمرت بها لبنان على الدوام في الايام العصيبة والتهذيب الراقي الذي اشربته اياه كل ذلك كان مما اهاب باللبنانيين قاطبة اليها حتى ان مجلس الادارة الكبير وهو صدى الرأي العام الامين قرر باجماع الاراء طلب مساعدة فرنسا .

على اننا بطلب هذه المساعدة لا نقصد ترك شيء من حقوقنا ولا ان نتنازل ولا اقل تنازل عن استقلالنا وانما نرمي بذلك الى الاستفادة من خبرة طويلة ووقاية انفسنا من العثار الذي تتعرض له كل حكومة فتية والحصول على حكم نافذ الكلمة من الطوائف المختلفة التي تتألف منها بلادنا واخيراً ضمانة استقلالنا مما قد ينتابه من التعديات .

بقي ان نقول كلمة عن علاقاتنا بسوريا . ان بين هاتين البلادين

اشتراكاً كبيراً في المصالح فسوريا تحتاج الى موانئنا وجبالنا ونحن نحتاج الى سهولها . فنظام يفصل بينهما فصلاً تاماً يضر بهما معاً . ومع ذلك فلبنان يأبى الاشتراك في الوحدة السورية — مع المحافظة على شخصيته الممتازة — الا اذا كانت فرنسا هي الدولة المساعدة لكليهما معاً والا فانه يفضل بقاءه على ضعفه منفرداً على تعرضه لخطر مزدوج من حيث جره في تيار بلاد غير معتادة على الحكم ولا راقية نظيره : او من حيث احتمال مصائب فتن لا بد منها اذا كانت الدولة المساعدة ليست واحدة .

واننا لنرغب رغبة شديدة في توثيق كل العلائق التي تربطنا بجيراننا وانما يتوقف تحقيق هذه الامنية على الادلة التي تعطيها الحكومة الجديدة لسوريا من جهة الحياة والمقدرة والتسامح وليس من سبيل الى هذه النتيجة سوى اسناد هذه المساعدة الى دولة واحدة

***

ومن بعد ذلك قد اخذت مسئلة سورية دوراً جديداً وانخدع الفرنساويون لاقطاب داخليتها الذين كان على ما يُظن زمام سياستها بين ايديهم : وقد وعدوا بانهم سينتدبون فرنسة لتنظيم امور استقلالهم اذا سلمت بعدم فصل لبنان والسواحل عن سورية الداخلية سياسياً واقتصادياً :ولو اعطي اهل هذه المنطقة استقلالاً نوعياً داخلياً : بحيث يكون حاكم سورية العام واميرها او ملكها له السيادة عليها جميعها دون تجزئة او استثناء . فهب اللبنانيون اذ ذاك هبة واحدة لاجل معارضة هذا الرأي المبتسر وقد حسبوا حساباً كبيراً لمستقبل الحين فلم

يشاؤوا ان يتنازلوا عن اقل شيء من استقلالهم التام المطلق تحت رعاية فرنسا وبمساعدتها دون اقل علاقة بسورية الداخلية .

وقد اشترك معهم في هذا الامر اهل جوارهم الذين في ضمن حدود لبنان الاصلي تاريخياً وجغرافياً كالبقاع الغربي والبقاع الشرقي وهو المعروف ببلاد بعلبك واهل طرابلس وبلاد عكار وصيدا وصور وجوارهما الخ . وقد لجأ الجميع الى غبطة بطريرك الطائفة المارونية العظيم الشان وطلبوا اليه بالحاح ان يسند قضيتهم هذه التي كانت تروق له قبل كل احد لما كان يرى بحكمته الصائبة من عواقب الانضمام الى سورية على هذا الشكل وهو شيخ قد حنكته الايام وعرك الدهر اشطريه فعمه الاختبار الذي سبر به غور الامور بعقله الثاقب حتى جعله احكم اهل عصره وجعل ثقة الناس به وبمقدرته وتجرده الممتاز لاجل خدمة المصلحة العامة في اعلى درجة . واذ انسوا منه كل هذا الاندفاع في هذا السبيل رفعوا اليه العرائض من كل ناحية موقعة باسماء الجماهير من الشعب بها يلتمسون منه ان يحمل امانيهم ومطاليبهم الى دولة فرنسا حبيبتهم الكريمة ويبسط لدى رجالها العظام ما عنده من البراهين الدامغة والادلة الراهنة على حقيقة ما يصرون على طلبه من حيث اعادة لبنانهم الى حدوده الاصلية تاريخياً وجغرافياً

وتنويلهم جميعاً الاستقلال التام المنفصل عن باقي سورية تحت رعاية فرنسة وبمساعدتها . فلم يسع غبطة البطريرك الكبير المشار اليه الا ان يلبي الطلب رغم شيخوخته العاجزة عن تجشيم متاعب الأسفار واخذ يسعى مع فرنسة نفسها لكي تسهل له السفر اليها في هاتيك الظروف الصعبة لهذه الغاية .

وكان في هذه الاثناء قد جاء الى هذه النواحي لجنة اماريكية مفوضة من قبل جميع الدول المتحالفة باسم جمعية الامم لتبحث مع شعوب سورية باجمعها عما يريدون من شكل الحكم وشكل الانتداب والدولة التي هم اميل الى انتدابها لتنفيذ ذلك عندهم . واذ اخذت هذه اللجنة بالعمل الجدي من جهة فلسطين الى دمشق الشام وكل منطقتها الداخلية الى بيروت ولبنان وجواره الخ : قد بانت الرغوة عن الصريح بحيث لم يصرح بانتداب فرنسا وحدها دون غيرها الا هذا الحزب اللبناني الذي نحن بصدده وحده . فعلم الفرنساويون اذ ذاك الحقيقة واعتقدوا تمام الاعتقاد ان هؤلاء اللبنانيين الملتفين على زعيمهم هذا الاكبر انما هم من اخلص الشعوب لهم واشدهم تمسكاً بهم واكثرهم اعترافاً بفضلهم الشامل في كل حال : ولهذا قد اجابوا سؤل غبطة السيد البطريرك معتمدهم الاسمى وابيهم المحبوب وحملوه هو ورفاقه على الدارعة « كسارد » الى

وتنويلهم جميعاً الاستقلال التام المنفصل عن باقي سورية تحت رعايه فرنسة وبمساعدتها . فلم يسع غبطة البطريرك الكبير المشار اليه الا ان يلبي الطلب رغم شيخوخته العاجزة عن تجشم متاعب الاسفار واخذ يسعى مع فرنسة نفسها لكي تسهل له السفر اليها في هاتيك الظروف الصعبة لهذه الغاية .

وكان في هذه الاثناء قد جاء الى هـذه النواحي لجنة اماريكية مفوضة من قبل جميع الدول المتحالفة باسم جمعية الامم لتبحث مع شعوب سورية باجمعها عما يؤثرون من شكل الحكم وشكل الانتداب والدولة التي هم اميل الى انتدابها لتنفيذ ذلك عندهم . واذ اخذت هـذه اللجنة بالعمل الجدي من جهة فلسطين الى دمشق الشام وكل منطقتها الداخلية الى بيروت ولبنان وجواره الخ : قـد بانت الرغوة عن الصريح بحيث لم يصرح بانتداب فرنسا وحدها دون غيرها الا هـذا الحزب اللبناني الذي نحن بصدده وحده . فعلم الفرنساويون اذ ذاك الحقيقة واعتقدوا تمام الاعتقاد ان هؤلاء اللبنانيين الملتفين على زعيمهم هذا الاكبر انما هم من اخاص الشعوب لهم واشدهم تمسكاً بهم واكثرهم اعترافاً بفضلهم الشامل في كل حال : ولهذا قـد اجابوا سؤل غبطة السيد البطريرك معتمدهم الاسمى وابيهم المحبوب وحملوه هو ورفاقه على الدارعة « كسارد » الى

اوربا في اليوم الخامس عشر من شهر تموز (يوليه) . فسارت بهم باسم الله مجراها ومرساها الى ثغر « تارنت » على الادرياتيك وهو اقرب الثغور الاوربية الى بلادنا . وكان يوم وداعه في صرحه ببكركي وفي ثغر جونيه اللبناني حيث ركب البحر يوماً مشهوداً تألبت فيـه الوفود والجماهير المجمهرة من كل ناحية وكلهم قلوب جزلة والسنة تثني وتدعو الله وسيدة لبنان المعظمة له لاجل الفلاح والفوز بهـذه الاماني اللبنانية الى مستقبل سعيد حافل باسباب الراحة والرقي واليمن والاقبال .

وكانت معيته مؤلفة من سيادة المطران اغناطيوس مبارك رئيس اساقفة ببروت الماروني وسيادة المطران بطرس الفغالي نائب غبطته الروحي وحضرة الخوري اسطفان الدويهي كاتب اسراره الخاص وهم معاونوه في هذه الوفادة وقد لحق بهم في باريس وانضم اليهم كعضو منهم سيادة المطران كيرآس مغبغب رئيس اساقفة زحله والفرزل على الروم الكاثوليك والتف حوله في عاصمة فرنسا الجميلة جمهور من كرام الجالية اللبنانية هناك فأدوا له ما استطاعوا من الخدم في سبيل هذه المهمة الوطنية .

وبعد ان استتب به المقام وانتهى من استقبال الوفود للسلام والاستعلام اخـذ يسعى مع علية القوم من معارفه

اوربا في اليوم الخامس عشر من شهر تموز (يوليه) . فسارت بهم باسم الله مجراها ومرساها الى ثغر « تارنت » على الادرياتيك وهو اقرب الثغور الاوربية الى بلادنا . وكان يوم وداعه في صرحه ببكركي وفي ثغر جونيه اللبناني حيث ركب البحر يوماً مشهوداً تألبت فيه الوفود والجماهير المجمهرة من كل ناحية وكلهم قلوب جزلة والسنة تثني وتدعو الله وسيدة لبنان المعظمة له لاجل الفلاح والفوز بهذه الاماني اللبنانية الى مستقبل سعيد حافل باسباب الراحة والرقي واليمن والاقبال.

وكانت معيته مؤلفة من سيادة المطران شكر الله خوري رئيس اساقفة صور والمطران اغناطيوس مبارك رئيس اساقفة بيروت والمطران بطرس الفغالي احد نوابه والخوري اسطفان الدويهي احد كتبة اسراره ولاون بك الحويك شقيقه . وما وصلت الدارعة بعد نحو خمسة ايام من سفر ميمون الى ذاك الثغر الايتالي الجميل حتى لاقى غبطته الى البحر معتمد من قبل السفارة الفرنساوية برومية وآخر من قبل الوزارة الايتالية للسلام عليه رسمياً ثم جمهور من الموارنة الموجودين في رومية يتقدمهم حضرة الاباتي لويس الخازن والمنسنيور الياس شديد وكيل غبطته لدى الكرسي الرسولي : فتقدموا للتبرك بلثم يمينه الكريمة وتقديم عبارات التهنئة بسلامة الوصول المبارك

والفرح يملأ صدورهم جميعاً بشراً بهذا القدوم السعيد لهذه الغاية الحميدة . وقد جاء ايضاً للسلام على غبطته وسيادة المطارنة اسقف البلدة وحاكمها وبعض كهنتها في المحل الذي اعده للاستراحة حضرة الاباتي المشار اليه حيث تناول الجميع ايضاً طعام الغذاء على نفقته فاوري زناد الكرم الخازني المشهور بكل حفاوة ارتياح .

وعند مساء ذلك اليوم الذي هو يوم السبت قد ركب الجميع مقطورة مخصوصة اعدتها الحكومة الايتالية لغبطته ولمعيته في القطار المسافر الى رومية حيث وصلوا عند الصباح بكل راحة وسلامة . فوجدوا على المحطة جمهور الملاقين وفي جملتهم معتمد من قبل المجمع المقدس، وقد حطوا عصا الترحال في المدرسة المارونية هناك واستقبل غبطته جمهور الوافدين للسلام عليه بكل احتفاء ورحابة صدر واستتب به المقام حيث نال تمام راحته واسترجع كل قواه المنهوكة بهذا السفر الطويل بحراً وبراً باذن الله وحسن توفيقه تعالى .

ثم ان غبطته اعزه الله قد اسرع في طلب مقابلة قداسة سيدنا الحبر الاعظم البابا بناديكتوس الخامس عشر لتقديم مراسيم السلام والخضوع والاحترام الواجب لرئيس الكنيسة الاعلى واخلص عبارات التهاني القلبية بجلوسه على كرسي

زعيم الرسل الكرام بكل استيهال (لانه كان قد انتخب الى هذا المقام الاسمى في مدة الحرب العامة) ولاجل رفع واجب الشكر الحميم اليه على ما ابداه في وقت الضيق الذي حصل له وللبنان على ما هو مشهور من العطف والحنان الابوي وما تكرم به من المساعدات الجليلة مادياً ومعنوياً مما تضيق هذه العجالة عن استيعابه : ثم لالتماس مساعدته الممكنة في المهمة الكبرى التي لاجلها تجشم هذه الاسفار الشاقة . وفي الوقت المعين توجه غبطته والسادة المطارنة وجمهور من اعيان اكليرسه وغيرهم هناك الى الفاتيكان حيث اجريت اولاً التشريفات المعتادة . ولما ازفت الساعة المضروبة للمقابلة حتى تشرف بالمثول لدى قداسة امام الاحبار اولاً وحده حيث اختلى به مدة نحو نصف ساعة استفاض في خلالها بالحمد والشكر والدعاء وبسط بين يديه بمنتهى البلاغة والايجاز كل ما جرى له ولطائفته وبلاده من المصائب في مدة تلك الحرب الغشوم (لا اعادها الله على البشرية) حتى تأثر قداسته تأثراً لا مزيد عليه ووعد بكل مساعدة ممكنة لاجل نجاح مهمته الجليلة التي يترتب عليها سعادة امته وبلاده في مستقبل الحين . ثم خرج قداسته كالبدر في الليلة الظلماء الى الصاعة التي فيها كل معية غبطته الموقرة وبعد قبول عواطفهم البنوية التي ادوها جاثين

بكل احترام واخبات قد تلطف ايده الله بتوجيه عبارات الحنان الابوي اليهم الى ان منحهم اخيراً بركته الرسولية من صميم الفؤاد عربوناً لكل توفيق وفلاح .

وكان غبطة السيد البطريرك بالاتفاق مع السادة المطارنة في المجمع الذي عقد في اواخر شهر شباط من هذا العام في بكركي قد انتخب حضرة الاباتي لويس الخازن الى درجة الاسقفية على عكا شرفاً لاجل توليجه ادارة اوقاف العائلة الخازنية الكريمة في جبل لبنان . ولما كان الاباتي المشار اليه اذ ذاك مقيماً في رومية ولم يستطع ان يلبي الطلب بالعود الى لبنان لقبول هذه الدرجة المقدسة من يد غبطته بسبب صعوبة السفر : وكان قد اتفق ان غبطته قد جاء الى عاصمة الكثلكة على ما بينا الى الآن : فانتهز اعزه الله فرصة هذه المقابلة الشريفة والتمس الرخصة بان يرقي الاباتي المنتخب انتخاباً قانونياً الى درجة الاسقفية المقدسة في احدى كنائس رومية . فتعطف قداسته بكل سرور وارتياح واذن لغبطته بذلك لانه كان يعرف حق المعرفة الاباتي لويس من عهد بعيد ويقدر ما ازدان به من الفضائل السامية حتى اتخذه كابن خاص له واعطاه من الدالة الابوية ما كان يحسده عليها كثيرون من اهل رتبته . وبعد ان اتم غبطته ما عليه من الزيارات الرسمية رداً

وقبولاً اخذ يفكر في امر اتمام هذه السيامة المباركة . وبعد المداولة تم الاتفاق على اقامة هذه الحفلة يوم الاحد الواقع في الثالث من شهر آب (اغستوس) في كنيسة القديس بطرس في السلاسل الشهيرة لقربها من دير الرهبانية الحلبية اللبنانية هناك (١) حيث تقرر اجتماع المدعوين للقيام بما يليق بكرامتهم.

وهكذا قد تمت حفلة السيامية في الوقت المعين بحسب الرتبة المارونية البديعة : وقد قام بها غبطة السيد البطريرك يعاونه من كان معه المطارنة الكرام بحضور عدد عديد من كردينالين واساقفة وعلية الاكليرس وبعض الاعيان من اصدقاء سيادة المطران الجديد الذي جلي باسم يوسف تبركاً باسم شفيعه المشفع القديس يوسف المعظم الذي يعد كل توفيقاته على ما قال

---

(١) ان هذا الاباتي لويس الخازن المفضال انما هو من سلالة هذه الرهبانية المباركة وقد تولى على هذا الدير المعين مدرسة لهذه الرهبانية مدة طويلة اخرج في خلالها منه فوجاً متعلماً من ابنائها . ثم تولى ايضاً وظيفة الرئاسة العامة على الرهبانية المذكورة افادها فيها فائدة جلى مادياً ومعنوياً : ومن اعماله اذ ذاك تجديد بناء دير سيدة لويزة كرسي هذه الرهبانية في كسروان من جبل لبنان حتى صار من احسن الديارة هندسة وترتيباً . وقد افاد طائفته في مدة هذه الحرب الهائلة فوائد تذكر خصوصاً من جهة المساعدات المادية التي كان يرسلها بسخاء عن يد مؤلف هذا الكتاب كما هو مشهور .

لنا من فضل شفاعته المشفعة ، وقد تم كل شيء على اتم نظام وترتيب وابهة وجود وكرم واخلاق وحسن توفيق الى النهاية مما لا يسمح لنا المقام ان نستفيض بوصفه .

هذا وقد اسرع غبطة السيد البطريرك بعد ذلك بانجاز اشغاله في رومية اذ علم من حضرة سفير فرنسا برومية ان اصحاب الشان في فرنسا ينتظرون قدومه وقد سألوه عنه مراراً . واذ عول على السفر تشرف بوداع قداسة الحبر الاعظم هو ومعيته جميعها وتزود بركته ورضاه . ثم ودع من يلزم توديعه من الكردينالين وسواهم من ذوي المقامات العالية . وسافر الجميع على الطائر الميمون الى باريس . فاستقبلهم فيها فضلاً عن موفد الحكومة جمهور السوريين واللبنانيين الذين غصت بهم المحطة وكان السرور شاملاً الجميع . وبعد مراسيم السلام والكلام الطيب اوصله معتمد الحكومة ومعيته الى المحل المعد لهم جميعاً حيث نزلوا على الرحب والسعة ضيوفاً كراماً على الحكومة الفرنسوية الكريمة . وقد لحق بهم الى باريس وانضم اليهم كعضو منهم سيادة المطران كيرآس مغبغب رئيس اساقفة زحله والفرزل على الروم الكاثوليك . والتف حولهم ايضاً في عاصمة فرنسا الجميلة جمهور من كرام الجالية اللبنانية هناك فأدوا لهم ما استطاعوا من الخدم في سبيل هذه المهمة

الوطنية .

وبعد ان استتب المقام لغبطته وانتهى من استقبال الوفود للسلام والاستعلام اخذ يسعى مع علية القوم من معارفه واصدقائه الاخصاء سعيه الموفق توطئة للنجاح في قصده النبيل حتى ضجت باريس وجرائدها على اختلاف مذاهبها في امر قضية لبنان واللبنانيين وبطريرك لبنان الكبير (كما شاع اسمه بينهم) ومهمته التي تجشم لاجلها مشاق السفر بحراً وبراً على كبر سنه وعجز الشيخوخة حتى لقبوه بالشيخ الشاب بكل حق وصواب . وهذا مما استرعى الانظار وحرك الافكار واعطى المسئلة دوراً مهماً .

ثم انه تفرغ لمقابلة ذوي الشان فقابل المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية والمسيو بيشون وزير خارجيتها والمسيو كليمنصو رئيس الوزارة ورئيس لجنة موتمر الصلح وغيرهم ثم معتمد بريطانيا العظمى ومعتمد ايتالية وسواهما ممن لهم يد في الموتمر وبسط للجميع مهمته واماني منتدبيه فصادف كل اقبال .

وبعد ذلك انشأ مذكرة بديعة الوضع في هذا الموضوع بحسب الاشارة ونشرها بالطبع في اللغة الافرنسية اودعها كل ما يمكن ان يقال في هذا الباب بابلغ عبارة واوجزها وقدمها اولاً للجنة موتمر الصلح وجمعية الامم وللمسيو كليمنصو رئيس

الموتمر : ثم لسواهم من اصحاب الشان واهل المروءة ممن يمكنهم ان يفيدوا في هذه القضية : فكان لها وقع حسن جداً عند الجميع . وهذه ترجمتها بحروفها :

مذكرة غبطة رئيس الوفد اللبناني

« ان البطريرك الماروني رئيس الوفد اللبناني الى موتمر الصلح يتقدم باسم الحكومة اللبنانية ومجلس ادارتها بمقتضى التفويض الذي بيده منهما : ثم باسم اهل المدن والقرى اللبنانية والتي تطلب الانضمام الى لبنان على اختلاف نزعاتها الدينية ومذاهبها وعناصرها بحسب انتدابها الشرعي له (وقد اودع هو كل وثائق انتدابه وتفويضه هذا لدى سكرتارية موتمر الصلح العامة بواسطة وزارة الامور الخارجية للجمهورية الفرنسية) فيلتمس من سامي عدالة حضرة اصحاب السعادة مفوضي دول الحلفاء والدول المحالفة لها الذين يوألف منهم المجلس الاعلى في موتمر الصلح :

اولاً — الاعتراف باستقلال لبنان الذي نادى به الشعب اللبناني وحكومته في اليوم العشرين من شهر ايار (مايو) سنة ١٩١٩ .

ثانياً — اعادة لبنان الى حدوده التاريخية والطبيعية بارجاع البقاع التي سلختها تركيا منه .

ثالثاً — معاقبة مقترفي الفظائع واعمال الاعدام والمحرضين عليها : مما اتته في لبنان السلطات التركمانية : ثم التعويضات الواجبة على تركيا مما هو ضروري لاعادة لبنان الى ما كان عليه من العمران وكثرة السكان الذين افنى العدد الوفر منهم عمل التجويع الذي دبره لهم العدو قصداً

رابعاً — ولما كان مبدأ الانتداب قد تقرر في معاهدة الصلح المبرمة في فرسايل يوم ٢٨ حزيران (يونيه) من سنة ١٩١٩ دون ان يؤثر ذلك على حقوق لبنان بالسيادة فيلتمس ايضاً ان يعهد بهذا الانتداب الى حكومة الجمهورية الفرنساوية التي تتعطف بناء على البند الثاني والعشرين من عهد جمعية الامم بايلاء لبنان معونتها وارشادتها .

* * *

ثم ان البطريرك رئيس الوفد اللبناني يتشرف بدعم مطاليب بلاده بالشروح والبينات الآتية :

« اولاً »

﴿ بالنظر الى استقلال لبنان ﴾

ان استقلال لبنان على ما نؤدي به وعلى ما يفهمه عموم

اللبنانيين تقريباً لم يكن قط استقلالاً بسيطاً نجم فعلاً عن اضمحلال السلطنة العثمانية : ولكنه فوق ذلك استقلال تام الشروط تجاه كل ولاية عربية قد تقام في سورية . ولقد اراد بعضهم عن ضلال في الفهم اللغة ان يخلطوا بين لبنان وسورية او بالاحرى ان يدوفوا لبنان في سورية : وهذا خطأ مبين : لان اللبنانيين دون ان نرجع بهم الى اجدادهم الفينيقيين قد كانوا على الدوام وحدة قومية ممتازة عن كل جماعة من اهل جوارهم باللغة والاخلاق والميول والآداب الغربية التي عندهم .

واذا كانت بعد الفتح العربي لسورية باربعمائة سنة على الاقل قد استطاعت لغة الفاتحين ان تتسرب الى لبنان فان اماكن عديدة منه قد حفظت بعد ذلك وهي لا تزال الى الآن تحفظ نبرة ولهجة خاصة باهلها وحدهم مع قطع النظر عن لغتهم الكنسية مما يكفي لابطال برهان وحدة القومية بوحدة اللغة . ذلك فضلاً عن ان امثلة اماريكة الشمالية وممالك اماريكة الجنوبية ثم بلجيكة الوالونية واحدث من ذلك مثل النمسا الالمانية لما يرمي ايضاً الى مثل ذلك بنسبة واحدة .

ولنا اعتبارات اخرى مما يثبت استقلال لبنان تجاه كل حكومة سورية او عربية او غيرها لا تغرب اهميتها عن مؤتمر الصلح : فمن ذلك

١ – الاعتبارات التاريخية وهي :

كل ذي المام بتاريخ هذه البلاد يعلم بلا ريب من الادلة المستفاضة ان لبنان رغم خضوع اهل جواره المطلق للفاتحين من العرب او من الترك قد احتفظ على الغالب باستقلال تام وعلى الدوام باستقلال نوعي اثبته (رغم ما ضيّق من نطاقه) النظام الاساسي الذي قررته الدول العظمى في عام ١٨٦٠ . وهذا الاستقلال الذي به تقرر رفع اثقال الضرائب على لبنان والخدمة العسكرية بالنظر الى الاتراك وترك ادارته لابنائه كان بمثابة درس عملي لطرق الحكم بحيث ان تركيا نفسها مع كونها في ابان الحرب لم تحجم عن الغاء الامتيازات الاجنبية ولا عن اجراء المذابح وعمل التجويع على الشعب اللبناني قد حذرت مع ذلك وهي في عز فلاحها من ان تمس مبادئه حتى انها لم تحاول قط ان تضم لبنان الى احدى الولايات التي في جواره .

أفيليق بالدول المتحالفة والمهالئة لها وقد تحمّل لبنان ما تحمل في سبيلها ان تقصّر في معاملة هذه البلاد عن تركيا نفسها ؟

٢ – الاعتبارات السياسية وهي :

وهذا موقف لبنان من الاستقلال كان يستند ايضاً الى تنظيم سياسي ثم نيابي استمر وحده من هذا النوع في كل

ارض السلطنة حتى سنة ١٩٠٨ حيث اذيع الدستور العثماني . وبينما كانت سورية المجاورة جارية على خطة سائر الولايات التركية وهي تجهل كل ما من شانه ان تتقوّم عنه حياة البلاد السياسية كان لبنان (رغم ضيق حدوده الذي اوجبه دهاء ساسة الاتراك على واضعي نظامه الاساسي سنة ١٨٦٠) يتمتع بخطة نيابية لم يفتر حتى اليوم الذي شهرت به الحرب عن السعي لاجل تحسينها . وقد تخطى نشاط لبنان السياسي هذا الحد ايضاً فانه لم يفتأ يطالب تركيا بدفع المتأخر من دينه عليها . ولقد طالما استغاث بالدول الحامية لاجل مطاليبه المالية وتوسيع حدوده : وكان من اشد المطالبين بذلك مجلس ادارة لبنان والجمعيات اللبنانية العديدة في لبنان وفي الخارج . فهل من وجه للشبه والحالة هذه بين لبنان وسورية من حيث الرقي السياسي ؟ وهل ليس من مبادئ العدل الاولية ان يُحترم استقلال لبنان التام تجاه سورية حيث لا شيء يجمع بين هاتين البلادين لا من جهة ماضيهم ولا من جهة امانيهم ولا من جهة رقيهم العقلي ولا من جهة رقيهم السياسي ؟

أفي استطاعة الدول المتحالفة والمهالئة لها اذن في مثل هذه الحال ان تعمل اليوم اقل مما عملت اوربا في سنة ١٨٦٠ اذ قررت علناً بوثيقة رسمية الدواعي السياسية والعنصرية

التي ميزت لبنان عن سورية المجاورة له ؟

٣ اعتبارات من حيث التهذيب الراقي

ولا تقف الفروق الجوهرية التي بين لبنان وسورية عند حد هذه الاعتبارات التاريخية والسياسية التي بسطناها بمنتهى الايجاز : لان التعليم والتهذيب الاوروباوي الراقي بينما كان في سورية (ما عدا المدن الكبرى منها) قليل الانتشار لان اكثر سكانها من العرب الرحّل كان على عكس ذلك لبنان اهم مركز في الشرق للتهذيب الغربي . واذا تركنا جانباً بيروت التي يؤمها عدد عديد من الشبيبة من كل نواحي المشرق في طلب العلم الراسخ فليس من مدينة صغيرة او قرية في لبنان خالية من مدرسة او كتّاب لها .

وهنا يستميح الوفد اللبناني ان يذكر بهذا الصدد ان اللبنانيين بوجه خاص (ولا حاجة الى ذكر اسمائهم) هم الذين تحت اسم السوريين العام الذي يشملهم خطأ وبلا تدقيق امتازوا في القطر المصري وفي جهات اماريكا وغيرها بالادارة العمومية وبسائر الفروع من النهضة العلمية والادبية والاقتصادية .

ومن ثم فالشأو الذي ادركه لبنان من الرقي هو ايضاً مما يخول هذه البلاد بشكل تام وممتاز جداً حقاً من الحقوق التي لا جدال فيها على الاستقلال .

٤ اعتبارات من حيث واقع الحال والحق الشرعي

ويوجد ايضاً ثلاثة اعتبارات ذات اهمية كبرى من شأنها (كما يعتقد الوفد اللبناني تمام الاعتقاد) ان تؤكد للبنان نيل استقلاله التام الذي يتطلبه وله فيه كل الحق : وهي الآتية :

١ً ولئن لم يكن لبنان من الوجهة الشرعية وباعتبار القوانين الدولية في حرب مع دول الوسط فان هذه حالة الحرب قد حصلت له فعلاً : لانه منذ شهر آب (اغسطس) من سنة ١٩١٤ قد اسرعت رواديف لبنانية من لبنان ومن جهات المهاجر رغم صعوبات جمة من كل جنس فتطوعوا في سلك الجندية تحت رايات الحلفاء : وكثيرون منهم قد جادوا بدمائهم في سبيل ميلهم الى الحلفاء ومحبتهم للحرية في ميادين الفخار سواء في فرنسا نفسها او في الدردنيل وسالونيك وفلسطين . وكثيرون ايضاً سواهم قد بذلوا مساعدتهم المخلصة للصليب الاحمر الذي للحلفاء سواء في القطر المصري عند حملة الدردنيل او في فرنسا نفسها . ثم ان لبنان بنوع اخص قد دفع اهم جزية دموية استطاع شعب ان يدفعها في سبيل الدفاع عن قضية ما : ففوضو الحلفاء والمالثين يعلمون حق العلم ان تجويع لبنان المدبر بامر السلطات التركالمانية انما كان بسبب ميل اللبنانيين الى فرنسا وقد جلب الموت على اكثر من

ثلث سكان البلاد حتى ان كثيرًا من البيوت قد امست اليوم خراباً يباباً . ومن ثم فليس من حرب مهما بولغ في وصف اهوالها الدموية كانت نسبة القتل والدمار فيها ما كانت في حربنا هذه .

٢ً في اليوم العشرين من شهر ايار (مايو) سنة ١٩١٩ قد نادى المجلس النيابي اللبناني المنتخب من الشعب مطيعاً ارادة الاهلين بالاجماع باستقلال لبنان وهو بواسطة موفديه المفوضين يتشرف اليوم بالتماس التصديق على ذلك . والوفد اللبناني يثق تمام الثقة ان الدول المتحالفة والدول المهالئة لها وهي التي اعلنت جهاراً حقوق الشعوب بتقرير مصيرها وجعلت من هذا المبدأ قاعدة مثلى لتنظيم الانسانية الجديدة تتعطف بتقديس هذا الحق الذي صدرت عنه الارادة القومية اللبنانية واهريق لاجله كل هذا الدم اللبناني .

٣ً ان الوفد اللبناني بصرف النظر عن تصريح حكومة الجمهورية الفرنسية في ٢٧ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٩١٧ يقول بكل احترام ان مبدأ هذا الاستقلال قد اعتُرف به رسمياً في البند ٢٢ من وثيقة جمعية الامم المقررة في عهدة الصلح المؤرخة في ٢٨ حزيران (يونيه) سنة ١٩١٩ . وهذا الاستقلال الذي تتعهد دول التحالف والدول المهالئة لها

بالاعتراف به قد صار امراً واقعياً منذ حصل التصديق على معاهدة فرسايل بحيث لم يبقَ من حاجة الى امضاء الصلح مع تركيا ليأخذ كل مفعوله الشرعي والتنفيذي .

ثانياً

﴿ بالنظر الى اصلاح شأن لبنان ﴾

ان لبنان اذا طُاب تكبيره فانما يُطالب في الحقيقة ارجاعه الى حدوده التي يثبتها التاريخ وخارطة مجلس اركان الحرب الفرنساوي التي وضعها بين سنتي ١٨٦٠ و١٨٦١

فاصلاح لبنان بحسب حدوده التاريخية التي هي — من الغرب البحر المتوسط : ومن الشمال نهر الكبير (وهو ايليوتيروس القديم) : ومن الشمال بشرق يمتد منه مكتنفاً سهل البقيعة وشاطىء بحيرة حمص الشرقي : ومن الشرق قمم الجبل الشرقي (انتيلبنان وقمم جبل الشيخ وهو جبل حرمون): ومن القبلة بشرق خط يمتد من اسانيد جبل حرمون الاخيرة ويكتنف بركة وبحيرة الحولة (سماخونيتس) : ومن القبلة خط يمتد من جبال شرقي هذه البحيرة تحيط بها حتى تتصل غرباً بالنتوء المعروف براس الناقورة — فاصلاحه بحسب هذه الحدود ينطبق على كيان جغرافي كان يقال له فيما مضى فينيقية : وفي الايام الاخيرة حتى سنة ١٨٤٠ كان قوام البلاد اللبنانية .

وانما هذا ما يتأتى عنه فعلاً اصلاح سلسلة مظالم واغتصابات اوقعتها تركيا بلبنان المسكين : وهو يسدُّ حاجة حقيقية لبلاد اذا حرم من سهول شماليه (بلاد عكار) ومن تلك التي في شرقيه (بلاد بعلبك والبقاع) لا يبقى الا سلسلة جبال قحلة لا تستطيع ان تضمن لسكانها الوجود . وقد اظهر ذلك الاختبار مدة الحرب بنوع قاطع ومؤلم معاً : فانه بينما الولايات المجاورة كانت تستطيع كل مدة الحرب ان تستغلَّ كميات وافرة من الحنطة تضمن في مكانها الحيوة برخاء مناسب لاهلها : كان لبنان (وقد حُصر ووكل قصداً لمحصولاته بحيث لم يكن قديراً على جلب الحنطة من البلاد المجاورة له) قد رأى بعينه (ويا للاسف) نحو ثلث بنيه يموتون جوعاً . وفي هذا لدليل قاطع على احتياج لبنان واضطراره الى الحصول على كل الاراضي التي كانت له فيما غبر للمحافظة على كيانه . فمن هذه الاراضي ما يدر عليه الحبوب الضرورية لحياته ومنها (كصور وصيدا وبيروت وطرابلس) ما يصلح ثغوراً بحرية طبيعية ضرورية جداً لاجل حياته الاقتصادية .

وفضلاً عن الاسباب التي تقتضي من قبيل العدالة والانسانية اصلاح حالة لبنان من جهة تخومه المذكورة آنفاً فان هناك اعتباراً آخر نتوقع من حضرة اصحاب السعادة مفوضي

الحلفاء والممالئين ان يتعطفوا فينظروا اليه بما يحق له من الاهتمام : وهو ان الاكثرية الكبرى من سكان الاراضي التي يطلب لبنان ارجاعها اليه قد صرحوا بطلب ضم هذه الاراضي الى لبنان واختاروا الجنسية اللبنانية التي كانت على الدوام امنية هذه الشعوب التي كلها تقريباً في الاصل لبنانية .

وهذه الامنية بعد ان صرح الحلفاء جهاراً بتقرير مبدأ حق الشعوب بان تختار خطة مصيرها قد غدا اليوم من السهل تحقيقها لهم : لا سيما ووثائق انتدابنا منهم المودعة في ديوان سكرتارية مؤتمر الصلح تبين بكل صراحة وقوة اماني هذه الشعوب .

وثالثاً

﴿ بالنظر الى العقوبات والتعويضات ﴾

ان الوفد اللبناني لا يجب ان يطمع كثيراً بحلم حضرة اصحاب السعادة مفوضي الحلفاء والدول الممالئة : ولذلك فهو يتجاوز عن وصف ما انزلته السلطة التركالمانية من عسكرية وملكية باللبنانيين المساكين من النفي والاعدام وضروب الفظائع . ويصمت ايضاً عن بيان الاحوال التي بها اوجبت هذه السلطة الغاشمة ودبرت امر ذاك التجويع المريع الذي اودى باكثر من الثلث من اهل لبنان : وهو خطة للابادة لم يسمع بمثلها قط في التاريخ وقد اثارت الرأي العام في ابان هاتيك

المجزرة الهائلة نفسها . والذي دعا الى هذه الطرق الوحشية من الضغط على اللبنانيين انما هو انحيازهم الى قضية الحلفاء واخلاصهم لفرنسا. وقد زاد التركالمان على هذه ضروب الانتقام القاسية التي انزلوها بالافراد والمجموع من اللبنانيين خططاً اخرى من الاضطهاد كالسلب وضرب الضرائب وقطع الاشجار بحيث لم يقتصروا على الغابات والاحراج بل تجاوزوها الى قطع بساتين التوت ايضاً وهي ثروة البلاد الوحيدة .

فمثل هذه الاعمال التي يشجبها شرع الامم ولا تسوغها اية ضرورة عسكرية كانت في وقت من الاوقات انما هو ما يبسطه الوفد اللبناني على موتمر الصلح وهو يطلب :

١ً — انزال العقوبات بمقترفي هذه الفظائع والمحرضين عليها سواء كانوا من الترك او من الالمان بحسب درجتهم في السلك الملكي او العسكري الذي ينتمون اليه .

٢ً — بذل التعويضات الواجبة لعائلات الذين قتلوا ونفوا ثم التعويضات التي من شأنها ان تصلح المختل وتعيد الاحراج والبساتين الى ما كانت عليه وتزيد في عدد السكان في لبنان الذي لما كان قد فقد بسبب عمل التجويع مما دبره العدو قسماً كبيراً من شعبه فالتعويضات اللازمة له انما هي من قبيل تحسين احواله الاقتصادية حتى يرغب المهاجرون منه في الرجوع

الى السكن فيه .

ورابعاً

بالنظر الى الانتداب

ان الظروف الحاليـة ثم الرغبة في تسهيل خطة موتمر الصلح الشاقة لمما يوجب على الوفد اللبناني ان يتحاشى جهده الدخول في مسئلة البحث فيما اذا كان البند ٢٢ من عهد جمعية الامم المقرر في معاهدة فرسايل يتناول لبنان المستقل منذ عهد بعيد وقد اثبت استقلاله مبدئياً ولو ضيقه شكلاً نظامه الاساسي الذي وُضع له في سنتي ١٨٦٠ و١٨٦١ .

ومهما يكن من امر هذه المسئلة السابقة اوانها التي يقصد الوفد اللبناني تأجيلها فاذ كان مبدا الانتداب بمقتضى ظاهر البند ٢٢ من العهد المشار اليه وباطنه يرمي الى معاضدة الشعوب التي ينفذ عليها والاسراع في ايصالها الى السيادة القومية — فلبنان الموضوع منذ ستين سنة تحت ادارة انتداب دولي وقد تثقف من زمن مديد بالحياة السياسية يستحق الآن ان يكون ولاية ذات سيادة . ومع هذا فلبنان مع حفظ حقوقه في هذه السيادة يخضع تمام الخضوع لتقرير موتمر الصلح بشأن الادارة بمقتضى الانتداب : وهو يخضع ايضاً بكل طيبة خاطر لاحتياجه في هـذه الازمة المزدوجة السياسية والاقتصادية

الشاملة العالم باسره الى عضد ومساعدة دولة كبرى غربية .

وهذه الدولة التي يجعل البند ٢٢ حق اختيارها في اول درجة منوطاً بارادة الشعوب صاحبة الشأن قد اختارها بهوس عظيم لبنان بقسميه القديم والمطلوب ضمه اليه :

الا وهي دولة فرنسا

وان هناك لاسباباً جمة من اوجه عديدة تسوغ هذا الاختيار الحر : وذلك

١ً — من قبيل العواطف والميول والتهذيب الراقي :

فان اللبنانيين لا يمكنهم ان ينسوا الحسنات التي خصتهم بها فرنسا مذ الدهر : وقد اصبحت معرفة الجميل التي يشعرون بها لقاء ذلك من تقاليدهم القومية : وهم يصرون على وجوب التصريح بها جهراً امام موتمر الصلح .

ثم ان علائق سياسية وتجارية عريقة في القدم : فضلاً عن اقامة كثيرين من الفرسان الفرنجة في لبنان حيث لا يزال الى اليوم اسمهم وذكرهم : وجاذبية تراثية شديدة متأتية عن اجدادهم الفينيقيين موسسي الثغور الفرنساوية الكبرى على البحر المتوسط : كل ذلك كان يدفع على الدوام باللبنانيين نحو فرنسا وهو مما ولد بين البلادين هذه العطواطف على ما يرى

احياناً في تواريخ الشعوب . وعلى هذا الوجه قد أعدت الارض تماماً لقبول حراثة التهذيب الفرنساوي بحيث لا يوجد قط بعد الخروج من الثغور الفرنساوية بلاد انتشر فيها التهذيب الفرنساوي الراقي على سعته نظير لبنان .

٢ً — اما الاسباب التي من قبيل العواطف مما المعنا اليه آنفاً فان اساسها مسند الى اعتبارات تاريخية : وانما هذه تتصل بالبعثات الفرنساوية الاولى الى الشرق : بعثات قد ثمنت فرنسا في خلالها سواء في سورية او في القطر المصري اخلاص اللبنانيين لها : ولم تفتر بعد ذلك من ان توليهم لقاء هذا الاخلاص والخدمات التي خدموها بها كل عطفها وحمايتها .

وهذه حماية اللبنانيين في لبنان وفي الخارج انما كانت في فرنسا منذ قرون ولم تزل الى اليوم خطة مثلى للحكومة لم يحد عنها أحد قط مع ما حصل هناك من اختلاف الادارات والمشارب بل انها انما كانت بالاحرى سنة قومية لم يطرأ عليها غيار .

ولهذا في النصف الاول من القرن التاسع عشر اذ كان لبنان في ازمة لم يكن اشد منها في تاريخه قد عرف الشعب الفرنساوي وحده من بين كل الشعوب بواسطة مجلس نوابه كيف يدافع عن قضية هذا الشعب الصغير البعيد والصديق ، وفي خلال هذه الحرب الاخيرة قد بذلت فرنسا جهدها في سبيل مساعدة

اللبنانيين التعساء الذين ناوئوا تحت ثقل الاضطهاد والحصر والتجويع . وهناك اخيراً عمل له في نظرهم اعظم اهمية : الا وهو ان التصريح الاول باستقلال لبنان قد حصل من على منبر مجلس النواب الفرنساوي في ٢٧ كانون الاول (دسمبر) من سنة ١٩١٧ .

٣ً ـ ويضاف الى هذه الاعتبارات التاريخية والتي من جهة العواطف اسباب من قبيل الفائدة والكرامة .

فاللبنانيون بطلبهم انتداب فرنسا مقتنعون كل الاقتناع ان فرنسا الحرة والكريمة فضلاً عن احترامها لاستقلالهم ستعرف كيف تعضده وتزيده رسوخاً وتدافع عنه . وهم مقتنعون ايضاً انها ستعرف كيف تحترم كرامتهم وحكومتهم وادارتهم التي يودون المحافظة جوهرياً على لبنانيتها . وانها ستأتي الى لبنان بصفة مشير نصوح وصديق : وانها في مدة هذا الانتداب الذي سيعدّ لبنان الى السيادة ستعمل على تزييد الحاسات القومية بتركها في ايدي اللبنانيين اعمال التنظيم والادارة والعدلية مما يتعلق ببلادهم . اما التمرين المطلوب لهذه الغاية فقد حصل : لانه حيثما مرّ اللبنانيون قد استطاعوا ان يبرهنوا على قيمة مقدرتهم : فمثل القطر المصري الذي اعاروه معاضدتهم ذات القيمة العالية من جهة عمل النهضة العقلية

والسياسية انما هو خير دليل مقنع على كفاءتهم من حيث الادارة ومن حيث التهذيب . واللبنانيون هم مقتنعون اخيراً ان فرنسا المنتدبة لهم وهي ابعد من ان تقدّم ستعمل كل جهدها في الصاق طوائف لبنان المختلفة بعضها ببعض حتى تزيد الوحدة القومية توثيقاً : وانها في نظام ديموقراطي حيث يكون للمجلس المنتخب كل صفات مجالس النواب في البلاد الغربية ستساعد على احترام حرية كل احد والمحافظة على حقوق الاقلية بالتمثيل النسبي : وانها ستزيد في مداخيل هذه البلاد التي كثيراً ما اهتمت بها من ذي قبل : وانها ستنشئ هناك معاهد ومدارس قومية : وانها اخيراً وهي حريصة على حفظ تقاليدها وتاريخها ستعرف بمعاضدة الشعب والحكومة اللبنانية معاضدة صادرة عن اخلاص نية وكريم اخلاق كيف تدافع وتزيد وتقوي من كل وجه وبكل شكل الشعور القومي فيهم الذي بصبره على كل ضغط وكل شدة قد خرج كبيراً من كل هذه التجارب الكبيرة .

رئيس الوفد اللبناني

✝ الياس بطرس الحويك

بطريرك انطاكية وسائر المشرق

الماروني

وكُتب في باريس في ٢٥ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٩

***

فحركت هذه المذكرة الافكار وجعلت للمسئلة اهمية كبرى في الدوائر العالية واثرت اجمل تأثير في الرأي العام . وقد اخذ اهل الشان يتقاطرون لمقابلة غبطة رئيس الوفد اللبناني والتحدث معه بهذا الموضوع و كلهم وعدوا بالاهتمام للامر جهد المستطاع وبالمساعدات الفعالة للفوز بهذه الامنية العظمى التي تترتب عليها حياة الوطن الحقيقية وسعادة مستقبله .

هذا ولا بد هنا من ايراد ما جاء في جريدة البشير الغراء (عدد ٢٥١٣ الصادر في ٢٧ كانون الاول سنة ١٩١٩) بهذا الشان وهو كما يلي بحروفه :

« اما ما لاقاه غبطة السيد البطريرك من الاكرام والاحتفاء في رومية العظمى وباريس فيضيق نطاق الجريدة عن وصفه ويكفينا ان نقول ان قداسة الحبر الاعظم اظهر كل اهتمام بمسئلة استقلال لبنان الكبير ووعد بكل مساعدة . واشار مستلمو زمام السياسة الفاتيكانية بالطرق التي تكفل نجاح المشروع وهكذا سفير فرنسة في رومية المسيو بارير فانه بذل من المساعي في سبيل لبنان ما يؤكد له شكر اللبنانيين المؤبد . ناهيك عما لاقطاب السياسة الافرنسية من الايادي البيضاء وعما ابدوه من الاهتمام : وعددهم كثير نخص بالذكر

منهم رئيس الجمهورية الافرنسية الذي ابدى من المجاملة ومن الاطلاع على احوال سورية ولبنان ما ادهش غبطته : ثم المسيو كليمنصو الذي تأثر كل التأثر مما بسطه له غبطته : ثم وزير الخارجية المسيو بيشون الذي اعرب لغبطته عن شكر الحكومة والامة الافرنسية لما اظهره اللبنانيون من الاخلاص لفرنسة : ثم المسيو ديشانل رئيس مجلس النواب والمسيو انطونين دينوست : ثم المسيو ريبو وبيو والمارشال فوش الذي اهتم خصيصاً بمسئلة لبنان وقد سحر الجميع بسذاجته المقرونة بذكاء متوقد وسرعة خاطر عجيبة : والمسيو موريس بارس . وجدير باطيب الثناء المسيو بول كامبون سفير فرنسة في لوندرة والمسيو جول كامبون احد ممثليها في مؤتمر الصلح . وقد توافد لزيارة غبطته في باريس كل من ممثلي فرنسة قبلاً في بلادنا ورئيس اساقفة باريس والكردينال ديبوى وعموم السوريين . وقد زار غبطته جميع ممثلي الحلفاء في باريس فقالوا له ان امر سورية يقرر بين فرنسة وانكلترة ونحن نصادق على اتفاقهما . اما سفير انكلترة فاظهر عطفاً خاصاً وقد اكد لغبطته ان الامر متعلق بفرنسة فاليها مرجع هذه الامور .

وقد قابل غبطته فخامة الجنرال غورو في باريس اكثر من مرة وباحثه فى امور لبنان .

وممّا نذكر لغبطته بالشكر الجزيل ثناءه على اعمال المرسلين امام قداسته وامام الحكومة الافرنسية فهي مأثرة نسطرها اقراراً لفضل صاحب الغبطة ايده الله وابقاه ملاذاً ومناراً .»

***

ومما يدل على النجاح الحقيقي بهذه المهمة النبيلة جواب نفيس جداً ارسله المسيو كليمنصو الشهير بصفة كونه رئيس وزارة الجمهورية الفرنساوية الشريفة الى غبطة رئيس الوفد اللبناني المشار اليه وفيه كل مـا من شأنه ان يغذي آمال اللبنانيين وينعش قلوبهم من جهة الفوز بامانيهم وهو كما يلي باصله الفرنساوي البديع وترجمته العربية المدققة :

رئاسة

مجلس الوزراء

« باريس في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٩ »

« يا صاحب الغبطة »

« ان المفاوضات التي منذ وصولكم الى باريس دارت بينكم وبين وزير الامور الخارجية وبينكم وبيني انا ايضاً قد وطدت ولا بد

PRESIDENCE
DU
CONSEIL

Paris le 10 Novembre 1919

Monseigneur,

Les entretiens que depuis votre arrivée à Paris, vous avez eus avec M. le Ministre des Affaires Étrangères et avec moi-même vous auront confirmé dans la conviction que le gouvernement de la

اليقين عندكم ان حكومة الجمهورية تستمر بلا غيار مستمسكة بتقاليد الحب المتبادل منذ قرون بين فرنسا ولبنان »

« وقد اكدت لكم ايضاً تلك المفاوضات ان طرق الحل التي نتبعها نحن في مؤتمر الصلح هي بوجه الاجمال، موافقة لأماني الشعوب التي انت ممثلها السامي، فان رغبة اللبنانيين في المحافظة على حكومة ذاتية ونظام وطني مستقل تتفق تمام الاتفاق مـع التقاليد الحرة التي لفرنسا »

« ولكن اللبنانيون على ثقة من انهم بمعاضدة فرنسا ومساعدتها سيحافظون على تقاليدهم ويوسعون نطاق نظاماتهم السياسية والادارية: ويعجلون بانفسهم في استثمار كل منافـع بلادهم: ويرون اخيراً اولادهم يستعدون في مدارسهم الخاصة للوظائف العمومية في لبنان: وذلك بالاستقلال عن كل جماعة

République demeurait invariablement attaché aux traditions de mutuel dévoûment établies depuis des siècles entre la France et le Liban.

Ces entretiens vous auront également donné la certitude que les solutions que nous poursuivons à la Conférance de la Paix sont, dans leur ensemble, comformes aux aspirations des populations dont vous êtes le Haut Représentant.

Le désir des Libanais de conserver un gouvernement autonome et un statut national indépendant s'accorde parfaitement avec les traditions libérales de la France.

Avec le soutien et l'aide de la France, indépendants de tout autre groupement national, les libanais sont assurés de conserver leurs traditions, développer leurs institutions politiques et administratives, de hâter eux-mêmes la mise en valeur complète de leur pays, de voir enfin leurs enfants se préparer dans leur propress

قومية ايةً كانت »

« اما الحدود التي سيُعمَل في ضمنها بهذا الاستقلال فلا يمكن تعيينها قبل ان يكون امر الانتداب لسورية قد عُهد به وتحدد »

« ولكن فرنسا التي بذلت كل وسعها سنة ١٨٦٠ لاجل تنويل لبنان ارضاً اوسع لا تنسى ان تضييق حدوده كما هي الآن انما هو نتيجة الضغط الذي ناء لبنان تحته »

« ولما كانت ترغب في رعاية العلائق الاقتصادية جهدها بين البلدان الموكولة بالانتداب الى عنايتها ستهتم ايضاً اهتماماً عظيماً عند تحديد لبنان بامر اعطاء هذا الجبل اراضي سهلية ومنفذاً الى البحر مما لا بد منه لاجل سعادته »

« وانا على ثقة عند أعطائكم هذه التأكيدات من اني اجاوب على العواطف التي حملت اهل لبنان على طلب انتداب فرنسا مرة اخرى

écoles aux fonctions publiques du Liban.

Les limites dans lesquelles s'exercera cette indépendance ne peuvent être arrêtées avant que le mandat sur la Syrie ait été attribué et défini.

Mais la France qui a tout fait en 1860 pour assurer au Liban un territoire plus étendu n'oublie pas que le resserrement des limites actuelles résulte de la longue oppression dont a souffert le Liban.

Désireuse de favoriser le plus possible les relations économiques entre tous les pays confiés à son mandat, elle tiendra également le plus grand compte, dans la délimitation du Liban, de la nécessité de réserver à la « Montagne » des territoires de plaine et l'accès à la mer indispensable à sa prospérité.

Je suis certain, en vous donnant ces assurances, de répondre aux sentiments qui ont déterminé les populations du Liban à demander une fois de plus le mandat de la France pour leur pays

لبلادهم . ولي الامل ان الحل النهائي الذي يعطيه المؤتمر للقضية السورية يفسح المجال للحكومة الفرنساوية بتحقيق اماني هذا الشعب الباسل باوسع ما يمكن »

« وفي الختام ارجو ان تتقبل يا صاحب الغبطة تأكيدات فائق اعتباري » « كليمنصو »

et je veux espérer que la solution définitive donnée par la Coférence à la question syrienne, permettra au Gouvernement Français d'accomplir dans la plus large mesure les vœux de ces vaillantes populations.

Veuillez agréer, Monseigneur, les assurances de ma haute considération.

CLÉMENCEAU

***

واذ تناول غبطة السيد البطريرك هذا الجواب النفيس ووقف على مضمونه بعينه النقادة سُرَّ به كثيراً جداً واسدى من صميم القلب الشكر الجزيل الى الاله المتعال الذي وفقه كل هذا التوفيق الباهر في هذه المهمة الكبرى : وسأله ان يتم نعمته عليه وعلى هذا الجبل المبارك الى حسن الختام وشكر ايضاً بكل قواه سيدة لبنان الطوباوية التي جعل نفسه في هذه السفرة الميمونة بنوع خاص تحت ظل حمايتها الوارف فكانت تمهد له سبل الفلاح حتى بلغ الى هذا الحد الذى لم يكن احد يؤمل بالبلوغ اليه .

ثم جمع الوفد المعتبر وكل الحضور ممن كان يهمهم امر لبنان وتلا على مسامعهم هذا الجواب الثمين الذي به فصل

الخطاب وهو بمنزلة وثيقة بيدهم على الحكومة الفرنساوية فهلل الجميع وكبروا وحمدوا الله تعالى على هـذه المنة وهنأوا غبطته بهـذا الفوز الباهر الذي اراح البال جداً من جهـة مستقبل لبنان السعيد تحت رعاية فرنسة المحبوبة التي دعوا لهـا بكل عواطفهم بدوام النصر والفلاح والعز والشوكة والاقتدار مدى الادهار .

واخذ من ثم غبطة السيد البطريرك يستعد للعود الاحمد الى الوطن العزيز واذ ذهب الى توديع المسيو بيشون وزير الامور الخارجية جرى له حديث معه بخصوص جواب رئيس الوزارة المشار اليه فاجاب المسيو بيشون انه تقرر وأُعدَّ بجلسة وزارية رسمية وتسجل هناك بحيث لم يبقَ من المسيو كليمنصو شخصياً كما قد يُظن . فجدد غبطته آي الشكر والدعاء وزاد سروره وثقته بما يحمل لمنتدبيه اللبنانيين الاعزاء ليكونوا على بينة من ذلك .

وبعد ان اتم مراسيم الوداع على احسن ما يرام ركب هو ومطارنته وكل بطانته الى رومية العظمى حيث تشرف بمقابلة قداسة الحبر الاعظم البابا بناديكتوس الخامس عشر فتلقاه ايده الله بكل بشر وحفاوة وابدى له سروره بما توفق له باذن الله من النجاح في مهمته ودعا للبنان العزيز بكل فلاح الى

النهاية . ولم يشأ اعزه الله وبلغه كل مناه ان يتأخر في رومية الا ريثما يتم بعض الاشغال الطائفية المهمة لانه لم يرَ ان يحرم اولاده اللبنانيين من هذه البشرى مدة طويلة وهم ينتظرونه بذاهب الصبر على مقالي النار . ومن ثم فرغم تخوفه من غدرات البحار في فصل الشتاء (لانه يتأثر عادة جداً من الدوار) قد عزم على مغادرة عاصمة الكثلكة في السادس عشر من شهر كانون الاول كما بشرت رسالة برقية من هناك على امل ان يصل الى بيروت بالسلامة في خلال مقدمات عيد الميلاد الشريف : فيتحف اللبنانيين ومريديهم بهاتيك الهدية النفيسة حتى يستقبلوا هذا العيد المجيد والعام الجديد بمجالي المسرات الفائقة والامال الشائقة ويرفعوا تراتيل الحمد والشكر للاله المتعال الذي رمقهم بعين عنايته الشفيقة ونوّلهم امانيهم الوطنية كلها على يد دولة فرنسا الكريمة : فيكون هذا العيد من ابهج الاعياد عندهم واكرمها في تاريخهم المدني ايضاً بسبب هذه البشرى العظيمة التي يترتب عليها سعادة مستقبلهم الى ما شاء الله .

وقد ركب البحر غبطته وكل الوفد والحاشية من ثغر « تارنت » احد ثغور ايطاليا القريبة (حيث كان قد نزل في ذهابه) على الدارعة جوريان دي غرافيار التي اعدتها له الحكومة

الفرنساوية خصيصاً كالاول : وجرت بهم على بركة الله الى هذه الوجهة في اليوم الثامن عشر من الشهر المذكور . ولم تمخر بهم الباخرة اكثر من يومين حتى ثارت عليهم عاصفة هائلة احدثت نوءاً عظيماً في البحر اوقعهم في خطر بل اخطار لم يكن لهم مناص منها لولا رحمة الله . فاضطرب الناس هنا اضطراباً شديداً واعتراهم اشد الخوف على حياة ابيهم المفدّى ومعيته الكريمة واخذوا يضرعون الى الله مستشفعين بسيدة لبنان المنعوتة بنجمة البحر لاجل ازالة العاصفة وتهدئة النوء الذي طال امره : وقد اكد العارفون انهم لم يشهدوا مثله منذ اربعين سنة : ثم لاجل نجاة غبطته وكل الذين معه وابلاغهم الى الميناء سالمين .

اخيراً قد اشرفت الدارعة على بيروت في ضهر البحر وجاء منها تلغراف باللاسلكية يبشر بسلامة الجميع باذن الله : فخف وجل الناس نوعاً وباتوا ينتظرون الفرج . وفي صباح يوم

العظيم دنت الدارعة من الشاطئ ولم تستطع ان تدخل

سبب النوء . فارسلت السلطة الفرنساوية في

غبطته وكل معيته من الدارعة الى

الحكومة المحتلة استقبالاً

آخذ منه كل مأخذ :

وبعد ان حيته الجنود وعزفت الموسيقى العسكرية ترحيباً به وتبارك اكثر الحضور بلثم يده الطاهرة وهتفت له الجماهير وصفقت الاكف فرحاً ركب الاوتوموبيل المعد له وعلى يساره المسيو رويردي كاه سكرتير القوميسارية العام وسار ووراءه رتل من الاوتوموبيلات والعربات الى الكاتدرائية المارونية حيث زار القربان الاقدس هنيهة لتأدية فرض الشكر . ثم واصل السير تواً الى مدرسة الحكمة التماساً للراحة مما قاسى من عناء هذه السفرة وقد تأجلت حفلة الاستقبال الرسمي اللائق به الى يومين ريثما يكون امتلك العافية .

وصباح يوم السبت في ٢٧ من الشهر نفسه نهض غبطته مرتاحاً تمام الراحة باذن الله من متاعب السفر واستعد للذهاب الى كاتدرائية القديس جرجس المارونية بحسب الخطة التي كانت رسمتها الحكومة الفرنساوية لاستقباله رسمياً . وعند نحو الساعة التاسعة برح به الموكب العظيم بكل ابهة بين هتاف الجموع المتألبة على ناحيتي الطريق حتى اذا بلغ الكنيسة صدحت الموسيقى العسكرية بنغم المرسلياز احتفاء به . وكان الاستقبال الكنسي الذي اعده تلامذة مدرسة الحكمة الاكليريكيون غاية في الترتيب . وبعد ان ارتدى الملابس الحبرية على درتاج الكنيسة دخلها بابهة كالظافر تتقدمه

راية الصليب المقدس وجوقة المرتلين بالحان موقعة توقيعاً حسناً بين الشموع والمباخر : ودخل وراءه السادة المطارنة والرؤساء الروحيون ومعهم المسيو روبر دي كاه وجمهور المستقبلين حتى غصت بهم الكنيسة على رحبها . وكان قد سبقهم نيافة القاصد الرسولي وجاء بعد الجميع حضرة صاحب الفخامة الجنرال غورو القائد العام لجيوش الاحتلال والمعتمد السامي في سورية . وبعد ان صلى غبطته جاثياً امام القربان الاقدس استوى على العرش الفخيم المعد له ريثما استتب النظام : ثم صعد الى المذبح الكبير ولفظ هناك خطاباً بليغاً افتتحه بالشكر الحميم للاله المتعال على ما انعم به من التوفيق والنجاح لمصلحة هذه البلاد بحسب الخطة التي تجشم في سبيلها هذه المتاعب : ثم من النجاة من اخطار البر والبحر حتى وصل اليهم سالماً غانماً ووجدهم جميعاً على احسن ما يرام من العافية والتوفيق . ثم اسدى الشكر لسيدة لبنان والدة الله البتول المعظمة على ما عملت من المساعدات له في هذه المهمة الكبرى وسألها بحرارة ان تتم توفيقاتها الى حسن الختام .

الى ان قال بعد ان استفاض باطراء فرنسا الام المحبوبة ما مؤداه : « ويجب ان يعرف كل الشعب ان فرنسا لا تريد ان تملك ارضاً بل ان تعمل خيراً للبلاد ولا يوجد في الدنيا

كلها دولة مثل فرنسا وهي لا تطلب منا لا مالاً ولا رجالاً وانما تطلب الشكر ومعرفة الجميل » .

وبعد ان هتف لفرنسا ولرئيس جمهوريتها وللمسيو كليمنصو رئيس وزارتها ورئيس مؤتمر الصلح وللجنرال غورو البطل الشهير استطرق الى شكر الحضور بكلام مؤثر واستمطر عليهم صيب البركات السماوية عربوناً لكل توفيق وفلاح .

وبعد الفراغ من هذه الحفلة الكنسية الفخيمة ذهب غبطته بالموكب نفسه الى دار الحكومة حيث استقبله الجنرال غورو المشار اليه بكل تعظيم واكرام . ومن هناك الى دار القصادة الرسولية لزيارة ممثل قداسة الحبر الاعظم . ثم الى الدار الفخيمة التي اعدتها الحكومة له لاستقبال وفود المهنئين : فرد له فيها الزيارة على الاثر سعادة الجنرال المشار اليه . واذ استتب به المقام رحب به سيادة الحبر الملسان المطران اغسطين البستاني رئيس اساقفة صيدا الماروني بخطاب نفيس كان له احسن وقع في قلوب السامعين من علية القوم . ثم تقاطر وفود المهنئين زرافات والبشر ينير وجوههم : وكان غبطته يتلقاهم بحنان ابوي ويبادلهم اطيب الكلام الى ان ازف وقت الغذاء فركب بموكبه الى دار سعادة الجنرال غورو حيث تناول الطعام هو وبطانته الكريمة مع بعض الاعيان

على مائدة انيقة باحسن ذوق افرنجي .

ولما كانت الطوائف المسيحية في بيروت على اختلاف نزعاتها في جملة من فوضوا غبطته بالسعي في تحقيق المطالب اللبنانية وبضم بيروت الى لبنان الكبير فقد اشترك هؤلاء بكل هذه المظاهرات الوطنية اشتراكاً فعلياً بقطع النظر عن صفة البطريرك الخصوصية :وهو اعزه الله جاوب على هذه العواطف الكريمة احسن مجاوبة انطقت الجميع بشكره والثناء عليه .

ومن ثم فبعد الغذاء عند الجنرال المشار اليه ذهب توّاً الى دار حضرة السري الامجد نخله بك تويني من اعيان طائفة الروم في بيروت حيث زار لجنة الطوائف المسيحية البيروتية وتقبل عواطف شكرها وتهانئها . ثم جاء من هناك الى دار مطرانية الروم في بيروت حيث تناول الشاي عند المساء بدعوة سيادة المطران جراسيموس مسره واعيان هذه الطائفة الكريمة : وكانت الحفاوة بغبطته قلبية وعظيمة جداً وحفلة الشاي من ابهج الحفلات واوفرها كرماً وترتيباً : وقد خطب سيادة الداعي في اثنائها خطبة ترحيبية وجاوبه غبطته جواباً شاملاً نفيساً ، وهكذا قد انقضى ذاك النهار بكل مسرة وابتهاج وكان عيداً وطنياً فريداً في بابه يُذكر مدى الدهر .

وعاد غبطته الى مقره في مدرسة الحكمة التي برزت في-

جنح الليل بحلة جميلة من النور وكانت الاسهم النارية تشق كبد السماء كانها تباري نجوم الافق فتنفرط انجماً ونيازك بالوان بديعة ودوي كطلق البنادق مدة اكثر من ساعة فتكلل ذاك اليوم بحسن الختام .

وبالجملة كان وجود غبطته في بيروت فترة تاريخية من كل وجه : لانه لم يسبق قط في غابر التاريخ لبطريرك ماروني ان نزل الى بيروت وبات فيها منذ عهد الصليبيين على الاقل . وقد عاد الآن ذاك العهد باذن الله مع الفرق بان فرنسا محررة الشعوب انما هي آتية هذه المرة لا لمحاربة المسلمين واستخلاص سورية منهم ونصر النصرانية عليهم بل للاصلاح العام المجرد عن كل غرض خصوصي وللتهذيب الراقي على طريقة اهل اوروبا المتمدنة ولتعليم الجميع حكم المساواة والحرية الشخصية والاخاء في الانسانية والوطنية بقطع النظر عن الاديان والمذاهب حتى تصيغ من هذا الوطن العزيز امة راقية في مستوى ارقى الامم ببلاد المغرب . وفقها الله الى كل خير بمنه وكرمه .

ثم ان حضرة صاحب السعادة الجنرال غورو الشهم النبيل قد اقترح على غبطة السيد البطريرك ان يؤجل صعوده الى لبنان مدة من الزمان ريثما تقدر الحكومة اللبنانية ان تستعد

لاستقباله على ما يليق بمقامه السامي كبطريرك الطائفة المارونية وكمندوب الشعب اللبناني كله للسعي بتحقيق امانيــه في موتمر الصلح الاعلى . وقد اعجب غبطته هذا الاقتراح واتفقا جميعاً على الصعود معاً الى قصبة بعبدا مركز الحكومة اللبنانية حالاً في اليوم الخامس من السنة الجديدة . فاوعز الجنرال الى حاكم الجبل بان يعد كل مـا يلزم لذلك اليوم ويكتب الى كل النواحي بارسال الوفود في الوقت المعين الى بعبدا ليشتركوا في حفلة الاحتفاء بغبطة معتمدهم السامي ويسمعوا من فمه حكاية ما تم له من التوفيق والنجاح باذن الله ومعاضدة سيدة لبنان الطوباوية لدى دولة فرنسا الكريمة والمحبوبة .

وفي الميعاد المضروب ركب غبطته وكل بطانته نحو الساعة الثانية بعد الظهر من مدرسة الحكمة الى بعبدا . وما كاد يتجاوز حدود بيروت حتى اقبل جمهور اللاقين بالزهور والرياحين على جانبي الطريق وهم يهتفون لغبطته ولموكبه الى ان وصل الجميع الى فسحة دار الحكومة : فعزفت الموسيق العسكرية بالمرسلياز ترحيباً به واخذت سلامه ثلة من الجنود اللبنانية واستقبله حاكم الجبل الفرنساوي ومعه حضرة صاحب السعادة حبيب باشا السعد رئيس مجلس ادارتــه وكل اعضاء هذا المجلس وسائر مأموري الحكومة اللبنانية بكل حفاوة

واحترام ومشوا به الى الدكة المنصوبة لذوي الشأن واجلسوه على كرسي فخم خصيص به وجلس كل في مكانه . وما استتب بهم المقام حتى اقبـل ايضاً حضرة صاحب الفخامة الجنرال غورو على الاثر وبعد ان أجري له مـا يليق من الاستقبال صعد الى الدكة عينها فلاقاه غبطته باحتفاء وقدم الحضور اشارات الاحترام الواجب . ثم جلس بجانب غبطته على كرسي معد له وجلس الجميع كل في مكانه على الجانبين . كل ذلك والموسيقى العسكرية تشنف الآذان بالحانها المفرحة .

ولما استقرّ المكان بالحضور جاء دور الخطابة فكان في جملة الخطباء حضرة الشيخ بشاره الخوري المحامي البـارع باللغة الافرنسية وحضرة شبلي بك ملاط باللغة العربية وكلاهما اجاد في الموضوع حسب مقتضى الحـال . ثم نهض غبطته وبعد ان شكر الجمهور على هاتيك المظاهرات المخلصة والعواطف البنوية التي كانت ترسم نور البشر على وجوههم اخذ بوصف ما لاقى من الكرامة لدى الحكومة الفرنساوية في باريس واقبال اكابر رجالها عليه والمساعدات التي حصلت من قبلهم على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم حتى افلح في المهمة الكبرى التي تجشم كل هذه الاسفار والمتاعب لاجلها: الا وهي استقلال لبنان التام وتوسيع حدوده ومساعدة فرنسا الفعلية

له حتى يبلغ بعنايتها ومعاضدتها الى مستوى الامم الراقية التي قد سار فيما مضى رغم قلة الوسائط شوطاً كبيراً في سبيلها . وبعد ان اطرى فرنسا ورجالها الكرام ودعا لها بالعز والنصر على الدوام تطرق الى شكر حضرة الجنرال غورو البطل العظيم واطال الثناء عليه الى ان قال : ومن اقوى البراهين على ان دولة فرنسا تحب ان تهتم بسورية ولبنان جهد الاهتمام ارسالها هذا الشهم الهمام الى هذه الناحية حتى يسهر على تدبير شؤونها في هذا دور الانتقال الصعب الذي يقتضي من الحكمة والحزم والعدالة وبعد النظر ما هو متصف به هذا الرجل العظيم الذي طبق ذكره الخافقين . ثم دعا له دعاء حميا سائلاً المولى القدير ان يأخذ بيده ليتم نياته الصالحة في هذه البلاد المسكينة . وختم بتأدية النصائح اللازمة للجميع واستمطار غيث البركات السماوية عليهم اجمعين .

ثم ارفضت الجموع وصعد غبطته والجنرال والاساقفة وعلية القوم الى بهو فسيح في دار الحكومة حيث أعدت مائدة انيقة لاخذ الشاي : فتناولوه مع ما طاب منها . وبعد نهاية هذه الحفلة رجع غبطته وبطانته والجنرال ومعيته الى بيروت بكل سلامة وسرور . وفي اليوم التالي الواقع فيه عيد الدنح او الغطاس وفيه تذكار تبوء غبطته المقام البطريركي السامي

منذ سنة ١٨٩٩ قد اقام غبطة المشار اليه قداساً حبرياً حافلاً في كنيسة القديس جرجس الكاتدرائية شهده نيافة القاصد الرسولي الفائق الاحترام وفخامة الجنرال غورو والسادة المطارنة وعلية الاكليروس : وقد غصت الكنيسة على سعتها بالحضور بكل خشوع واخبات . وبعد نهاية القداس الالهي صعد الحضور من ذوي الشان الى الصاعة التي بجانب الكنيسة ثم صعد غبطته بين الهتاف والتصفيق الى تلك الصاعة حيث قدمت له الطف عبارات التهاني واخلصها من الجميع . وكان ذلك اليوم ايضاً يوماً مشهوداً لا تستوعب وصفه هذه العجالة .

وفي اليوم التالي غادر بيروت عند الصباح عائداً باليمن والاقبال الى كرسيه في بكركي وبطانته جميعها في صحبته . وكان اهل القرى التي مرَّ بها تتأهب في طريقه للاحتفاء بقدومه سالماً غانماً والتبرك بطلعته المحبوبة وهو يقابلها ببشاشته الابوية حتى وصل الى ثغر جونيه : وكان الناس متألبين فيها من كل صوب للاحتفاء باستقباله والبلدة مزينة احسن زينة بالرايات والرياحين . فعرج على دار الحكومة حيث كانت قد تمت مراسيم الوداع يوم سفره الميمون وهناك تقدمت له خطب الترحيب فبادل الجميع بعواطفه الابوية . ثم صعد الى بكركي حيث استراح من عناء هذا السفر الطويل وهناك دخل

الكنيسة ورفع آي الشكر لله تعالى ولوالدته العذراء الطوباوية من صميم القلب على حسن الختام .

واستتب به المقام ايده الله على الدوام وامد بايامه السعيدة الى سنين مديدة مقرونة باسباب التوفيق والعافية لمجده تعالى وخير للطائفة بمنه وكرمه :

آمين آمين لا ارضى بواحدة : حتى يقول جميع الناس آمينا



فهرس الكتاب

صفحة



اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦	٨	في الطبيعة	من الطبيعة
٢٧	٣	مما يجب	ومما يجب
٢٨	٩	شتعهم	شعثهم
٤٤	١٨	لاصحاب	وانتصر لاصحاب
٤٧	٨	الرهبان	رهبان
٥٠	٢١	بالغة	باللغة
٥٤	١١	وتيقيبة	وتنقيبه
٥٥	١٢	ذكر رجل	ذكر لرجل
٥٥	١٤	فما	مما
٥٦	١٤	بطريركهم	وبطريركهم
٥٨	٣	في	وفي
٥٨	١٨	محفوظان	مخطوطتان
٥٩	٢٢	معرفته	معرفة
٦١	١٠	سيزر	شيزر
٦١	١٨	طفج	طغج
٦١	٢٢	طفج	طغج
٦٢	١٧	وان يكن	وان يكون
٦٣	١٩	٣٧٧	٣٢٧
٧٠	١٧	ايفاميه	ايفانيه
٩٢	١٠	الموقعة المنصورة	موقعة المنصورة
١١٧	١٦	على ما نرى من	على ما رواه من
١١٨	١٦	اهل الجبال	اهل هذه الجبال
١١٩	٢٢	يرجح على	يرجح صحة
١٥٣	١٩	بصدد	بصدده
١٦١	٢	ولا قتل العصاة	ولا قتل الّا العصاة
١٦٦	١٤	بعد المقدم	بعده المقدم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢١٠	١٤	النصرانية	للنصرانية
٢٢٧	١٨	ثلاثة على التوالي	اربعة على التوالي
٢٢٧	١٨	والرابع	والخامس
٢٣٩	١١	الشيخ عبدالاحد مدبراً له	الشيخ جرجس مدبراً له
٢٦٣	٨	توغلوا	توقلوا
٢٦٦	١٢	لهم يكلوا	لهم حتى يكلوا
٢٧٠	١٢	بعد فتح رودس	بعد ان فتح الاتراك رودس
٢٧٠	١٣	مع هوءلاء الفرسان	اذ نزحوا اليها مع هوءلاء الفرسان
٢٧٥	٦	وتودءة	وتوءدة
٢٩٩	١٨	بشراي اي من	بشراي من
٣٢٠	١٩	لياقة	لباقة
٣٣٦	٤	ثاثباً	ثابتاً
٣٨٢	١٤	راس كبيروت	راس بيروت
٤٠٦	١	واولاده الامير يوسف	واولاد الامير يوسف
٤٠٦	٧	المسألة	المسالمه
٤٠٨	٩	بكم	بكل
٤٦٣	٦	ولا استقرار له	ولا استقراره
٤٧٢	١	سرادقة	سرادقه
٤٧٨	١١	فعمه	فعاسه
٤٩٦	٣	شمالية	شماليه
٤٩٨	١٨	قبل	قبيل

الى غير ذلك من الاغلاط المطبعية التي يمكن القارىء ان يدرك صواجا باقل تبصر